الشّعراء الصّعاليك

فى العصر الجاهلى

الدكتور يوسف خليف

الناشر

مكتبة غريب

١، ٣ شارع كامل صدقى (الفجالة)

تليفون ٩٠٢١٠٧

الشّعراء الصّعاليك
فى العصر الجاهلى



إلى ذكرى والديَّ ، رحمهما الله ،
اللذين تعهَّداني بالتنشئة والتوجيه
حتى وصلت إلى ما كنت أصبو إليه ،
أتقدم بهذه الثمرة الأولى من غرسهما .



بســم الله الرحمــن الرحيــم

المقــدِّمة

ارتبط الشعر الجاهلى فى نشأته وتطوره بمجتمع القبيلة الذى قامت حياته على أساس « عَقْد اجتماعى » عُرف فى تاريخ المجتمع العربى القديم بالعَصَبية ، ينظّم العلاقات بين أفراده فى ظل « دستور عُرْفى » يقوم على التضامن التام بين الفرد والجماعة فى الحقوق والواجبات انطلاقا من إيمان القبيلة بوَحْـدة الدم التى تجمـع بين أبنائها جميعا . ولم يكن الشعراء إلا أفرادا من هذا المجتمع القَبَلى الذى يؤمن بهذا العَقْد ، عليهم أن يلتزموا به ، وأن يمارسوا حياتهم وَفْقا لتقاليده وأعرافه . ولكن عليهم – فوق ذلك – أن يَقِفـوا عليـه فَنَّهم ، وأن يكونوا دائما « مجنَّدين تحت السلاح » فى خدمته ، يؤدون « ضريبة الدفاع » عن قبائلهم وقوفا إلى جانبها إشادةً بها ، ودفاعا عنها ، وذَوْداً عن حِماها ، وحَطًّا من شأن أعدائها . وقام – نتيجة لذلك – « عَقْد فنى » بين الشاعر وقبيلته يفرض عليه أن يكون « المتحدث الرسمى » باسمها ، وأن يجعل من لسانه لساناً لها يسجِّل الخطوط العامة لسياستها ، ويعلن على الملأ أهدافها وغاياتها . وفى مقابل ذلك تمنحه القبيلة لقب « شاعرها » . وكانت النتيجة الفنية لذلك أن أظهرت تلك الطوائف من الشعراء الذين أُطْلِق عليهم « شعراء القبائل » والذين كانوا يُشَكِّلون الغالبية المطلقة من شعراء العصر الجاهلى . وقد طبع هؤلاء الشعراء شعر هذا العصر بطابَعٍ قَبَلى مَيَّزه من الشعر العربى بعد ذلك فى سائر عصوره ومختلف بيئاته ، اختفت منه النزعة الذاتية لتحل محلها النزعة الجماعية ، وذابت فيه الشخصية الفردية لتظهر بدلا منها الشخصية القبلية .

ولكن هذا الصوت القَبَلى – على ارتفاعه ودَوِيِّه وضجيجه الذى ملأ أسماع العصر الجاهلى – لم يكن الصوت الوحيد الذى تردد فى الساحة الفنية ، وإنما كان هناك « صوت ذاتى » يتردد من حين إلى حين فى زحمة الالتزامات القَبَلية ، يَعْزِفه بعضُ الشعراء على قياثرهم الخاصة ، يعبّرون به عن جوانب حياتهم الخاصة ، ويتغنَّون فيه بمشاعرهم الذاتية . ويسجّلون فيه آراءهم الشخصية ، بعيدا عن دنيا القبيلة ، انطلاقا من إحساسهم بشخصيتهم وإيمانهم بفرديتهم . وربما لم يظهر هذا الصوت الذاتى فى الشعر الجاهلى فى أقوى صُوَره مثلما ظهر عند طائفتين من شعرائه: الشعراء المتيَّمين الذين عاشوا للحب ووهبوا فنهم له ، والشعراء الصعاليك الذين ارتفع عندهم هذا الصوت إلى أعلى درجاته وأشدِّها قوةً وإعلانا عن نفسه .

● ● ● ● ●

والصعاليك أخلاط شتى من فقراء القبائل الأشداء المتمردين ، ومن عبيدها السود وهُجَنائها وأغربتها ، ومن خلعائها وشُذَّاذها ، جمع بينهم الإحســاسُ بالفقر الذى جرّدهم من مقوِّمات الحياة ، وجرفهم بعيدا إلى هامش المجتمع الذى ظلمهم ، والتمرد على النظام القَبَلى بما ينطوى عليه من عنصرية متعالية متعصبة للجنس الأبيض تعصباً أهدرت معه كلَّ حقوق الإنسان ، والكفرُ بأوضاع مجتمعهم الذى اختلت موازينه الاقتصادية ، والإيمانُ بالحرية الفردية التى ألغاها العَقْد الاجتماعى بما يفرضه من قيود تحد منها ، وسدود تقف فى طريقها .

وفوق رمال البادية الحُرَّة الأبيَّة التى لا ترد لاجئا إليها ، وفى أعماقها الغامضة الرهيبة حيث الوحش والجن والغيلان ، عاشت هذه الجماعات المتمردة من الفقراء والخارجين على القانون والفهود السود ، وانطلقوا فى شعابها العاتية ، وفوق مرتفعاتها الوعرة ، وعلى امتداد طرق القوافل فيها ، كما تنطلق الذئاب الجائعة الضارية ، ينشرون جوا من الفزع بين القبائل ،

ويثيرون الرعب فى قلوب مترفيها ، فى محاولة ثورية عنيفة لتحقيق لون من العدالة الاجتماعية ، وصورة من التوازن الاقتصادى ، غير مبالين فى سبيل ذلك بوسائل تحقيقها ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة . وهى محاولة تحولت عند طائفة منهم إلى حركة فوضوية تتحكم فيها نزعة رافضة للمجتمع ، وتوجِّهها شهوةً عارمة للثأر والانتقام ، كما تحولت عند طائفة أخرى إلى نزعة إنسانية نبيلة .

من هؤلاء الصعاليك نبغ جماعة من الشعراء تحللوا من « العقد الفنى » الذى كان شعراء القبائل ملتزمين به ، فاختفى من شعرهم الإحساس بالشخصية القبلية ، وأصبح تعبيرا عن شخصياتهم الفردية المبالغة فى فرديتها ، المتطرفة فى الإحساس بها ، وتصويرا لحياتهم الثورية المتمردة بكل ما تنطوى عليه من خير وشر ، وما يدور فيها من صراع رهيب بين الطبقات ، وكفاح مرير فى سبيل الحياة ، وما يتردد فيها من دعوة للتخلص من العنصرية والطبقية ، وإعادة للتوازن والعدالة والحرية والإنسانية ، فجاء شعرهم صورة جديدة ولونا متميزا بين الشعر الجاهلى فى أفكاره ومعانيه وطرائقه فى التعبير والتصوير .

● ● ● ● ●

هذا هو الموضوع الذى أقدمتُ على دراسته منذ أكثر من ثلاثين عاما ، عندما كنت أستقبل شبابا مفتونا بالعصر الجاهلى فتنةً طاغية ، مُفْعَما بطموح بعيد فى أن تتحول هذه الفتنة إلى إيجابية فعَّالة تحطِّم من صخرة هذا العصر العاتية . وقد تراءى لى هذا الموضوع فى ذلك التاريخ البعيد كأنه مَرْقَبة من تلك المَراقب الوعرة التى كان الصعاليك يتربصون فوقها ، والتى افتخروا فى شعرهم بأن أحدا غيرهم لا يستطيع أو حتى يَجْرُؤ على الصعود إليها ، يحوِّم حوله الباحثون ثم يقفون دونه ويتجنبون المغامرة باقتحامه ، ويفكرون فيه ثم يتراجعون عنه دون محاولة للاقتراب منه أو الصعود إليه ،

وكأنه منطقة من تلك المناطق الخطرة التى كان الصعاليك يمارسون فيها نشاطهم الدامى الرهيب فتصبح محرَّمة على من سواهم ، « يخشىَ غِيلَها المتعسِّفُ » ـ كما يقول شاعرهم الشَّنْفَرَى ، وكأنما كُتب على هؤلاء الضائعين فى مجتمعهم أن يظلوا ضائعين طَوَالَ تلك القرون المتعاقبة بعدهم ، وكأنما قُدِّر لهؤلاء المشرَّدين فى آفاق الصحراء أن يظلوا مشرَّدين فى أعماق التاريخ تطويهم صحائفه أكثر من خمسة عشر قرونا من الزمان ، هى عمر الشعر العربى حتى اليوم . إنها « دنيا الصعاليك » التى شاء قَدَرهم أن يعيشوا فيها ، وأن تطويهم رمالها العاتية ، شاء قدرهم أن تظل تطويهم هذه القرون المتطاولة حتى حجبتهم عن دنيا البشر ، ولم يفكر أحد من الباحثين أن يحاول كشف هذه الرمال عنهم ليعيدهم إلى النور والحياة .

كانت هذه الدراسة حين أخرجتُها للناس فى ذلك التاريخ البعيد دراسةً رائدة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ . لا أقول ذلك ادّعاءً أو تفاخرا ، وإنما تسجيلا لحقيقة لا أريد لها أن تضيع فى زحمة الضاربين فى الشِّعاب التى ذَلَّلها لهم الروَّاد الأوائل ، المتزاحمين على موارد الماء التى كَشَف عنها هؤلاء الرواد ، وحفروها فى أعماق الصخر العاتى حتى تفجَّرت عيوناً عذبة دفاقة .

فى ذلك التاريخ البعيد لم تكن هناك دراسة متخصصة شاملة شُغِلت بهذا الموضوع ، وإنما أحاديث متفرقة تتردد فى دراسات الباحثين فى الشعر الجاهلى ، أو بعض مقالات تترجم لبعض شعرائهم ، أو بعض بحوث سريعة ترسم الخطوط العامة للموضوع ، حتى إن « دائرة المعارف الإسلامية » ـ على ضخامتها وكثرة موادها وتعدد القائمين بها ـ لم تعرض لهذا الموضوع إلا ما كان من ترجمتها لثلاثة من شعرائه ، هم عروة والشنفرى وتأبط شرا .

ومع ذلك ، ومهما يكن من شأن هذه الدراسة ، فإنى حريص على أن أسجل أن كل ما وصلت إليه فيها من نتائج لا يمكن أن يكون الكلمة

الأخيرة ، فالكلمة الأخيرة فى العلم مستحيلة ، ولا يمكن أن أدعى أننى وصلت بها إلى درجة الكمال ، فالكمال لله وحده وإنما كل ما أستطيع قوله هو أن هذه النتائج ليست إلا نتائج لما وصل إلىّ - أو وصلتُ إليه - من مادةٍ قد تكون وراءها مادة أخرى لم تصل إلىّ أو لم أصل إليها ، ومن الممكن أن تغيّر قليلا أو كثيرا من هذه النتائج . ولكنى حريص أيضا على أن أسجل أنه على امتداد السنين الطويلة التى مضت على هذه الدراسة ، والتى لم تنقطع فيها صلتى بموضوعها ، لم أجد ما يحملنى على تغيير ما انتهيت إليه فيها من نتائج ، بل لقد زادتنى هذه السنون إيمانا بها واقتناعا ، حتى المصادر الجديدة التى أتيح لى الاطّلاع عليها ولم تكن قد أتيحت من قبل ، لم تكد تقدّم لى جديدا يغيّر منها . وقد كنت تمنيت - وأنا أعِدُّ هذا البحث - لو أتيحت لى فرصة الاطلاع على ديوان تأبط شرا الذى جمعه ابن جنى ، والذى يذكر بروكلمان أنه مخطوط فى الإسكوريال . ثم أتيحت لى منذ سنوات فرصة الاطلاع على هذا المخطوط ، فلم أجده ديوانا لتأبط شرا ولا شِبْهَ ديوان ، وإنما هو مختارات قليلة اختارها ابن جنى من ديوان تأبط شرا الذى كان موجودا عنده كما يذكر صاحب « خزانة الأدب » ، وهى مختارات لم أجد فيها جديدا أضيفه إلى البحث .

● ● ● ● ●

وبعد ، فكل ما أطمع فيه أن أكون قد نجحت فى إنصاف هؤلاء الصعاليك ، ووضعهم فى مكانهم الصحيح فى تاريخ أدبنا العربىّ ، وأن أكون قد لَفَتُّ أنظار الباحثين إلى أن فى تراثنا القديم جوانب تحتاج إلى إعادة النظر فيها فى أضواء جديدة تكشف الظلال ، وتبدد الظلام ، وتعيد للصور الغامضة المهتزة وضوحها وثباتها .

ومع ذلك فلا أملك فى النهاية إلا أن أقول إنها كانت مغامرة أقدمتُ عليها كتلك المغامرات التى كان يُقْدم عليها « فتيان الصعاليك » ، ولكنى أُنشِد مع الشنفرى « ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مرةً ويُشَمَّتِ » ، فإن تكن الأولى فما توفيقى إلا بالله ، وإلّا فحسبى إعذاراً لنفسى أنها كانت مغامرة رائدة تجعلنى أنشد مع أبى الصعاليك عروة بن الورد « ومُبْلِغُ نفسٍ عُذرَها مِثْلُ مُنْجِحِ » .

والله يهدينا سواء السبيل .

يوسف خليف

البابُ الأوَّل

الصعاليك

الفصل الأول

التعريف بالصعلكة

١

فى اللغة :

فى لسان العرب [١] : « الصُّعلوك : الفقير الذى لا مال له ، زاد الأزهرى ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجلُ إذا كان كذلك . قال حاتم الطائى :

غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقاناه بكأسيهما الدهرُ

أى عشنا زماناً .

وتَصَعْلكت الإبلُ : خرجت أوبارها ، وانجردت ، وطرحتها .

ورجل مصعلك الرأس : مدوره .

ورجل مصعلك الرأس : صغيره ، وأنشد :

يخيِّل فى المرعى لهن بشخصه مُصَعلكُ أعلى قُلَّةِ الرأس نِقْنقُ

وقال شمر : المصعلك من الأسنمة : الذى كأنما حَدْرَجْتَ أعلاه حدرجة ، كأنما صعلكت أسفله بيدك ، ثم مطَلته صُعُداً أى رفعته على تلك الدملكة ، وتلك الاستدارة [٢] .

وقال الأصمعى فى قول أبى دؤاد يصف خيلا :

قد تَصَعْلكن فى الربيع وقدقَرَّعَ جِلْدَ الفرائضِ الأَقدامُ

قال : تصعلكن : دققن ، وطار عفاؤها عنها ، والفريضة : موضع قدم الفارس .

وقال شمر : تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن ، وصعلكها البقل .

---

(١) مادة (صعلك) .

(٢) حدرج : فتل وأحكم . والدملكة : الاستدارة والملاسة والفتل .

وصعلك الثريدة : جعل لها رأساً ، وقيل : رفع رأسها .

والتصعلك : الفقر .

وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يغنم » .

من هذا النص اللغوى الذى سجله ابن منظور فى لسان العرب ، والذى سجل مثله غيره من علماء اللغة فى معاجمهم ، نستطيع أن نتبين أصلا عامًّا للمادة تشترك فيه معانيها المختلفة ، وتدور حوله ، وهو — عندى — الضمور والانجراد[1] . ونستطيع فى سهولة ويسر أن نرد كل معانى المادة إلى هذا الأصل العام :

فالإبل تتصعلك إذا انجردت أوبارها وطرحتها .

والخيل تتصعلك إذا دقت وطار عفاؤها عنها .

والبقل يصعلك الإبل أى يسمنها ، وهذا السِّمَن يجعلها تطرح أوبارها وتتجرد منها .

والمصعلك من الأسنمة الذى يبدو كأنما فتلت أعلاه وأضمرته .

وهو يصعلك الثريدة أى يجعل لها رأساً ، أو يرفع رأسها ، كأنما أضمر أعلاها .

وهو مُصَعْلَك الرأس أى صغيره وضامره .

وهو يتصعلك أى يفتقر كأنما تجرد من ماله ، وبدا ضامراً بين الناس .

فالصعلكة إذن — فى مفهومها اللغوى — الفقر الذى يجرد الإنسان من

---

(١) نحن فى هذا نخالف ابن دريد فيما يذهب إليه من أن « أصل الصعلكة الفقر » (انظر جمهرة اللغة : باب ما جاء على « فعلول » ٣/٣٨٣ — وانظر أيضاً الاشتقاق / ١٧٠) ، ونرى أن الفقر ليس أصلا للمادة ، ولكنه الطور المعنوى فى معناها الذى يأتى بعد الطور الحسى . ويؤيدنا فيما نذهب إليه ما يراه ابن فارس من أن « الصاد والعين واللام أصيل يدل على صغر وانجراد » (انظر مقاييس اللغة ٣/٢٨٦) ، وهذه الحروف الثلاثة هى أصل مادة « صعلك » ، وبين المادتين تشابه فى معانيهما ، فالصعل : الصغير الرأس من الرجال والنعام ، وحمار صعل أى ذاهب الوبر .

ماله ، ويظهره ضامراً هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم .

ولكن يبدو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوى للكلمة تعبيراً دقيقاً كاملا ، ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التى أضافها الأزهرى إلى هذا المعنى اللغوى ، وهى قوله « ولا اعتماد » ، لنرى ماذا يستفيد المعنى منها ؟ وإلى أى مدى تحدد هذا المعنى وتكمله ؟ والمعنى اللغوى لهذه العبارة واضح ، فاعتمد على الشيء : توكأ أو اتكأ عليه ، واعتمد عليه فى كذا : اتكل عليه [١] . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك فى اللغة هو الفقير الذى لا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها ، ويعينه عليها ، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة ، ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة . أو هو — بعبارة أخرى — الفقير الذى يواجه الحياة وحيداً ، وقد جردته من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه فى مواجهة مشكلاتها . فالمسألة إذن ليست فقراً فحسب ، ولكنها فقر يغلّق أبواب الحياة فى وجه صاحبه ، ويسد مسالكها أمامه .

هذا هو التعريف اللغوى للكلمة كما نراه فى ضوء هذه المحاولة اللغوية لفهم المادة . ونريد — بعد هذا — أن نتتبع هذه المادة فى الاستعمال الأدبى القديم فى العصر الذى ندرسه لنرى كيف دارت فيه ؟ وإلى أى مدى يطابق هذا الاستعمال معناها اللغوى كما سجله علماء اللغة أو يختلف عنه ؟

---

(١) لسان العرب : مادة (عمد) .

٢

فى الاستعمال الأدبى :

تتردد هذه المادة فى أخبار العصر الجاهلى وشعره بصورة واسعة ، وتقابلنا كثيراً على ألسنة شعرائه ورواة أخباره ، فنراها أحياناً تدور فى هذه الدائرة اللغوية التى تحدثنا عنها ، على نحو ما نرى فى بيت حاتم الطائى الذى يتخذ منه اللغويون موضوعاً للاستشهاد على المعنى اللغوى للكلمة ، فالمقابلة فى هذا البيت بين التصعلك والغنى تدل فى وضوح لا لبس فيه على أنه يستعمل التصعلك فى معنى الفقر ، وهو استعمال يؤيده ذكر الفقر فى البيت التالى مرادفاً للتصعلك :

فما زادنا بغياً على ذى قرابة　　　غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

ونراها أحياناً أخرى ترد فى بعض المواضع ، ولكن مفهومها الذى يتفق مع السياق لا يتفق تماماً مع مفهومها اللغوى .

فهذا عمرو بن بَرَّاقة الهمْدانى يغير على إبله وخيله رجل من مراد، فيذهب بها ، فيأتى عمرو فيغير على المرادى فيستاق كل شىء له ، ويقول :

تقولُ سليمى : لا تَعَرَّضْ لتلْفَة　　　وليلك عن ليل الصعاليك نائم

وكيف ينامُ الليل منْ جُلُّ ماله　　　حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ

ألمْ تعلمى أن الصعاليك نومهم　　　قليلٌ إذا نام الخلىُّ المسالمُ[1]

فمن الواضح أن جو القصة وسياق الأبيات لا يدلان على أن الصعاليك هنا هم الفقراء ، وإلا فما معنى هذه النصيحة التى توجهها إلى الشاعر صاحبته بألا يعرض نفسه للتلف مع هؤلاء الصعاليك الذين ينام ليله عن ليلهم ؟ وما سر المقابلة بين قلة نومهم ونوم « الخلى المسالم » ؟ وما دخل المسالمة التى يتحدث عنها الشاعر فى حديث عن الفقر والغنى ؟ من الواضح أن الصعاليك

---

(١) القالى : الأمالى ٢/١٢١ — ١٢٣ ، والأغانى ٢١/١٧٥ .

هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم ، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم ، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم فى النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الحليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء . فالكلمة إذن قد خرجت من الدائرة اللغوية ، دائرة الفقر ، إلى دائرة أخرى أوسع منها هى دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب .

وفى أخبار امرئ القيس أنه غزا بنى أسد ثائراً بأبيه ، « وقد جمع جموعاً من حِمْيَر وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »[1] . ونتهم أنفسنا بالسذاجة لو تصورنا امرأ القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك يجمع جموعاً من فقراء العرب المعدمين ، فما أهمية الفقر فى معركة من معارك الثأر ؟ وما الذى يحمل امرأ القيس على أن يجمع حوله جموعاً من الفقراء ليغزو بهم بنى أسد ؟ من الواضح أن هؤلاء الفقراء الذين استعان بهم امرؤ القيس فى إدراك ثأره لابد أن تكون حياتهم الاجتماعية قد تطورت تطوراً خاصًا جعلهم يصلحون للقيام بتلك المهمة الضخمة التى طلبهم إليها ، وهو تطور نحس شيئاً من سماته ومظاهره فى هذا الربط بينهم وبين الذؤبان ، فلابد أن هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب تشابه فى أسلوب الحياة أو أسلوب العيش أو طبيعة الشخصية .

ويشبه هذا ما ورد فى أخبار عَدِىّ بن زيد من أن النعمان بن المنذر حبسه حتى مات ، فأراد ابنه زيد أن يثأر له من النعمان ، فدبر مكيدة يوغر بها صدر كسرى عليه حتى يقتله ، وترامى خبر المكيدة إلى سمع النعمان ، ففر من كسرى ولجأ إلى قبائل العرب ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إجارته ، فقال له سيد من بنى شيبان فى حديث طويل معه : « فامض إلى صاحبك ، فإمَّا أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإما أن أصابك فالموت خير لك من أن يتلعب بك صعاليك العرب ، ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك »[2] . فمن الواضح أن الصعاليك هنا ليسوا هم الفقراء ، ولكنهم طوائف من قطاع

---

(١) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٥٣٢ .

(٢) الأغانى ٢/١٢٦ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/١٨٥ — ١٨٦ .

الطرق كانوا منتشرين فى أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه فى صحرائها الموحشة الرهيبة ، ويتلعبون به ، ويتخطفونه ، ويأكلون ماله ، على حد ألفاظ ذلك السيد العربى الذى كان — ولا شك — يعرف جيداً طبيعة الدور الذى يقوم به هؤلاء الصعاليك على مسرح البادية العربية ، وهو دور تعبر عنه تعبيراً دقيقاً هذه الألفاظ .

وإلى جانب هذا نلاحظ أن بعض المصادر العربية تذكر طائفة من الأسماء على أنهم « صعاليك العرب »[١]، أو تقص أخباراً عن صعاليك بعض القبائل[٢] ، أو تصف بعض الشعراء بأنهم من « صعاليك العرب »[٣] ، بل نلاحظ أن صاحب الأغانى يقول فى تقديمه للسُّلَيْك بن السُّلَكَة : « وهو أحد صعاليك العرب . . . وأخبارهم تذكر على تواليها هاهنا ، إن شاء الله تعالى ، فى أشعار لهم يُغنى فيها ، لتتصل أحاديثهم »[٤] ، مما يشعر بأن هؤلاء الصعاليك كانوا يكوّنون طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلى جعلت أبا الفرج يحرص على أن يذكر أخبارهم على تواليها حتى تتصل أحاديثهم ، على حد تعبيره .

وأظن أننا نستطيع بعد هذه الجولة أن نقف لنسجل أن مادة « صعلك » تدور فى دائرتين : إحداهما « الدائرة اللغوية » التى تدل فيها على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان فى الحياة ، وضيق فى أسباب العيش ، والأخرى نستطيع أن نطلق عليها « الدائرة الاجتماعية » ، وفيها نرى المادة تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعى للفرد فى مجتمعه ، وبالأسلوب

---

(١) انظر على سبيل المثال : رسائل الخوارزمى / ١٤١ ، ١٤٢ ، والدلجى : الفلاكة والمفلوكين / ١١٩ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأغانى ١٨/٢١٥ ، ٢٠/٢٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/٤٠٥ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الأغانى ٣/٧٣ ، ١٢/٤٩ (بولاق) ، ١٨/٣٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٤) الأغانى ١٨/١٣٣ .

الذى يسلكه فى الحياة لتغيير هذا الوضع . وهذه الصفات هى بعض ما نحاول تبينه فى هذا البحث .

ونتساءل بعد هذا : ألم يلتفت اللغويون إلى هذا المعنى الاجتماعى ؟ ونعود مرة أخرى إلى النصوص اللغوية نستفتيها ، وتلفت نظرنا تلك العبارة الغامضة التى يذكرها بعض اللغويين فى ختام تعريفاتهم ، وهى قولهم « وصعاليك العرب ذؤبانها » . ونتساءل مرة أخرى : ماذا يعنى اللغويون بذؤبان العرب ؟ ونمضى إلى مادة « ذأب » نسأل اللغويين عن معنى « ذؤبان العرب » ، فإذا هم يحيلوننا مرة أخرى على « صعاليك العرب » . ففى الصحاح « وذؤبان العرب أيضاً صعاليكها الذين يتلصّصون » ، وفى القاموس المحيط « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » ، وفى أساس البلاغة « وهم من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشُطّارهم » ، وفى النهاية لابن الأثير « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

وهكذا كادت المسألة أن تكون دوراً — كما يقول المناطقة — لولا هذه الزيادات القليلة التى أضافها هؤلاء اللغويون إلى تعريفاتهم . ومن هذه الزيادات عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا « يتلصصون »[1] ، وأنهم كانوا « شطاراً »[2] ، كما عرفنا أنهم سموا هكذا لأنهم كانوا كالذئاب . ومع ذلك فما زلنا نشعر بأن هذه الزيادات لم تتقدم بنا كثيراً فى داخل هذه « الدائرة الاجتماعية » ، وأن علماء اللغة يحومون حول هذه الدائرة دون أن ينفذوا إلى داخلها ، مع إحساسهم أن هناك شيئاً آخر غير الفقر فى مفهوم المادة ، وهو هذا الذى حاولوا أن

---

(١) فى تاج العروس (مادة لص) « وهو يتلصص — كما فى الصحاح وفى الأساس — إذا تكررت سرقته » .

(٢) فى لسان العرب (مادة شطر) « وشطر عن أهله . . . نزح عنهم ، وتركهم مراغماً أو مخالفاً ، وأعياهم خبثاً ، والشاطر مأخوذ منه » . وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) « وفلان شاطر : خليع » . ومن الأشياء التى تلفت النظر أن الخليع من أسماء الذئب أيضاً (انظر لسان العرب : مادة خلع) ، وأن الذئب يشبه فى الشعر الجاهلى أحياناً بالخليع ، وفى معلقة امرئ القيس « به الذئب يعوى كالخليع المعيل » ، وهو من شعر تأبط شراً بدون شك عندى .

يفسروه بذلك الربط بين الصعاليك والذؤبان .

ولكننا لا نريد أن ننتهى من هذا البحث اللغوى دون أن نشير إلى أن أبا زيد القرشى ، صاحب جمهرة أشعار العرب ، قد تنبه إلى أن هناك جانبين لهذه المادة ، واستطاع أن يميز بينهما تمييزاً دقيقاً واضحاً حيث يقول (١) : « الصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات » ، وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعى بالتجرد للغارات يجعلنا نسجل لهذا العالم المتقدم على أصحاب المعاجم التى بين أيدينا أنه كان أدق من عرّف معنى الصعلوك .

وهنا نقف لنتساءل : ماذا فهمنا عن صعاليك العرب ؟

أغلب الظن أننا لم نصل إلى أشياء كثيرة ، وأننا ما زلنا فى بداية الطريق الطويل نتحسس خطواتنا فى الظلام تحت أضواء النجوم الخافتة ، وأن شوطاً بعيداً ما يزال ينتظرنا حتى مطلع الفجر . ويبدو أنه لابد لنا من أن نمضى إلى مصادر الأدب العربى نسألها : ما أخبار هؤلاء الصعاليك ؟ وأين شعر شعرائهم الذى صوّروا فيه حياتهم ؟ لعلنا نجد فيها وفيه ما نستطيع به أن نرسم صورة أشد وضوحاً لهذه الطبقة من طبقات المجتمع الجاهلى .

٣

فى المجتمع الجاهلى :

حين نرجع إلى أخبار هؤلاء الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثنى منهم أحداً ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذى كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » (٢) ، وأخوه وابن عمه يقولان له — حين عرض عليه أهل امرأته التى أصابها فى بعض

---

(١) جمهرة أشعار العرب / ١١٥ .

(٢) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ .

غزواته أن يفتدوها — « والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفتقر أبداً »[١] ، بل أكثر من هذا يذكر الرواة أنه جاء بامرأته إلى بنى النضير « ولا شيء معه إلا هي ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غَلِقَتْ »[٢] . وتكثر فى شعره أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبده فى سبيل الغنى من جهد ومشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التى يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضاً :

ذَرينى للغنى أسعى ، فإنى — رأيت الناس شرهمُ الفقير[٣]

فَسِرْ فى بلاد الله والتمس الغنى — تعش ذا يسار أو تموتَ فتُعْذَرَا[٤]

ومن يك مثلى ذا عيال ومُقْتِرًا — من المال يطرحْ نفسه كلَّ مَطْرحِ[٥]

وهذا الفقر الذى استبد بحياة الصعاليك حمل لهم فى ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابى : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدى إلى أمعاء ضيقة[٦] وليس من شك فى أن هذه العبارة الساذجة التى صور فيها هذا الأعرابى إحساسه إنما تشير إلى قصة الحياة الأساسية ، قصة الصراع بين الحياة والموت . وذلك لأن المسألة تتصل بحاجات الجسم الحيوية الأولى ، فالجوع — كما يقرر علماء الاجتماع — أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان[٧] . وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام[٨] ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلى

---

(١) الأغانى ٣/٧٧ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٨ — وغلق الرهن فى يد المرتهن : استحله ، وذلك اذا لم يقدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط .

(٣) ديوانه / ١٩٨ .

(٤) ديوانه / ١٩١ .

(٥) ديوانه / ٩٩ .

(٦) البيهقى : المحاسن والمساوئ . ٣٠١ .

(٧) Groves; Personality and Secial Adjustment, p. 27.

(٨) ابن دريد : الاشتقاق / ٢٤٦ .

بين القبائل الجاهلية إنما يرجع — من بعض جوانبه — إلى الفقر والجوع [١] ، وما أكل ضباب الصحراء ويرابيعها وأورالها سوى مظهر من مظاهر هذا الجوع القاتل الذى كان يعانيه عرب البادية حين يجدبون وتتتابع عليهم السنين ، وما كان قتل بعض العرب أولادهم خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر هذا الجوع القاتل [٢] .

ويكثر الحديث عن الجوع فى أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففى أخبار عروة أن ناساً من بنى عبس أجدبوا « فى سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس » ، فأتوا عروة يستنجدون به ، فخرج « ليغزو بهم ويصيب معاشاً » [٣] . وتنتشر فى شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذى كان يجهدهم فى غزواتهم [٤] . ويذكر الرواة أن أبا خِراش الهذلى أقفر من الزاد أياماً [٥] . ويحدثنا السليك بن السلكة فى بعض شعره كيف كان يغمى عليه من الجوع فى شهور الصيف حتى ليشرف على الموت والهلاك :

وما نلتُها حتى تصعلكت حقبة ... وكدت لأسباب المنيَّة أعرفُ
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضَرَّنى ... إذا قمت تَغْشَانى ظلال فأُسْدِفُ [٦]

ويتحدث الأعلم الهذلى عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشىء يأكلونه :

وذكرتُ أهـلىَ بالعرا ... ء وحاجة الشُّعْثِ التَّوالبْ

---

(١) انظر حديث الأصمعى فى الأغانى ١٤ / ٣٩ .
(٢) فى القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (سورة الإسراء — آية ٣١) — وانظر أيضاً سورة الأنعام — آية ١٥١ .
(٣) الأغانى ٣/٨١ ، ٨٢ .
(٤) انظر على سبيل المثال شرح ديوانه لابن السكيت / ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٥) الأغانى ٢١/٦٠ .
(٦) الأغانى ١٨/١٣٥ — وأسدف الرجل : أظلمت عيناه من الجوع .

المُصْرِمينَ من التِّلا د اللامحين إلى الأَقاربْ[١]

بل إن الجوع ليشتد بعروة فيهتف بأصحابه الصعاليك هتفة من لا يطيق عليه صبراً أن هلموا إلى الغزو ، فللموت خير من حياة الجوع والهزال :

أَقيموا بنى لبنَى صُدُورَ ركابكمْ فإن منايا القوم خيرٌ من الهزْل[٢]

وفى لامية العرب التى تُعد صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك فى العصر الجاهلى حتى على فرض انتحالها وعدم صحة نسبتها إلى الشنفرى ، يرسم الشاعر صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذى يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله ، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة :

أُديمُ مِطَالَ الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكرَ صَفحاً فأُذْهلُ
وأستفُّ تُرْبَ الأَرض كى لا يرى له علىَّ منَ الطَّوْل امرُؤٌ متطولُ
ولولا اجتنابُ الذام لم يبقَ مشرَبٌ يعاش به إلا لَديَّ ومَأْكلُ
ولكنَّ نفساً حرة لا تُقيمُ بى علىَ الضيم إلا ريثما أتحولُ
وأطوى على الخُمْص الحوايا كما انطوت خُيوطة مارىٍّ تُغارُ وتفتلُ
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أَزَلُّ تهاداهُ التنائفُ أَطحلُ[٣]

وإذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير فإن هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع ، ولكنها سياط نفسية يصبها الفقر على نفس الفقير .

والحديث عن هذه السياط النفسية حديث يطول ، لأنها تختلف باختلاف

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٥٨ — والتوالب : الجحاش ، ويريد بهم أبناءه الصغار . والمصرم : الفقير .

(٢) ديوانه / ١٠٦ .

(٣) القالى : النوادر / ٢٠٤ — والمطال : المماطلة . الطول : المن . الذام : العيب . الخمص : ضمور البطن أو الجوع . الحوايا : الأمعاء . مارى : اسم رجل أو اسم للفاتل . تغار : تحكم . الأزل : خفيف الوركين ، صفة للذئب . التنائف : جمع تنوفة ، وهى المفازة . الأطحل : الذى لونه بين الغبرة والبياض .

النفسيات ووقع الفقر عليها . وقد حاول صاحب « الفلاكة والمفلوكين »[1] أن يحصرها ، فعقد فى كتابه فصلا طويلا « فى الآفات التى تنشأ من الفلاكة ، وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها »[2] ، وعد منها الآلام العقلية ، وهو تعبير يرادف ما نعبر عنه بالآثار النفسية ، وحصرها فى ثلاثة أنواع ، وحاول أن يدلل على هذا التقسيم الثلاثى تدليلا عقليًّا منطقيًّا تكثر فيه الحدود والأقسام والمقدمات والنتائج . ولكن هذه المحاولة — من وجهة النظر العلمية الحديثة — غير دقيقة ، فإن هذه الآثار النفسية ليس من اليسير حصرها ، فليست المسألة مسألة منطقية تقبل القسمة العقلية ، ولكنها مسألة نفسية تتصل بالنفس البشرية ، تلك النفس الغامضة الممعنة فى الغموض ذات السراديب العميقة ، والأسرار الدفينة المكبوتة . ويحاول علماء النفس المحدثون دراسة هذه المسألة وأشباهها على أساس ما يسمونه « بالعقد النفسية » ، ومن بين هذه العقد عقدة يسمونها « عقدة الفقر » ، وهى تلك التى تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها فى محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيًّا[3] . فهذه العقدة هى المحور الذى تدور حوله تلك الآثار النفسية التى يخلفها الفقر فى نفس الفقير .

والمتأمل فى أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر ، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة فى معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون ، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التى يطمح إليها كل فرد فى مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل

---

(١) شهاب الدين الدلجى ، وقد عقد الفصل الأول من كتابه فى تحقيق معنى المفلوك ، وقال فيه : « هذه اللفظة تلقيناها من أفاضل العجم ، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل الغير المحظوظ المهمل فى الناس لإملاقه وفقره » (ص ٣) ، فهى تقرب من كلمة « الصعلوك » فى دائرتها اللغوية .

(٢) انظر الفصل الرابع ، ص ١٤ وما بعدها .

(٣) Groves; Personality and Social Adjustment, p. 231.

المشروعة التى يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل .

فقيس بن الحدَادِيَّة [١] يرى أنه لا يساوى عند قومه «عنزاً جرباء جَدْماء» [٢]

وفى أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا فى خفرة بعض الفهميين ، «فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ، ولم يفدوهم» [٣] ، وخبر تلك اللطمة التى لطمتها الفتاة السَّلاَمِيَّة للشنفرى ، والتى كانت السبب المباشر فى تصعلكه ، لأنها أنكرت عليه أن يتسامى إلى مقامها الاجتماعى ، ويرفع الحواجز الاجتماعية التى تفصل بين طبقتيهما ، ويناديها بأخته ، خبر كبير الدلالة على ما كان يعانيه هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم [٤] .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحتقرون من مجتمعهم ، المنبوذون من إخوانهم فى الإنسانية ، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقاً فى زحمتها ، وقد جُرِّدوا من كل وسائلها المشروعة ، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التى يحيونها على هامش المجتمع ، فى أطرافه البعيدة ، خلف أدبار البيوت ، يخدمون الأغنياء ، أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو يستجدونهم فى ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدى مَنْ حرموهم منها ، دون أن يبالوا فى سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

---

(١) اختلفوا فى ضبط اسم أمه بين كسر الحاء وضمها : أما ابن دريد فهى عنده بالضم (الاشتقاق / ٢٧٧) ، وكذلك ابن عبد ربه (العقد الفريد ٣/٣٨٣) ، ولكنها عند السمعانى فى الأنساب بالكسر ، أما المرزبانى فإنه يذكر الضبطين فيقول «والحدادية أمه ، وهى من بنى حداد من كنانة ، وقوم يجعلونها من حداد محارب ، وحداد بالضم من كنانة ، وحداد بالكسر من محارب» (معجم الشعراء / ٣٢٥) . وهكذا يتضح أن الاختلاف فى ضبط الاسم راجع إلى الاختلاف فى القبيلة التى تنتسب إليها أم الشاعر ، وهى عند ابن حبيب وأبى الفرج من محارب ، وعند ابن الأعرابى من كنانة (من نسب إلى أمه من الشعراء / ٦ ، والأغانى ١٣/٢ - بولاق) .

(٢) انظر الأغانى ١٣/٨ (بولاق) .

(٣) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤) انظر المصدر السابق / ١٩٥ ، ١٩٦ ، والأغانى ٢١/١٣٤ وما بعدها .

وقد سلك الصعاليك السبيلين ، أو — بعبارة أدق — انقسموا مع هذين السبيلين إلى طائفتين : طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعى الذليل ، رضيه لهم ضعفٌ فى النفس أو ضعف فى الجسد أو ضعف فى النفس والجسد جميعاً ، وطائفة رفضت ذلك الوضع ، وأبت أن تعيش تلك الحياة الساقطة التافهة المهينة ، ووجدت فى القوة ، قوة النفس وقوة الجسد ، وسيلة تشق بها طريقها فى الحياة .

وفى شعر عروة موازنة طريفة بين هاتين الطائفتين ، يعقدها أبو الصعاليك فى دقة وبراعة ، ويصور فيها اختلاف ما بينهما فى الشخصية ، وأسلوب الحياة والغاية التى تنتهى إليها كل منهما[١] .

وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك فى استهانتهم بالحياة فى سبيل الوصول إلى الغاية التى يسعون إليها . إنهم يريدون أن يحققوا لهم مكانة فى هذا المجتمع الذى يحتقرهم ويستهين بهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه ، وهم فى سبيل هذا لا يبالون بشىء ، حتى بالحياة نفسها ، فهم جميعاً مؤمنون بفكرة الفناء فى سبيل المبدأ ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محتقراً ، منبوذاً من مجتمعه ، مجفوًّا من أقاربه ؟ إن الموت فى هذه الحالة خير من الحياة :

إذا المرء لم يَبْعث سَوَاماً ولم يُرَحْ ... عليه ، ولم تعطف عليه أقاربُهْ
فللموتُ خيرٌ للفتى منْ حياته ... فقيرًا ، ومنْ موْلى تدبُّ عقاربه[٢]

فقلت له : أَلا احْيَ وأَنتَ حر ... ستشبعُ فى حياتك أو تموتُ[٣]

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسار أَو تموتَ فتُعْذَرا[٤]

---

(١) انظر أبياته الرائية « لحا الله صعلوكاً » فى ديوانه / ٧٣ — ٨٢ . وجمهرة أشعار العرب / ١١٥ . والأصمعيات / ٢٩ ، ٣٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) عروة أيضاً (انظر ديوانه / ١٥٠ ، ١٥١) — والبيتان يرويهما أبو تمام فى حماسته لأبى النشناش ، وهو لص من تميم إسلامى ، مع اختلاف فى الألفاظ (انظر الحماسة ١٦٦/١ ، ١٦٧) .

(٣) عروة : ديوانه / ١٦٦ .

(٤) عروة أيضاً : ديوانه / ١٩١ .

وفيم الخشية من الموت ؟ إن كل حى ملاقيه، سواء مَن خاطر بنفسه ومن أحجم ، بل إن الموت قد يصيب المتخلف فى أهله وينجو منه المغامر المخاطر :

أرى أم حسان الغـــداةَ تلومنى   تخوفنى الأعداء، والنفس أخْوَفُ
لعـــل الذى خوفتنا مِنْ أمامنا   يصادفـــه فى أهله المتخلف(١)

ومهما يمد الله فى عمر الإنسان فالموت فى انتظاره مُشْرَعَةً أسنته :

وإنى ، وإن عُمِّرت ، أعلم أننى   سألقى سنان الموت يبرق أصْلعا(٢)

فالموت نهاية كل حى ، لن ينجو منه أحد مهما يحط نفسه بأبواب قوية وحراس أشداء :

لو كنتُ فى رَيمانَ تحرُسُ بابه   أراجيلُ أُحْبوشٍ وأغضَفُ آلِفُ
إذن لأتتنى حيثُ كنتُ منيتى   يخبُّ بها هاد بأمرىَ قائفُ(٣)

وهى ميتة واحدة يلقاها الإنسان ثم لا تتكرر :

دعينى ، وقولى بعدُ ما شئتِ ، إننى   سيُغْدَى بنعشى مرةً فأغيَّبُ(٤)

ثم ما الذى يغرى الصعلوك على التمسك بالحياة والحرص عليها ؟ إن أحداً لا يرغب فى حياته ، وإن أحداً لن يبكى عليه بعد موته . إنه يعيش وحيداً ، ويموت وحيداً :

إذا ما أتتنى ميتتى لم أبالها   ولم تُذْرِ خالاتى الدموعَ وعمتى(٥)

وصعاليك هذه الطائفة جميعاً ذوو عزيمة قوية صادقة ، لا يثنيهم شىء

---

(١) عروة أيضاً : ديوانه / ٩١ .
(٢) تأبط شراً : الأغانى ١٨/٢١٧ .
(٣) أبو الطمحان القينى : الأغانى ١١/١٣٢ (بولاق) — ريمان : حصن باليمن . وأراجيل : جمع راجل . وأحبوش : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة . . والأغضف : الكلب المسترخى الأذن . والآلف : المستأنس بمن يحرسهم ، من الإلف .
(٤) الشنفرى : الأغانى ١٨/٢١٦ — وديوانه / ٣٢ .
(٥) الشنفرى أيضاً : الأغانى ٢١/١٣٩ — والمفضليات / ٢٠٦ .

عن هدفهم الذى يسعون إليه إلا الموت ، يقول تأبط شرًّا مصورًّا صدق عزيمته وقوة نفسه :

وكنتُ إذا ما هممتُ اعتزمتُ وأَحْرِ إذا قلت أَنْ أفعلا[١]

وإذا كانت الحياة قد قست عليهم فإنهم لن يستكينوا لها ، وإذا كانت تعمل على إخضاعهم وإذلالهم فإنهم سيقفون فى وجهها ، ويتحدونها ، ويشنون عليها حرباً لا هوادة فيها ، وإذا كانت قد ألقت بهم فى الرغام فإنهم سينهضون برغم كل شىء . ولعل هذا البيت الذى قاله أبو خراش الهذلى الصعلوك فى رثاء أخ له يعبر تعبيراً دقيقاً عن تلك القوة النفسية التى كان يتمتع بها كل صعلوك من صعاليك هذه الطائفة :

ولكنه قد نازَعتهُ مجَاوعٌ على أنه ذو مِرَّة صادقُ النهض[٢]

هكذا كانت نفسية هؤلاء الصعاليك ، كل منهم « قد نازعته مجاوع » ، ولكن كلاً منهم « ذو مرة صادق النهض » .

ومن عناصر قوتهم النفسية أنفتهم من القيام بتلك الأعمال التى يصح أن نطلق عليها « الأعمال الفرعية فى المجتمع القبلى » ، وهى تلك التى كان يقوم بها العبيد وأشباههم ، ويأنف السادة من القيام بها ، كخدمة الإبل والقيام بأمرها[٣]. ويصرح تأبط شرًّا بترفعه على هذه الأعمال الفرعية وبأنه يأنف من القيام بها :

ولستُ بِتِرْعِيٍّ طويل عَشَاوُهُ يؤنفها مستأْنَفَ النبت مُبْهِلِ[٤]

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٧ ، وحماسة ابن الشجرى / ٤٧ . ويذكر De Goeje ناشر « الشعر والشعراء » فى تعليقه على هذا البيت أن فى بعض المخطوطات « فعلت » مكان « اعتزمت » ، وهى عندى أدق فى تأدية المعنى .

(٢) حماسة أبى تمام ١٤٥/٢، وديوان الهذليين ١٥٨/٢ ، وفيه « مخامص » مكان « مجاوع » .

(٣) « العبد لايحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر » (عنترة : الأغانى ٢٣٩/٨) ، وفى شعر السليك إشارة إلى قيام العبيد والإماء برعى الإبل (الأغانى ١٣٤/١٨) .

(٤) لسان العرب : مادة (رعى) — الترعى : الذى يجيد رعية الإبل ، أو من صناعته وصناعة آبائه الرعى. ويؤنفها: أى يتتبع بها أنف المرعى أى التى لم ترع . وأبهل إبله: تركها مهملة .

ويصرح مرة أخرى بأنه يخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم ، وقد حمل فى يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائى الطويل المنقار وقد وقف فى مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة :

ولست براعى ثَلَّة قام وَسطها طويل العصَا غُرْنَيق ضَحل مُرَسَّل[١]

فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التى يقوم عليها المجتمع البدوى كالغزو والإغارة . يقول تأبط شرًّا :

متى تبغنى ما دمتُ حيًّا مسلَّماً تجدنى مع المُسْتَرْعل المُتَعبْهِلِ[٢]

فكأنهم الذى يطلبونه لأنفسهم ليس وراء الإبل أو بين قطعان الغنم ، ولكنه فى الطليعة المتقدمة بين القادة والأبطال .

ثم هم — برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم — كرماء ، حتى ليضرب بهم المثل فى الكرم[٣]، ويُقْرَن عروة بحاتم الطائى الذى يعد فى نظر العرب المثل الأعلى للجود والسخاء ، وقد قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد[٤] ، وأبدى تعجبه من أن الناس ينسبون الجود والسخاء إلى حاتم ويظلمون عروة[٥]، ووصفه الأصمعى بأنه « شاعر كريم »[٦] . والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى هذه الشهادات وأمثالها ، لأن أخبار عروة نفسها تفيض بأحاديث كرمه ، بل إن الرغبة فى الكرم التى كانت تملأ عليه نفسه كانت بعض الدوافع التى دفعته إلى تلك الثورة الاقتصادية التى أعلنها فى المجتمع الجاهلى :

---

(١) لسان العرب : مادة (رسل) — الثلة : جماعة الغنم . والغرنيق : طائر مائى . ورجل مرسل : كثير الرسل أى اللبن .

(٢) لسان العرب : مادة (رعل) ، ومادة (عبهل) — المسترعل : الذى ينهض فى الرعيل الأول ، أو الخارج فى الرعيل ، أو هو قائد الفرسان . والمتعبهل : الممتنع الذى لا يمنع .

(٣) « كل صعلوك جواد » (الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٩٠) .

(٤) الأغانى ٣/٧٤ .

(٥) انظر ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٩٠ .

(٦) الأصمعى : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٣ — والمرزبانى : الموشح / ٨٠ .

يُريح عليَّ الليلُ أضيافَ ماجد ... كريم ، ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ[١]

أيهلك معتمٌ وزيدٌ ولم أقم ... على نَدَب يوماً ولى نفس مُخْطِر[٢]

وهى تلك الثورة التى كانت تدفعه إلى مهاجمة الأغنياء البخلاء ليوزِّع ما يغنمه منهم على الفقراء الذين كانوا يلتفون حوله ، ويلوذون به ، فى سنى الجدب والقحط والجفاف[٣] . وهو — قبل هذا كله — صاحب هذه الأبيات الجميلة التى يصور فيها كرمه تصويراً رائعاً على حظ كبير من الإنسانية ، فيراه مشاركة الفقراء له فى إنائه ، واكتفاءه هو بالماء الخالص فى أيام الشتاء الباردة ليوفر لهم طعامهم ، بل يراه تقسيما لجسمه فى أجسامهم حتى أصبح هزيلا شاحباً :

إنى امرؤٌ عافى إنائِيَ شِرْكَةٌ ... وأنتَ امرؤٌ عافى إنائك واحدُ

أتهزأ منى أنْ سمنتَ وقد ترى ... بجسميَ مسَّ الحق ، والحقُّ جاهدُ

أُقسِّم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قرَاحَ الماءِ ، والماءُ باردُ[٤]

وتنتشر أحاديث هذا الكرم فى شعره انتشاراً واسعاً[٥] ، حتى لتكاد كل صفحة من ديوانه تنطق بهذه الأحاديث التى كان يراها :

أحاديث تبقى ، والفتى غيرُ خالد ... إذا هو أمسى هامة فوق صَيِّرِ[٦]

وهى أحاديث كان كل صعلوك يحرص على أن تبقى له بعد موته . وفى قافية تأبط شرًّا المفضلية المشهورة دفاع قوى عن كرمه وإسرافه اللذين جرا عليه كثيراً من اللوم والعذل والتأنيب :

---

(١) ديوانه / ٨٥ — والأصمعيات / ٣٠ .

(٢) ديوانه / ٨٣ — والأصمعيات / ٣٠ .

(٣) انظر الأغانى ٣/٧٨ — ٧٩ .

(٤) ديوانه / ١٣٨ — ١٤١ .

(٥) انظر على سبيل المثال ديوانه / ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨١ .

(٦) ديوانه / ٦٤ — ولسان العرب : مادة (صير) — والصير : القبر .

بلْ منْ لعذّالة خذّالة أشِبٍ حرّقَ باللوْم جلدى أىَّ تَحراقِ
يقولُ أهلكتَ مالا لو قنعتَ به من ثوب صدْق ومن بَزٍّ وأعلاق
عاذلتى إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاعٌ ، وإن أبقيته ، باق[١]

أما مادة هذا الكرم فهى — بطبيعة الحال — ما يغنمونه من غزواتهم فى أرجاء الجزيرة العربية ، وغاراتهم على القبائل أو على القوافل التجارية أو على طبقة الأغنياء البخلاء . فقد كانت هذه الغنائم تتيح لهم فرصة — مهما تكن قصيرة — لكى يتشبهوا بالسادة الأغنياء فى البذل والعطاء واكتساب المحامد . وهكذا « كان الصعلوك ، فزع البرية ، ينقلب فى أعقاب غزواته الناجحة سيداً كريماً نبيلا ، يَصُفّ على المواقد الإبل التى نهبها ليطعم منها اليتامى والأرامل »[٢] . فالغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائل للغنى وجمع المال فحسب ، ولكنها أيضاً وسائل للبذل والعطاء ، واكتساب المحامد ، والتشبه بالسادة الأغنياء فى الكرم والجود . وإذا كانت هاتان الغايتان تتنازعان نفوس الصعاليك ، وتتجاذبانها كلٌّ إليها ، على نحو ما نرى عند تأبط شرًّا الذى يصرح فى قافيته المفضلية بأن المال وسيلة للكرم ، ووسيلة « لتسديد الخلال » أيضاً[٣] ، فإن الغاية الأخيرة وحدها كانت هى الغاية الأساسية عند عروة الذى خلصت نفسه تماماً من هذا التنازع وهذه المجاذبة :

دَعينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى أفيد غنى فيه لذى الحق مَحملُ
أليس عظيماً أنْ تلمَّ ملمَّة وليس علينا فى الحقوق معوَّل
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تلم به الأيام فالموت أجملُ[٤]

---

(١) المفضليات / ١٨ — عذالة وخذالة للمبالغة . والأشب : المخلط عليه المعترض. والأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 190.

(٣) انظر المفضليات / ١٩ — الخلال : خصاصات الفقر ، جمع خله .

(٤) ديوانه / ٢٠٦ .

فطلب الغنى عند عروة ليس هدفاً فى ذاته ، ولكنه وسيلة للكرم وقضاء الحقوق والتشبه بالسادة .

وإلى جانب هذه القوة النفسية التى كان هؤلاء الصعاليك يمتازون بها كانوا يتمتعون أيضاً بحظ وافر من الشجاعة والجرأة وقوة الجسد .

وتفيض أخبارهم وأشعارهم بأحاديث هذه القوة ، كما تتردد هذه الأحاديث فى أخبار معاصريهم وفى شعرهم أيضاً . يقول تأبط شرًّا مفتخراً بقوته :

وما وَلدَتْ أمى من القوم عاجزًا ولا كان ريشى من ذُنَابَى ولا لَغْبِ[1]

ويصرح الشنفرى — فى اعتداد بنفسه — بأنه يقدم فى شجاعة وجرأة حيث يقف الجبان هلعاً جزوعاً :

إذا خشعت نفس الجبان وخَيَّمَتْ فلى حيث يخشى أن يجاوز مِخْشَفُ[2]

ويرسم عمرو بن معديكرب الفارس المشهور صورة للسليك بن السلكة يصفه فيها بأنه « كالليث يلحظ قائماً » ، وبأنه :

له هامة ما تأْكل البَيْضُ أُمَّها وأشباح عادىٌّ طويل الرواجبِ[3]

ويرسم أبو كبير الهذلى فى أبياته اللامية التى رواها أبو تمام فى حماسته[4] صورة قوية لتأبط شرًّا ، يصور فيها قوته وصلابته وخفته، وسرعة عَدْوِه ، وجرأة قلبه ، وشدة مراسه ، ومضاء عزيمته ، وكيف أعدته الطبيعة منذ طفولته الباكرة ، بل من قبل طفولته ، ليكون قويًّا يستطيع أن ينهض بالعبء الذى

---

(١) لسان العرب ، مادة (لغب) — الذنابى . ذنب الطائر أو منبت الذنب . واللغب : الريش الفاسد .

(٢) الأغانى ٢١/١٤١ ، وفى ديوانه / ٣٩ « وآب إذا أجرى الجبان وظنه » ولا معنى له — خيم : أقام حيث هو فلم يبرح ، أو جبن ونكص . والمخشف : الجرىء على هول الليل ، وهو هنا صفة للقلب .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٦ ، ٢١٧ — أم كل شىء : أصله وعماده ، وأم الرأس : الدماغ أو الجلدة الرقيقة التى عليها . والبيضة : خوذة الحديد . وعادى : كأنه من قوم عاد . والرواجب : مفاصل الأصابع .

(٤) انظر ج ١ ص ٨٢ — ٨٩ .

ستلقيه الحياة على عاتقه فيما بعد ، ذلك العبء الثقيل الذى لا يستطيع أن ينهض به إلا من أعدته الطبيعة له إعداداً خاصًّا ، وهى صورة متكاملة الجوانب ، دقيقة الخطوط ، واضحة الألوان ، يرسمها الشاعر لتأبط شرًّا ، ولكنها تصلح أيضاً لكل صعلوك من أولئك الصعاليك الأقوياء الذين روّعوا الجزيرة العربية فى عصرها الجاهلى ، وأثاروا فى أرجائها الرعب والفزع .

وحقًّا لقد كان هؤلاء الصعاليك فزعاً رهيباً فى هذا المجتمع الجاهلى ، حتى لنسمع أن فارساً من فرسانه المعدودين ، وهو عمرو بن معد يكرب ، يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة ، أحدهم السليك ابن السلكة[١] ، وأنه يستطيع وحده أن يحمى الظعينة ويخترق بها أعماق الصحراء ما لم يلقه واحد من هؤلاء الأربعة[٢] . وحسب السليك أن يُقْرَن بعامر وعتيبة وعنترة ، وأن يخشى بأسه عمرو بن معد يكرب .

والواقع أن هذه الشجاعة الفائقة لم تكن مقصورة على صعلوك دون صعلوك ، وإنما كانت صفة يمتاز بها كل صعاليك هذه الطائفة ، حتى أصبح الصعلوك مثلا يضرب فى الشجاعة[٣] . أما أولئك الصعاليك الذين عرفوا بالفرار فإنهم كانوا يَعُدُّونه لوناً من ألوان قوتهم الجسدية ، لأنه المجال الذى يظهرون فيه شدة

---

(١) « ما أبالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حراها وهجيناها » يعنى بالحرين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عنترة ، والسليك بن السلكة . (الأغانى ٨/٢٤٦) .

(٢) « لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ، ما لم يلقنى حراها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان أسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى » (الأغانى ١٤/٢٨ ، فشرح ابن الأنبارى على المفضليات / ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، وانظر أيضاً أسامة بن منقذ : لباب الآداب / ١٨١) .

(٣) « كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك » (من حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج قتاله الخوارج — انظر المسعودى : مروج الذهب ٢/١٤٨) .

َعدْوهم ، كما كانوا يرون فيه وسيلة للنجاة حتى يستأنفوا القتال فى ظروف أشد ملاءمة لهم . يقول أبو خراش الهذلى الصعلوك :

فإنْ تَزْعُمى أنى جبنتُ فإننى أفرّ وأرمى مرةً كل ذلك
أقاتلُ حتى لا أرى لى مُقَاتَلاً وأنجو إذاما خفتُ بعض المهالكِ[1]

فهو يدافع عن فراره ، ويرى أنه ليس دليلا على جبنه ، وإنما هو « خطة موضوعة » يضطر إليها حين يصبح القتال « مغامرة انتحارية » لا أمل فيها ، حتى ينجو من هلاك محقق ، فيستأنف القتال حين يصبح القتال أمراً مضمون العاقبة .

ومن أشد ما يلفت النظر من مظاهر هذه القوة الجسدية سرعة العدو الخارقة للعادة التى اشتهرت بها هذه الطائفة من الصعاليك ، حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم « العدائين »[2] ، أو « الرَّجَلِيِّين » أو « الرُّجَيْلاء »[3] ، كأنما أصبحت سرعة العدو ظاهرة مميزة لهم ، وصفة ملازمة يعرفون بها . والمثل يضرب بجماعة منهم فى سرعة العدو ، فيقال « أعدى من الشنفرى »[4] ، و « أعدى من السليك »[5] ، و «أمضى من سليك المقانب »[6] . وتصفهم مصادر الأدب

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ – وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٣٩٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأغانى ١٨/١٣٣، ٢١٠ – والبغدادى : خزانة الأدب ٢/١٧ – والميدانى: مجمع الأمثال ١/٤٣١ – والنيسابورى : لطائف المعارف (مصورة) لوحة رقم ٧٧ – وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شنفر) .

(٣) فى تاج العروس (مادة رجل) « والرجيلاء كغميصاء ، والرجليون محركة ، قوم كانوا يعدون » . وهما تسميتان ترددان كثيراً فى مصادر الأدب العربى وفى كتب اللغة ، انظر على سبيل المثال ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ – والمرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ – والآمدى : المؤتلف والمختلف / ٦٧ – والمبرد : نسب عدنان وقحطان / ٩ – وابن حبيب : المحبر / ٤٣٣ – وابن دريد : جمهرة اللغة ١/١٤٠ – وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٣٤٧ .

(٤) الميدانى : مجمع الأمثال ١/٤٣٠ – وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شنفر) .

(٥) المصدران السابقان : الميدانى / ٤٣١ – والتاج : مادة (سلك) .

(٦) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٢٣٣ – والأغانى ١٨/١٣٧ – وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٧٠ – وابن دريد : جمهرة اللغة ١/٣٢٣ .

العربى بأنهم « أشد الناس عدواً »[١] ، أو أنهم « لا يجارَوْن عدوًا »[٢] ، أو « لا يُلْحَقون »[٣]، أو يعدون عدواً يسبقون به الخيل[٤]، أو لا تعلق بهم الخيل[٥] ، أو لم تلحقهم الخيل[٦] .

وتفيض هذه المصادر بأحاديث عدوهم وأخبار سرعتهم ، وتبالغ فيها مبالغة تبدو أحياناً غير مقبولة ، فتأبط شرًا « كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله »[٧] . وفى أخبار حاجز الأزدى أن أباه قال له : « أخبرنى يا بنىّ بأشد عَدْوِك ، قال : نعم ، أفزعتنى خثعم ، فنزوت نزوات ، واستفزتنى الخيل ، واصطف لى ظبيان ، فجعلت أنهههما بيدى عن الطريق لضيقه ، ومنعانى أن أتجاوزهما فى العدو لضيق الطريق ، حتى اتسع واتسعت بنا فسبقتهما »[٨]. وفى أخبار السليك أن بنى كنانة قالوا له حين كبر : « إن رأيت أن ترينا بعض ما بقى من إحضارك ، فقال : اجمعوا لى أربعين شابًا ، وابغونى درعاً ثقيلة . فأخذها فلبسها ، وخرج الشباب ، حتى إذا كان على رأس ميل أقبل يُحْضِر ، فلاث العدو لَوْثاً ، واهتبصوا فى جنبتيه فلم يصحبوه إلا قليلا ، فجاء يحضر منتبذاً حيث لا يرونه ، وجاءت الدرع تخفق فى عنقه كأنها خرقة »[٩] . وفى أخبار أبى خراش أنه دخل مكة « وللوليد بن المغيرة المخزومى فرسان يريد أن يرسلهما فى الحَلْبة ، فقال للوليد : ماتجعل لى إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فهما لك،

---

(١) الأغانى ١٨/١٣٤ — والنيسابورى : لطائف المعارف ، لوحة ٧٧ .
(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ .
(٣) الأغانى ١٨/١٣٣ ، ٢٠/٢٠ .
(٤) الأغانى ١٢/٤٩ (بولاق) .
(٥) الأغانى ١٨/١٣٣ ، ١٣٤ — وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .
(٦) البغدادى : خزانة الأدب ٢/١٦ .
(٧) الأغانى ١٨/٢١٠ .
(٨) الأغانى ١٢/٤٩ ، ٥٠ (بولاق) .
(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤— اهتبصوا : أسرعوا أو بالغوا فى العدو .

فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما، فأخذهما»[١]. ويذكر الرواة أن خطو الشَّنْفَرَى ذُرِع ليلة قُتل، «فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة، والثانية سبع عشرة خطوة، والثالثة خمس عشرة خطوة»[٢]. ومن الطريف أن يصف تأبط شرًّا رفيقه في الصعلكة الشنفرى حين يعدو بأنه «قد طار»[٣]، أو يصف عدْوَ عمرو بن برَّاقة بأنه «مثل الريح»[٤]، أو نسمعه يقسم بقوله «والذى أعدو بطيره»[٥]، وهو قسم يستمد طرافته من ذكر الطير فيه، وعقد صلة بينها وبين عدوه، كأنما أصبح الصعلوك يعدو بأجنحتها.

وفي كل مناسبة يردد هؤلاء الصعاليك في شعرهم أحاديث عدوهم وسرعتهم. وهم يتحدثون عنهما دائماً في اعتداد وفخر كبيرين، إذ يرون فيهما ميزة تفردوا بها من بين سائر البشر، ووسيلة تعينهم على الحياة، وتيسر لهم سبل النجاة. يقول تأبط شرًّا مفتخراً بسرعته التي أنجته من أعدائه وما أرسلوه خلفه من خيل سريعة:

ليلة صاحوا وأَغرَوا بي سِرَاعهمُ	بالعَيْكتين لدى معدَى ابن براق
كأنما حثحثوا حُصًّا قوادمه	أو أم خِشف بذى شَثٍّ وطُبَّاق
لاشيءَ أسرَعُ مني، ليس ذا عُذَر	وذا جناح بجنب الرَّيْد خفاق
حتى نجوتُ ولمَّا ينزعوا سَلَبي	بواله من قَبيض الشد غَيْداق[٦]

(١) الأغانى ٢١/٥٧.

(٢) البغدادى: خزانة الأدب ٢/١٨.

(٣) ابن الأنبارى: شرح المفضليات / ٦.

(٤) الأغانى ١٨/٢١٠.

(٥) المصدر السابق / ٢١١.

(٦) المفضليات / ٧ — ١١. العيكتان: اسم موضع. حثحثوا: حركوا، من الحث. القوادم: ما يلى الرأس من ريش الجناحين، والحص: التي تناثر ريشها وتكسر، وهذه دلالة على السرعة والخفة، وقوله «حصا قوادمه» يعنى الظليم. الخشف: ولد الظبية. الشث والطباق: نبتان من نبت السراة. العذر: ما أقبل من شعر الناصية على الوجه، ويعنى بذى عذر فرسا. الريد: حرف الجبل الذى يشرف على الهواء. الواله: الذاهب العقل فليس يستبق من جهده فى عدوه شيئاً. القبيض: السريع. الشد: العدو. الغيداق: الكثير الواسع.

إنه سريع كالظليم أو الظبية ، بل إنه أسرع من كل شيء حتى الخيل الجياد والطير الجارحة فوق قمم الجبال . ويصرح أبو خراش بأن سرعة عدوه هي التي أنجته من موت محقق ، فلولاها لآمت امرأته ويتم ابنه :

تقول ابنتي لما رأتني عشيةً : سَلِمْتَ وما إن كدتَ بالأمس تَسْلَمُ

ولولا دِرَاكُ الشد قاظت حليلتي تخيَّر من خطابها وهي أيِّمُ

فتقعد أو ترضى مكاني خليفةً وكاد خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَمِ[1]

وفي لامية العرب صورة قوية لهذه السرعة نرى فيها الصعلوك يسبق القطا الظامئة وهي تسرع إلى الماء :

وتشربُ أسآرى القطا الكُدْرُ بعدما سرَتْ قرَباً أحشاؤها تتصَلصَلُ

هممتُ وهمتْ ،وابتدرنا ، وأسدلتْ وشمَّر مني فارطٌ متمهِّلُ

فوليتُ عنها وهي تكبو لعُقره يباشره منها ذُقونٌ وحَوْصَلُ[2]

إنها مباراة طريفة يقدمها لنا الشاعر بينه وبين القطا في الوصول إلى الماء ، تنتهي بفوزه عليها ، وإدراكه الماء قبلها ، بل لقد شرب وارتوى قبل أن تصل هي ، فلما وصلت لم تجد إلا سؤراً تشربه من بعده .

ولعل أقوى صورة رسمها صعلوك لهذه السرعة هي تلك الصورة التي رسمها تأبط شرًّا ، والتي نرى فيها الصعلوك يسبق الريح بسرعته الفائقة :

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الريح مِن حيثُ يَنْتَحي بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المُتَدَارِكِ[3]

بل إن الأمر ليصل بحاجز الأزدي إلى أن يفدِّي رجليه بأمه وخالته ، وماذا أفاد من أمه وخالته سوى تلك الحياة القاسية المحتقرة التي جرَّتاها عليه بلونهما الأسود ؟ أما رجلاه فهما كل شيء في حياته ، ولولاهما لفقد الحياة

---

(١) ديوان الهذليين ١٤٨/٢ . والأغاني ٥٦/٢١ ، ٥٧ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٢٥ — قاظت : أقامت .

(٢) القالي : النوادر / ٢٠٥ — القرب : طلب الماء ليلا . الأحناء : الجوانب . تتصلصل : تصوت . الفارط . المتقدم . العقر : مقام الساقي من الحوض .

(٣) حماسة أبي تمام ٤٨/١ — المنخرق : السريع . المتدارك : المتلاحق .

نفسها ، وإذا كانت أمه وخالته سبب ما يلاقيه فى حياته فإن رجليه سبب إنقاذه مما يلاقيه فيها :

فدًى لكما رِجلىَّ أمى وخالتى بسعيكما بين الصَّفا والأَثائبِ[1]

وعلى ما فى أحاديث هذا العدو فى أخبار الصعاليك وشعرهم من مبالغات يقف المرء عندها متسائلا : أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ فإنها — على كل حال — تصور ظاهرة لاشك فى حقيقتها المجردة ، وهى أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمتازون بسرعة فى العدو خارقة للعادة ، وهى سرعة لفتت أنظار الرواة فسجلوها بما فيها من مبالغات ، واستقرت فى أذهان الناس فضربوا بها الأمثال ، ووجد فيها بعض الشعراء المتأخرين مادة يستغلونها فى فنهم ، ويستخدمونها فى تشبيهاتهم وصورهم الفنية[2] .

وينظر هؤلاء الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذى يعيشون فيه ، فإذا هو مجتمع ظالم ، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال ، ولكنه — مع ذلك — لا يحسن توزيع المال بين أفراده ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل فى حين لا يملك الآخر غير حبل يجره لا بعير فيه ، وما هذه الإبل التى يملكها هذا الفرد سوى إبل الله خلقها للناس جميعاً ، فهى ليست حقًّا له وحده دون غيره من خلق الله فى هذه الأرض[3] .

والعجيب من أمر هذا المجتمع أن بين من يعطيهم بغير حساب بخلاء

---

(١) الأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) — وحاجز من أغربة العرب سرى إليه السواد من أمه (تاج العروس ، مادة « غرب ») والأثائب : شجر ينبت فى بطون الأودية .

(٢) انظر على سبيل المثال : وصف جران العود للقوادة (ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٤٥٢) ، ووصف البحترى للمفازة (ديوانه / ٧٣) ، ووصف ابن الرومى لشهر الصيام (ديوانه ١/٧٧) .

(٣) وإنى لأستحيى لنفسى أن أرى أمر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره وبعران ربى فى البلاد كثير
(الأحيمر السعدى فى الشعر والشعراء / ٤٩٥) .

أشحاء لا ينتفع بمالهم أحد ، فى حين يَحْرِم فيمن يحرم كرماء لو أعطاهم لنفعوا بمالهم أفراد مجتمعهم الفقراء المحتاجين ، فهو يحرم هؤلاء الكرماء ما يكنزه أولئك البخلاء ، ويحرمهم نتيجة لهذا فرصة التكافؤ الاجتماعى ومساواة إخوانهم فى الإنسانية من الأغنياء الكرماء فى شراء تلك الأحاديث الخالدة التى « تبقى والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامةً فوق صيِّر » كما كان يقول عروة .

ووقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم — بسبب ظروف البيئة والمجتمع والمزاج الشخصى — من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب ، « والخَلَّة تدعو إلى السَّلَّة » — كما يقول المثل العربى[1] ، فمضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصوا بالقوافل التجارية التى تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبون ويسلبون ، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت فى أذهانهم وضعاً ثنائيًّا لا ثالث له : إما حياة كريمة ، وإما ميتة كريمة ، أما أنصاف الحلول فشىء لا يؤمنون به . لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن « الحق للقوة » ، وأن الضعيف ضائعٌ حقه فى هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضيم وهوان ، فرثوا لهم ، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفوهم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضاً على ذلك المجتمع الذى أذل إخوانهم الضعفاء .

هكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأقوياء النفس والجسد خطتهم من أجل الحياة أولا ، ثم من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم الذى لا يعترف بهم ، وتحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك ، وهى خطة تقوم على أساس « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وأحاديث « الغزو والإغارة للسلب والنهب » تنتشر فى أخبار هؤلاء الصعاليك وشعرهم انتشاراً واسعاً ، بل لعلها أكثر ما ينتشر فى أخبارهم وشعرهم

---

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة (خلل) .

من أحاديث ، حتى لتوشك أن تكون هى اللون البارز فى لوحة حياتهم الاجتماعية والفنية .

ففى أخبار السليك أنه « أملق حتى لم يبق له شىء ، فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله ، حتى أمسى فى ليلة من ليالى الشتاء باردة مقمرة . فاشتمل الصماء ، ثم نام . . . فبينما هو نائم إذ جثم رجل فقعد على جنبه فقال : استأسر » ، وسأله السليك من يكون ، فقال له : « أنا رجل افتقرت ، فقلت لأخرجنّ فلا أرجع إلى أهلى حتى أستغنى ، فآتيهم وأنا غنى » ، فقال له السليك : انطلق معى ، « فانطلقا معاً ، فوجدا رجلا قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعاً ، حتى أتوا الجوف ، جوف مراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ قد ملأ كل شىء من كثرته ، فهابوا أن يغيروا » ، ولكن السليك دبر لهم حيلة « فأطردوا الإبل ، فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصَّريخُ الحى حتى فاتوهم بالإبل »[١] .

إنها قصة تصور لنا تلك الهوة الواسعة بين الطبقات فى المجتمع الجاهلى : بين أولئك الذين « أملقوا حتى لم يبق لهم شىء » ، وأولئك الذين أترفوا حتى « ملأ نَعَمهم كل شىء من كثرته » ، وهى هوة كانت تدفع هؤلاء الصعاليك المعدمين للخروج إلى الصحراء من أجل اغتصاب رزقهم من أيدى أولئك المترفين ، وانتزاع لقمة العيش من بين أنيابهم ، أو — بعبارة أخرى — كانت تدفعهم إلى « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وفى أخبار تأبط شرًّا أنه خرج فى « عدة من فهم » يريدون الغارة على أحد أحياء بجيلة . وتمت الغارة بقتل نفر من بجيلة ، ونهب إبل لهم . وساق الصعاليك الإبل حتى إذا كانوا « على يوم وليلة من بلادهم » تصدت لهم خثعم طامعة فيما معهم ، ودار قتال بين الفريقين : صعاليك فهم العائدين بغنيمتهم ، ورجال خثعم الطامعين فيها . وثبت الصعاليك — على قلتهم وكثرة خثعم — وانتهى

---

(١) الأغانى ١٨/١٣٤ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ — ٢١٥ مع اختلاف يسير فى ألفاظ القصة .

الصراع بانهزام خثعم وتفرقها ، وانطلاق الصعاليك بغنيمتهم [١] .

في هذه القصة نرى صورة من حياة الصعاليك في المجتمع الجاهلي ، تلك الحياة التي كانت تقوم على « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، ومثلا قوياً لذلك الصراع الدامي الذي كان الصعاليك يخوضون غماره في سبيل الحياة ، وهو صراع كانوا يخوضون غماره في شجاعة وقوة لأنهم كانوا يتمثلونه صراعاً بين الحياة والموت .

وفي أخبار عروة أنه كان — إذا أصابت الناس سنة شديدة — يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته ، « ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكُنُف ، ويكسبهم ، ومن قوي منهم إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى » [٢].

وفي أخباره أيضاً أنه « بلغه عن رجل من بني كنانة بن خزيمة أنه أبخل الناس وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً فأتوه بخبره ، فشد على إبله فاستاقها ، ثم قسمها في قومه » [٣] .

على هذا النحو كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والغني للفقير ، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال الأغنياء ، وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يغتصبونه إن لم يؤدَّ لهم ، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء ، « فالغزو والإغارة للسلب والنهب » لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعته الإنسانية وفكرته الاشتراكية .

---

(١) الأغاني ١٨/٢١٥ — ٢١٦ .

(٢) الأغاني ٣/٧٨ — ٧٩ ، والتبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٢/٩ .

(٣) ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٨١ .

وقد يحدث أن تتطور هذه الأهداف الاجتماعية والاقتصادية عند بعض الصعاليك إلى لون من التمرد الخالص الذى لا يميز بين الأهداف ، فإذا هم يتعرضون لكل من يسوقه حظه السيء إلى مناطق تربصهم. يقول تأبط شرًا معبرًا عن هذا التمرد الخالص الذى أصبح عنده الوسيلة والغاية معًا :

ولست أَبيتُ الدهرَ إلاعلى فتى أسلِّبه أو أذعرُ السرْبَ أجمعا[١]

أو يناصبون قبائل معينة العداء ، يصبون عليها شرورهم ، ويوجهون إليها غاراتهم وغزواتهم ، كما كان يفعل تأبط شرًا مع تلك المجموعة من القبائل التى يعددها فى بعض أبياته[٢] ، وكما كان بين صعاليك هُذَيْل وصعاليك فَهْم من عداوة مستحكمة لا يهدأ أوارها ، ظهرت آثارها فى شعر الفريقين وأخبارهما[٣] .

وفى شعر الصعاليك صور كثيرة متعددة الألوان والأوضاع لهذه الغارات ، وأحاديث عنها لا تكاد تنتهى حتى تبدأ ، وفى أكثر قصائد هذا الشعر ومقطوعاته يردد الصعاليك أقاصيص هذه الغارات فى فخر وإعجاب ، واعتداد بأنفسهم وبطولتهم . وفى تائية الشنفرى المفضّلية صورة رائعة قوية لغارة قام بها هو وأصحابه الصعاليك ، يصف فيها كيف أعدّ عصابته للغزو ، ويصف الطريق الذى سلكوه ، ويتحدث عن الدوافع التى دفعته إلى هذه الغارة ، ثم يتحدث عن الأهداف التى حققتها ، والغايات التى وصلت إليها . يقول :

وباضعةٍ حمر القسىِّ بعثتها ومنْ يغزُ يَغْنَمْ مرة ويُشَمَّت

خرجنا منَ الوادى الذى بين مِشْعَل وبين الجبا . هيهاتَ أَنشأتُ سُرْبَتى

أمشِّى على الأرض التى لن تضرنى لأَنكىَ قوماً أو ألاقىَ حُمَّتى

أَمشى على أَين الغزَاة وبُعْدها يقرِّبنى منها رَوَاحى وغُدْوَتى

ثم يقول :

قتلنا قتيلا مُهْدياً بمُلَبد جمارَ منى وَسطَ الحجيج المصوِّت

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ .
(٢) المصدر السابق / ٢١٨ .
(٣) انظر على سبيل المثال شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

جزينا سلامانَ بن مُفْرجَ قرضها ... بمـا قدمتْ أيديهمُ وأَزَلَّت

وُهنِّئَ بى قومٌ وما إنْ هنأتهمْ ... وأصبحتُ فى قوم وليسوا بمنبتى

شفينا بعبد الله بعضَ غليلنا ... وعوف لدى المَعْدَى أَوانَ استهلت[1]

وفى لامية العرب قصة غارة مفاجئة خاطفة قام بها الصعلوك فى ليلة باردة ذات ظلام ومطر ، وقد استبد به الجوع والبرد والخوف ، ثم عاد إلى « قواعده » سالماً ، بعد أن حقق أهدافه ، مخلفاً وراءه القوم يتساءلون : ما هذا الذى طرق حيهم ليلا ؟ وقد ذهبت آراؤهم فيه مذاهب شتى :

وليلة نحس يصْطلى القوسَ ربُّها ... وأقطُعَــه اللاتى بها يَتَنَبَّلُ

دَعستُ على غَطْش وبَغْش ،وصحبتى ... سُعَارٌ وإرْزيزٌ ووَجرٌ وأفكلُ

فأيَّمتُ نسوانًا ، وأيتمت إلدَةً ... وعدتُ كما أبدأتُ ، والليلُ أليلُ

وأصبح عنى بالغُميصَاء جالساً ... فريقان : مسئولٌ وآخرُ يَسْأَل

فقالوا : لقد هرَّتْ بليل كلابنا ... فقلنا أذئبٌ عَسَّ أم عس فُرْعُلُ

فلم تك إلا نبأةٌ ثم هوَّمتْ ... فقلنا قطاةٌ ريعَ أم ريع أجْدَلُ

فإن يكُ منْ جن لأبرَحُ طارقاً ... وإن يك إنسًاما كها الإنس تفعل[2]

---

(١) المفضليات / ٢٠٢ – ٢٠٣ ، ٢٠٥ – ٢٠٦ ، وانظر أيضاً الأغانى ١/١٣٩٢ – ١٤٠ . الباضعة : القاطعة ، ويريد بها أصحابه الصعاليك . بعثتها : أى غزوت بهم . حمر القسى : أى أنهم غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر . والقسى تحمر على القدم . السربة : الجماعة ، وقوله « أنشأت سربتى » أى أظهرتهم من مكان بعيد ، يصف بعد مذهبه فى الأرض طلباً للغنيمة . وقوله « لن تضرنى » أى لن أخاف بها أحداً . وقوله « لأنكى قوماً » من النكاية . الحمة : المنية . وقوله « على أين الغزاة» أى على ما يصيبنى من تعبها ، وأنا مع ذلك أمشى . الملبد : المحرم الذى يأخذ صمغاً فيلبد به شعره لئلا يشعث فى مدة الإحرام . وقوله « جمار منى » أى عند الجمار . سلامان بن مفرج من قومه وهم الذين قتلوا أباه . وقوله « وهنِّئ بى قوم وما إن هنأتهم » أى هنىء بى قوم وما انتفعوا بى . عبد الله وعوف من بنى سُلامان . وقوله « استهلت» أى الحرب إذا ارتفعت الأصوات فيها .

(٢) أعجب العجب / ٥٩ – ٦٤ . والقالى : النوادر ٢٠٦ .

ليلة النحس : المراد بها هنا الليلة الباردة . والأقطع : جمع قطع وهو السهم . ويتنبل أى =

وكان الصعاليك يخرجون لهذه الغارات الرهيبة فرادى أحياناً ، وفى عصابات أحياناً أخرى . وكان أكثرهم يغير على رجليه ، وبعضهم يغير على الخيل .

فى أخبار الشنفرى أنه كان « يغير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك »[1] ، ومن أخباره أيضاً أنه خرج « فى ثلاثين رجلا ومعه تأبط شرًّا يريدون الغارة على بنى سَلاَمان »[2] . وفى أخبار السليك أنه خرج « على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض منْ يمر به فيذهب بإبله » ، وأنه التقى برجلين قصتهما مثل قصته « فاصطحبوا جميعاً »[3] . وفى أخبار تأبط شرًّا أنه خرج « فى عدة من فهم »[4] . وفى شعره حديث عن غزواته هو وصعاليكه على الخيل أحياناً ، وعلى الأرجل أحياناً أخرى :

فيوماً بغُزَّاءٍ ، ويوماً بسُرْبَةٍ ويوماً بخشخاش من الرَّجْل هَيْضَلِ[5]

وفى شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو . يقول متحدثاً عن امرأته التى تلومه على مخاطرته بنفسه فى غاراته المتكررة تارة بأولئك الرَّجَلِيِّين الذين يعتمدون فى غزوهم على أرجلهم ، وتارة بأولئك الفرسان الذين يغيرون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تاركٌ ضُبوءًا برَجْلٍ تارة وبمنسرِ[6]

= يرمى بها . والدعس : شدة الوطء . والغطش : الظلمة . والبغش : المطر الخفيف . والسعار : شدة الجوع . والإرزيز : البرد . والوجر : الخوف . والإفكل : الرعدة . والإلدة : الأولاد . والغميصاء : اسم موضع بنجد . والعس : الطواف بالليل . والفرعل : ولد الضبع . والنبأة : الصوت . وهومت : نامت . والأجدل : الصقر . وأبرح : من البرح وهو الشدة .

(١) الأغانى ٢١/١٣٥ .

(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٥ .

(٣) الأغانى ١٨/١٣٤ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٥ .

(٥) لسان العرب : مادة (غزا) — السربة : جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين . والخشخاش : الجماعة فى سلاح ودروع . والهيضل : الجماعة المتسلحة . والرجل : الرجالة .

(٦) ديوانه / ٦٨ ، والأصمعيات ١/٢٩ ، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ١/٦١ — ضبأ : اختبأ واستتر ليختل . والمنسر كمجلس ومنبر : جماعة الخيل .

ويقول متحدثاً عن اعتماده على كلا الأسلوبين فى بعض غاراته :

لعل انطلاق فى البلاد ، ورحلتى ... وشدى حيازيمَ المطية بالرَّحْل
سيدفعنى يوماً إلى رَب هَجْمَة ... يدافعُ عنها بالعقوق وبالبخل
قليلٌ تواليها وطالب وِترها ... إذا صحت فيها بالفوارس والرَّجْل [١]

وقد وفر الصعاليك لهذه الغارات كل ما يحقق لها النجاح ، وبلوغ الغاية ، وإدراك الهدف . فإلى جانب ما وفروه لها من قوة الجسد ، وشجاعة القلب ، وصدق العزيمة ، وسرعة العدو ، وفروا لها سعة الحيلة ، وعمق الدهاء ، والقدرة على الخلاص من المآزق الضيقة ، والمواقف الحرجة . فنى أخبار الشنفرى أنه كان إذا سار فى الليل نزع نعلا ولبس نعلا ، وضرب برجله ، حتى يموِّه على الناس ، فيظنوه الضبع [٢] . وفى أخباره أيضاً أنه أقبل فى ليلة على ماء لبنى سلامان ، فلما دنا من الماء قال : إنى أراكم ، وليس يرى أحداً ، إنما يريد بذلك أن يخرج رَصَداً إن كان ثمة من يترصد له [٣] . وفى أخبار السليك أنه احتال على رجل فى سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه ، تمهيداً للإغارة عليها [٤] . وخبر الحيلة التى لجأ إليها تأبط شرًّا ، حين حاصرته لحيان وهو يشتار العسل من غار فى بلادهم ، خبر ذائع مشهور [٥] . وقصة احتياله هو والشنفرى وابن براقة على بجيلة حين أسرته ، حتى نجا ونجا معه صاحباه ، وهى القصة التى أشار إليها فى قافيته المفضّلية ، قصة مشهورة أيضاً [٦] .

وإلى جانب هذا كله كان طبيعيًّا أن يوفر الصعاليك لغاراتهم السلاح الذى

---

(١) ديوانه / ١٠٨ – ١١١ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٧ ، والأغانى ٢١/١٣٧ ، وابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ .
(٣) الأغانى ٢١/١٤٣ .
(٤) الأغانى ١٨/١٣٥ – ١٣٦ .
(٥) انظر التبريزى : شرح ديوان الحماسة ١/٣٨ وما بعدها ، والأغانى ١٨/٢١٥ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٣/٣٥٧ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٦ – ١٩٨ .
(٦) انظر ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ٦ – ٧ ، والأغانى ١٨/٢١١ – ٢١٢ .

يعتمدون عليه فى هجومهم ودفاعهم ، لأن الشجاعة أو القوة أو غيرهما من الصفات التى كانوا يمتازون بها لا تكفى وحدها « فى تلك البادية الفوضوية التى لا يستطيع إنسان أن يعيش فيها ما لم يكن مزوداً بسيف أو قوس »[١] . والواقع أن الصعاليك أعدوا لغاراتهم كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية من سلاح ، سواء منه ما كان للهجوم وما كان للدفاع ، ووصفوا فى شعرهم كل ما كانوا يستخدمونه منه ، وتحدثوا عن قيمته لهم فى غزواتهم ، بل فى حياتهم كلها ، فقد كانوا يرون فيه أهم شىء فى حياتهم ، وأغلى ما يملكون فيها ، وما يخلفونه بعدها ، فعمرو بن براقة يذكر أن سيفه هو « جُلُّ ماله »[٢] ، وعروة يذكر أنه لن يخلف بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد :

وذى أملٍ يرجو تراثى ، وإن ما ... يصيرُ له منه غداً لقليلُ
ومالىَ مالٌ غير درع ، ومغفرٌ[٣] ... وأبيض من ماء الحديد صقيلُ
وأسمرُ خطىٌّ القنـــاة مثقف ... وأجردُ عريانُ السراة طويلُ[٤]

هذا كل ما يملكه أبو الصعاليك ، وكل ما سيخلفه من بعده لوارثيه ، وهذا كل ما يسجله فى « وصيته » من « ثروته » . وقد بلغ من شدة حرص صَخر الغَىِّ الصعلوك على سلاحه أنه كان يراه ثياباً له لا يخلعها عن جسده[٥] ، ويذكر الرواة أن تأبط شرًّا « كان لا يفارقه السيف »[٦] .

وقد استتبعت هذه الحياة الواقفة فى وجه المجتمع ، المتمردة عليه ، الخارجة على نظمه ، أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد أصحابها طمأنينتهم فيه ، فانقطعت الصلة بينهما ، وانفصمت تلك الرابطة الاجتماعية التى تربط بين الفرد ومجتمعه ، وانحل ذلك العقد الاجتماعى الذى يجعل من الفرد عضواً

---

(١) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 173.
(٢) انظر أبياته الميمية فى الأغانى ٢١/١٧٥ .
(٣) معطوف على محل « درع » ، لأن المعنى « ليس لى إلا درع ومغفر » .
(٤) ديوانه / ٢٠٧ .
(٥) انظر قصيدته الدالية فى السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٣ .
(٦) الجوهرى : صحاح اللغة ، مادة (أبط) .

عاملا لمجتمعه ، متوافقاً معه ، دائراً فى فلكه ، ورأى المجتمع فى هؤلاء الصعاليك « شذّاذاً » خارجين عليه ، غير متوافقين معه ، ، فتنكر لهم ، وتخلى عنهم ، وتركهم يواجهون الحياة دون أية حماية منه أو ضمان اجتماعى ، ورأوا هم فى مجتمعهم مجتمعاً مختلا ، يسيطر عليه ظلم اجتماعى ، وتسوده أنانية اقتصادية جائرة ، وتنقصه عدالة اجتماعية تسوّى بين جميع أفراده ، وتكافؤ فى فرص العيش يهيئ لكل فرد فيه أن يأخذ بنصيبه من الحياة كما يأخذ سائر الأفراد .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله أن فرّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامىّ ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم « مجتمعاً » فوضويًّا ، شريعته « القوة » ، ووسيلته « الغزو والإغارة » ، وهدفه « السلب والنهب » ، ووجدوا فى الصحراء الفسيحة الواسعة التى لا تقيدها قيود ، ولا تحد من حريتها حدود ، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها ، مجالا لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابى ، ويقيمون « دولتهم » الفوضوية ، « دولة الصعاليك » ، حيث يحيون حياة حرة متمردة ، تسودها العدالة الاجتماعية ، وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع .

وأخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تحفل بأحاديث هذا التشرد فى أنحاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الرهيبة ، حيث يحيا الوحش بعيداً عن البشر ، وحيث يكمن الموت فى كل رجء من أرجائها .

ولعل أقوى ما صُور به هذا التشرد فى شعر الصعاليك هاتان الصورتان المتشابهتان اللتان نجد إحداهما عند تأبط شرًّا ، والأخرى فى لامية العرب ، فكلا الصعلوكين مفارق مجتمعه النظامى حيث يعيش البشر ، إلى أعماق الصحراء البعيدة حيث يعيش الوحش ، أما تأبط شرًّا فقد ألفته الوحش لطول ما عاش بينها مسالماً لها ، حتى أنست به ، واطمأنت إليه ، وأما صعلوك اللامية فقد وجد فى ضوارى الصحراء أهلا له ، يستعيض بها عن أهله من البشر ، ويجد بينها الأمن والطمأنينة . يقول تأبط شرًّا متحدثاً عن نفسه :

يبيت بمغنى الوَحش حتى أَلفنهُ ويصبح لا يَحْمِى لها الدهرَ مرْتعا

رأين فتًى لا صيد وحش يهمــه فلو صافحتْ إنسًا لصافحنهُ معا [١]

ويقول صاحب اللامية مخاطباً أهله :

ولى دونكمْ أهلونَ : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وأَرْقطُ زهلولٌ ، وعرْفاءُ جَيْأَلُ

همُ الأَهل ، لامستودَعُ السر ذائـع لديهمْ ،ولا الجانى بما جَرَّ يُخذلُ [٢]

ومن الطبيعى أن هذا التشرد جعل الصعاليك على صلة قريبة بحيوان الصحراء ، استطاعوا عن طريقها أن يعرفوا طباعه وعاداته ، وأن يتحدثوا عنه وعنها حديث الخبير المطلع . وفى شعرهم صور كثيرة لحيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها وما يخيل للسارى فيها من أشباح ، كذلك الوصف الدقيق للضباع وحياتها وطباعها فى شعر الأعلم الهذلى [٣] ، وكتلك الصورة الرائعة للذئاب الجائعة فى لامية العرب [٤] ، وكتلك الصور المتعددة للغيلان وما يجرى للإنسان معها فى شعر تأبط شرا [٥] .

وكان من نتيجة هذا التشرد البعيد فى أعماق الصحراء أن أصبح الصعاليك على علم واسع بأسرارها ، ومعرفة دقيقة بشعابها ودروبها ومسالكها ومياهها ، ومقدرة فائقة على الاهتداء فى مجاهلها ، واختراق متاهاتها المضلة دون دليل . ورواة الأدب العربى يصفون السليك « البعيد الغارة » بأنه « كان أدل من قطاة » [٦] ، بل إنهم يصفون الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا » [٧] .

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ — وقوله « ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعاً » معناه أنه لا يمنعها من الرعى فهى لا تخاف منه .

(٢) أعجب العجب / ١٧ ، ١٨ — السيد : الذئب . والعملس : القوى على السير السريع . والأرقط المراد به النمر . والزهلول : الأملس . والعرفاء : الضبع الطويلة العرف . وجيأل : اسم للضبع ، معرفة بدون الألف واللام ، وهى فى الأصل صفة ثم غلبت فخرجت مخرج الأسماء ، وهى لهذا ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٢/٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) انظر أعجب العجب / ٣٧ — ٥٠ .

(٥) انظر الأغانى ١٨/٢٠٩ ، ٢١٠ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٦) الأغانى ١٨/١٣٤ .

(٧) المرزبانى : معجم الشعراء / ١٦٨ .

وفى شعر الصعاليك أحاديث كثيرة عن الصحراء ، وفخر عريض بمعرفة أسرارها ، والاهتداء فى مجاهلها ، كما نرى فى تلك الأبيات الرائية التى يرويها الأصمعى لتأبط شرا ، والتى يتحدث فيها عن اهتدائه إلى شعب فى أعماق الصحراء المجهولة بصعاليكه دون أن يهديه إليه دليل أو يصفه له خبير[١] ، وكما نرى فى هذه الأبيات القوية من لامية العرب :

وخِرْق كظهر الترْس قفر قطعته ... بعاملتين ، ظهرهُ ليس يُعمَلُ
وألحقتُ أُولاه بأُخراه موفيا ... على قنة أُقْعِى مرارًا وأَمْثُلُ
ترُودُ الأَرَاوِى الصُّحْمُ حولى كأَنها ... عذارى عليهن الملاء المذيَّل
ويَرْكُدْنَ بالآصال حولى كأَننى ... من العصْمِ أَدْفى يَنتحى الكِيحَ أعقَلُ[٢]

فالشاعر فى هذه الأبيات يصف الصعلوك بأنه يخترق الصحراء النائية الخالية التى لا يطرقها أحد ، معتمداً فى اختراقها على رجليه القويتين السريعتين ، حتى يصل إلى منازل الوعول البعيدة التى لم تعد تنكره ، لكثرة ما خالطها ، حتى كأنه واحد منها .

والناظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ فى وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم :

طائفة « الخلعاء والشذاذ » الذين أنكرتهم قبائلهم ، وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحللت بهذا من العقد الاجتماعى الذى يربط بينها وبينهم ، والذى يصوره المثل العربى القديم « فى الجريرة تشترك العشيرة »[٣] ، فأصبحت لا تحتمل لهم جريرة ، ولا تطالب

---

(١) انظر الأصمعيات ١/٣٥ .

(٢) أعجب العجب / ٦٧ — ٦٩ — الخرق : الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح . والعاملتان : رجلاه. وظهره ليس يعمل أى ليس مما تعمل فيه الركاب . وموفياً أى مشرفاً . والقنة : أعلى الجبل . وأمثل : أقف وأقوم . والأراوى : إناث الوعول . والصحم : السود التى يضرب لونها إلى صفرة . ويركدن أى يثبتن . والعصم : الوعول التى فى أيديها بياض . والأدفى من الوعول : الذى طال قرنه طولا شديداً . والكيح : عرض الجبل . والأعقل : الممتنع فى الجبل العالى .

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/١٧ .

بجريرة يجرها أحد عليهم ، مثل حاجز الأزدى [١] ، وقيس بن الحدادية [٢] ، وأبى الطَّمَحَان القينى [٣] .

وطائفة « الأغربة » السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ، ولم ينسبوهم إليهم ، لأن دماءهم ليست عربية خالصة ، وإنما خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل من درجة نقائها إلى درجة الدم العربى ، مثل تأبط شرا [٤] ، والشنفرى [٥] ، والسليك بن السلكة [٦] .

ثم طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلة التى كانت تسود المجتمع الجاهلى ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل .

من هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات الصعاليك ، وهى عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات ، وانطلقت إلى الصحراء ، كما تنطلق الذئاب الجائعة ، لتشق لنفسها طريقاً فى الحياة ، وقد جمع بينها — على اختلاف قبائلها — الفقر ، والتشرد ، والتمرد ، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى يؤمن بها المجتمع الذى خرجت عليه ، والإيمان بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف نسائع حقه فى هذا المجتمع .

والظاهرة الواضحة فى حياة هؤلاء الصعاليك — على اختلاف الدوافع التى دفعتهم إلى حياة التصعلك — هى أنهم جميعاً فقدوا توافقهم الاجتماعى . وظاهرة « التوافق الاجتماعى » [٧] هى الظاهرة التى يقرر علماء الاجتماعى أنها الأساس

---

(١) انظر الأغانى ١٢/٤٩ (بولاق) .
(٢) انظر الأغانى ١٣/٢ (بولاق) .
(٣) انظر الأغانى ١١/١٣٠ (بولاق) .
(٤) انظر السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .
(٥) انظر المصدر السابق / الصفحة نفسها .
(٦) انظر المصدر نفسه/ الصفحة نفسها ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء/ ٢١٤ .
(٧) Social Adjustment

الذى تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع ، بحيث يكون عمل الفرد من أجل صالح المجموع ، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد . وفقدان هذا « التوافق الاجتماعى » ينتهى بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس « السلوك الصراعى »(١) ، وذلك لأن فى كل مجتمع تيارين متضادين : أحدهما يتصل بالفرد ، والأخر يتصل بالمجتمع ، ووجود هذين التيارين يستدعى وجود نوعين من الصلة بين الفرد والمجتمع ، فإما أن يكون بينهما « وفاق » ، وإما أن يكون بينهما « صراع » ، وهذان النوعان من الصلة بين الفرد والمجتمع هما ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميتهما « بالسلوك التعاونى »(٢) ، « والسلوك الصراعى »(٣) .

ومن الطبيعى أن تكون الأسباب التى جعلت هذه الطوائف المختلفة من الصعاليك تفقد توافقها الاجتماعى أسباباً مختلفة ، وذلك لاختلاف « المشكلة النفسية » التى تواجهها طائفة منها عن المشكلة التى تواجهها طائفة أخرى . ولكن هذه المشكلات — على اختلافها — كانت تنتهى بطوائف الصعاليك جميعاً إلى هذا « اللاتوافق الاجتماعى » الذى كان يدفعها إلى أن يكون سلوكها الاجتماعى « سلوكاً صراعيًّا » .

* * *

والآن ، بعد هذه الجولة الواسعة خلف أخبار « صعاليك العرب » وأشعارهم ، فى كتب اللغة ، وفى مصادر الأدب العربى ، نقف لنسجل النتيجة التالية :

تدور كلمة « الصعلكة » فى دائرتين : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هى الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ويظل فى نطاقها فقيراً ، يخدم الأغنياء

---

(١) Conflict

(٢) Co-operation

(٣) انظر فى تفصيل هذا :

E.R. Groves; Personality and Social Adjustment, & R.M. Mac Iver; Society.

أو يستجديهم فضل مالهم ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء لتنتهى . أو لتحاول أن تنتهى ، بعيداً عنها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذى فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية . وأن يخرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه — من أجل هذه الغاية — لا يسلك السبيل التعاونى ، وإنما يدفعه « لا توافقه الاجتماعى » إلى سلوك السبيل الصراعى ، فيتخذ من« الغزو والإغارة للسلب والنهب » وسيلة يشق بها طريقه فى الحياة ، فيصطدم بمجتمعه الذى يرى فى هذه الفوضوية الفردية مظهراً من مظاهر التمرد . وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ، ويحرمه حمايته ، ويعيش الصعلوك خليعاً مشرداً ، أو طريداً متمرداً ، حتى يلقى مصرعه ، فأما أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفزع الذى كانوا يترقبونه فى كل حين ، كما يترقب غائباً مُتَنَظَّراً أهلُه — على حد تعبير عروة — وأما أصدقاؤه فقد سقط أحدهم فى سبيل فكرته بعد أن أدى رسالته فى هذه الحياة .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة عن طريق استعراض هذه الظاهرة فى مصدرها الأول ، وهو المجتمع الجاهلى ، فإن فى صنيع اللغويين ما يؤيدنا فيما وصلنا إليه ، حيث أشاروا إلى جانب خاص من المادة اللغوية عبروا عنه بصعاليك العرب ، ولنا إذن أن نقول : إن ما عبر عنه اللغويون « بصعاليك العرب » هو ما نعبر عنه « بصعاليك الدائرة الاجتماعية » .

وإذ نلاحظ أن المتصلين بمشكلة الفقر والغنى وتوزيع الثروة فى المجتمع الجاهلى قد أشاروا على ألسنة شعرائهم إلى طائفتين من الصعاليك ، فمدحوا إحداهما « لله هى » ، وذموا الأخرى « لحاها الله »[1] ، نستطيع أن نقول فى ضوء هذه النتيجة التى وصلنا إليها إن هناك نوعين من الصعاليك :

الصعلوك العامل وهو الذى يمثل صعاليك الدائرة الاجتماعية .

والصعلوك الخامل وهو الذى يمثل صعاليك الدائرة اللغوية .

(١) انظر رائية عروة فى ديوانه / ٧٣ — ٨٢ ، وميمية حاتم الطائى فى ديوانه / ٢٥ .

فالمسألة إذن ليست مسألة لغوية فحسب ، يُرجع فيها إلى كتب اللغة ، وإنما هى — إلى جانب هذا — ظاهرة اجتّماعية يرجع فيها إلى المجتمع الجاهلى ، وما كان ينطوى عليه من عوامل عملت على ظهورها ، والاتجاه بها إلى تلك الاتجاهات التى اتجهت إليها .

ولكن ما هذه العوامل ؟ وما هذه الاتجاهات ؟

هذا ما سنحاول دراسته فى الفصول التالية من هذا الباب .

* * *



الفصل الثانى

التفسير الجغرافى لظاهرة الصعلكة

١

أهمية العامل الجغرافى :

حين نقف عند الجانب الجغرافى من ظاهرة الصعلكة ، فإنما نقف عند أول عامل من العوامل التى عملت فى نشأتها وتوجيهها وطبعها بطابع خاص . ففى كل مشكلة من مشكلات التاريخ يعمل عاملان أساسيان : الإنسان ، والبيئة الجغرافية ، وترجع أهمية العامل الجغرافى إلى أنه يعمل فى قوة وإلحاح ، فهو قوة ثابتة لا تكف عن العمل[١] ، والإنسان — على حد تعبير بعض الباحثين — غلة من غلات سطح الأرض[٢] .

والظاهرة التى نحن بصدد دراستها وتفسيرها اتخذت من البادية العربية مسرحاً لها ، وكان ارتباطها بهذا « المسرح الجغرافى » وثيقاً ، تأثرت به فى نشأتها ، وتكيفت معه فى اتجاهاتها ، ولعل فى دراسة هذا « المسرح الجغرافى » أولا ما يعيننا على فهم الدور الذى قام به أبطال قصتنا « الصعاليك » .

٢

جزيرة العرب :

يميز الدارسون لتاريخ غربىّ آسيا بين حملة الحضارة سكان السهول والتلال المنخفضة ، وبين الشعوب المتأخرة سكان الجبال والصحارى[٣] ، ويلاحظون أن

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 2.

(٢) Ibid., p. 1.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

المدنية فى هذا الجزء من العالم هى تلك التى تعرف باسم «حضارة وديان الأنهار » ، القائمة على الزراعة ، التى تصطنع وسائل صناعية للرى ، تغذيها أنهار ذات فيضان موسمى ، وهذه الحضارة تقف عند المستوى الذى يمكن رفع الماء إليه ، ومن هنا يصبح هذا المستوى الحد الفاصل بين الأقاليم المستقرة ومناطق القبائل الرعوية [١] .

وتمثل البادية العربية « تلك الرقعة من الجنوب الغربى لآسيا التى لم تدخل فى نطاق حضارة وديان الأنهار ، والتى أبطأ سكانها — نتيجة لذلك — فى مدارج التقدم الحضارى» [٢] ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الصحارى « أطفال العالم الخالدين» [٣] ، أولئك الذين لا تتغير حياتهم مع تغير الزمن .

والمنظر العام لهذا « المسرح الجغرافى » الذى دارت عليه قصة صعاليك العرب منظر « نجد تحيط به صحراء ، رملية فى الجنوب والغرب والشرق ، وحجرية فى الشمال ، وتطوق هذا النطاق الخارجى سلسلة من جبال ، أكثرها منخفض قاحل ، ولكنها فى اليمن وعُمان ذات ارتفاع كبير واتساع وخصب ، ومن وراء هذه الجبال حافة ضيقة ساحلية يحدها البحر» [٤] . وينحدر هذا المسرح الجغرافى « من الغرب إلى الشرق ، إذ أن معظم الجبال فى الغرب ، وإن تكن طائفة من المرتفعات فى الجنوب الشرقى ، فى عُمان ، تعد شذوذاً لهذه القاعدة» [٥] .

ومن أظهر ما عرفت به بلاد العرب منذ القدم الجدب والحر ، إذ « تقع الجزيرة العربية كلها تقريباً داخل نطاق الحرارة القصوى الذى يطوق العالم فى شهر يوليه» [٦] . ويرد الجغرافيون هذا إلى أن قسماً كبيراً منها يقع فى منطقة

---

(١) Ibid., pp. 3-4.

(٢) Ibid., p. 5.

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 509.

(٤) Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 19.

(٥) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6.

(٦) Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 20.

الرهو المدارية ذات الضغط العالى والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع فى حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التى تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب . « ويزداد هذا الحر قسوة فوق المنطقة الساحلية بسبب الرطوبة التى تنشأ عن كمية البخار الهائلة المتصاعدة من مستنقعات المياه المغلقة »(١) أما فوق المرتفعات فإن درجة الحرارة تنخفض حتى ليوجد الجليد أحياناً فى ليالى الصيف فوق الجبال جنوبى مكة(٢) .

ومن عوامل الجدب قلة المطر ، وذلك لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تتعرض لها الجزيرة العربية صيفاً تصل إليها بعد أن تكون قد أسقطت أمطارها الغزيرة على الحبشة ، ولهذا فإن أمطارها فى بلاد العرب لا تكاد تذكر بجانب ما يسقط منها فى الحبشة .

وإلى جانب هذه القلة فى كمية المطر نلاحظ أنه يسقط فى فترات متباعدة جداً ، وغير منتظمة ، حتى إن بعض أجزاء الجزيرة العربية لا يسقط المطر فيها إلا كل ثلاث سنوات أو أربع .

وترتبط حياة أهل الصحراء بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سموه غيثاً وحياً ، ويصفه الله تعالى بأنه « رحمته »(٣) ، ومن صلوات الإسلام « صلاة الاستسقاء » التى يقيمها البدو حين تُخْلِف النجوم ، وتجمد الرياح ، ويحتبس المطر ، وتتوقف حياة البادية على تلك القطرات من الغيث ترسلها السماء إلى الأرض ، فتحيا بها بعد موتها . وليس من شك فى أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، حتى ليصف الله تعالى تأثيره فى نفوس أهلها بأنه « إذا أصابَ به من يشاء من عباده إذا هم يَسْتَبْشرون »(٤) ، وحتى ليقف الشعراء من السحاب والبرق والمطر تلك الوقفات الطويلة الجميلة التى سجلوها فى شعرهم ، فيخلع امرؤ القيس

(١) Ibid., p. 20.

(٢) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 8.

(٣) النمل / ٦٣ ، والروم / ٤٦ – ٥٠ .

(٤) الروم / ٤٨ .

فرحته بالمطر على ما حوله من مظاهر الطبيعة فيجعل مُكَّاكِيَّ الجواء غِبَّ المطر في نشوة غامرة كأنما « سقين سُلافاً من رحيق مفلفل » ، ويدعو الباكون لموتاهم بأن يسقى الغيث قبورهم ، ويسأل المحبون لديار أحبابهم أن يسقيها « صوبُ الربيع وديمةٌ تهمى » .

ومن أشد ما تقاسيه البادية العربية احتباس المطر ، فمتى احتبس أصبحت غير صالحة للسكنى ، فقد حل الجفاف « وما يتبعه من نفوق القطعان ، وهلاك الرعاء »[١] ، وأجدب البدو وضاقت أمامهم سبل الحياة ، ولم يعد أمامهم إلا أن يرحلوا عن مواطنهم ينتجعون مواطن الكلأ والماء ، حتى لقد يدفعهم الجدب إلى مغادرة البادية العربية كلها إلى تلال اليمن والشام أو إلى سهول النيل والفراتين[٢] . وفي الأخبار القديمة أن بطوناً من خزاعة « خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجدبوا »[٣] ، وأن بني شيبان أصابتهم « سنةٌ ذهبت بالأموال ، فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك يصبكن من خيره حتى أرجع إليكن ، وآلى أليَّة لا يرجع حتى يكسبهن خيراً أو يموت »[٤] ، وقد يرفض بعض هؤلاء المهاجرين العودة إلى ديارهم بعد سقوط المطر وعودة الحياة إلى البادية ، ضيقاً بهذه البيئة المتقلبة ، ورغبة في الاستقرار والحياة المطمئنة ، ففي أخبار تلك البطون من خزاعة أنهم مضوا في هجرتهم ، « حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوارقَ خلفهم ، وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته » ، فرجع فريق منهم إلى أوطانهم واستمرت قلة في هجرتها[٥] . وفي رأى بعض الباحثين أن السبب الأول في هجرة القبائل اليمنية إلى الشمال يرجع إلى تغير مناخي[٦] ، وأن

---

(١) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 105.

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489.

(٣) الأغانى ١٣ / ٦ (بولاق) .

(٤) الأغانى ١٦ / ٥٠ .

(٥) انظر القصة في الأغانى ١٣/٥ – ٧ (بولاق)

(٦) سليمان حزين في مقالته الفرنسية المنشورة بمجلة كلية الآداب (المجلد الثالث =

تدهور الحضارات القديمة ، وتشتت القبائل ، وانبعاث الهجرات من تلك الجهات ، فى العهد السابق للإسلام مباشرة ، مرتبط على ما يظهر ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ ، وذبذباته ، وعودته إلى الجفاف النسبى بعد الحالة الممطرة [١] .

ويلاحظ الدارسون أن هذه القدرة على هجرة الجماعات الرعَوية ، إنسانها وحيوانها ، إلى مراع جديدة ميزة هامة تمتاز بها هذه الجماعات ، ويلاحظون أن هذا يتم فى سهولة ويسر ، ما لم تكن فى الأرض الجديدة جماعة أكبر عدداً ، وأشد بأساً من الجماعة المهاجرة [٢]. ويرد بعضهم هذه السهولة وهذا اليسر إلى أن كمية المطر القليلة التى تسقط فى الصحراء لا تساعد على نمو الغابات التى تقوم حاجزاً فى طريق الهجرات [٣]

ومما يزيد من قسوة الحياة فى أيام الجفاف اقترانها فى الغالب بريح السموم ، تلك الريح المهلكة [٤] التى تشوى مها الصحراء كما يقول الشاعر القديم [٥] .

ويرجع السبب الأساسى فى هذه الحالة القاسية التى تعانيها الصحراء إلى قلة الماء « فليس فى البادية العربية أنهار دائمة الجريان ، وإنما هى أودية تمتلئ بالماء فى مواسم المطر ، ويغيض ماؤها بعد ذلك» [٦] ، وموسم المطر فى البادية

= الجزء الأول ، مايو ١٩٣٥) .تحت عنوان :

Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud", p. 23.

(١) الباحث نفسه فى تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦ المنشور بالعربية بمجلة كلية الآداب (المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٣٦) ص ١٩٧ .

(٢) ميرز فى مقالته عن « المناخ والجغرافيا وأثرهما فى التاريخ » المنشورة فى مجموعة « تاريخ العالم » لسير جون هامرتن ، الفصل التاسع / ٣٥٧ .

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483.

(٤) انظر القصة الواردة فى الأغانى ١١/٤٢ (دار الكتب) .

(٥) البعيث الحنفى فى حماسة أبى تمام بشرح التبريزى ٤/١٥٠ . . « وهاجرة يشوى مهاها سمومها » .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6.

العربية قصير[١] ، ومن هنا كان جفاف هذه الأودية طويلا « فهى فى العادة تظل جافة تسعة أشهر أو عشرة فى العام»[٢] .

ولكن الحال فى اليمن تختلف ، وذلك لأن « الغدران الساحلية تكثر فيها فى أثناء فصل الأمطار ، وقد تمتلىء فى بعض الأحيان فجأة إلى درجة الفيضان ، فتندفع جارفة أمامها كل شىء ، وتسمى فى هذه الحالة سيولا»[٣] ، ويحدثنا امرؤ القيس فى معلقته عن سيل من هذه السيول اقتلع الأشجار الضخمة ، وأنزل العصم من رؤوس الجبال ، وجرف النخل والأجم ، وأغرق السباع حتى بدت فيه كأنها « أنابيش عُنْصُل » ، بل إنه أحاط ببعض الجبال حتى بدت قممها كأنها « من السيل والغُثاء فلكة مغزل » وفى أغلب الظن أن هذا الوصف ليست فيه مبالغة كبيرة ، وأنه ليس خيال شاعر ، فأحد هذه السيول هو الذى جرف أمامه سد مأرب المشهور ، كما يحدثنا القرآن الكريم[٤] ، ولم يكن هذا السد بالبناء الهين الشأن ، وإنما كان سداً أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع ، وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً ، وعرضه مائة وخمسون ذراعاً[٥] .

وقد وقف سكان الجزيرة العربية من هذه المياه التى تتدفق بها الصحراء فى مواسم المطر موقفين ، هما موقفا الحضارة والبداوة : أما أهل اليمن فقد استطاعوا استغلال هذه المياه المتدفقة ، فأقاموا السدود فى عرض الأودية لحجز السيول ، والانتفاع بمياهها فى إحياء موات الأرض ، ويصف القرآن الكريم مسكن سبأ بأنه « جنتان عن يمين وشمال»[٦] ، وقد استغل اليمنيون هذه الظاهرة الطبيعية استغلالا واسعاً « فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ،

---

(١) Lammens; Le Berceau de l'Isla m, Vol. I, p. 158.

(٢) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

(٣) Ibid,: p. 21.

(٤) سبأ / ١٦ .

(٥) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ١/١٥٦ .

(٦) سبأ / ١٥ .

فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات» [١] ، ويذكر الهَمْدانى أن فى أحد مخاليف اليمن ثمانين سدًّا أشار إليها بعض شعرائهم [٢] .

أما أهل البادية فى الحجاز ونجد فقد تركوا السماء تمطر فتحيي لهم ما تحيي من الأرض ، فإذا زادت مياهها عن الحاجة ذهبت بها رمال الصحراء ، حتى إذا ما انقضى فصل المطر عادت الطبيعة لجدبها ، وعادت الحياة لجفافها ، وعاد القوم لظمئهم وقحطهم . ويبدو أن السبب فى هذا يرجع إلى طبيعة الظاهرة الجغرافية نفسها ، فإن تلك السيول التى عرفتها أودية اليمن لم تعرفها البادية العربية فى الحجاز ونجد — بحكم ظروفها الجغرافية — إلا نادراً ، هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز ونجد كانوا بدواً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم فى هذه السيول والانتفاع بها .

ومع ذلك فليست الجزيرة العربية كلها جدباً ، وإنما هناك مناطق خصبة ، وقد رأينا خصب اليمن التى يسميها الهمدانى « اليمن الخضراء » لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها [٣] .

ويذكر الجغرافيون من هذه المناطق الخصبة هضبة نجد العالية [٤] ، التى ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم ، والتى تكسو أغلبها مراع خصبة ، وتنتشر فيها الأشجار ، ومن هنا اشتهرت بنتاج غنمها وإبلها وخيلها [٥] ، ويرجع السبب فى هذا الخصب إلى وفرة المياه التى « توجد فى كل مكان ، فى آبار لا يتجاوز عمقها خمسة عشر قدماً وقد يقل عنها » [٦] ، كما أن قممها التى يتجاوز ارتفاعها خمسة آلاف قدم تساعد على تجميع المياه [٧] » .

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ١/١٤١ .

(٢) صفة جزيرة العرب ١/١٠١ .

(٣) المصدر السابق / ٥١ .

(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501.

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, pp. 147-148.

(٦) Ibid., p. 147.

(٧) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501.

ولا تخلو سلسلة جبال السَّراة التى تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر « ما بين أقصى اليمن والشام »[١] من مناطق خصبة ، هى بعض تلك الأودية التى تقطع السراة إلى تهامة حتى تنتهى إلى البحر[٢] ، حتى لنجد أن اسم واحد منها « وادى الجنات » وهو – كما يدل عليه اسمه – واد شديد الخصب[٣] ، وهناك من هذه الأودية الشديدة الخصب وادى نخلة[٤] ، ووادى نِحْيان[٥] ، ويصف الهمدانى سراة الحِجْر بالخصب الشديد[٦] .

ووفقاً لقانون جغرافى تعرفه البادية يجعل من مناطق الخصب والماء مناطق استقرار للقبائل ، نزلت القبائل فى هذه الأودية الخصبة ، وأقاموا القرى ، ففى وادى باحان « القرى والزرع »[٧] ، وبالقرب من وادى الجنات قرية النُّبَيْرة وهى « كثيرة الأعناب والفواكه والغيول الحاملة[٨] » .

حتى الحجاز – ذلك الإقليم الجبلى الرملى – يشتمل على بقاع خصبة ، هى تلك الكثبان والربى الخصبة التى تتخلله ، والتى تخرج سفوحها حباً ، وشيئاً من الفاكهة ، وكلأ للقطعان ، وينابيع من ماء دائم[٩] ، ووفقاً لقانون البادية الجغرافى السابق اتخذت القبائل من هذه الكثبان والربى الخصبة منازل لها ، ومن حولها قامت القرى[١٠] ، وحسبنا أن نذكر من هذه القرى الطائف « جنة مكة »[١١] « ومصيف المكيين المترفين »[١٢] حينما يشتد بهم صيف مكة الذى

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١/٦٧ .
(٢) انظر هذه الأودية فى المصدر السابق / ٧١ – ٨٤ .
(٣) المصدر نفسه / ٧٦ .
(٤) المصدر نفسه / ٧٥ .
(٥) المصدر نفسه / ١٢٢ .
(٦) المصدر نفسه / ١٢٣ .
(٧) المصدر نفسه / ١٢١ .
(٨) المصدر نفسه / ٧٧ .
(٩) Sédillot; Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12.
(١٠) Ibid., p. 12.
(١١) Ibid., p. 12.
(١٢) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

لا يطاق ، وذلك لأنها لا تبعد عنها أكثر من سبعين ميلا[١] ، ولم تكن الطائف مصيف أهل مكة وحدهم ، وإنما كانت مصيفاً لغيرهم من القبائل ، حتى البعيدة عنها ، فقد كانت بعض القبائل تقبل إليها من نجد، كما كان يفعل بنو عامر بن صَعْصَعَة الذين كانوا يتصيفونها « لطيبها وثمارها ، ويتشتون بلادهم من أرض نجد »[٢] ، وتقوم الطائف قريباً من ربوة من تلك الربى الخصبة[٣] فوق تلال غزوان[٤] ، وتلتف بها الجنات والكروم[٥] ، وشهرة كروم الطائف وأعنابها شهرة قديمة عرفت بها[٦] . ومن مصادر خصب الطائف الأساسية وفرة المياه فيها « فالأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى ستة ، وعندما تنقطع تكثر الآبار التى تصلح لسقى حدائقها »[٧] ، هذا إلى طبيعة جوها الذى يساعد على نمو كل الفاكهة التى يعرفها جنوبى أوربا[٨] ، فالحرارة فى أوقات الظهيرة ليست ثقيلة ، والليالى ذوات جو منعش[٩].

ومن مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أيضاً يثرب والوديان التى حولها ، فقد اشتهرت الوديان الواقعة فى هذه المنطقة البركانية ، منطقة الحَرَّات ، بخصبها الشديد بالنسبة إلى ما حولها[١٠]. ومرد خصب هذه المنطقة إلى أمرين : طبيعة الأرض ، فإن تفكك الصخور البركانية فيها يحفظ على الأرض خصبها ، ثم وفرة المياه ، فهناك وادى إضَم ، والآبار والصخور البركانية التى تجمع

---

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٢) البكرى : معجم ما استعجم ١/٧٧ .

(٣) Sédillet; Hist. Générale des Arabes, Tome I., p. 12.

(٤) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٦) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368, & Lammens; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 90.

(٧) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٨) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٩) Doughty; Travels in Arabia Deserta, Vol. II, p. 525.

(١٠) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

المياه ، وهى كلها مصادر غنية بمياهها[١] .

وتشتهر هذه المنطقة بصفة خاصة منذ أقدم العصور بزراعة النخل[٢] ، ويطلق عليها عروة بن الورد فى شعره « منبت النخل[٣] » ، وفى شعر حسان ابن ثابت وصف جميل لهذه البيئة الخصبة[٤] .

وفى شمالى يثرب تقع حرة خيبر ، أكبر الحرات فى الجزيرة العربية[٤] ، التى تدين بوجودها إلى غزارة مياهها ، وإلى تحلل صخورها البركانية ، والتى تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ونخلها[٦] .

وفى جنوبى يثرب وادى العقيق ذو العيون والنخيل[٧] بمصايفه ومتنزهاته المحجبة فى خضرته[٨] .

٣

التضاد الجغرافى وأثره فى نشأة حركة الصعاليك :

هذه هى الصورة العامة « للمسرح الجغرافى » الذى دارت عليه قصة صعاليك العرب ، كما نراها من الزوايا التى تفسر لنا مشاهدها ، وهى صورة خلاصة ما يقال فيها أنها تجمع لوناً من « التضاد الجغرافى » يلفت النظر ، ويجدر بنا أن نقف عنده لأن فيه مفتاحاً من مفاتيح هذه القصة ، ولأنه يكشف لنا جانباً من الستار عنها .

والخطوط الأساسية لهذه الصورة هى أنها منطقة صحراوية جبلية ، عرفت

---

(١) Dermenghem; The life of Mahomet, pp. 11, 12.

(٢) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٣) ديوانه / ١٠٦ .

(٤) انظر ديوانه / ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 23.

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٣/٤٩٥ .

(٧) المصدر السابق ٦/١٩٩ .

(٨) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 98.

الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة ، والجبال العالية ذات القمم الثلجية ، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجاهل والمخاوف . ثم هى منطقة عرفت الجدب الذى تتعذر معه الحياة ، حتى يضطر أهلها إلى الهجرة ، والخصب الذى يغرى الناس على الاستقرار وإقامة القرى ، وعرفت المطر يحتبس حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن ، والسيول تتدفق حتى تجرف أمامها كل شى ، وعرفت البرد الذى يعقد ذنب الكلب ، والحر الذى يذيب دماغ الضب ، ويطبخ الإبل ويشويها .

وكان لهذا « التضاد الجغرافى » أثره فى نفوس سكان الجزيرة العربية ، فقد أوجد فى شخصياتهم لوناً من « التضاد النفسى » اصطبغت عناصره بما فى البيئة الجغرافية من لونى المبالغة وعدم الاستقرار . وظهر هذان اللونان الصارخان فى نفوس البدو فى كلا الجانبين الأخلاقيين : جانب الخير وجانب الشر ، فالبدوى لا يعرف القصد لا فى الخير ولا فى الشر ، مبالغ فى عداوته ، مبالغ فى محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته فى سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه .

والبدوى — إلى جانب هذا — يأنف من حياة الاستقرار ، ويرى الدارسون أن «كل جانب من جوانب الحياة البشرية فى الصحارى يحمل طابع الحركة» [١] ، وأن « القاعدة التى تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلقلة » [٢] . ومن هنا احتقر البدو الزراعة [٣] ، ويذكر ابن خلدون أنها « من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو » [٤] ، واحتقروا الصناعة [٥] ، وعند ابن خلدون أن « العرب أبعد

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, pp. 487, 488.

(٢) Ibid., p. 49·0

(٣) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375; & Semple; Influences of Geographic Environment, p. 500.

(٤) انظر الفصل الثامن من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٣٩٤ .

(٥) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375.

الناس عن الصنائع »[١] . وآمنوا بأن الرعى والتجارة والصيد والنهب هى وحدها الأعمال التى تليق بالرجال[٢] ، وهى كلها أعمال بعيدة عن الاستقرار .

ونستطيع بعد هذه النظرة العامة أن نركز الضوء على أبطال قصتنا ، صعاليك العرب ، حيث يتحركون على هذا المسرح الجغرافى الذى رسمنا خطوطه الأساسية ، لنتبين كيف تأثرت حركتهم به ، وكيف تكيفت معه .

وأول ما نلاحظه أن هذه البيئة الجغرافية كانت عاملا أساسيًّا فى وجود الفقر من ناحية ، وفى الإحساس به من ناحية أخرى .

فهذه البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد ، والموارد الطبيعية المحدودة ، التى تعتمد على المطر تجود به السماء فى فترات متباعدة غير منتظمة ، والتى يسيطر عليها الجفاف والجدب أكثر شهور السنة ، والتى تقع تحت وطأة الطبيعة مباشرة ، فلا يجد أهلها إذا ما اشتدت عليهم إلا الهجرة ، عامل فعال فى وجود الفقر .

ويلاحظ الدارسون أن «البدوى والعوز صاحبان ألف كل منهما صاحبه»[٣] ، وأن « الفقر مكان الشظف والسَّغَب» . وأن « نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن » التى اختص بها أهل البادية أمور « حملتهم عليها الضرورة التى عينت لهم تلك القسمة »[٤] ، وأن الظروف الاجتماعية التى تسود البيئة الصحراوية توصد أبواب الرزق فى وجوه أبنائها ، وتجعل من العمل فى سبيله مهمة شاقة غير مثمرة ، فهى حياة تعرف الكدح الكثير ، ولكنها تضيع ثمرته[٥] . « فهذه السهول القاحلة تحول دون نمو الثروة الإنتاجية ، فيما عدا قطعان الغنم والماشية ، بل إنها تحد من نمو هذه القطعان نفسها ، نظراً لقلة ما تقدمه لها مراعيها الهزيلة المتفرقة من غذاء ، وهو غذاء لا يتجاوز تلك

---

(١) انظر الفصل الحادى والعشرين من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٤٠٤ .

(٢) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 490

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل التاسع من الباب الثانى من الكتاب الأول / ١٢٩ .

(٥) Semple; Influences of Geographic Environment, p. I.

الحشائش والأعشاب وما يشبهها من أنواع النبات التى تحتمل جفاف صيف طويل ، والتى تحتاج إلى وقت قصير لنموها »[١] . وهكذا انحصرت حياة البدو دون تدخل منهم فى الرعى ، ما دامت الموارد الطبيعية التى لديهم قد حصرت ثروتهم فى هذه القطعان . ومع ذلك فإن هذه الثروة النسبية التى يملكها البدوى ليست بالثروة المضمونة البقاء فإن « وباء ينتشر بين قطعانه ، أو جدباً فى المرعى ، أو جفافاً فى الآبار ، يضعه وجهاً لوجه أمام المجاعة ، ويدفعه دفعاً إلى السرقة والنهب»[٢] .

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملا فى وجود الفقر كانت عاملا فى إحساس الفقراء إحساساً قويًّا به ، حين أوجدت فى جوار المناطق المجدبة مناطق خصبة ، مما أشعر أبناء المناطق المجدبة بأن الحياة لم تحرم الناس جميعاً كما حرمتهم ، وإنما أغدقت على طائفة من الناس ماءً لا ينضب ، وكلأً لا يجف ، وثروة لا تهددها الطبيعة فى كل لحظة بالفناء ، بقدر ما سلطت عليهم من سياط الحرمان جفافاً وجدباً وفقراً . والنتيجة النفسية لهذا — كما يقرر علماء النفس — نشأة « عقدة الفقر » فى نفوسهم . ولو أن الطبيعة سوت بين أهل البادية جميعاً فى الفقر لما أحس أحد هذه الفوارق الطبقية التى تثير فى نفوس الطبقة الفقيرة الثورة والتمرد ، وهذا معنى قولنا إن ظاهرة « التضاد الجغرافى » تحمل مفتاحاً من مفاتيح قصة صعاليك العرب .

ثم إن هذه البيئة الجغرافية خلقت من أبنائها رجالا أقوياء . فالصحراء — كما يقرر الدارسون — تربى فى نفوس أبنائها « صفات الشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار »[٣] ، «وحياة الصحراء بما فيها من مخاطرة ، واعتماد على النفس ، تجعل من العربى أشجع الجنس البشرى»[٤] ،

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483.

(٢) Ibid., p. 490.

(٣) Ibid., p. 510.

(٤) Ibid., p. 493.

« وأهل البدو » — كما يذكر ابن خلدون[١] — « أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر ... قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية» ، ومرد هذا عنده إلى حياتهم التي يحيونها في البيداء ، والإنسان « ابن عوائده ومألوفه» .

وقد رأينا أن هؤلاء الرجال الأقوياء من أبناء الصحراء يرفضون الاعتماد في حياتهم على الزراعة أو الصناعة ، ولا يجدون سبيلا للعيش إلا في الرعي أو التجارة أو الصيد أو النهب ، ورأينا في الفصل السابق كيف كان صعاليك العرب يرفضون الرعي ، لأنهم يرون فيه عملا من أعمال العبيد الأذلاء ، أما التجارة فلم يكن للصعاليك مجال فيها ، إذ هي تعتمد قبل كل شيء على رأس مال يستغل فيها ، وأنّى لهؤلاء الفقراء رأس المال الذي يصلح للاستغلال التجاري ؟ وإذن لم يبق أمامهم سوى الصيد والنهب ، وقد اعتمدوا عليهما جميعاً ، وهما — كما نرى — سبيلان للعيش متشابهان ، أو هما فرعان لأصل واحد هو الاغتصاب.

هكذا خلقت الصحراء هؤلاء الرجال الأقوياء ، ووضعتهم في بيئتها الفقيرة ، وضيقت عليهم موارد العيش ، وأوجدت في جوارهم بيئات خصبة تفيض بالمال والثراء ، فلم يكن هناك مفر من النتيجة التي تنتج من تفاعل هذه العوامل معاً ، وهي « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وانتشر صعاليك العرب في البادية يقطعون طرقها ، وينهبون ويسلبون ، ويثيرون في أرجائها الرعب والفزع ، ويغيرون على المناطق الخصبة ، ويهددون أهلها في ثروتهم وحياتهم ، ويعترضون القوافل التجارية ، حتى لتضطر إلى أن تخرج مسلحة في حرس شديد ، أو تحتاج إلى من يجيزها على المناطق الخطرة[٢] ، وحتى لتتنكب القبائل العربية في اختيار منازلها مقانب العرب في سراياهم[٣] ، ويحذر بعضهم بعضاً من أن يتلعب به صعاليك العرب ، وتتخطفه ذئابها ، وتأكل ماله[٤] .

---

(١) المقدمة الفصل الخامس من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٢٥ .

(٢) انظر قصة البراض الكناني وعروة الرحال مع لطيمة النعمان في الأغاني ١٩/٧٥ ، وانظر في قصص الخفارة المحبر لابن حبيب / ٢٦٣—٢٦٧ .

(٣) البكري : معجم ما استعجم ١/٥٣ .

(٤) الأغاني ٢/١٢٦ ، والبغدادي : خزانة الأدب ١/١٨٥ — ١٨٦ .

٤

التضاد الجغرافى وأثره فى توجيه حركات الصعاليك :

وتتدخل ظاهرة « التضاد الجغرافى » مرة أخرى لترسم لهؤلاء الصعاليك المغامرين طريقهم ، وتحدد لهم مناطق نشاطهم ، فتكون هى تلك المناطق الخصبة التى تعرفها الجزيرة العربية .

ويلاحظ الدارسون أن هذا الصراع هو الصلة الجغرافية الطبيعية بين الصحارى المقفرة والوديان الخصبة ، بين أرض الفقر وأرض الثراء [١] ، فمنذ أقدم العصور ، وهذا النطاق الصحراوى الذى يطوق الدنيا القديمة ، يرسل على الوديان الخصبة المجاورة موجات متلاحقة من القبائل المغيرة الباحثة عن الخصب فى تلك الأرض الطيبة ، عندما تقل لديها موارد الرزق ، ويحرق جفافُ الصيف المراعى ، ويجفّف موارد المياه [٢] . وليس من الممكن أن يعيش بدو الصحارى وحضر السهول الزراعية فى أى مكان متجاورين فى سلام وإنما هى الغارات والاعتداءات والثارات [٣] ، حتى ليعد هذا النطاق الصحراوى منطقة تقدّم لكل أعداء النظام الحماية والأرض الصالحة للتجنيد [٤] .

هكذا اتخذ صعاليك العرب من مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أهدافاً لهم يتجهون إليها ، ومناطق نشاط يعملون فيها ، حتى إننا لو رسمنا مصوراً جغرافياً لحركات الصعاليك فى الجزيرة العربية ، ووضعنا عليه السهام التى تبين الاتجاهات — كما يفعل أصحاب الخطط الحربية — لوجدنا هذه السهام تخرج من مناطق الجدب ، وتتجه رءوسها إلى مناطق الخصب . ويذكر تأبط شرًّا أن أهدافه هى تلك المزارع الخصبة حيث الماء والزرع والماشية :

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) Ibid., p. 7.

(٣) Ibid., p. 492.

(٤) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

فيوماً على أهل المواشى ، وتارةً لأهل رَكِيب ذى ثَمِيل وسنبل[١]

ويصرح أبو خراش بمثل هذه الأهداف :

لستُ لمرةَ إنْ لم أوفِ مَرْقَبَةً يبدو لىَ الحرْفُ منها والمقاضيبُ[٢]

وفى أخبار السليك أنه خرج فى بعض غزواته يتتبع الأرياف[٣] .

وقد لاحظنا أن أهم مناطق الخصب فى الجزيرة العربية هى اليمن ، ونجد ، وبعض مناطق السراة ، ويثرب والوديان المحيطة بها . ونستطيع أن نقول — ونحن مطمئنون — إن كل هذه المناطق ، بدون استثناء ، تعرضت لغزوات الصعاليك .

وقد توزع نشاط الصعاليك بين هذه المناطق ، حتى ليوشك أن تكون لكل جماعة من جماعاتهم مناطق اختصاص يتركز فيها نشاطهم :

أما عروة بن الورد وصعاليكه ، أو « فتيانه » كما كانوا يسموْن أحياناً[٤] ، فقد تركز نشاطهم الأساسى فى منطقة يثرب وما يجاورها من شمالى الجزيرة العربية . وفى شعره وأخباره أحاديث كثيرة عن غزواته لهذه المنطقة . فهو يعلن صعاليكه مرةً بأنهم لن يحققوا كل آماله ، ولن يبلغوا أقصى همته ، حتى يصلوا إلى يثرب منبت النخل فيغيروا عليها :

فإنكمُ لن تبلغوا كل همَّتى ولا أَرَبى حتى تروا منبتَ النخلِ[٥]

وفى أبيات أخرى يتوعد الأوس ، ويعلنهم بأنه سيترصد لهم بأحد الأودية حول يثرب :

---

(١) لسان العرب : مادة (ركب) ، ومادة (ثمل) — الركيب : المزرعة . والثميل : الحب .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٥٩ . ويروى فى لسان العرب : مادة (قضب) لعروة بن الورد (انظر أيضاً ديوانه / ١٩٣) . والواضح أنه لأبى خراش فإن مرة هو أبوه — أوفى : أشرف . والحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، ولعلها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل « المقاضيب » بعدها ، وهى الأرض تنبت النبات الرطب ، جمع مقضبة أو مقضاب .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٠ . وانظر أيضاً شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/١٩٢ .

(٤) انظر شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ .

(٥) المصدر السابق ٢/٨ ، ٩ .

فإلاَّ أَنلْ أوساً فإنِىَ حسبها بمنبطح الأَدغال منْ ذى السَّلائل[١]

وفى أخباره أنه أغار على مزينة[٢] ، ومنازل مزينة « جبال رَضْوَى وقُدْس وآرة وما والاها وصاقبها من أرض الحجاز »[٣] «بين حرة بنى سُلَيم وبين المدينة »[٤] ، بل إننا لسنا فى حاجة إلى هذا التحديد ، فإن قصة الغارة صريحة فى أن مزينة كانوا يخالطون بنى النضير[٥] ، وعروة نفسه يذكر فى شعره أنهم كانوا ينزلون « فويق بنى النضير »[٦] ، وبنو النضير كانوا بنواحى يثرب[٧]. وهذه المنطقة التى أغار عليها منطقة خصبة « فيها العيون والنخل والزيتون والبان والياسمين والعسل وضروب من الأشجار والنبات »[٨] . وفى أخباره أيضاً أنه كان ينزل بصعاليكه فى ماوَان ، ويجعل منها « نقطة ارتكاز » لغزواته فى تلك المنطقة[٩] ، وماوان واد فيه ماء بين النَّقِرة والربَذَة فى منطقة يثرب[١٠]، وهو يتحدث فى بعض شعره عما كان يحدث له مع صعاليكه فى هذه المنطقة[١١]، وفى أخباره أيضاً أنه خرج بصعاليكه « متيامناً عن المدينة يريد أرض قضَاعة ، وقصد بَلْقَيْن »[١٢] ، وأنه فى مرة أخرى خرج بهم غازياً « ومضى حتى انتهى

---

(١) الأغانى ٣/٧٥ . وذو السلائل : واد بين الفرع والمدينة (ياقوت : معجم البلدان ٥/١٠٥) ، والفرع قرية غناء كبيرة بها نخل ومياه كثيرة (المصدر السابق ٦/٣٦٣) .

(٢) الأغانى ٣/٧٥ .

(٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .

(٤) المصدر السابق / ٩١ .

(٥) الأغانى ٣/٧٦ .

(٦) ديوانه / ٤٥ .

(٧) تاريخ ابن خلدون ٢/٨٢ .

(٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/٣٧ .

(٩) الأغانى ٣/٧٩ ، ٨٥ ، وديوانه / ٩٧ ، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ — سطر ١٨ .

(١٠) ياقوت : معجم البلدان ٧/٣٧٠ .

(١١) شرح ابن السكيت على ديوانه / ٩٧ وما بعدها. وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٧ ، ٩ .

(١٢) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ سطر ١٢ ، ١٣ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه / ٩٦ .

إلى بلاد بنى القين فأغار عليها [١] » ، ومنازل بنى القين فى أرض التيه [٢] فى الشمال الغربى من جزيرة العرب [٣] ، وهو يعلن صعاليكه بأنه لن يستقر بهم حتى يروا « منبت الأثل » [٤] ، ومنبت الأثل بلاد بنى القين [٥] .

ومع ذلك فقد كان عروة يغير أحياناً على مناطق أخرى غير مناطق اختصاصه، وهو يصرح فى شعره بأنه يغير أحياناً على نجد، وأحياناً على تهامة :

فيوماً على نجد وغارات أهلها ... ويوماً بأرض ذات شَثٍّ وَعَرْعَرِ [٦]

وفى أخباره أنه أغار مرة على منازل هذيل [٧] ، ومنازل هذيل فى جبال السراة [٨] جنوبى مكة [٩] ، ولكن يبدو أن هذا كان نادراً ، ولعله لم يكن يحدث إلا فى حالات خاصة ، فقصة غارته هذه لم تكن إلا لوناً من التسلية أراد به أن يظهر براعته وسعة حيلته ، وأن يبين للهذلى الذى أغار عليه مقدار غفلته ، حتى ليرد عليه ما غنمه منه ، لولا أن يأبى الهذلى ذلك إعجاباً به [١٠] .

أما منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف ، وأول الطريق الصاعد إلى اليمن ، فلعلها المنطقة التى شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب . ويذكر الأصمعى أن بالحجاز والسراة من هؤلاء العدائين الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون أكثر من ثلاثين [١١] ، وأن بهذيل وحدها منهم أربعين [١٢] ، ومرد

---

(١) الأغانى ٣/٨٢ .
(٢) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ سطر ١٨ ، ١٩ .
(٣) Ency. of Islam; art. 'Urwa b. Al-Ward.
(٤) شرح ابن السكيت على ديوانه / ١٠٦ .
(٥) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ — السطر الأول .
(٦) ديوانه / ٨٤ .
(٧) الأغانى ٣/٨٣ .
(٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .
(٩) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.
(١٠) انظر القصة فى الأغانى ٣/٨٣ — ٨٥ .
(١١) الأصمعى : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .
(١٢) المصدر السابق ، ورقة رقم ٢٢ .

ذلك عندى إلى أربعة عوامل :

فهذه المنطقة ، أولا ، منطقة يظهر فيها « التضاد الجغرافى » ظهوراً شديداً ، حتى ليعدها الجغرافيون من المناطق التى يختلط فيها الرعى بالزراعة [١] . ففيها من المناطق ما يصفه القرآن الكريم بأنه واد غير ذى زرع [٢] ، ويذكر بعض الدارسين أن ليس فيما يحيط بمكة من أرض ما يكفى لحياة سكانها [٣] ، وليس فى جميع جبال مكة — كما يذكر الجغرافيون — نبات إلا شىء يسير من الضهياء يكون فى الجبل الشامخ ، وليس فى شىء منها ماء [٤] ، ولكن فى هذه المنطقة إلى جانب هذا مناطق شديدة الخصب ، وقد رأينا منها الطائف ، وتعد منطقة السراة جنوبى مكة أشد مناطق الحجاز خصباً [٥] ، تنمو بها أشجار الصمغ والصنوبر والسرو [٦] ، وقد قلنا إن ظاهرة التضاد الجغرافى تثير فى نفوس الفقراء إحساساً قويًّا بالفقر يدفعهم إلى التمرد .

وهذه المنطقة ، ثانياً ، منطقة جبلية . وسكان المناطق الجبلية — فى العادة — أشداء مغامرون متكبرون ، أخذوا من الصخر شدته ، ومن التواء الدروب حب المغامرة ، ومن شموخ الجبال الكبرياء العنيدة التى ترفض الخضوع . ويقرر الدارسون للبيئات الجغرافية « أن سكان الجبال الذين لم

---

(١) انظر المصور الجغرافى فى كتاب :
Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) إبراهيم / ٣٧ .

(٣) Sédillot, Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12.

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٣/٢٤٠ — والضهياء : شجر كثير الشوك .

(٥) Ency. of Islam, art. Arabia, p. 368.

(٦) Lammens, Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 92.

وليس صحيحاً ما ذكره لامانس من أن جبالها تنبت الجوز بكثرة ، استناداً إلى أنها تسمى جبال الجوز ، كما أنه ليس صحيحاً ما ذكره من أن كل منطقة الحجاز تنبت الجوز استناداً إلى السبب نفسه . . . (Ibid., pp. 92, 93)

فالجوز هنا ليس المراد به تلك الثمرة المعروفة ، وإنما معناه الوسط ، فهى جبال الجوز لأنها تتوسط بين نجد وتهامة ، وكذلك القول فى الحجاز ، وليس هناك أى دليل على أن هذه المنطقة تنبت الجوز (انظر تاج العروس ، مادة جوز) .

يأخذوا بقسط وافر من الحضارة ، والذين لم تهيئهم أمزجتهم أو ظروفهم الاقتصادية الضيقة للهجرة ، يحلون مشكلة نقص موارد الطعام بالإغارة على حقول جيرانهم الأغنياء ومخازنهم ، حتى لتملأ غارات النهب تاريخ سكان الجبال الفطريين »[١] ، ويذكرون أن سكان الجبال القدماء فى الألب وشمالى أسبانيا والبلقان وإيطاليا والمرتفعات المحيطة بالفراتين ، كلهم قطاع طرق ، يعيشون على النهب والسلب ، نظراً لجدب بيئتهم الطبيعية وما تسببه لهم من قلة موارد العيش وما يتبع ذلك من فقر وجوع[٢] .

وهكذا لم تكن القبائل العربية التى نزلت فى المناطق الجدبة من سلسلة جبال السراة بدعاً فى تاريخ العالم .

ثم إن هذه المنطقة ، ثالثاً ، بحكم طبيعتها الجبلية تيسر وسائل الهرب والاختفاء والنجاة لهؤلاء الصعاليك ، فما أيسر ما يجدون فى دروبها الملتوية ، وشعابها المتعرجة ، وطرقها الصاعدة الهابطة ، فرصاً طيبة تساعدهم على الهرب ، وما أكثر ما يجدون فى كهوفها المتعددة ، وثناياها الغامضة المحجبة ، وصخورها العالية المتناثرة ، أماكن صالحة للاختفاء .

ففى أخبار تأبط شرًّا أنه أغار ومعه ابن براقة على بجيلة ، فلما خرجت فى آثارهما « مضيا هاربين فى جبال السراة ، وركبا الحزْن »[٣] ، وفى أخبار مُرَّة بن خُلَيف[٤] أنه غزا الأزد ، « فأسندَ فى جبل لهم منكر ، ليجد فرصة فيغير »[٥] .

ثم إن هذه المنطقة ، رابعاً ، تعرضت لظروف اقتصادية خاصة ، سنعرض لها عند تفسيرنا الاقتصادى لظاهرة الصعلكة .

وأشهر الصعاليك الذين انتشروا فى هذه المنطقة الجبلية صعاليك فهم وصعاليك هذيل ، ومن انضم إلى أولئك وهؤلاء من خلعاء القبائل وشذاذها .

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 586.

(٢) انظر تفصيل هذا فى المصدر السابق : الموضع نفسه .

(٣) الأغانى ١٨/٢١١ .

(٤) ينص الأغانى على أنه من صعاليك فهم (١٨/٢١٥) .

(٥) ابن حبيب : المحبر / ١٩٨ .

وقد قدمنا أن قبيلة هذيل كانت تنزل من تلك المنطقة الجبال جنوبي مكة ، وكان لهم صدور أوديتها وشعابها الغربية[١] التى تلى الرملة من تهامة[٢] ، وكانت تجاورهم فى جبالهم فَهْم[٣]، وكانت سراة فهم تجاور سَراة ثقيف[٤] التى تقع إلى جانب الطائف[٥] .

وقد اتجهت أكثر غزوات صعاليك هذه المنطقة إلى ديار بجيلة ، وهى إحدى القبائل التى عرفت بالضعف[٦] . ويبدو أن من أسباب هذا نزول بجيلة « فى حضرة الطائف »[٧] هذا الإقليم الشديد الخصب ، ومجاورتها سراة فهم نتيجة لذلك . ولهذا نلاحظ أن تأبط شرا الفهمى ، ورفاقه من صعاليك فهم ، ومن شذاذ القبائل الذين كانوا يصحبونه ، كانوا مفتونين بالإغارة على هذه المنطقة ، ففى أخباره أنه خرج فى عدة من فهم « حتى بيتوا العوْص ، وهم حى من بجيلة ، فقتلوا منهم نفراً ، وأخذوا لهم إبلا »[٨] ، وأنه أغار « ومعه ابن براق الفهمى على بجيلة فأطردا لهم نعماً »[٩] ، وأنه خرج ومعه صاحبان له « يريدون الغارة على بجيلة »[١٠]، و « أنه خرج غازياً يريد بجيلة هو ورجل معه » ، أو « هو وصاحبان له حتى أغاروا على العوص من بجيلة فأخذوا نعماً لهم »[١١] ، وفى أخبار صعاليك هذيل أنهم كانوا يغزون بجيلة أيضاً[١٢] .

وقد اتجهت غزوات صعاليك هذيل إلى منطقة مكة أيضاً ، بحكم قربهم

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .
(٢) السيوطى : المزهر ٢/٣٠٠ .
(٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .
(٤) المصدر السابق /١٥ .
(٥) المصدر نفسه /٦٧ .
(٦) W. Robertson Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 170. (F.N.)
(٧) البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠ .
(٨) الأغانى ١٨/٢١٥ .
(٩) المصدر السابق /٢١١ .
(١٠) المصدر نفسه /٢١٧ .
(١١) المصدر نفسه /٢١٣ .
(١٢) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ .

منها ، ففى أخبار الأعلم الهذلى أنه خرج « هو وأخواه صخر وصُخَير حتى أصبحوا تحت جبل يقال له السِّطاع »[١]، وهو جبل بينه وبين مكة مرحلة ونصف من جهة اليمن[٢] ، وفى أخبار بعض الصعاليك الهذليين أنهم كانوا يغيرون على خزاعة[٣] ، وكانت خزاعة تقيم بمكة[٤] ، ولكن يبدو أن للمسألة جانباً آخر اقتصادياً سنحاول استجلاءه فى تفسيرنا الاقتصادى لظاهرة الصعلكة.

وقد كانت بين هذيل وفهم ثارات[٥] ، فكان صعاليك كل من القبيلتين يغيرون على الأخرى ، فيتربص بهم صعاليكها ، وهكذا . ويبدو أن سر المسألة يرجع إلى الصراع بين الطائفتين على أهداف واحدة ، وقد رأينا أن صعاليك هذيل كانوا يغيرون على بجيلة ، هدف صعاليك فهم الأول ، ويبدو أن كلا من الطائفتين كانت تريد أن تكون لها وحدها السيطرة المطلقة على هذه المنطقة الخصبة .

أما منطقة اليمن فقد عرفت أجزاؤها القريبة من الحجاز ، وبخاصة ديار خثعم ، صعاليك من فهم وصعاليك من الأزد ، ففى أخبار تأبط شراً أنه « أغار على خثعم »[٦] ، وفى أخبار حاجز الأزدى أنه جمع « ناساً من فهم وعَدْوان ، فدلهم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا[٧]»، وكانت خثعم تنزل تُرْبَةَ وبيشةَ وظهرَ تَبَالة على محجة اليمن من مكة إليها[٨]، وهى منطقة خصبة « بها من النخل والفسيل شىء كثير »[٩] ، وبعض أوديتها ،

---

(١) الأغانى ٢٠/٢٠ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٥/٨١ .

(٣) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٦١ ، وديوان الهذليين ٢/١٤٢ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/٧١ .

(٥) انظر أمثلة على هذه العداوات فى السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

(٦) الأغانى ١٨/٢١٦ ، ٢١٧ .

(٧) الأغانى ١٢/٥١ (بولاق) .

(٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠ وأيضاً / ٦٣ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٣٤ .

وبخاصة وادى بيشة ، ينتمى إلى أطيب مناطق بلاد العرب ، وأكثرها خصباً [١] ، ويصف ياقوت بيشة بأنها « قرية غناء فى واد كثير الأهل من بلاد اليمن » [٢] .

وكذلك تعرضت سراة الأزد لبعض الغزوات ، فقد كان الشنفرى يغير من ديار فهم على الأزد فيمن معه من فهم أحياناً ، ووحده أكثر الأحيان [٣] ، وفى أخبار مُرة بن خليف « أنه غزا الأزد » [٤] . ويبدو أن من أسباب ذلك أن سراة الأزد كانت تجاور سراة فهم ، فسراة الأزد تتلو سراة فهم من ناحية اليمن [٥] ، وإن تكن بينهما طائفة من السروات تنزلها قبائل أخرى [٦] ، ولكن الأزد كانوا ينزلون منطقة خصبة ، فقد كانت منازلهم « أودية مستقبلة مطلع الشمس بتثليثَ وترْبةَ وبيشة » [٧] وهى المنطقة التى كانت تنزل فيها خثعم ، فقد كانت خثعم تنزل أوساط هذه الأودية [٨] .

أما مناطق اليمن البعيدة فقد تخصص فى الإغارة عليها السليك ، وقد مر بنا أن عمرو بن معد يكرب وصفه بأنه بعيد الغارة ، وفى أخباره أنه كان « يتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم » [٩] ، وفيها أنه كان « يغير على اليمن » [١٠] ، وفيها أنه انطلق مع رجلين ليغيروا « فأتوا جوف مراد » [١١] ، وجوف مراد فى أرض سبأ [١٢] .

ومع ذلك فقد كان تأبط شرا يتعدى على اختصاص السليك فيغير على

---

(١) Ency. of Islam; Art. 'Asir, p. 487.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٣٤ .

(٣) الأغانى ٢١/١٣٥ .

(٤) ابن حبيب : المحبر/١٩٨ .

(٥) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١/١٢١ .

(٦) المصدر السابق /١١٩ .

(٧) البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠ .

(٨) المصدر السابق /٩٠ .

(٩) الأغانى ١٨/١٣٧ ، ١٣٨

(١٠) المصدر السابق /١٣٤ .

(١١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٢١٥ .

(١٢) ياقوت : معجم البلدان ٣/١٧٥ .

هذه المنطقة أحياناً ، ففى أخباره أنه خرج يوماً « يريد الغارة فلقى سرْحاً لمراد فأطرده ، ونظرت به مراد ، فخرجوا فى طلبه فسبقهم إلى قومه »[١] .

وكان السليك يعد العدة لتلك الغارات البعيدة التى يضطر معها إلى اختراق المفازة المهلكة التى توصل إلى اليمن ، فكان ، أولا ، لا يغير إلا فى الصيف حينما تنقطع إغارة الخيل[٢] ، فيضمن بهذا عدم تعرضه لمطاردات الخيل البعيدة المدى ، وهو لا يملك إلا قدميه يعدو بهما ، ثم كان ، ثانياً ، يدبر « موارد تموينه » فى طريق غزواته الجدب ، فكان « فى الربيع يعمد إلى بيض النعام ، فيملؤه من الماء ، ويدفنه فى طريق اليمن فى المفاوز ، فإذا غزا فى الصيف مر به فاستأثره »[٣] ، وكان يعتمد فى هذا على خبرته الواسعة بمجاهل الصحراء ، فقد كان — كما يصفه الرواة — « أدل من قطاة ، يجئ حتى يقف على البيضة »[٤] .

والشيء الذى يلفت النظر فى صعاليك هاتين المنطقتين الأخيرتين : منطقة السراة الممتدة من مكة حتى أول الطريق الصاعد إلى اليمن ، ومنطقة السراة الممتدة بعد ذلك حتى اليمن ، هو أن أكثرهم — إن لم يكونوا جميعاً — من العدائين الرَّجليين الذين يعدون على أرجلهم ، فيسبقون الخيل ، وقد رأينا أن المثل فى سرعة العدو يضرب باثنين منهم هما السليك والشنفرى ، وأن الأصمعى يذكر أن فى هذيل وحدها أربعين من هؤلاء العدائين ، ويذكر السكرى « أن هذيلا ليسوا بأصحاب دواب ، وإنما هم رَجَّالة »[٥] ، وديوان الهذليين ناطق بكثرة عدد هؤلاء العدائين الذين كانوا يعتمدون على العدو فى غاراتهم وفى فرارهم ، وتشهد بهذا أيضاً حماسة البحترى[٦] .

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٦ .
(٢) المصدر السابق /١٣٣ ، ١٣٤ .
(٣) المصدر السابق /١٣٥ .
(٤) المصدر السابق /١٣٤ .
(٥) ديوان الهذليين ٢/٧٦ .
(٦) انظر الباب الخامس والعشرين « فيما قيل فى الفرار على الأرجل » /٦٣ — ٦٩ .

ومرد ذلك ، عندى ، إلى أمرين :

أولهما : طبيعة المنطقة الجغرافية ، فهى منطقة جبلية تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، « مقبلة من قَعْرة اليمن حتى تبلغ أطراف بوادى الشأم »[١] « فى عرض أربعة أيام فى جميع طول السراة ، يزيد كسرَ يوم فى بعض هذه المواضع ، وقد ينقص مثله فى بعضها »[٢] ، وترتفع بعض ذراها إلى خمسمائة وألفين من الأمتار[٣] . وفى الجبال تشتد عضلات الأرجل إلى درجة غير عادية نتيجة لطبيعة الأرض ، وما تستلزمه من صعود وهبوط دائمين ، ويقرر الدارسون « أن الطبيعة تمنح سكان الجبال عضلات فى سيقانهم من حديد ليتسلقوا بها المرتفعات »[٤] .

والآخر : أن هذه المنطقة الجبلية المجدبة ليست بالمنطقة الصالحة لتربية الخيل ، لأن الخيل لا تُربَّى إلا فى البقاع الخصبة[٥] ، ومن هنا اعتمد هؤلاء الصعاليك على أقدامهم فى كل تحركاتهم .

ولهذا السبب أيضاً نلاحظ أن عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة نجد وشمالى الجزيرة العربية لم يذكر عنهم أنهم كانوا من العدائين أو الرجليين ، وإنما كانوا يستخدمون الخيل أحياناً[٦] ، وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الخيل ، وهم يذكرون أن « فى نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها »[٧] .

والواقع أن هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو الخارقة للعادة ليست بالأمر المستحيل الذى يأباه واقع الحياة ، فإننا نجد فى حياتنا الواقعية التى تحيط بنا

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١/٤٨ .
(٢) المصدر السابق ١/٦٧ .
(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥١ .
(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 1.
(٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥٥ .
(٦) انظر ديوان عروة /٦٨ ، ٦٩ ، ١١١ .
(٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥٥ .

ما يؤيد ما حملته إلينا مصادر الأدب العربى القديم من أخبار تلك النسرعة التى عرف بها صعاليك السراة .

ومرد المسألة فى جميع هذه الحالات إلى تكيُّف الإنسان عضْويًّا مع البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، والحياة التى يحياها بينها .

الفصل الثالث

التفسير الاجتماعى لظاهرة الصعلكة

١

القبيلة :

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلى فى صورته العامة نرى أنه مجتمع قبلى ، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة ، عرفت كل منها باسم القبيلة .

وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية فى بقعة من الجزيرة العربية يتوافر فيها الماء والكلأ ، واتخذت منها موطناً لها ، فإذا ما ساءت ظروفها الجغرافية ، فأحالت موطنها إلى بقعة جرداء غير صالحة للحياة ، انتقلت منها إلى بقعة أخرى . أما إذا كان الموطن الأول أرضاً ذات خصب دائم — نظراً لظروف جغرافية مواتية — فإن القبيلة تستقر فيه استقراراً دائماً ، وتنشئ فيه قرية . وقد نزلت بعض القبائل العربية فى المدن القليلة المبعثرة فى أرجاء الجزيرة ، واتخذت منها مواطن لها ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية ، فقد ظلت لكل منها « منازلها الخاصة ، ومعاقلها الصغيرة ، وساداتها ، وشئونها الخاصة »[١] . ومرد ذلك إلى أن « رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة ، حتى لقد تؤدى الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها »[٢] . ولكن هذه القبائل — مع ذلك — كانت أكثر استقراراً من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش فى المدن لا تقع تحت رحمة

---

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 2.

(٢) Ibid., p. 2.

(٣) ولعل من خير الأمثلة على هذا ما كان بين الأوس والخزرج فى يثرب ، وما كان بين عبد شمس وهاشم فى مكة .

الظروف الجغرافية مباشرة ، وإنما هى وسائل صناعية تخضع إلى حد بعيد لسيطرة الإنسان .

وهكذا نستطيع أن نقول إن القبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التى عرفها المجتمع الجاهلى فى باديته ومدنه .

وأساس تكوين القبيلة الأسرة ، ذلك أن المثل الأعلى للعربى أن ينجب أكبر عدد من الأبناء الأشداء حتى تصبح أسرته بين أقاربه ذات شأن يجعلهم يعدونه شيخهم الأكبر ، ويدعون أنفسهم أبناءه[١] ، ومن هنا يصح أن يقال إن القبيلة ليست سوى أسرة أكبر حجماً [٢] . « وبمضى الزمن تنقسم القبيلة إلى قبيلتين أو أكثر ، تضم كل منها سلالة أحد أبناء الجد الأكبر متسمية باسمه ، ثم تنقسم هذه القبائل مرة أخرى على أساس القاعدة نفسها ، وهكذا يستمر الانقسام »[٣] .

وقد أثار بعض الباحثين المحدثين جدلا حول تسلسل القبيلة عن طريق الأب ، أو ما يصح أن نطلق عليه « الانقسام الذكرىّ فى القبيلة العربية » ، وحاولوا أن يتلمسوا آثار الأمومة فى أنساب القبائل العربية ، ليثبتوا أن تسلسل القبيلة كان يحدث أحياناً عن طريق الأم[٤] ، ولكن الشىء الثابت عند النسابين العرب هو أن كل القبائل العربية « قبائل أبوية تكونت بانقسام جماعة أصلية انقساماً يعتمد على القرابة من ناحية الأصول الذكرية»[٥] ، والذى يعنينا هنا هو أن أفراد كل قبيلة كانوا يؤمنون بأنهم أبناء لأب واحد ، فهم يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها ،

---

(١) Ency. of Islam,; art. Arabia, p. 373.

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

(٣) Ibid.; p. 4.

(٤) انظر فى هذا المصدر السابق ، وانظر أيضاً كتاب « الأمومة عند العرب » للمستشرق الهولندى G.A. Wilken. الذى ترجمه عن الفرنسية الأستاذ بندلى صليبا الجوزى . وانظر فى مناقشة هذه الآراء البحث الذى نشره الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٤ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ تحت عنوان « نظرية الأنساب فى الميزان » .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

متآلفة لا شذوذ بين أعضائها ، يعمل الجميع فى سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها .

وقد نشأ عن هذا الإيمان « بالأسرية » إيمان بوحدة اجتماعية تغلغل فى نفوس أبناء القبيلة ، نشأ عنه أن كان إحساسهم بالشذوذ فى هذه الوحدة إحساساً قوياً أصيلا . ومن هنا كان حرصهم على أن تظل هذه الوحدة قائمة كما هى ، نقية كما آمنوا بها ، يخرجون منها ما يرونه شوائب فيها ، ولا يُبقون إلا ما هو صالح للمحافظة عليها ، ولا يسمحون لغريب بأن يدخل فى مجموعها إلا بشروط خاصة ، ووفقاً لتقاليد معينة ، وداخل نطاق محدد ، وسنرى أن هذه المسألة تحمل أول المفاتيح الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

٢

إيمان القبيلة بوحدتها :

عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمراً مقدساً ، وترتبت عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة « دستور » ينظم سياستها ، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق .

والأساس الذى تقوم عليه نصوص هذا الدستور « العصبية » ، والمقصود بها « النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة »[١] ، أو هى إحساس الفرد برابطته القبلية ، وواجب تأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة[٢] .

وينص هذا الدستور فيما يتصل « بالسياسة الداخلية للقبيلة » على أن أفراد القبيلة جميعاً متضامنون فيما يجنيه أحدهم ، أو — كما يقول المثل العربى القديم — « فى الجريرة تشترك العشيرة »[٣] ، وعلى أن هذا « العقد الاجتماعى » بين الفرد

---

(١) مقدمة ابن خلدون /١٢٨ .

(٢) Ency. of Islam, Art. Arabia, p. 376.

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/١٧ .

وقبيلته قائم على أساس عاطفى بحت ، ولا مجال للتفكير فيه[١] ، وإنما هى النجدة التى تجيب دون أن تسأل[٢] ، وهى نجدة عملية سريعة لا تحتمل انتظاراً ، إجابتها تنفيذها[٣] ، وتنص « مواد » هذا الدستور على أن نجدة أبناء القبيلة لأخيهم واجبة سواء أكان جارماً أم مجروماً عليه ، فمبدؤهم الذى يسيرون عليه « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »[٤] ، فجناية كل فرد منهم جناية المجموع ، يعصبونها برأس سيد العشيرة[٥] ، ولهم عليه أن يتحمل تبعاتها ، وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به .

وفى مقابل هذا الحق الذى كان للفرد على القبيلة ، كان عليه واجب لها ، عليه أن يحترم رأيها الجماعىّ ، فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها ، ولا يكون سبباً فى تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطيق[٦] ، ومن هنا « فرَضَتْ وحدَةُ القبيلة ، وتحمل المجموع لتبعات الفرد ، على سادتها أن يمارسوا نوعاً من الإدارة البوليسية ، فإذا ارتكب فرد جرْماً رفضت القبيلة أن تتحمل نتائجه ، وإذا أخطأ فى حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرَدُ منها »[٧] . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى

---

(١) لا يسألون أخاهم حين يندبهم ۞ فى النائبات على ما قال برهانا

(قريط بن أنيف فى حماسة أبى تمام ١/٩) .

(٢) إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ۞ لأيــة حرب أم بأى مكان

(وداك بن ثميل المازنى فى حماسة أبى تمام ١/٦٤) .

(٣) ونجيب داعية الصباح بثائب ۞ عجل الركوب لدعوة المستنجد

(مضرس بن ربعى فى المصدر السابق ٣/١٠٢) .

(٤) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٢٤٢ . ولم يعرف العرب فى الجاهلية التأويل الإسلامى لهذا المثل من رد الظالم عن ظلمه وكفه عنه .

(٥) « والعرب تقول : سيد معمم يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه » (ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/٢٢٦) .

(٦) يقول أبو سفيان « لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ما فعلت فعلت » (الواقدى : كتاب المغازى /٢٠٠) .

(٧) Ency. of Islam; art. Arabia, pp. 375, 376.

الطريد « خليعاً [١] » .

ويحدث الخلع لأسباب متعددة ، تدور كلها حول هذا الأساس ، فقد يحدث أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها ، وهنا تجد القبيلة نفسها فى موقف حرج ، فالقاتل والمقتول كلاهما من أبنائها ، ولكل منهما حق الحماية والنصرة . وهنا يضطر سادة القبيلة إلى أن يقوموا بدور الوسيط بين الفريقين ، حتى لا يؤدى الأمر إلى انقسام القبيلة على نفسها ، « فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكمَّلة ، ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوى قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهى ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن نأخذ سهماً فنرمى به نحو السماء ، فإن رجع إلينا مضرجاً بالدم فقد نُهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد فقد أمرْنا بأخذها » ، ونتيجة هذا « الإجراء التمثيلى » معروفة طبعاً ، فما رجع ذلك السهم قط إلا نقيًّا ، وهنا يمسح القوم لحاهم علامة للصلح ، ويصالحون على الدية [٢] ، وهكذا تحل المشكلة هذا الحل السلمى الذى يحفظ على القبيلة وحدتها . ولكن المشكلة تظل قائمة إذا رفض أولياء الدم الدية ، وأصروا على الثأر ، وهنا تحل المشكلة على أحد وجهين : إما أن يُقتل القاتل بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته [٣] ، حتى تترك لأولياء الدم حرية التصرف

---

(١) فى لسان العرب : مادة (خلع) . والخليع : الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه ، فيتبرءون منه ومن جنايته ، ويقولون إذا خلعنا فلانا فلا نأخذ أحد بجناية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجناياته التى يجنيها . » وفى النهاية لابن الأثير (المادة نفسها) « كانت العرب يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والإعانة ، وأن يؤخذ كل منهم بالآخر ، فإذا أرادوا أن يتبرءوا من إنسان قد حالفوه أظهروا ذلك إلى الناس ، وسموا ذلك الفعل خلعا ، والمتبرأ منه خليعا أى مخلوعا ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم ، فكأنهم قد خلعوا اليمين التى كانوا قد لبسوها معه ، وسموه خلعا وخليعا مجازا واتساعا» . وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) «وكان الرجل فى الجاهلية إذا غلبه ابنه ، أومن هومنه بسبيل ، جاء به إلى الموسم ، ثم نادى : يأيها الناس هذا ابنى فلان ، وقد خلعته ، فإن جر لم أضمن ، وإن جر عليه لم أطلب ، يريد قد تبرأت منه » .

(٢) البغدادى : خزانة الأدب ١٣٧/٢ . ويسمى هذا السهم سهم الاعتذار ، كما يسمى أيضاً العقيقة .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 25.

بدون أن تتعرض وحدتها للتداعى ، أو يَخلعَ هو نفسه ، فيفر من قبيلته نجاةً بحياته . وعلى كلا الوجهين تكون القبيلة قد تصرفت فى حدود « دستورها » الذى ينص على أنه «يجب على أهل القاتل ألا يحموه إذا قتل أحداً من دمه »[١]، وذلك لأن رابطة القبيلة أقوى من رابطة الأسرة[٢] .

وقد يحدث أن تتعدد جرائر أحدأفراد القبيلة حتى تجد نفسها عاجزة عن نصرته ، لأن فى هذا تكليفاً لها لا تطيقه ، وعبئاً ثقيلا عليها تنوء به ، وتهديداً دائماً لسلامتها ، وإراقة لدماء أبنائها بدون مبرر ، فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد ، مفضلة أن تضحى بفرد واحد على أن تضحى بجماعة من أفرادها ، ملقية عليه تبعات جرائمه ، يتحملها هو وحده ، فتخلعه[٣] .

وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية ، حتى يصبح وجوده بينها وصمة فى جبينها ، وسبة فى مجدها وشرفها ، وحطًّا من قدرها بين القبائل ، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه ، ضرره أكثر من نفعه ، فتتبرأ من نسبته إليها ، حرصاً على سمعتها ، وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسىء إليها فرد ، فتخلعه[٤] .

هذه أهم الجرائم التى كانت القبيلة تحكم على من يرتكبها من أفرادها بالخلع ، وهى كلها تدور حول محور واحد ، هو خروج الفرد على وحدة

---

(١) Ibid., p. 43.

(٢) Ibid., p. 4.

(٣) فى أخبار امرئ القيس أنه لما خرج مطالباً بدم أبيه نزل بعامر بن جوين « وعامر يومئذ أحد الخلعاء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائره » (الأغانى ٩/٩٥ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/٢٤) . وفى أخبار عبد الله بن جدعان أنه كان « شريرا فاتكا ، لا يزال يجنى الجنايات ، فيعقل عنه أبوه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ألا يؤويه أبدا ، لما أثقله به من الغرم ، وحمله من الديات » (السهيلى : الروض الأنف ١/٩٢) .

(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 49.
وفى أخبار البراض بن قيس الكنانى أنه « كان سكيرا فاسقا ، خلعه قومه ، وتبرءوا منه » (الأغانى ١٩/٧٥) . وفى معلقة طرفة حديث عن تهالكه على الخمر واللذات واستهتاره بكل شىء حتى تحامته العشيرة كلها ، وأفرد أفراد البعير المعبد .

القبيلة ، وتصرفه تصرفاً فرديًّا بدون رضاها أو الرجوع إليها ، فتجد القبيلة نفسها أمام فرد « شاذ » خرج على إجماعها ، ورفض السير فى ركابها ، وترى أنه بتصرفه هذا قد ترك لها حرية التصرف ، وأنها أصبحت فى حل من ذلك العقد الاجتماعى الذى يربطها به ، فلم تعد مسئولة عما يفعل ، فتتبرأ منه ، وتطرده من حماها ، وتسحب منه « الجنسية القبلية » ، وتعلن أنها قد خلعته ، وأن صلته بها قد انقطعت ، وحمايتها له قد انتهت ، وتضامنها معه قد انحلت عقدته .

وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلان رسمى يذاع على الناس فى المواسم والأسواق ، ليكون فى ذلك إشهاد لهم عليه [١] ، وقد يبعثون منادياً بذلك [٢] ، وقد يكتبون به كتاباً [٣] ، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته « فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالِب بجريرة يجرها أحد عليه » [٤] .

وهنا يجد الخليع نفسه أمام مشكلة خطرة ، هى مشكلة الحياة أو الموت . لقد سحبت منه « الجنسية القبلية » ، ورفعت القبيلة عنه حمايتها ، وطردته من حماها ، ولم يعد أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يفر إلى الصحراء ليلاقى مصيره فى البادية القاسية فقيراً مفرداً ، لا اعتماد له على أحد ، ولا على شىء ، وإما أن يلجأ إلى من يحميه ويعيش فى جواره ، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلى ، وهو « قانون الجوار » [٥] .

وقد قدس المجتمع الجاهلى هذا القانون تقديساً كبيراً ، وكان مما يفخر به

---

(١) انظر الزمخشرى : أساس البلاغة ، مادة (خلع) . وقد خلعت خزاعة قيس بن الحدادية « بسوق عكاظ ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه » (الأغانى ١٣/٢ بولاق) .

(٢) خلع بنو سهم فى الجاهلية عمرو بن العاص ، كما خلع بنو مخزوم عمارة بن الوليد ، إذ هما فى الحبشة ، خشية أن يعتدى أحدهما على الآخر فتؤخذ عشيرته به ، « وتبرأ كل قوم من صاحبهم ومما جر عليهم ، فبعثوا منادياً ينادى بمكة بذلك » (الأغانى ٩/٥٧) .

(٣) انظر جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/١٩ ، وانظر أيضاً :
Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 146 = 242.

(٤) الأغانى ١٣/٢ (بولاق) . وانظر أيضاً ابن حبيب : المحبر /١٩٥ .

(٥) فى القاموس المحيط (مادة الجور) : الجوار أن تعطى الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجيره ، والجار أيضاً الحليف .

العربى أن يكون ملاذاً لكل خائف ، وملجأ لكل طريد ، لأن فى ذلك اعترافاً بقوته ومروءته وكرمه ، وهى فضائل يعتز كل عربى بأن تُنْسَب إليه ، حتى لقد اشتهر بعض أشراف العرب بإجارة الخلعاء وحمايتهم [١] .

وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف — بطبيعة الحال — وفقاً للظروف ، فكانت أحياناً مؤقتة ، وكانت أحياناً أخرى دائمة ، بل وراثية ، وفى بعض الحالات كان المجير يتعهد بأن ينصر جاره على عدو معين فقط ، وفى حالات أخرى كان يتعهد بإجارته من كل الأعداء ، بل من الموت نفسه ، وكان هذا يعنى أن يدفع المجير إذا مات جاره ، وهو فى جواره ، دية لأسرته [٢] ، « وأقوى هذه الحالات على الإطلاق هى تلك التى يتعهد المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم » [٣] .

ومن هنا كان العرب يسمون جارهم هَدْيَهم أو هديّهم «يحرم عليهم منه ما يحرم من الهَدْى » [٤] ، وهى تسمية تشعرنا بتلك القداسة التى كانت للجوار فى نفوس العرب ، فهو عندهم شىء مقدس ، كأنه قربان يتقربون به إلى الآلهة. ومما يلقى ضوءاً على هذه الفكرة أن بعض المكيين كانوا يُقْسِمون على حمايتهم لجارهم فى الكعبة ، وكان هذا القسم يتخذ صورة إعلان عام ،

---

(١) كان الزبير بن عبد المطلب فى مكة «ينزل عليه الخلعاء» (ابن قتيبة : الشعر والشعراء/٢٢٩) وقد لجا مطرود بن كعب الخزاعى « إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف لجناية كانت منه ، فحماه وأحسن إليه » (المزربانى : معجم الشعراء/ ٣٧٥) ، ونزل البراض الكنانى بعد خلعه « على حرب بن أمية فحالفه ، فأحسن حرب جواره » (الأغانى ١٩/٧٥) ، وكان حاجز الأزدى حليفاً لبنى مخزوم (الأغانى ١٢/٤٩ بولاق) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 50.
وانظر فى الإجارة من الموت قصة الأعشى مع عامر بن الطفيل فى الأغانى ٩/١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.
وفى أخبار أوفى بن مطر المازنى أن رجلا جاوره « ومعه امرأة له ، فأعجبت قيسا أخاه ، فجعل لا يصل إليها مع زوجها ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك أوفى ، فقتل قيسا أخاه بجاره» (ابن حبيب : المحبر /٣٤٨) .

(٤) لسان العرب : مادة (هدى) : والهدى : القربان .

ولا يستطيعون التحلل منه إلا فى الكعبة أيضاً [١] .

وفى مقابل هذه الحقوق التى كانت للجار ، كانت عليه واجبات لمن أجاروه . وتتلخص هذه الواجبات فى أن يحترم الجوار ، ولا يسىء إلى من أجاروه ، لا فى أشخاصهم ولا فى سمعتهم ، لا فى حياتهم المادية ولا فى حياتهم المعنوية . فإذا ما رأت القبيلة ما يسيئها من جارها كان لها الحق فى أن تخلعه ، وتتحلل من التزاماتها له . ومن هنا كانت تتعدد استجارة الخليع بالقبائل فى بعض الأحيان [٢] .

ومع ذلك فلم تكن حياة هؤلاء الخلعاء فى جوار من استجاروا بهم طيبة دائماً ، فقد كان يحدث أحياناً أن يسىء المجير معاملة جاره ، ويستغل تلك الظروف الحرجة التى يمر بها فيغدر به [٣] ، وكان يحدث أحياناً أخرى أن يعجز المجير عن رد العدوان عن جاره ، إما لضعفه وإما لعدم اهتمامه به [٤] . وعلى كل حال فحسب هؤلاء المستجيرين هواناً لنفوسهم أن ديتهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح [٥] .

وحين نقف لنتأمل حياة هؤلاء المستجيرين نجد أننا أمام طائفتين : طائفة استقر بها المقام فى القبيلة التى أجارتها ، فاندمجت فى مجتمعها ، وطابت لها

---

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.

(٢) فى أخبار البراض أنه بعد أن خلعه قومه لجأ إلى بنى الديل ، فشرب فيهم « فخلعوه ، فأتى مكة وأتى قريشا فنزل على حرب بن أمية فحالفه ، فاحسن حرب جواره ، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه » (الأغانى ١٩/٧٥) .

(٣) كان أبو جندب الهذلى جارا لبنى نفاثة « جاورهم حينا من الدهر ، ثم إنهم ذكروا أن يغدروا به » (السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٩٣) .

(٤) استجار أبو الطمحان القينى بعبد الله بن جدعان التيمى « ومعه مال له من الإبل ، فعدا عليه قوم من بنى سهم ، فانتحروا ثلاثة من إبله » ، ثم عاودوا عليها الكرة ، « فاستاقوها كلها ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخ ، فلم يكن فيه ولا فى قومه قوة ببنى سهم ، فامسك عنهم ولم ينصره » (الأغانى ١٦/٦٩) . واستجار محرز بن المكعبر الضبى ببنى عدى من تميم « فاغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها ، فطلب إليهم أن يسعوا له ، فوعدوه أن يفعلوا » ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى بعض بنى مازن » (شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٤/١٥) .

(٥) الأغانى ١٩/٣ سطر ١٨ ، ص ٢٦ سطر ٤ ، ٥ .

الحياة الجديدة ، وشاركت فى ضروب نشاطها ، وسلكت سبل العيش معها فى هدوء واستقرار ، وطائفة أخرى لم تزل فى نفوسها بقية من تمرد ، رفضت هذا الفناء الجديد فى شخصية القبيلة التى أجارتها ، فكانت حياتها فيها امتداداً لحياتها القديمة فى القبيلة التى خلعتها .

ويخرج هؤلاء « الشُّذَّاذ »[١] على حياتهم الجديدة ، ليجدوا فى الصحراء متسعاً لنشاطهم المتمرد الذى لا يحتمله مجال القبيلة الضيق ، وليشقوا طريقهم فى الحياة بأسلوبهم الذى اعتادوا عليه ، دون أن يعتمدوا على أحد سوى قوتهم ، وأغراهم على هذا أنهم كانوا واثقين من أنهم « إذا أخفقوا فلن يعدموا أن يجدوا سيداً أو حياً يستقبلهم ويضمن لهم ملجأ »[٢] . ويبدو أن هؤلاء الشذاذ المتمردين كانوا ينظرون إلى القبائل التى يستجيرون بها على أنها « نقط ارتكاز » لنشاطهم ، وإلى حياتهم فيها على أنها فترات راحة فى حياتهم العنيفة .

وحين نعود إلى أخبار صعاليك العرب لننظر فيها على ضوء هذا « المصباح الاجتماعى » نجد أن طائفة كبيرة منهم من الخلعاء والشذاذ .

فقد كان قيس بن الحدادية « صعلوكاً خليعاً »[٣] خلعته قبيلته خزاعة لأنه اشترك مع جماعة من أسرته فى قتل أحد أفراد قبيلتهم ، وعجزوا عن دفع الدية ، ففروا هاربين ، « فنزلوا فى فراس بن غَنْم ، ثم لم يلبثوا أن أصابوا أيضاً منهم رجلا ، فهربوا ، فنزلوا فى بجيلة على أسد بن كُرْز فآواهم ، وأحسن إلى قيس ، وتحمل عنهم ما أصابوا فى خزاعة وفى فراس »[٤] وفى خبر آخر أنه بعد خلعه « نزل عند بطن من خزاعة يقال لهم بنو عدىّ بن عمرو بن خالد ،

---

(١) فى لسان العرب (مادة شذ) : « وقوم شذاذ إذا لم يكونوا فى منازلهم ولا حيهم . . . وشذاذ الناس الذين يكونون فى القوم ليسوا فى قبائلهم ولا منازلهم » .

وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) « شذ عن الجماعة شذوذا انفرد عنهم ، وهو من شذاذ القوم : من الذين هم فيهم وليسوا منهم » .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 194.

(٣) الأغانى ١٣/٢ (بولاق) .

(٤) المصدر السابق / ٤ ، ٥ .

فآووه وأحسنوا إليه »[١] . والظاهر أن هذا كان قبل استجارته ببنى فراس .

وألف قيس بعد خلعه عصابة من صعاليك العرب جمع فيها « شذاذاً من العرب وفتاكاً من قومه»[٢] ، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفتاك هم أولئك الذين اشتركوا معه فى حادثة القتل التى كانت سبباً فى خلعه . وكان أول ما فعلته هذه العصابة أن حاولوا الانتقام لأنفسهم من أولئك الذين كانوا سبباً فى خلعهم ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم رجلا واستاقوا أموالهم[٣] ، وهكذا أثبت لقومه الذين خلعوه أنه قادر على أن يقف فى وجههم برغم أنه « خليع مطرّد » ، على حد تعبيره فى بعض أبياته[٤] ، وأنه لا يتورع عن قتل أى فرد من قومه وقف فى طريقه ، وأنه قادر على أن يسلبهم تلك الأموال التى كان حرمانه منها سبباً فى عجزه عن دفع الدية ثم فى خلعه نتيجة لذلك . ومع ذلك فقد كان قيس نبيلا فى موقفه من أولئك الذين لم يكن لهم ضلع فى خلعه ، فقد لحقه بعد هذه الغارة « رجل من قومه كان سيداً ، وكان ضلعه مع قيس فيما جرى عليه من الخلع يقال له ابن محرّق ، فأقسم عليه أن يرد ما استاقه، فقال : أما ما كان لى ولقومى فقد أبررت قسمك فيه ، وأما ما اعتَوَرَته أيدى هذه الصعاليك فلا حيلة لى فيه ، فرد سهمه وسهم عشيرته»[٥] . وهكذا كان قيس الصعلوك « سيداً » فى موقفه ، فرق بين أولئك الذين كانوا سبباً فى خلعه وبين سائر عشيرته ممن لم يكن لهم يد فى هذا الخلع ، وفرق بين مركزه زعيماً لعصابة لأفرادها حق فى الغنيمة لا يجوز حرمانهم منه ، وبين مركزه طالباً الانتقام من جماعة معينة .

وظل هذا الصعلوك المتمرد يجمع الخلعاء والشذاذ ويغير بهم ، حتى قتل

(١) المصدر السابق /٥ .

(٢) المصدر نفسه /٢ .

(٣) المصدر نفسه /٢ .

(٤) المصدر نفسه /٥ .

(٥) المصدر نفسه /٢ — والضلع — بفتح الضاد — الميل . واعتوروا الشىء : تداولوه .

وهو خليع قـتـلـة كان فيها شجاعاً حتى النهاية [١]، وقبل أن يوشك سراج حياته على الانطفاء تذكر تلك الحادثة التي كانت سبباً في تلك الحياة القاسية التي عاشها طريداً مشرداً ، حادثة خلعه ، فأخذ ينشد وهو يقاتل نشيداً فيه حسرة ، وفيه شجاعة واعتداد بالنفس [٢] ، حسرة على حياته التي ذهبت مع الريح ، بعد أيام شباب جميلة قضاها في حِمَى القبيلة ، في اللهو تارة ، وفي الجد تارة أخرى [٣] ، عضواً عاملا في مجتمع القبيلة ، يدافع عنها ، ويشيد بمفاخرها ، ويهجو أعداءها [٤] ، بل يقودها أحياناً في شجاعة إلى مواقع النصر [٥] .

وكذلك كان أبو الطَّمَحَان القيني من هذه الطائفة من الخلعاء الشذاذ ، ولم تحدثنا أخباره عن سبب خلعه ، ولكني أرجح أنه خلع لسوء أخلاقه . ويصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقاً» [٦] ، ويقدمه صاحب الأغاني بأنه « أدرك الجاهلية والإسلام فكان خبيث الدين فيهما» [٧] ، ويصفه بعض رواة الأغاني بأنه « كان فاسقاً خارباً» [٨] ، وقد سئل عن « أدنى ذنوبه » كأنه كان معروفاً بكبائره ، فاندفع يقص في استهتار قصة ليلة ارتكب فيها أربع موبقات [٩]، فإذا كانت هذه أدنى ذنوبه فليس من شك في أنه كان مستهتراً استهتاراً فاضحاً .

وقد تقلبت الأيام بأبي الطمحان تقلباً عنيفاً ، فقضى حياة مضطربة ،

---

(١) الأغاني ١٣/٨ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق /٨ ، وانظر أيضاً كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب ص ٦ .

(٣) فيوماي يوم في الحديد مسربلا ويوم مع البيض الأوانس لاهيا (الأغاني ١٣/٨ بولاق) .

(٤) انظر أخبار ذلك في المصدر السابق /٣ ، ٤ ، ٥ .

(٥) انظر ذلك في المصدر نفسه ص ٣ .

(٦) الشعر والشعراء /٢٢٩ .

(٧) الأغاني ١١/١٣٠ (بولاق) .

(٨) المصدر السابق /١٣٢ .

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٢٢٩ ، والأغاني ١١/١٣٢ (بولاق) .

لم تكد تعرف طعم الاستقرار إلا فى فترات متقطعة ، متنقلا بين أحياء العرب ، مستجيراً بها ، لا يكاد يستقر فى جوار حتى يحدث ما يعيده إلى حياة الاضطراب مرة أخرى . وهو يشكو فى شعره مر الشكوى من غدر من يستجير بهم :

مَتى أَستجِرْ جارا وإنْ عَزَّ يغْدِرِ ... أَجَدَّ بنى الشرقى أُولِعَ أننى
فيا مُوزِعَ الجيران بالغى أَقصِرِ[1] ... إذا قلت أَوْفى أدركتْه دَرُوكةٌ

ويبدو أن شاعرنا الصعلوك كان سيىء الحظ مع جيرانه ، فقد كان مجاوراً فى بطن من طيئ يقال لهم بنو جديلة ، « فنطح تيس له غلاماً منهم فقتله » فتعلقوا أبا الطمحان وأسروه حتى يؤدى ديته مائة من الإبل ، فاستنجد بنزياه ، مصوراً فى أبيات له ذل موقفه ، وحسرته على بعده عن قومه[2]

ويشاء سوء حظه مرة أخرى أن تقتتل طيئ فيما بينها ، وتتحزب حزبين ، وينهزم حزب جديلة الذى كان مجاوراً فيهم ، ويؤسر أبو الطمحان فى هذا القتال « أسره رجلان من طيئ واشتركا فيه » ، فاشتراه منهما أحد أفراد القبيلة ، بعد ما بلغته أبيات له يمدح فيها قومه ، فمدحه أبو الطمحان بقصيدة ، فجز الطائى ناصيته وأعتقه[3] ، وهكذا أنقذه شعره من سوء حظه مرتين.

وحدث أنه استجار مرة بعبد الله بن جدعان التيمى ، فعدا عليه قوم من بنى سهم ونهبوا إبله كلها ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخه ، ولكنه لم يستطع أن ينصره ، لأنه لم يكن فيه ولا فى قومه قوة ببنى سهم ، فأنشد أبو الطمحان أبياتاً يحن فيها إلى وطنه وأهله وأيامه بينهم ، ويندب سوء حظه ، ثم ارتحل عنهم[4] .

---

(١) الأغانى ١١/١٥١ (دار الكتب) ، ١٦/٦٩ . ورواية البيتين فى هذا الموضع الأخير تختلف بعض الاختلاف اللفظى عن روايتهما فى الموضع الأول ؛ ولكنه اختلاف لا يغير المعنى أى تغيير .

(٢) الأغانى ١١/١٣٣ (بولاق) .

(٣) المصدر السابق/١٣٢ و ١٣٣ ، وانظر بيتاً له فى مدح بنى لأم فى الشعر والشعراء/٢٣٠

(٤) الأغانى ١٦/٦٩ .

ويبدو أن سوء حظه مع جيرانه قد فارقه بعد ذلك ، فقد نزل على الزبير ابن عبد المطلب بن هاشم بمكة ، فطال مقامه لديه ، ولكنه كان كثير الشوق إلى أهله ، شديد الحنين إليهم ، فاستأذن الزبير فى الرجوع إليهم ، « وشكا إليه شوقاً لهم فلم يأذن له ، وسأله المقام ، فأقام عنده مدة » ، ثم عاوده الحنين مرة أخرى ، فأتاه وأنشده أبياتاً يصور فيها هذا الحنين الجارف ، فلما أنشده إياها أذن له فانصرف [١] .

ولكن يظهر أن تمرد أبى الطمحان لم يفارقه بعد ذلك ، فقد جنى جناية وهرب من بلاده ، « ولجأ إلى بنى فزارة ، فنزل على رجل منهم يقال له مالك ابن سعد أحد بنى شَمْخ ، فآواه وأجاره ، وضرب عليه بيتاً ، وخلطه بنفسه ، فأقام مدة ، ثم تشوق يوماً إلى أهله وقد شرب شراباً ثمل منه ، فقال لمالك : لولا أن يدى تقصر عن دية جنايتى لعدت إلى أهلى ، فقال له : هذه إبلى فخذ منها دية جنايتك ، وازدد ما شئت ، فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره مفارقة موضعه ، ولم يأمن على نفسه » ، فأتى مالكاً وأنشده أبياتاً يمدحه فيها مدحاً قويًّا ، هو من غير شك صادر من أعماق نفسه ، يصور تقديره لذلك السيد النبيل ، ويصرح له فيها بأنه قرر البقاء فى جواره ، فقد أصبح كأنه واحد منهم :

وقد عَرَفَتْ كلابكمُ ثيابى   كأنى منكمُ ونسيتُ أهلى

« فقال مالك : مرحباً فإنك حبيب ازداد حبًّا ، إنما اشتقت إلى أهلك ، وذكرتَ أنه يحبسك عنهم ما تطالَب به من عقل أو دية ، فبذلتُ لك ما بذلتُ وهو لك على كل حال ، فأقم فى الرحب والسعة ، فلم يزل مقيماً عندهم حتى هلك فى دارهم [٢] » بعد أن امتدت به الحياة حتى بلغ أرذل العمر [٣] .

---

(١) الأغانى ١٣٤/١١ (بولاق) ، والشعر والشعراء /٢٢٩ .

(٢) الأغانى ١٣٢/١١ (بولاق) .

(٣) يذكر أبو حاتم السجستانى أنه عاش مائتى سنة (كتاب المعمرين /٦٢) .

وهكذا قضى هذا الصعلوك السيئ الحظ حياته الطويلة مشرداً حتى تداركته يد هذا السيد النبيل فى أخريات أيامه ، ولكن أمنيته الكبرى — مع ذلك — لم تتحقق ، فقد قُضِيَ عليه أن يموت بعيداً عن أهله الذين طالما استبد به الحنين إليهم .

هذه هى الصورة التى استطعت أن أكونها عن هذا الجانب من حياة أبى الطمحان من مجموعة أخباره القليلة المتناثرة التى لم تحاول مصادرها أن ترتبها ترتيباً يعطينا صورة كاملة متصلة لحياته الطويلة المضطربة ، وهى صورة شخص « بوهيمى » قلق ، مفرط الحساسية ، قوى العاطفة ، سيئ الحظ ، لولا أن تداركته العناية الإلهية فى أخريات أيامه ، فأدرك الإسلام ، وأسلم ، وإن لم ير النبى صلى الله عليه وسلم[١] ، ولكنه ظل خبيث الدين فى إسلامه ، كما كان خبيث الدين فى جاهليته .

٣

إيمان القبيلة بجنسها :

كما آمنت القبيلة بوحدتها هذا الإيمان العميق الذى ترتب عليه ظهور هذه الطائفة من التقاليد الاجتماعية التى تحدثنا عنها ، آمنت بجنسها ، وذلك لأن من الأسس التى قامت عليها القبيلة العربية إيمان أبنائها « برابطة الدم » ، أى أنهم جميعاً من دم واحد .

وقد أثار بعض المستشرقين تشكيكاً فى « رابطة الدم » هذه : أهى رابطة حقيقية أم رابطة مُدَّعاة[٢] ؟ وليس يعنينا هنا هذا التشكيك ، لأن

(١) يقول ابن حجر عنه إنه « أدرك الإسلام » (الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٦٦) ، ويضعه فى القسم الثالث من كتابه فيمن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره (ص ٥٣ من الجزء نفسه ، وانظر مقدمة الكتاب ١/٤) .

(٢) انظر : Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 1, 62; & Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 159.

مناقشته والانتهاء إلى رأى فيه إنما تكون فى مجال دراسة أصول القبائل العربية وأنسابها ، وليس هنا مجال هذه الدراسة ، وإنما الذى يعنينا هنا هو أن « كل الأفراد الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كانوا يعدون أنفسهم من دم واحد »[١] ، وأنهم جنس واحد ، متشابه العناصر والمقومات ، لا يختلف أفراده إلا بمقدار ما يختلف أبناء الأسرة الواحدة ، بل إن بعض الباحثين المحدثين يرى أن أفراد الحى الواحد من القبيلة كانوا لا يعدون أنفسهم من « دم واحد » فحسب ، ولكن من « لحم واحد » أيضاً ، ومن ملاحظاته التى يؤيد بها رأيه ما تستعمله اللغة العربية من لفظة « اللُّحمة » فى التعبير عن معنى القرابة[٢] ، ولعل فيما عبر به العرب عن بعض أشكال جماعاتهم بالبطن والفخذ ما يصور ذلك الإحساس الذى كان يحسه العربى بتلك الصلة « الجسدية » التى تربطه بجماعته .

وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس فى نفوس أبناء القبيلة إيمان بامتيازه ، فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز لا تفضُلُهم قبيلة أخرى[٣]، وهم يَفْضُلون كل القبائل[٤] ، آباؤهم أشرف آباء[٥] ، وأمهاتهم أكرم أمهات[٦] ، وهم أجدر الناس بأن يكونوا خير الناس[٧] ، ولعل فى هذا الإيمان بامتياز الجنس ما يفسر

---

(١) Smith; Kinship & Marriage in Early Arabia, p. 25.

(٢) Ibid.; p. 175.

(٣) حديا الناس كلهم جميعا ... مقارعة بنيهم عن بنينا
(عمرو بن كلثوم فى معلقته) . ويقول التبريزى : « قالوا معنى حديا الناس كما تقول واحد الناس ، وقيل معناه نحن أشرف الناس » . (شرح القصائد العشر /٢٣٢) .

(٤) إنى لمن قوم بنى الله مجدهم ... على كل باد فى الأنام وحاضر
(المرزبانى : معجم الشعراء /٢٢٧) .

(٥) إنا بنى نهشل لا ندعى لأب ... عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
(حماسة أبى تمام ٥١/١) .

(٦) وأماتنا أكرم بهن عجائزا ... ورثن العلا عن كابر بعد كابر
(المرزبانى : معجم الشعراء /٢٢٧) .

(٧) ونحن بنو ماء السماء فلا نرى ... لأنفسنا من دون مملكة قصرا
(حماسة أبى تمام ١٣٠/١) .

تلك المنافرات التى امتلأت بها أخبار العصر الجاهلى ، وذلك الفخر الذى تدوّى أصداؤه فى قصائد شعرائه . ومما شجع على هذا الإيمان بامتياز الجنس فى نفوس أبناء القبيلة صلات العداوة بين القبائل المختلفة التى كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، فقد « كانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكل القبائل الأخرى »[١] .

وقد نشأ عن هذا « الإيمان بوحدة الجنس وامتيازه » طائفة من التقاليد تنظم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية فى القبيلة .

والناظر فى تكوين القبيلة الاجتماعية يستطيع أن يميز ثلاث طبقات اجتماعية : الصرحاء ، والعبيد ، والموالى .

أما الصرحاء فهم فى عرف القبيلة أبناؤها ذوو الدم النقى الذى لا تشوبه شائبة ، الذين ينتمون جميعاً إلى أب واحد ، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها . ومنهم تتكون الطبقة « الأرستقراطية » فى القبيلة ، وفيهم رياستها ، وبيوتات الشرف فيها . وتعتمد هذه « الأرستقراطية » أول ما تعتمد على النسب[٢] ، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقيًّا ، وعلى أن تجمع الشرف من « كلا طرفيه » : الآباء والأمهات ، فلا يكون فى أحد طرفى الشرف ما يشينه[٣] .

وأما طبقة العبيد فقد كانت تتألف من عنصرين : عنصر عربى ، وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون فى أيدى القبيلة فى حروبها مع القبائل الأخرى ، وعنصر غير عربى ، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية .

---

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159.

(٢) انظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الحادى عشر والثانى والثالث عشر من الباب الثانى من الكتاب الأول /١٣١ — ١٣٥ .

(٣) الأغانى ٨٦/١١ (بولاق) . ويقول معقل بن خويلد :

بنــو فالج قومى وهم ولدوا أبى   وخالى ثمال الضيف من آل فاتك

(السكرى : شرح أشعار الهذليين ١٢١/١) .

وقد قلنا إن الصلات بين القبائل العربية كانت صلات خصام ، ومن هنا كانت الحرب دائماً قائمة بينها ، «وكان سبي الرجال والنساء على السواء أمراً أساسيًّا في كل غارة»[١] ، ومن الطبيعي أن يكون تعرض النساء للسبي أكثر من تعرض الرجال[٢] ، فإن ضعف المرأة في هذه الحالة من الصراع المستمر في الجزيرة العربية يجعلها دائماً في مركز الضحية[٣] . وبقدر ما كان العربي يأنف من قتل سبيته لما فيه من نزول بمروءته ، كان حرصه على سبي أكبر عدد ممكن من النساء لأن في هذا إهانة لأعدائه . وقد كان يحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحي ، وهم خلوفٌ ، فيؤْخذْنَ سبايا[٤] . ومن هنا « كانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فنهم الحربي »[٥] ، ومن هنا أيضاً كانت المقدرة على حماية « الظعينة » عنصراً أساسيًّا من عناصر البطولة العربية جعلهم يطلقون على بعض أبطالهم لقب « حامي الظعينة » أو « فارس الظعينة »[٦] .

وقد كان يحدث أحياناً أن تبيع القبيلة أساراها ، فقد اشتعلت حرب بين لحيان وخُنَاعة « فكان بعضهم لا يزال يغزو بعضاً ، فإذا أصابت بنو لحيان من خناعة أحداً باعوه »[٧] ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضاعة « أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها

---

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89.

وقد وفد سميفع بن ناكور الكلاعي على عمر بن الخطاب « وله أربعة آلاف أهل بيت قن من العرب مماليك أسرهم في الجاهلية » (نقائض جرير والفرزدق ١/٤٦) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

وأخبار سبي النساء في العصر الجاهلي كثيرة . (انظر : الأغاني ٣/٧٥ — ٧٨ ، ١١/١٧٢ بولاق ، ١٩/١٥٨ ، ونقائض جرير والفرزدق ١/١٣ ، وديوان عروة /١٦٩ ، ١٧٠) .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 280.

(٤) انظر نقائض جرير والفرزدق ١/١٤٥ ، والأغاني ٢١/٦٣ ، ٦٤ .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

(٦) القالي : الأمالي ٢/٢٧١ .

(٧) السكري : شرح أشعار الهذليين ١/١٠٠ .

بنى معن ، فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جسر فأخذوا زيداً، فقدموا به سوق عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل اشتراه من سوق حباشة »[١] ، وكانت أم عمرو بن العاص « من بنى عنزة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ »[٢] ، وفى أخبار خناعة أنهم أسروا سيداً من سادة العرب « فباعوه بمكة »[٣] .

ومن هذا نرى أن بيع القبائل العربية لأسراها كان منتشراً فى أسواق مكة بالذات ، ويرينا ديوان الهذليين أنه كانت بمكة تجارة منتظمة فى الرقيق تروجها الحروب التى كانت لاتنقطع بين القبائل المجاورة[٤] . وكان يحدث أحياناً أن يرد إلى أسواق مكة رقيق من أسرى العرب من المناطق البعيدة عنها ، فقد كان أبو صهيب ، سنان بن مالك ، ينزل بأرض الموصل عاملا لكسرى على الأبلة ، « فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوا صهيباً ، وهو غلام صغير ، فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان »[٥] .

أما العنصر الآخر الذى شارك فى تكوين طبقة العبيد فى القبيلة العربية ، وهو العنصر غير العربى ، فقد كان مصدره البلاد المجاورة لجزيرة العرب كالحبشة وما حواليها من الأمم ، فكان تجار الرقيق يحملون العبيد والإماء من هذه البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم فى أسواقها بالمواسم[٦] ، ولم يكن ينظر إلى المسألة من جانبها الإنسانى ، وإنما هى تجارة كسائر التجارات تتخذ منها القبائل وسيلة للربح ، فقد « كانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر

---

(٧) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢/٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/١١٦ .
(٣) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١١٦ .
(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89.
(٥) ابن قتيبة : المعارف /١١٤ .
(٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢٠ .

السلع »[١] وكانت هذه التجارة منتشرة بالذات فى بنى تيم[٢] ، وكان عبد الله ابن جدعان التيمى رئيس قريش فى حرب الفجار من أشهر تجار الرقيق فى الجاهلية[٣] .

وكان هؤلاء الأرقاء المجلوبون كثيرين فى المجتمع الجاهلى ، وكان كل شريف من أشراف العرب يحرص على ألا يخلو منزله منهم ، فقد كان لعبد الله بن أبى ربيعة مثلا عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كبيراً ، حتى لقد عرض على النبى صلى الله عليه وسلم أن يستعين بهم فى غزوة حنين[٤] .

وأما الطبقة الثالثة فى المجتمع القبلى ، وهى طبقة الموالى ، فقد كانت تتألف من العتقاء ، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى ، وعاشوا فى حمايتها ، أو حماية رئيسها أو بعض ذوى النفوذ فيها[٥] . أى أن طبقة الموالى فى القبيلة العربية كانت ترجع إلى أصلين : أحرار ، وعبيد ، أما الأحرار فهم أولئك اللاجئون إلى القبيلة ، أو إلى أحد أفرادها ، من خلعاء القبائل ، طالبين الحماية والنصرة ، وكانوا يسمون أحياناً « الحلفاء » ، وأما العبيد فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم من نير الرق فظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء[٦] .

وهذه الطبقة كانت تؤلف طبقة مكانتها الاجتماعية بين الطبقتين السابقين ،

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢٠ .

(٢) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 167 = 263.

(٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢١ .

(٤) الأغانى ١/٦٥ . وقد اتخذ بعض الشعراء من عبيد آل أبى ربيعة مادة لفنهم (انظر البيت الوارد فى المصدر نفسه /٦٤ لأبى ذؤيب الهذلى الذى يشبه فيه حمار الوحش بعبد منهم) .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 47, 48.

(٦) فى لسان العرب (مادة ولى) : « والمولى الحليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك . . . والمولى المعتق انتسب بنسبك » ، وهكذا يشير هذا المعنى اللغوى لهذين النوعين الاجتماعيين من طبقة الموالى .

فالمولى عند العرب وسط بين العبد والحر [١] « أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد [٢] » .

آمنت القبيلة العربية بهذه الطبقات الاجتماعية ، وعرفت لكل طبقة منزلتها ، وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وتعارفت على الصلات التى تكون بين أفراد كل طبقة وأفراد الطبقتين الأخريين .

وما أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن طبقة العبيد كانت فى حالة اجتماعية سيئة فى هذا المجتمع الأرستقراطى [٣] الذى يؤمن بوحدته وبجنسه إيماناً عميقاً ، والذى يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معانى الطغيان والجبروت والاستبداد أقوى تمثيل ، حتى لنجد أن هذه الطبقة كانت من أسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام الذى ضمن لهم حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بساداتهم تنظيماً إنسانياً عادلا ، والذى أتاح لهم فرصاً كثيرة للعتق والتحرر . وليس من شك فى أن حياة هذه الطبقة كانت سلسلة من الذل ، تبدأ منذ أن يشترى السيد عبده ، ويقوده إلى منزله ليتصرف فيه كيف شاء . ولم يكن يعهد للعبيد إلا بتلك الأعمال التى يأنف السادة من القيام بها ، وهى تلك التى سميناها « الأعمال الفرعية فى المجتمع القبلى » ، فإذا مات السيد ورث ورثته عبيده كما يرثون سائر متاعه إلا إذا كان قد أوصى لهم بحريتهم بعد موته [٤] .

ومع ذلك ، ومع حرص العربى على الشرف فى كلا طرفيه ، كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربى من أمته ، ولكن المجتمع الجاهلى كان يرى فى هذا الزواج زواجاً غير متكافئ ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسما خاصاً ، فسمى ابن العربى من الأمة « هجيناً » [٥] ، ومن الطبيعى ألا ينظر إلى هذه الصلة

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢١ .

(٢) المصدر السابق /٢٤ .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 198, p. 277.

(٤) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢٠ .

(٥) فى القاموس المحيط (مادة هجن) . « والهجين : اللئيم ، وعربى ولد من أمة أو من أبوه خير من أمه » ، ويقول المبرد « والهجين عند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة ، والأصل فى ذلك أن تكون أمة » (الكامل /٣٠٢) .

نظرة احترام ، فقد كانت كل أمة عندهم تدعى فرْتَنَى أو تُرْنى[١] ، وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماء أو ممن أعتق منهن[٢] ، ولم يكن العربى يعرف لهؤلاء الإماء « مساواة فى الحقوق ولا مساواة فى المعاملة[٣] » . ويبدو أن المسألة لم تكن أكثر من نزوة جنسية ، فقد كان أبغض ما يبغضه العربى أن تلد أمته منه[٤] ، ومن هنا كانوا يستعبدون أولاد إمائهم[٥] ، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممتازة ، فإنهم حينئذ يلحقونهم بنسبهم[٦] .

وكان أسوأ هؤلاء الهجناء حظاً ، وأوضعهم منزلة اجتماعية ، أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانوا سبة يعير بهم آباؤهم[٧] . ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كل شىء ممدوح عندهم مادياً كان أو معنوياً بالبياض[٨] ، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض[٩] ،

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١/٤١ و ٦٣ و ٦٤ ، وشرح السكرى على أشعار الهذليين ١/٤٦ و ٢٣٥ . ومن معانى هاتين الكلمتين « البغى ، والمرأة الزانية » (انظر مادتى « ترن » و « فرتن » فى المعجمات اللغوية) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 168-169.

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 277.

(٤) « إذا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء » (الأغانى ٢٠/١٦٥) .

(٥) انظر : الأغانى ٨/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٣٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/٦٢ .

(٦) الأغانى ٨/٢٣٧ ، وانظر المثل على هذا فى إلحاق عنترة بأبيه فى المصدر نفسه /٢٣٧ ، ٢٣٩ وفى الشعر والشعراء /١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) كان لعمرو بن شأس « امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار فكانت تعيره إياه » (شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ١/١٤٩) .

(٨) «إذا قالت العرب فلان أبيض ، وفلانة بيضاء، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب ، وإذا قالوا فلان أبيض الوجه ، وفلانة بيضاء الوجه ، أرادوا نقاء اللون من الكلف والسواد الشائن » (لسان العرب : مادة « بيض ») .

(٩) « بيض الوجوه على العدو ثقال » (الفرزدق فى نقائض جرير والفرزدق ١/٢٨٧) ، « من كل أبيض يستضاء بوجهه » (جرير فى نقائض جرير والفرزدق ١/٣٠١) ، « بيض الوجوه مصانع لسن » (قيس بن عاصم المنقرى فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٤/٦٨) .

ومن سِمات جمال المرأة أن تكون بيضاء[١]، وهو أيضاً دليل على شرفها ، فقد كان مما يُمتَدح به الرجل أنه ابن بيضاء[٢]، بل إنهم كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض[٣]. ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر إخوانهم الهجناء ، فسموهم « الأغربة » تشبيهاً لهم بذلك الطائر البغيض المشئوم فى لونه الأسود[٤] ، ونسبوهم فى أكثر الحالات إلى أمهاتهم[٥] .

ويخرج هؤلاء « الأغربة » إلى الحياة ، وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذى يبغضه مجتمعهم ، والذى لابد لهم فيه ، ولا خروج لهم منه ، فإذا هو يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آباؤهم ، ثم إذا هو بعد ذلك يقف صخرة تتحطم عليها آمالهم فى أن يشاركوا فى الحياة الاجتماعية كما يشارك غيرهم ، ولا يهيئ لهم إلا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محتقرة يخدمون فيها سادتهم ، ويقومون لهم بتلك الأعمال الفرعية التى يأنفون هم من القيام بها ، أما الأعمال الأساسية فلا يقوم بها إلا أبناء الحرائر[٦] ، فما يحسن هؤلاء الأغربة أولاد الإماء السود غير « الحلاب والصر » كما يقول أحدهم

---

(١) « مهفهفة بيضاء غير مفاضة » (امرؤ القيس فى معلقته) ، « ومن كل بيضاء رعبوبة » (لمبرد : الكامل /٣٠٥) .

(٢) « هو ابن لبيضاء الجبين نجيبة » (العجير السلولى فى الأغانى ١١/١٥٤ بولاق) .

(٣) رحلنا من الأجبال أجبال طيئ ... نسوق النساء عوذها وعشارها
ترى كل بيضاء العوارض طفلة ... تفرى إذا شال السماك صدارها
(عروة بن الورد فى ديوانه /١٧١) .

(٤) فى لسان العرب (مادة غرب) « وأغربة العرب سودانهم ، شبهوا بالأغربة فى لونهم » ، وفى تاج العروس (المادة نفسها) « وكلهم سرى إليهم السواد من أمهاتهم » ويقول أبو عبيدة : «وإنما سموا أغربة لأن أمهاتهم كن سودا » (كتاب الشعراء ، مخطوط ، فصل من غلب اسم أمه على اسم أبيه ، ورقة رقم ٣١) .

(٥) انظر كتاب « من نسب إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب ، وانظر فصل « من غلب اسم أمه على اسم أبيه » فى كتاب الشعراء ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٣١ ، والأغانى ٨/٢٤٠ .

(٦) لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها
(حماسة أبى تمام ١/٢٥) ، ويقول التبريزى : « يعنى أن أبناء الحرائر هم الصابرون على المكاره فى ابتناء المجد واكتساب الشرف » .

— عنترة بن زبيبة الأمة السوداء — فى سخرية لاذعة من تلك الأوضاع الاجتماعية التى وضعها السادة البيض وآمنوا بها [١] .

ومع ذلك فقد يبدى أحد هؤلاء الأغربة امتيازاً فى ناحية من النواحى ، فتشعر القبيلة أنها أمام فرد تستطيع أن تنتفع به ، فيمحو هذا الامتياز عنه معنوياً سواد لونه ، فيعترف به أبوه ، وتعمل القبيلة على تقريبه من مركز الدائرة ، ليقوم بدوره فى أعمال القبيلة الأساسية ، كما حدث لعنترة الذى أصبح بعد اعتراف أبيه به ، لشجاعته الفائقة فى دفاعه عن قبيلته ، عنترة بن شداد العبسى [٢] .

ولكن لم تكن الفرصة التى أتيحت لعنترة بالتى تتاح لكل أولئك الأغربة الذين كان يغص بهم المجتمع الجاهلى [٣] ، كما أن منهم من كان يرفض تلك الحياة « الهامشية » ، ويتمرد على ذلك الوضع الاجتماعى الذليل المحتقر الذى فرض عليه ، لأن لديه من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله ، ومن القوة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان فى وجه هؤلاء السادة [٤] . وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الذليلة التى فرضتها عليهم ، وخرجوا من حماها ، ليشقوا طريقهم فى الحياة بالأسلوب الذى يضمن لهم حياة كريمة حرة تعتمد على القوة فى سبيل الحصول على الحق . ومن هؤلاء

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والأغانى ٨ / ٢٣٩ .

(٢) المصدران السابقان : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ ، والأغانى ٨ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٣) يحاول بعض رواة الأدب العربى أن يحددوا عدد أغربة العرب ، فبينما يحددهم بعضهم بثلاثة (ابن قتيبة فى الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن الكلبى فى الأغانى ٨ / ٢٤٠ ، وأبو عبيدة فى كتاب الشعراء — مخطوطة — ورقة رقم ٣١) ، يحددهم آخرون بأربعة (النيسابورى فى لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة ٨٧) ، ويحددهم غيرهم بسبعة (ابن الأعرابى فى المزهر ٢ / ٢٦٩) ، ويحددهم آخرون بأكثر من ذلك (ابن حبيب فى المحبر / ٣٠٧ وما بعدها ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة غرب) ، وعندى أن هذه الإحصائيات لا قيمة لها ، فإن هذا شىء أكثر من أن يحصى ، ويبدو أن المقصود بها هو تسجيل أسماء المشهورين منهم .

(٤) يصفهم النيسابورى بأنهم « سودان شجعان » (لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة رقم ٨٧) .

الأغربة المتمردين تألفت جماعات من صعاليك العرب .

وحين نعود إلى شعرائنا الصعاليك لننظر إليهم فى ضوء هذا « المصباح الاجتماعى » نجد أن طائفة منهم تألفت من هؤلاء الأغربة .

فالسليك بن السلكة [١] السعدى يصفه ابن قتيبة بأنه « أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم » [٢] ، ويصفه المبرد بأنه « كان من غربان العرب » [٣] ، ويصفه النيسابورى بأنه كان أسود [٤] ، ويقدمه ابن قتيبة فى أول ترجمته بأنه « منسوب إلى أمه » [٥] ، ويترجم له ابن حبيب فى كتابه « من نسب إلى أمه من الشعراء » [٦] ، ويصفها ابن قتيبة بأنها « كانت سوداء » [٧] ، ويصفها المفضل بأنها « كانت أمة سوداء » [٨] ، وكذلك يصفها النيسابورى [٩] ، ويذكر عنها المبرد أنها « كانت سوداء حبشية » [١٠] ، ويضعه ابن حبيب بين « أبناء الحبشيات » [١١] .

وتأبط شرًّا من هذه الطائفة أيضاً يضعه صاحب لسان العرب نقلا عن ابن سيده عن ابن الأعرابى بين أغربة العرب ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب [١٢] ، ويضعه ابن الأعرابى فى

---

(١) هى أمه (تاج العروس مادة سلك ، والأغانى ١٨ / ١٣٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن حبيب : كتاب المغتالين — مخطوطة — ورقة رقم ٨٦ ، والمحبر / ٣٠٨ ، والمبرد : الكامل / ٢٩٨ ، والآمدى : المؤتلف والمختلف / ١٣٧ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢ / ١٧ ، والنيسابورى : لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة رقم ٧٦ ، والسيوطى : المزهر ٢ / ٢٦٩) .

(٢) الشعر والشعراء/ ٢١٤ .

(٣) الكامل / ٢٩٨ .

(٤) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٧ .

(٥) الشعر والشعراء / ٢١٣ .

(٦) ص ٦ .

(٧) الشعر والشعراء / ٢١٣ .

(٨) الميدانى : مجمع الأمثال ١ / ٣٩٩ .

(٩) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٦ ورقم ٧٧ .

(١٠) الكامل / ٢٩٨ .

(١١) المحبر / ٣٠٧ و ٣٠٨ .

(١٢) مادة (غرب) . وخطأ ما ذكراه من أنه من الإسلاميين ، فكل المصادر التى بين —

نوادره بين أغربة الجاهلية [١] ، ويذكر Fresnel أنه ابن أمة [٢] ، ويذكر صاحب الأغانى أن اسمها أميمة [٣] ، ولكنه يقول « يقال إنها من بنى القين بطن من فهم » [٤] ، ولعل فى هذا التشكيك الذى يثيره صاحب الأغانى حول نسبتها إلى بنى القين ما يقلل من أهمية هذا الخبر . ومن الحق أن المصادر التى تعرضت لتأبط شرا ، ما عدا تلك المصادر التى ذكرته بين أغربة العرب ، لم تذكر شيئاً صريحاً عن أصل أمه ، على كثرة ما تعرضت لها ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه المصادر صورتها فى صورة امرأة غير محترمة ، تؤخذ بول ابنها إذا غزا [٥] ، وتسعى فى قتله ليخلو لها الجو مع زوج تزوجها بعد أبيه [٦] ، وتتحدث هى نفسها بأنها حملت به فى ليلة ظلماء وإن نطاقها لمشدود [٧] ، وتحدثنا أخبارها بأن أولادها الخمسة كانوا يحملون ألقاباً عجيبة تعطينا فكرة عن هوان المنزلة الاجتماعية لهذه الأسرة [٨] .

ومن الطبيعى أن تكون صلة هؤلاء الأغربة بأمهاتهم أقوى من صلتهم بآبائهم ، وقد رأينا أن أكثرهم قد نسبوا إليهن ، وهى ظاهرة يصح أن نطلق عليها « العصبية النسائية فى حياة أغربة العرب » . ومرد هذا من غير شك إلى إنكار آبائهم لهم منذ أول حياتهم ، وإهمالهم شأنهم بعد ذلك ، فنشأوا فى رعاية أمهاتهم ، أو فى إهمالهن ، لا يرون لهم أحداً سواهن ، فتعصبوا لهن وتعصبن لهم ، ويصرح

= أيدينا — ما عداهما — مجمعة على أنه جاهلى ، وكل أخباره تؤيد هذا .

(١) السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .

(٢) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme (Premiére Lettre, p. 108).

(٣) الأغانى ١٨/٢٠٩ ، وأخطأ الأستاذ Brau فى The Ency. of Islam حين ذكر أن اسمها أمينة ، ولم يتنبه لهذا الخطأ مترجمو الدائرة إلى اللغة العربية .

(٤) الأغانى ١٨/٢٠٩ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٥ .

(٦) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١/٤٥ .

(٧) المصدر السابق /٤٣ .

(٨) الأغانى ١٨/٢٠٩ ، وانظر أيضاً المرزبانى : معجم الشعراء /٢٢٦ ، والسيوطى المزهر ٢/٢٧٥ ، وانظر لسان العرب وتاج العروس مادة (لغب) .

السليك بأن رأسه قد شاب مما تقاسيه خالاته من ضيم وهوان ومذلة يعجز لفقره عن إنقاذهن منها[١] ، وهو يذكر هذا فى مجال دفاعه عن تصعلكه وفخره به ، مما يشعر بأن هذه « العصبية النسائية » كانت من الأسباب الفعالة فى هذا التصعلك . وتتحدث أم تأبط شرا عن ابنها حديث المعجبة به ، فقد حكى عنها أنها قالت فيه : « إنه والله شيطان، ما رأيته قط مُسْتَثْقِلا ولاضحكاً، ولا همَّ بشيء مذ كان صبيًّا إلا فعله»[٢] ،وتتحدث عنه مرة أخرى حديثاً تبين فيه كيف حملت به ، وكيف وضعته ، ومدى اهتمامها بتنشئته منذ طفولته الأولى تنشئة قوية[٣] .

ومن هنا أيضاً كثر رثاء قريبات هؤلاء الأغربة لهم ، وحديثهن عن حزنهن عليهم، فقد رثت السُّلَكَة ابنها السليك بأبيات رائعة تفيض حزناً وتَفَجُّعاً ، تصور فيها مصابها الشديد فيه ، وحسرتها البالغة عليه[٤] ، ورثت أم تأبط شرا ابنها بقطعتين مسجعتين لعلهما تمثلان مرحلة من مراحل أولية الشعر العربى ، لم تنس فيهما أن تصور بطولته وشجاعته[٥] ، وكذلك فعلت أخته رَيطة

---

(١) المبرد : الكامل /٢٩٩ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١٢٨/٣ ، ويقول المبرد « وإنما توجع لخالاته لأنهن كن إماء » (٢٩٩/٢) ، وانظر الأبيات كلها وشرحها فى الكامل ٢٩٨/٢ وما بعدها .

(٢) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٤٣/١ .

(٣) المبرد : الكامل /٧٩ ، والجاحظ : الحيوان ٢٨٦/١ ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة (وضع) ، مع بعض الخلاف اللفظى ، وزيادات فى العبارات فى بعض المصادر ، لعلها من صنع الرواة ، رغبة منهم فى إطالة هذه السجعات ، ولعل أصح هذه الروايات رواية الكامل ورواية الحيوان .

(٤) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١٩١/٢ ، ١٩٢ ، وأسامة بن منقذ : لباب الآداب /١٨٣ ، ويقال إنها لأم تابط شرا (المعرى : شرح حماسة أبى تمام — مخطوطة بدار الكتب — ورقة رقم ٥ ، وانظر أيضاً شرح التبريزى ١٨٦/٤ و ١٨٧) ، ولكن التبريزى يرجح أنها لأم السليك (ص ١٩٢) ، وتروى فى العقد الفريد (٢٦١/٣ ، ٤٢٧) لأعرابى مجهول فى قصة واحدة فى الموضعين ، ولكن يلاحظ أن القصة لا تتفق مع الأبيات ، وبخاصة البيت الثالث (ص ٢٦١) فليس هناك محل لهذا التساؤل فى البيت ما دامت القصة تذكر أن أفعى لدغت ابن هذا الأعرابى فمات .

(٥) لسان العرب ، المواد (قرب — هوف — هيف) .

فقد رثته برجز تحدثت فيه عن مكارم أخلاقه [١] ، وكذلك فعلت أخت حاجز الأزدى ، فقد رثته ببيتين تصور فيهما حسرتها على فقده ، وحيرتها لاختفائه [٢] ، ورثت عَمْراً ذا الكَلْب [٣] أخته جَنُوب بمجموعة من القصائد الممتازة [٤] .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلعاء والشذاذ ، ليشتركوا جميعاً فى العمل ضد هذا المجتمع الذى فقدوا توافقهم الاجتماعى معه ، إما لأنه تخلى عن رعايتهم كما فى حالة الأغربة ، وإما لأنه تخلى عن حمايتهم كما فى حالة الخلعاء والشذاذ .

٤

الصعاليك والمجتمع القبلى :

الظاهرة المهمة التى تلفت النظر فى حياة صعاليك العرب الاجتماعية هى فقد الإحساس بالعصبية القبلية التى كانت قوام المجتمع الجاهلى ، وتطورها فى نفوسهم إلى « عصبية مذهبية » . وهى ظاهرة من السهل تعليلها بعد ما فهمنا الظروف الاجتماعية التى وجد فيها هؤلاء الصعاليك ، فأما الخلعاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم ، وسحبت منهم « الجنسية القبلية » ، فكان من الطبيعى أن يفقدوا إيمانهم بكل معانى القبلية ، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التى

---

(١) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة بدار الكتب) لوحة رقم ٨٣ ورقم ٨٤ ، ولسان العرب مادة (رخم) ، وينسب هذا الرجز إلى أمه (ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٢٤٢ مادة رخمان) .

(٢) الأغانى ١٢ / ٥٢ (بولاق) .

(٣) ينص صاحب الفلاكة والمفلوكين نقلا عن بعض مصادره على أنه من صعاليك العرب / ١١٩.

(٤) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤١ – ٢٤٦ ، وانظر أيضاً الأغانى ١٩ / ٢٣ ، وحماسة ابن الشجرى / ٨٢ ، ٨٣ مع بعض الاختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات وعددها ، وتنسب بعض هذه الأبيات إلى أخت عمرو « ريطة » (الأغانى ١٩ / ٢٣) وإلى أخته « عمرة » (شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤٤) . ولكن هذا الاختلاف فى كل هذه المواضع لا يغير من الفكرة التى نقررها شيئا .

لم يعدلها قيمة فى حياتهم ، بل قد ينقلبون انقلاباً تامًّا فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة ، فيوجهون غزواتهم إليها ، كما فعل قيس بن الحدادية لما خلعته قبيلته ، فجمع لهم « شذاذاً من العرب ، وفتاكا من قومه ، وأغار عليهم بهم »(١) ، فنحن هنا أمام حالة شاذة فى المجتمع الجاهلى ، يغير فيها بعض القبيلة على بعضها . وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم ، بل تكاد تنكر صلتها بهم ، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة .

وحين ننظر فى أخبار صعاليك العرب نلاحظ هذه الظاهرة واضحة تماماً ، وقد رأينا فى غارة قيس بن الحدادية على قومه أنه ألف جماعته من شذاذ من العرب وفتاك من قومه . وفى أخبار حاجز الأزدى أنه جمع « ناساً من فهم وعدوان فدلهم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا »(٢) ، فهو أزدى وهم من فهم وعدوان . وكان الشنفرى الأزدى يغير أحياناً على الأزد فيمن معه من فهم(٣) ، فهو أزدى يتزعم جماعة من فهم ، دون أن يجد الفهميون فى ذلك غضاضة ، وهو يتزعمهم ليغير بهم على قبيلته ، دون أن يجد هو فى ذلك عاراً . وفى أخبار امرئ القيس أنه بعد أن طرده أبوه « كان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيئ وكلب وبكر »(٤) ، فنحن هنا أمام جماعة من الصعاليك تألفت من ثلاث قبائل مختلفة .

ولعل السليك هو الشذوذ الوحيد لهذا الشذوذ ، فقد « كان لا يغير على مضر ، وإنما يغير على اليمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة »(٥) ، بل إن المسألة عنده لم تقف عند هذا الجانب السلبى ، بل كانت أحياناً تتعداه إلى جانب إيجابى يستخدم فيه مواهبه صعلوكاً فى سبيل قبيلته ، ففى بعض أخباره

---

(١) الأغانى ١٣/٢ (بولاق) .
(٢) الأغانى ١٢/٥١ (بولاق) .
(٣) الأغانى ٢١/١٣٥ .
(٤) الأغانى ٩/٨٧ .
(٥) الأغانى ١٨/١٣٤ .

أنه رأى طلائع جيش لبكر بن وائل جاءوا ليغيروا على تميم ، فاستغل سرعة عدوه لينذر قومه حتى لا يؤخذوا على غرة [١] .

ولكن من المهم أن نلاحظ أن العصبية القبلية قد تطورت فى نفس السليك من عصبية ضيقة الأفق إلى عصبية ذات أفق واسع ، ترتفع عن العصبية القريبة التى كان تؤمن بها القبيلة فى حدودها الضيقة إلى عصبية واسعة تشمل الجنس كله الذى تنتمى إليه القبيلة ، فهى عصبية من نوع آخر غير العصبية القبلية التى كانت تؤمن بها كل قبيلة ، ويصح أن نطلق عليها « عصبية جنسية » .

ويجب ألا نفهم من هذا أن السليك كان مرتبطاً بقبيلته كسائر أفرادها ، فقد كان يحيا حياته الخاصة ، حياة التصعلك ، خارج قبيلته ، دون أن يرتبط بها فى شىء ، أو يعتمد عليها فى شىء .

وقد نشأ عن كفر صعاليك العرب بالعصبية القبلية ، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » أنهم كثيراً ما كانوا يقومون فى المجتمع الجاهلى بدور يشبه دور « الجنود المرتزقة » عند الأمم الأخرى ، «فما دام هؤلاء الصعاليك لا يعرفون العيش إلا فى ظلال سيوفهم ، وما داموا لا ينتظرون فى حياتهم أى سلام أو أمن ، فقد كانوا يقاتلون أحياناً كما يقاتل الأبطال الشجعان ، ومن هنا كان الأشراف الذين يرغبون فى أن يوجهوا إلى خصومهم ضربة قاصمة يلجئون إلى بسالتهم مفضلين إياهم على رجال قبائلهم» [٢] .

وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شذاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك ، وكانوا

---

(١) المصدر السابق / ١٣٦ ، والمبرد : الكامل / ٣٥٠ ، ٣٥١ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء/ ٢١٥، ٢١٦ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢ / ١٧ ، والميدانى : مجمع الأمثال ١ / ٤٣١. ومع أن المبرد يسوق القصة فى باب يتحدث فيه تكاذيب الأعراب فإن التكذيب ينصب ، كما هو واضح من القصة ، على سرعة العدو الخارقة للعادة ، وهى مسالة لا صلة لها بما نقرره هنا ، وقد ناقشنا مسألة العدو فى الفصل السابق .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 193.

يسمونهم « الصنائع »[١] . وفى أخبار امرئ القيس أنه لما خرج ليثأر لأبيه « جمع جمعاً من بنى بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب ، وخرج يريد بنى أسد» [٢] ، وفى مرة أخرى غزاهم « وقد جمع جموعاً من حِميْر وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها» [٣] ، وأنه لما استنصر مرثِد الخير الحميرى أمده بخمسمائة رجل من حمير خرج بهم ، وتبعه شذاذ من العرب[٤] ، وفى أخبار زيد الخيل الطائى أنه « جمع طيئاً وأخلاطاً لهم ، وجموعاً من شذاذ العرب ، فغزا بهم بنى عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس»[٥] ، وفى أخبار زُهير بن جناب أنه جمع بنى كلب « ومن تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » ، فغزا بهم بكراً وتغلب[٦] ، وفى أخبار أبى جندب الهذلى أنه خرج ليثأر لأخيه « فقدم مكة فواعد كل خليع وفاتك فى الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا فيصيب بهم قومه »[٧] ، وفى أخباره أيضاً أن بنى لحيان قتلوا جارين له ، فقدم مكة ولما قضى نسكه « خرج فى الخلعاء من بكر وخزاعة ، فاستجاشهم على بنى لحيان ، فخرجوا معه ، حتى صَبَّح بهم بنى لحيان»[٨] ، وفى شعر خفاف بن ندبة إشارة إلى اشتراك الصعاليك فى بعض الغزوات[٩] .

ولعل من أسباب هذا كثرة الصعاليك وانتشارهم فى أرجاء الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى بصورة واسعة ، وقد مر بنا فى الفصل الأول أن النعمان بن المنذر لما طلبه كسرى ، وهرب مستنجداً بقبائل العرب ، نصحه بعضهم بالعودة إلى كسرى ، فإن صفح عنه عاد ملكاً عزيزاً ، وإلا فالموت خير من أن

---

(١) الأغانى ٩/٨١ .
(٢) العباسى : معاهد التنصيص ١/٥ .
(٣) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٥٣٢ .
(٤) الأغانى ٩/٩٢ .
(٥) الأغانى ١٦/٥٢ .
(٦) الأغانى ٢١/٩٦ .
(٧) المصدر السابق /٦٢ .
(٨) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٨٣ ، ٨٤ ، والأغانى ٢١/٦٧ ، ٦٨ .
(٩) الأغانى ٢/٣٢٩ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/٤٧١ .

يتلعب به صعاليك العرب ويتخطفه ذئابها فتأكل ما له ، وفى أخبار معبد بن زرارة « أن قيساً أسرته يوم رَحرَحان فساروا به إلى الحجاز ، فأتى لقيطٌ (أخوه) فى بعض الأشهر الحرُم ، ليفديه فطلبوا منه ألف بعير ، فقال لقيط : إن أبانا أمرنا ألا نزيد على المائتين فتطمع فينا ذؤبان العرب » (١) .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنلاحظ أن هذا الأسلوب من أساليب العيش الذى سلكه صعاليك العرب لم يكن إلا صورة من الحياة الاجتماعية التى كان يعرفها المجتمع الجاهلى ، ذلك المجتمع الذى كان يؤمن بأن « الغزو أدرُّ للقاح ، وأحدُّ للسلاح » (٢) . وليس من شك فى أن المجتمع الجاهلى كان يؤمن بالقوة إيماناً جعلها من مقومات حياته ، وجعل الغزو أساساً من الأسس التى يقوم عليها بناؤه (٣) ، « فبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة ، كان التخاصم بين القبائل فى سبيل الشرف والرياسة أو المال والعيش ، لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء مصبوغة بالدم » (٤) يتسابق أفرادها إلى الجهل ، بل يحرص كل منهم على أن يجهل « فوق جهل الجاهلينا » (٥) ، مؤمنين بالظلم وبأن « من لا يَظلم الناس يظلم » (٦) ، وبأن فى الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان (٧) ، وبأن « الشهرة بالشر خير من ألا أعرف بخير ولا شر » (٨) .

ولعل عمل الصعاليك « كان استثناساً بعمل القبائل معاً ، إذ كانت حياتها قائمة إلى حد ما على الغزو والسلب ، والفرق بين الصورتين أن عمل القبائل جماعى منظم ، وعمل الصعاليك فردى لا نظام له » (٩) .

---

(١) المبرد : الكامل /٢٧٦ .
(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/٢٤٤ .
(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I. p. 247.
(٤) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى /٢٧ .
(٥) عمرو بن كلثوم فى معلقته (التبريزى : شرح القصائد العشر /٢٤٩) .
(٦) زهير بن أبى سلمى فى معلقته (المصدر السابق /١٢٧) .
(٧) الفند الزمانى (التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١/١٤) .
(٨) الجاحظ : الحيوان ٢/٩٠ .
(٩) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى /٣٥ .

وخلاصة القول أن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد فى المجتمع الجاهلى طائفة الخلعاء والشذاذ ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفةالأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا فى عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية قوامها «الغزو والإغارة للسلب والنهب» ، معتمدين على قوتهم فى سبيل العيش ، شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الذى يعيشون فيه ، وإن يكن عملهم فرديًّا فلم يعترف به .



الفصل الرابع

التفسير الاقتصادى لظاهرة الصعلكة

١

العرب والتجارة :

عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها النشاط التجارى على صورة واسعة . وقديماً ذكر سترابو « أن كل عربى تاجر » [١] ، وهى عبارة — على الرغم مما فيها من إطلاق وتعميم — تسجل الصدى الذى استقر فى نفس ذلك الرحالة القديم عن بلاد العرب فى أثناء زيارته لها . ويذكر شبرنجر فى جغرافيته القديمة للجزيرة العربية أن تاريخ التجارة الأولى هو تاريخ البخور ، وأرض البخور هى بلاد العرب [٢] . وأول تجار ورد ذكرهم فى التوراة هم العرب [٣] ، ويذكر الباحثون أن العرب كانوا « الواسطة بين قدماء الأوربيين والشرق الأقصى » [٤] ، « وأن البيزنطيين كانوا يعتمدون فى شئونهم التجارية على قوافل البدو التى كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة ، والجلود والمعادن والمواد الغريبة والحرير من الصين ، لأجل ثياب أباطرتهم وحظاياهم وكهنتهم ، والعطور من بلاد المجوس ، والبخور من اليمن ، والصمغ من إفريقية ، لأجل كنائسهم وقصورهم » [٥] . وقد كان لمخازن العرب من

---

(١) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 27 = 123; & Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 20 & p. 24.

(٢) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159.

(٣) Lammens; La Mecque à la vieille de l'Hégire, p. 28 = 124; & Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 24.

وفى سفر حزقيال (الإصحاح ٢٧) حديث عن تجارة العرب .

(٤) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ١٠٦ .

(٥) Dermenghem; The Life of Mahomet, pp. 25, 26.

الأهمية ما كان لمخازن البندقية إبان عظمتها [١] ، ومنذ عصور سحقة والقوافل التجارية النشطة تعمل بين مناطق الإنتاج فى بلاد العرب السعيدة وبين مدن العراق والشام ومصر [٢] .

ويبدو أن هذه الحركة التجارية النشطة التى سالت بقوافلها وديان الصحراء العربية ، حتى جعلت من العرب كما يقول بعض المؤرخين « حملة العالم بين الشرق والغرب » [٣] ، ترجع إلى تلك الظروف التى كانت تسود العالم القديم فى ذلك الوقت ، فقد كان الطريق البحرى بين الشرق والغرب محفوفاً بالأخطار ، فإلى جانب « القراصنة » الذين كانوا يهددون أمنه ، ويقطعون طرقه ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، كانت الملاحة نفسها متأخرة ، ولهذا « انحصرت التجارة — بدون استثناء تقريباً — فى البر ، وكانت تلك القارة التى هى الآن أكبر عقبة فى سبيل الحركة التجارية وسيلتها الأساسية الميسرة ، وكانت برارى آسيا الوسطى وجزيرة العرب بحارَ القدماء ، وكانت قوافل الإبل سفنهم » [٤] .

وكانت التجارة فى أول الأمر فى أيدى اليمنيين ، « فعلى أيديهم كانت تنقلُ غلاتُ حضرموت وظفار ، وواردات الهند ، إلى الشام ومصر » [٥] ، « وكانت كثرة التجارة مع بلاد العرب الجنوبية تنقلُ إلى الشام ومصر عن طريق الحجاز » [٦] .

وليس من شك فى أن هذه الحركة التجارية النشطة التى كان يسيطر عليها الجنوبيون ، والتى كانت تتخذ من بلاد الشماليين طريقاً لها ، أوجدت فى نفوس الشماليين رغبةً فى الأخذ بهذا الأسلوب من أساليب العيش ، الذى يرونه يدرّ على أصحابه رزقاً وافراً وثراء عريضاً ، وغرست فى نفوسهم النواة الأولى لحب

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب /١٠٦ .

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 506.

(٣) Muir; The Life of Mohammad, pp. IXXXIX, XC.

(٤) Ibid., p. XC.

(٥) أحمد أمين : فجر الإسلام ١/١٥ .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 180, 181.

التجارة التى لم تلبث أن خرجت شجرتها إلى الوجود عندما ضعفت الدولة اليمنية وأخذت فى الانحلال . فما كادت القوة الحميرية يدب فيها الوهن فى أثناء القرن الخامس حتى سنحت الفرصة لعرب الحجاز للقبض على زمام الحركة التجارية ، « ويبدو أن هذه التطورات كانت شديدة التدرج ، ولكن الأمر الذى لا ريب فيه هو أنه من قبل أن يبدأ القرن السابع كان طريق الحجاز كله فى أيدى العرب الذين ينزلون فيه ، والذين جعلوا من مكة مركزاً إدارياً لهم ، يستقبلون فيه البضائع من أيدى اليمنيين ، ثم يحملونها شمالا على حسابهم الخاص إلى أسواق سورية ومصر ، وربما أيضاً إلى فارس ، وإن يكن من المعروف أن جزءاً من التجارة الفارسية كان فى أيدى عرب الحيرة »(١) .

٢

الطرق التجارية :

ولم يكن طريق الحجاز الطريق التجارى الوحيد للقوافل التجارية ، وإنما كانت هناك طرق أخرى . ويقرر الدارسون أن «طرق القوافل ليست مسألة اختيار مطلق»(٢) ، وإنما هى مسألة «تعتمد على طبيعة الصحارى والجبال وموارد المياه» (٣) ، ويلاحظون أن «طرق القوافل فى الجزيرة العربية تتبع عادة مجارى الوديان»(٤) ، وهذا طبيعى لأنها تتجنب به مجاهل الصحراء ، ووعورة الجبال ، وتضمن طرقاً واضحة المعالم ، محددة المسالك، تكثر فيها نسبياً فرص وجود الماء .

وقد عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل

---

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 181.

(٢) Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 103.

(٤) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

التجارية بين طرفيها الشمالى والجنوبى[1]. ويبدأ الطريقان من ظَفَار التى كانت المركز الأساسى لتجارة البخور التى يعتمد عليها الشطر الأكبر من التجارة العربية، ويجرى الطريقان إلى الشرق والغرب منها، ليتجنبا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة الآن بالربع الخالى .

أما الطريق الشرقى فيمضى متاخماً لقوس عُمانَ الساحلى، متجهاً إلى القطيف على الخليج الفارسى ، التى كانت مرفأ تُحمل إليه بضائع الهند ، ومن القطيف عن طريق تدْمر إلى فلسطين وصُور بسورية . وليس من شك فى أن هذا الطريق كان الطريق الأساسى الذى تنقل فيه بضائع الهند إلى صنعاء باليمن ، ومنها إلى ثغور البحر الأحمر أو إلى الحجاز .

وأما الطريق الغربى فيبدأ من ظفار أيضاً ، ثم يسلك وادى حضرموت إلى شَبْوَة فى أقصى طرفه الغربى، حيث يلتقى بطريق فرعى يتصل بعدن ، ثم يستمر إلى مأرب ، ومنها إلى صنعاء حيث يلتقى مرة أخرى بطريق فرعى يتصل بعدن أيضاً ، ومن صنعاء يصعد شمالا محاذياً البحر الأحمر ، متجنباً فى الشرق الصحراء المحرقة اللافحة ، وفى الغرب المرتفعات الساحلية الوعرة ، حتى يدخل الحجاز بين سلسلتى الجبال المتوازيتين التى تقع مكة والطائف بينهما ، ويمضى شمالا عن طريق وادى القرى إلى العلا، الثغر الأمامى لديار الأنباط، حيث كان يجرى تبادل البضائع بين العرب الجنوبيين والأنباط ، ثم إلى تيماء حيث تتشعب الطرق ، فبعضها يتجه شمالا إلى بُصرى وتدمر ودمشق فى سورية ، وبعضها إلى مصر عن طريق أيلة وغزة والعريش والطرف الشمالى لشبه جزيرة سيناء ، وبعضها إلى بابل عن طريق حائل الذى ينحنى انحناءة واسعة ليتجنب صحراء النفود القاسية .

وإلى جانب هذين الطريقين الأساسيين اللذين يدوران حول صحارى الجزيرة العربية ، يوجد طريق ثالث يخترق قلب الجزيرة العربية من مكة فى

---

(١) انظر فى هذين الطريقين :

O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 103-105; & Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

انحناءة حول الحد الشمالى للربع الخالى عن طريق الرياض إلى القَطِيف على الخليج العربى [١] .

ويبدو أنه كانت هناك طرق أخرى مهمة ، ففى الأخبار القديمة أن النعمان كان يبعث بلطيمة كل عام للتجارة إلى عكاظ [٢] ، وأن عرْوة الرّحّال من بنى كلاب أجارها فى بعض الأعوام ، حتى إذا وصل « إلى أهله دُوَينَ الجَرِيب بماء يقال له أوارة» وثب عليه البراض فقتله ، ثم مضى هارباً حتى أتى خيبر [٣] . وهنا نتساءل : أى الطرق كانت تسلكها لطائم النعمان فى قدومها من الحيرة إلى عكاظ ؟

يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال تفسرها ظاهرة جغرافية ، فهناك واد عظيم يمتد من حرة خيبر التى ترتفع ستة آلاف قدم ، مخترقاً غربىّ القَصيم بين أبانَيْن حتى يقارب البصرة ، وهو وادى الرُّمة الذى يرجحون أنه كان مجرى نهر فى عصور ما قبل التاريخ [٤] . وقد قلنا إن طرق القوافل فى الجزيرة العربية تتبع مجارى الوديان ، ومن هنا نستطيع أن نرجح أن وادى الرمة هو الطريق الذى كانت تسلكه لطائم النعمان ، ويؤيد هذا أن المواضع التى ورد ذكرها فى قصة عرْوَة الرحّال والبراض تقع فى هذا الوادى ، فالجريب واد عظيم لبنى كلاب يصب فى الرمة من أرض نجد [٥] ، ومنازل كلاب حيث قتل عروة تقع فى وسط الرمة أو فى أعاليها [٦] ، وخيبر التى فر إليها البراض تقع كما رأينا عند بداية الرمة . وبهذا نستطيع أن نحدد ذلك الطريق التجارى الذى كان يخترق شمالى الجزيرة العربية ، فهو يبدأ من منطقة الحيرة ثم يمضى مع وادى الرمة

---

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 105.

(٢) انظر فى قصة هذه اللطيمة : الأغانى ١٩ / ٧٥ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) ابن حبيب : المحبر / ١٩٦ .

(٤) The Ency. of Islam; Art. Arabia, p. 371.
وانظر أيضاً معجم البلدان لياقوت ، مادة (الرمة) ٤/ ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (الجريب) ٣/ ٩١ .

(٦) المصدر السابق ، مادة (الرمة) ٤/ ٢٩٠ ، ٢٩١ .

حتى يصل إلى خيبر ، ومنها عن طريق وادى القرى إلى يثرب ، ثم إلى مكة فى الطريق الذى يصل بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها ، ومن مكة إلى عكاظ .
وقد أشار زويمر نقلا عن بعض مصادره إلى طريق كان « فى أيدى العرب الإسماعيليين يخترق وادى الرمة وبلاد نجد إلى حاضرة الحميريين القديمة مأرب »[١] ، ولكنه لم يذكر شيئاً عنه أكثر من هذه الإشارة الموجزة ، ولعله الطريق الذى حددناه .

٣

الأسواق :

ومن الطبيعى أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية ، حيث يوجد الماء ، مجموعة من الأسواق تنزل فيها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق التى تجاورها بسلعهم ، ويقوم بين الفريقين تبادل تجارى ، ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم .

وقد ذكر اليعقوبى من هذه الأسواق عشرا[٢] ، بدأ بها من أقصى الشمال حيث تقام سوق دُومة الجندل ، ثم تتبعها على طول الخليج العربى حيث تقام سوق المشقَّر بهجر ، وسوق صُحار ، وسوق دَبى[٣] ، ثم على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية حيث تقام سوق الشِّحْر بشحر مهرة ، وسوق عدن ، وسوق الرابية بحضرموت ، وسوق صنعاء ، ثم مضى على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى انتهى إلى سوق عكاظ وسوق ذى المجاز بالقرب من مكة ، وقد ذكر ابن حبيب هذه الأسواق أيضاً[٤] ، وأضاف إليها سوقين أخريين :

---

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 260.

(٢) تاريخ اليعقوبى ١/٣١٣ ، ٣١٤ .

(٣) فى المصدر السابق « ربا » ، وهو تحريف ، صوابه ما ذكرناه هنا . (انظر القاموس المحيط ، مادة « دبى » — ومعجم البلدان لياقوت ، مادة « دبا » حـ ٤ ص ٣٠ — والمحبر لابن حبيب /٢٦٥) .

(٤) المحبر /٢٦٣ — ٢٦٧ .

سوق حَجْر التى كانت تقام باليمامة ، وسوق نَطَاة التى كانت تقام بخيبر [١] .

ومن الطبيعى أن هذه الأسواق ليست كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية فى جاهليتها ، وقد ذكر ابن حبيب أن هذه الأسواق هى « أسواق العرب المشهورة فى الجاهلية » [٢] ، ومع ذلك فقد عرف العرب الجاهليون أسواقاً أخرى مشهورة ، فقد عرفت منطقة مكة مع سوقى عكاظ وذى المجاز سوق مجنة [٣] ، وعرفت منطقة تهامة سوق حباشة التى أرسلت السيدة خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها [٤] ، وفى أخبار الشنفرى أن أعداءه تربصوا له وهو عائد منها [٥] ، وكذلك كانت بدر « موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام » [٦] ، وقد عرفت عُمان سوقاً أخرى مشهورة هى سوق « دما » يذكر عنها ياقوت أنها « كانت من أسواق العرب المشهورة » [٧] ، وكذلك كان اليهود يقيمون أسواقاً حيث كانوا ينزلون ، فقد كان لبنى قينقاع سوق فى يثرب ، « وكانت سوقاً عظيمة » ، وقد زارها النابغة الذبيانى مرة ، فلما أشرف عليها سمع بها ضجة حاصَتْ به ناقته منها [٨] ، ويذكر المؤرخون أن أهل مكة كانوا يقصدون إلى خيبر ليجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق التى كانت نساؤهم يتحلين بها [٩] . ومن الطبيعى أن تقوم بخيبر ويثرب أسواق ، نظراً لنزول اليهود أصحاب الأموال والتجارة والصناعة فيهما ، وقد « كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار

---

(١) المصدر السابق/ ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه /٢٦٣ .

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت مادة (مجنة) ٧/ ٣٩٠ ، ومادة (عكاظ) ٦/ ٢٠٣ .

(٤) انظر المصدر السابق مادة (حباشة) ٣/ ٢٠٦ .

(٥) الأغانى ٢١/ ١٣٧ .

(٦) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٦ والمغازى للواقدى / ٣٧ .

(٧) معجم البلدان ٤/ ٦٩ (مادة دما) .

(٨) الأغانى ٢١/ ٩٢ .

(٩) الواقدى : المغازى / ٢٧٧ .

لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد »[١] ، وكذلك من الطبيعى أن تقوم بمنطقة مكة تلك المجموعة من الأسواق التى ذكرناها نظراً لأنها كانت أكبر مراكز التجارة فى الجزيرة العربية ، ونظراً لكثرة وفود العرب التى كانت تهوى إليها فى مواسم الحج ، وقد كان النعمان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ بلطيمة « تباع ، وتشترى له بثمنها الأدُم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العَصْب والوشى والمُسيَّر والعَدَنى »[٢] .

ونستطيع أن نقرر ، ونحن مطمئنون ، أنه على طول الطرق التجارية كانت تقوم الأسواق ، وأن هذه الأسواق كانت تكثر حول مراكز التجارة الأساسية .

ونستطيع أن نقسم هذه الأسواق إلى مجموعتين : فهناك أسواق تقع فى بلاد فيها هيئة حاكمة ذات قوة تنفيذية ، ترد الظالم عن ظلمه ، وتأخذ لصاحب الحق حقه من غاصبه ، أو — كما كان يسميها القدماء — « أرض مملكة وأمر محْكَم » ، وهذه لم يكن التجار فيها يحتاجون إلى خفارة ، لأن القوة التنفيذية فيها كانت تقوم بهذه المهمة ، نظير عشور يحصلونها من التجار ، كسوق عدن[٣] ، وهناك أسواق تقع فى مناطق بدوية لا حكم فيها إلا للقوة الفوضوية ، أو — كما كان يقول القدماء — « من عز فيها بزَّ » ، وهذه كان التجار يحتاجون فيها إلى خفارة ، كسوق الرابية بحضرموت[٤] . وكان سادة بعض هذه المناطق ينصّبون أنفسهم حكاماً على أسواقها ، « ويسيرون فيها بسيرة الملوك » ، فيأخذون من التجار فيها العشور ، كما كان يفعل بعض بنى تميم فى سوق المشقر بهجر ، وكما كان يفعل الجلندى وآل الجلندى فى سوق صُحار وفى سوق دَبى[٥] .

---

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب /١٨ .
(٢) الأغانى ١٩/٧٥ .
(٣) ابن حبيب : المحبر /٢٦٦ ، وتاريخ اليعقوبى ١/٣١٤ .
(٤) المصدران السابقان : ابن حبيب /٢٦٧ ، واليعقوبى ١/٣١٤ .
(٥) المصدران السابقان : ابن حبيب /٢٦٥ ، ٢٦٦ ، واليعقوبى ١/٣١٤ .

ومع ذلك فقد كان التجار فى هذه الأسواق عادة آمنين على دمائهم وأموالهم[١] ، فبالرغم من أنه كان فى العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، وكانوا يسمون المحلّين ، كان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، وكانوا يسمون الذادة المحْرِمين[٢] ، وكان هؤلاء الذادة المحرمون « يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم فى الأشهر الحرم »[٣] ، كما أن بعض هذه الأسواق كانت تقوم بحمايتها القبائلُ التى كانت تقام فى أراضيها ، ويسمون بذلك جيرانها ، فقد كانت كلب وجديلة طيئْ جيراناً لسوق دومة الجندل[٤] ، وكانت عبد القيس وتميم جيراناً لسوق المشقر[٥] ، وكان حلف الفضُول يجير فى أسواق مكة[٦] ، وقد وصلت هذه الإجارة فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من القوة تستطيع بها أن ترد على المظلوم حقه ، بعد أن تنتزعه من غاصبه ، كما كان يفعل الفضُول فى مكة[٧] .

والغاية التى نريد أن نصل إليها من هذا هى أن الفرصة التى كان من المنتظر أن تكون سانحة أمام صعاليك العرب فى هذه الأسواق للغزو والإغارة للسلب والنهب قد أفلتت من أيديهم ، نظراً لتلك الحماية التى كان الذادة المحرمون يأخذون بها أنفسهم ، وهذه الإجارة التى كانت بعض القبائل أو الأحلاف تقوم بها ، ونظراً — من ناحية أخرى — إلى ازدحام هذه الأسواق بالناس من مختلف الطبقات ازدحاماً يفسد على الصعاليك « خططهم الحربية » التى تعتمد قبل كل شىء على التربص الحذر ، ثمُ المفاجأة الخاطفة ، فالفرار

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١/٣١٣ .
(٢) المصدر السابق /٣١٤ .
(٣) المصدر نفسه /٣١٥ .
(٤) ابن حبيب : المحبر /٢٦٣ .
(٥) المصدر السابق /٢٦٥ .
(٦) السهيلى : الروض الأنف ١/٩٠ ، ٩١ .
(٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه .

السريع من أجل النجاة والسلامة .

ولكنهم — مع ذلك — لم يدعوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم إفلاتاً تامًّا ، فما لا يُدرك كله لا يترك كله ، فقد رأوا أن هذه الأسواق مواسم يلتقى فيها ضروب من الناس من شتى القبائل ، مما يتيح لهم فرصة طيبة للاتصال بهم ، وانتقاء ضحاياهم من بينهم ، ليضعوا على أساس ذلك خططهم المقبلة التى يعتزمون تنفيذها بعد ذلك ، فنى أخبار السليك أنه خرج فى الشهر الحرام حتى أتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضلا مترجلا ، فجعل يطوف بين الناس ويقول : منْ يصفُ لى منازل قومه وأصف له منازل قومى ؟ فلقيه قيس بن مكشوح المرادى ، فقال : أنا أصف لك منازل قومى ، وصف لى منازل قومك ، فتواقفا وتعاهدا ألا يتكاذبا ، ووصف كل منهما للآخر منازل قومه ، فانطلق قيس إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فقال أبوه المكشوح : ثكلتك أمك ! هل تدرى من لقيت ؟ قال : لقيتُ رجلا فُضُلاً كأنما خرج من أهله ، فقال : هو والله سليك بن سعد ، ثم لم يلبث السليك أن وضع خطه موضع التنفيذ ، فأغار فى أصحاب له على مراد وخثعم ، وأسر قيس بن المكشوح ، وأصاب من نعمهم ، وسبى سبية من خثعم ، ثم انصرف مسرعاً[1] ، ويبدو من معرفة المكشوح للسليك بمجرد حديث قيس عنه أن هذا اللون من الاحتيال من « السوابق » التى عرفتها « صحيفة » السليك ، والتى يعرفها عنه أصحاب الخبرة ، كما يعرف رجال الشرطة فى العصر الحديث أرباب السوابق من المحتالين بمجرد ذكر حوادث احتيالهم .

وإذا كانت الفرصة قد أفلتت من صعاليك العرب فى داخل هذه الأسواق ، — ما عدا أمثال هذا الاحتيال — فإن فى الطرق الموصلة إليها ، وفى المناطق المحيطة بها ، متسعاً لحركاتهم ، فوقفوا يترَصدُون التجارَ فى مقدَمهم إليها ، وفى منصرفهم عنها ، يقطعون عليهم الطرق ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم من تجاراتهم .

---

(١) الأغانى ١٨/١٣٥ ، ١٣٦ .

وهنا نقف لنذكر أننا قلنا عند تعليلنا لانتشار حركات الصعاليك فى منطقة السراة المحيطة بمكة وفى قبيلة هذيل أن للمسألة جانباً اقتصاديًّا ، وأظن أننا نستطيع الآن أن نقول إن من أسباب انتشار الصعاليك فى هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجارى الذى يصل بين اليمن والشام مما جعلها ممرًّا للقوافل التجارية ، هذا إلى أن قربها من مكة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة : عكاظ ومجنة وذو المجاز [١] جعل منها ميداناً نشطاً لحركات التجار فى غدُوِّهم ورَوَاحهم ، مما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنطقة الفرصة المواتية للغارة والغزو للسلب والنهب . ولهذا السبب اضطر التجار فى مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفَّروا بالقبائل القوية التى تنزلها [٢] .

وكان لهذه الأسواق — من ناحية أخرى — أثر فى حياة صعاليك العرب ، ففيها ، أو فى بعضها على الأقل ، كانت تجرى تجارة رائجة ، هى تجارة الرقيق الذى كان يجلب من إفريقية ، وقد رأينا فى الفصل السابق صورة من تلك التجارة فى أسواق مكة ، وفى سوق حباشة كانت تجرى هذه التجارة أيضاً [٣] ، وقد رأينا فى الفصل السابق أن هذه التجارة كانت سبباً فى نشأة طبقة الأغربة فى المجتمع الجاهلى ، وأن هذه الطبقة قد أمدت حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب . وإلى جانب هذا اللون من التجارة ، عرفت هذه الأسواق — أو بتعبير أدق — الأسواق الأساسية لوناً من النشاط الاجتماعى كان له أثر فى حركة الصعلكة ، وهى ظاهرة الخلع ، وقد قلنا فى الفصل السابق إن هذا الخلع كان يتخذ صورة إعلان رسمى يذاع على الناس فى المواسم والأسواق ، ورأينا أن هؤلاء الخلعاء كانوا يملون حركة الصعلكة أيضاً بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب .

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ، عكاظ ٦/٢٠٣ ، ومجنة ٧/٣٩٠ ، والمجاز ٧/٣٨٥ .

(٢) انظر المحبر / ٢٦٤ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبى ١/٣١٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (حباشة) ٣/٢٠٦ . وابن الأثير : أسد الغابة ٢/٢٢٤ .

ومعنى هذا أن هذه الأسواق شهدت السطور الأولى من قصة هاتين الطائفتين من صعاليك العرب : طائفة الأغربة ، وطائفة الخلعاء .

٤

الصراع الاقتصادى فى المدن التجارية :

من الطبيعى أن يشارك فى هذه الحركة التجارية النشطة التى عرفتها الجزيرة العربية سكانها ، كلٌّ حَسْبَ طاقته المالية، وحسب ظروفه الاجتماعية ، وحسب قربه أو بعده عن مراكز النشاط التجارى ، ومن الطبيعى أيضاً أن يختلف موقف العرب من هذه الحركة التجارية عن موقف البدو .

أما أولئك العرب الذين تقع مدنهم على الطرق التجارية فقد فرض عليهم موقعهم أن يشاركوا فى هذه الحياة التجارية بكل ما تحتمله رءوس أموالهم .

وقد نشطت الحركة التجارية فى مكة بالذات نشاطاً واسع النطاق ، جعل منها كما يحلو للامانس أن يقول عنها « جمهورية تجارية »[١] ، أو كما يسميها درمنجم « جمهورية بلوتقراطية »[٢] ، تعتمد فى سيادتها على طبقة الأثرياء ، أو كما يقول بندلى جوزى « مدنية تجارية محضة لا يفكر أهلها إلا فى التجارة ، ولا يهمهم إلا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة والغير المحللة »[٣] .

ويؤرخون أهمية مكة الحقيقية فى هذا النشاط التجارى بذلك الوقت الذى أصبح فيه عرب الحجاز أصحاب التجارة ، وجعلوا من مكة « مركزاً إداريًّا » لأعمالهم ، أما قبل ذلك ، حينما كانت التجارة فى أيدى اليمنيين ، فإن مكة لم تَعْدُ أن تكون محطة على طريق القوافل ، كما يذكر سترابو[٤] . فقد كانت

---

(١) انظر كتابه : La Mecque à la veille de l'Hégire,
وانظر أيضاً مقالته عن Mecca فى : The Ency. of Islam, p. 438.
(٢) The Life of Mahomet, p. 26.
(٣) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ١٤ ، ١٥ .
(٤) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 182.

مكة قبل القرن الخامس الميلادى « محطة للقوافل التى كانت تمر بها وهى راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن إلى سوريا وفلسطين ومصر ، فأصبحت فى أواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والأجنبية أكثر سكان الحجاز وأسواقه »[١] .

وقد سيطر على أهل مكة رُوحٌ تجارى نشط « فاشتعلت فى نفس كل منهم حمّى تدفعه للعمل والمال والمضاربات التجارية ، من التاجر ذى الأريكة الخشبية فى الهواء الطلق ، إلى صاحب الدكان الصغير ، إلى رجل الأعمال الكبير صاحب الكتبة الكثيرين ، الذى تزدان دفاتر حساباته الجارية بالأختام والكتابات الحاذقة »[٢] ، وبلغ من سيطرة هذا الروح التجارى أن كان من ألقاب الشرف فى مكة لقب « تاجر » ، ذلك اللقب الذى كان يخول لصاحبه أن يشارك فى السلطان السياسى[٣] .

وقد أحدث هذا النشاط التجارى نوعاً من الاختلال فى التوازن الاقتصادى ، نشأت عنه طبقة من الصعاليك المعوزين ممن تخلفوا عن القافلة ، ونحّاهم التيار التجارى الجارف جانباً ، حيث يركد الماء ، ويتراكم الغثاء . ويرى بعض الباحثين أن عدد أفراد هذه الطبقة فى مكة كان كبيراً جدًّا بالنسبة إلى عدد أصحاب الثروة فيها ، وأنهم كانوا فى حالة سيئة « لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، لأن حق التشريع كان محصوراً فى أيدى الطبقة العليا ، فكان أصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم ، ولما لم يكن لأصحاب هذه الطبقة زاجر من أنفسهم ، ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار أتعاب الصعاليك وامتهانهم ، ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للأخطار ، وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ، ولا شريعة ترق لحالهم ، وتحاول أن تنتشلهم من هاوية الموت الاجتماعى والرق

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٣ ، ١٤ .

(٢) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 29.

(٣) Lammens; La Mecque à la Veille de l'Hégire, p. 165 = 261.

الأبدى ، فكانوا يعيشون فى شعاب البلدة وأطرافها البعيدة ، وفى بيوت حقيرة قذرة ، وعيشة ضنك ، وجوع مستمر ، بينما كان الذين أثروا من أتعابهم يقيمون فى وسط المدينة ، فى قصورهم الفخمة ، بالقرب من الكعبة والنادى ، أو دار الندوة ، مصدرَىْ ثروتهم وسلطتهم »[١] .

وكانت العلاقات بين هاتين الطبقتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك من السوء إلى حد بعيد ، فقد كانت الطبقة الأولى مسيطرة على كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وقد رأينا أن حق التشريع كان فى أيديهم . وإلى جانب هذا كانوا هم المسيطرين على الحياة الاقتصادية ، فكانوا يعمدون أحياناً إلى التلاعب بالأسواق ، أو المضاربة بالدراهم والدنانير والتبر والنقود الأجنبية ، « فكانوا تارة يزيدون فى وزنها أو قيمتها ، وطوراً يخفضون ، تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم المعهود »[٢] مما كان يؤدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى اختلالا كبيراً ، يكون من نتائجه أن تصبح طبقة الصعاليك تحت رحمتهم ، فيضطر أفرادها إلى الاستدانة إبقاء على حياتهم . وهنا يعمد المتمولون إلى استغلال هذه الفرصة ، فيقرضونهم ما يطلبون نظير فائدة فاحشة كانت تتراوح بين أربعين فى المائة ومائة فى المائة[٣] . ويبدو أن عدد المرابين فى مكة والمدينة كان كبيراً جدًّا ، ومعروفٌ أن القرآن الكريم فى سوره المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين[٤] . وإلى جانب هذا الربا الذى كانوا يأكلونه « أضعافاً مضاعفة » كما يقول القرآن الكريم[٥] « كانوا يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا آجالها ، أو يقدموها .

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ٢٠ ، ٢١ .

(٢) المصدر السابق / ١٩ .

(٣) المصدر السابق / ١٨ ، وفى خزانة الأدب للبغدادى (١ / ٣٤٥ سطر ١١) « اقترض ثمانية آلاف درهم بائنى عشر ألف » ، وفى كتاب المغازى للواقدى (ص ٢١) « مال مع قوم قراض على النصف » .

(٤) البقرة / ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ وهى مدنية ، وآل عمران / ١٣٠ وهى مدنية أيضاً ، والنساء / ١٦١ وهى مدنية أيضاً ، والروم / ٣٩ وهى مكية .

(٥) آل عمران / ١٣٠ .

أو يضيفوا إليها ، إلى غير ذلك من الأعمال التى كانت تؤدى دائماً إلى خراب المستدين واستعباده »[1] . وفى القرآن الكريم إشارة إلى ذلك إذ وقف من هذا التلاعب بالديون موقفاً رائعاً صريحاً نظم فيه الصلة بين الدائن والمدين تنظيماً واضحاً دقيقاً ، ووضع الشروط التى تضمن لكلا الطرفين حقه ، فى آيتين طويلتين من سورة البقرة[2] ، وكانت هذه الديون تزداد يوماً بعد يوم بما كان يضاف إليها من الربا الفاحش ، مما كان يجعل محاولة سدادها أمراً ميئوساً منه ، « ولهذا لم يكن وقتئذ أمل فى التخلص من أولئك الظلمة بالطرق السلمية إلا فيما ندر ، أما أكثر المدينين فإنهم كانوا مضطرين إما إلى الهرب إلى الصحراء ، والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق ، وإما أن يدخلوا فى طبقة الأرقاء ، ويقيموا فيها إلى ما شاء الله »[3] .

ويرجع هذا إلى أن مكة كانت فى الجاهلية — كما هى فى الإسلام — حرماً مقدساً « لا ظلم ولا بغى فيها »[4] ، نظراً لوجود الكعبة فيها ، هذا إلى جانب أنها مدينة لها نظامها الاجتماعى ، ويقيم سكانها فى منازل ، فهى لهذا ليست بالميدان الصالح لحركات الصعاليك المتمردين . ومن هنا لم يجدوا مفراً من الخروج منها إلى البادية الواسعة حيث الحياة فوضى ، ومجال العمل المتمرد متسع ، وحيث طوائف المتشردين وقطاع الطرق وذؤبان الصحراء منتشرة ، فإذا ما ضاقت بهم حياة التصعلك والتشرد ، أو ضاقوا بها ، أو رغبوا فى الراحة منها إلى حين ، فإن طريق العودة إلى مكة ميسر ، فأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ أو خائف أو طريد ، « من دخله كان آمناً ، ومن أحدث فى غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله »[5] . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر فى كثرة عدد الحلفاء من شتى القبائل فيها ، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ١٩ .
(٢) ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(٣) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ١٩ ، ٢٠ .
(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ١٩٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان (مكة) ٨ / ١٣٦ .

فيه آمنين على حياتهم من الطلب ، حتى إذا ما حانت ساعة العمل خرجوا منها إلى ميدان كفاحهم ، وقد رأينا فى الفصل السابق صورة لأولئك الخلعاء والفتاك الذين كانوا يجتمعون فى مكة ، حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها ، وواعدهم فى الحرم ، ثم خرج بهم جنوداً مرتزقة .

٥

الصراع الاقتصادى فى البادية :

إذا ما تركنا هذه المدن التجارية بطبقاتها الاقتصادية ، وما يدور بينها من صراع ، ومضينا إلى البادية لنتبين موقف أهلها من هذا النشاط التجارى ، فإننا نجد أن موقفهم قد اختلف تبعاً لمواقع قبائلهم ، من حيث قربها من مراكز النشاط التجارى وطرق القوافل أو بعدها عنها .

ومن الطبيعى أن تشارك القبائل التى كانت تنزل على طول الطرق التجارية أو قريباً منها فى هذا النشاط التجارى ، فقد كان مرور القوافل التجارية بهم فرصة تسنح لهم من حين إلى حين ، يستغلونها فى إنعاش حياتهم الاقتصادية ولو لفترة محدودة من الزمن ، فكان بعض الأفراد من الطبقات الفقيرة فى هذه القبائل يعملون لهذه القوافل نظير أجر يتقاضونه ، يعينهم على تكاليف الحياة ، ويساعدهم على موازنة حياتهم الاقتصادية ، وسداد ما عليهم من ديون اضطروا إليها فى أوقات الأزمات التى كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، ويحدثنا الطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما كان يستعد لغزوة بدر بعث برجلين إلى ماء بدر ليتحسسا له أخبار قريش ، فسمعا جاريتين « تتلازمان على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العيرُ غداً أو بعد غد فأعمل لهم حتى أقضيك الذى لك »[1] .

وليس من شك فى أن هذه القوافل الضخمة فى رحلاتها الطويلة فى مجاهل

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٥ — والملازمة : المطالبة بالحق .

الصحراء كانت تحتاج إلى أشياء كثيرة حتى تصل إلى غايتها البعيدة بسلام .

ولعل أول ما كانت تحتاج إليه « الأدلاء » الذين يهدونها الطريق فى دروب الصحراء الملتوية الغامضة ، بما لهم من خبرة ودراية بها ، حتى لا تضل أو تضيع بين مجاهلها ، وتحدثنا الأخبار عن دليلين كانت تستخدمهما القوافل المكية فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن امرئ القيس [١] .

وليس من شك فى أن هؤلاء الأدلاء كانوا كثيرين ، نظراً لطبيعة البيئة الصحراوية التى تفرض على سالكها أن يكون على علم دقيق بطرقها ، ومواقع مياهها ، ومنازل الرعى التى تحتاج إليها الإبل فى طريقها ، ومواطن الأمن والخوف فيها ، إلى غير ذلك مما جعل العربى يفخر بمقدرته على هداية الركب « فى ديمومة فيها الدليل يَعَضّ بالخمس » [٢] ، ومكابدته الخرْقَ الذى :

ينسى الدليـــلُ به هدايتـــه　　　من هول ما يلقى من الرعب [٣]

ولم يكن هذا العلم الواسع ليتهيأ إلا لأولئك البدو الذين يعيشون فى قلب الصحراء ، ويضطرون تحت الظروف الجغرافية إلى التنقل من منزل إلى منزل ، أما أبناء المدن من العرب المستقرين فلم يكن يتاح لهم — أو لأكثرهم على الأقل — شىء من هذا ، فلم يكن هناك بدٌّ من استعانتهم بهؤلاء الأدلاء « جوابى الصحراء الذين لا يتعبون » كما يصفهم لامانس [٤] ، والذين لم تعد الصحراء أمامهم سرًّا مغلقاً ، وإلا كان إقدامهم على اختراقها مغامرة جنونية

---

(١) الواقدى : كتاب المغازى / ١٩٦ ، ٣٦ . وقد ورد ذكرهما فى شعر حسان بن ثابت (انظر ديوانه ط السعادة بالقاهرة / ٢٣٧ قصيدته الكافية) ، وقد وصف المكيون فرات بن حيان بانه دليل بطرق الصحراء يسلكها وهو مغمض العين قد دوخها وسلكها (المغازى / ١٩٦) ، وقد طلبوا إليه فى أثناء الحصار الذى ضربه المسلمون على طريقهم التجارى إلى الشام أن يسلك بهم طريقاً إلى أسواق الشام دون أن يمروا بمنطقة المدينة (المصدر السابق / ١٩٦) .

(٢) الأغانى ١٦ / ٩٧ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٤ / ١٥٥ .

(٣) الأصمعيات / ١٠ البيت ١٤ .

(٤) La Mecque à la Veille de l'Hégire, p. 182 = 278.

لا تؤمن عواقبها ، ويحدثنا ابن حبيب عن طائفة من « أدلاء العرب الذين انتهت إليهم الدلالة »[١] . ويذكر منهم واحداً « بلغ وبار ولم يبلغها غيره »[٢] .

وإلى جانب هؤلاء الأدلاء كانت القوافل التجارية تحتاج إلى « خفراء » أو « حماة » يؤمنون سبلها ، ويذودون عنها وحوش الصحراء[٣] ، ويدفعون عنها « ذؤبان العرب ، وصعاليك الأحياء ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل » كما يعددهم الجاحظ فى بعض رسائله[٤] ، وذلك لأن طرق القوافل « كانت دائماً معرضة لغزو القبائل ، وسطو شذاذ الطرق وقطاعها ، الذين كانوا يعيثون فى الصحراء فساداً ، ويعيشون من السلب والنهب[٥] » ، وبخاصة فى تلك المناطق التى يصفها المؤرخون بأنها « لم تكن أرض مملكة ، وكان من عزّ فيها بز »[٦] ، أى تلك المناطق التى لم تكن فيها حكومة منظمة تضرب على أيدى العابثين ، وإنما كانت تدين بشريعة القوة ، ويسيطر عليها مذهب « الحق للقوة » ، ولهذا كان أصحاب القوافل مضطرين إلى استخدام جماعات كبيرة من الناس لخفارة بضائعهم والمحافظة عليها فى الطريق[٧] ، « وكانوا يسارعون إلى تقوية هذا الحرس عند اقترابهم من المسالك الخطرة ، بالقرب من تلك المفاوز المعرضة لغزوات الصعاليك ، أو عند ما يضطرون إلى اختراق المناطق التى تنزلها قبائل معادية أو مشتبه فيها »[٨] ، كقبيلة هذيل التى كانت قبيلة تخشاها القوافل التجارية[٩] ، وكقبيلة فهم التى كانت

---

(١) المحبر /١٨٩ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق /١٨٩ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185.

(٤) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧١ .

(٥) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٦

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٣١٤ ، والمحبر /٢٦٧ .

(٧) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٧ .

(٨) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 185 = 281.
وانظر أيضاً مقالته عن "Mecca" فى : Ency. of Islam; p. 440.

(٩) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 52 = 148.

برغم صغرها مشهورة بلصوصها [١] ، وكان هؤلاء الخفراء يقومون بهذا العمل نظير جُعْل يسمى « الخفارة » [٢] ، وسواء أكان هدايا أم نقداً [٣] فقد كان فى العادة جعلا كبيراً يتكافأ مع خطر العمل ، وكثرة تبعاته ، وكان هؤلاء الخفراء « يعيدون فى أكثر الأحيان هذا الجعل إذا ما عرض عارضٌ يحول دون أن تزتى خفارتهم ثمرتها » [٤] ، ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء الخفراء من القبائل التى تمر بها القوافل لأن فى هذا ضماناً من تعرض هذه القبائل لهم ، أو قطعها الطريق عليهم ، وإرضاءً لكبرياء البدوى التى تجعله دائماً يتوقع « أن يُطلب ليتقدم الطريق أمام أى قافلة تخترق إقليمه الذى يعده ملكاً خاصاً لقبيلته » [٥] ، كما أن أفراد هذه القبائل أعرف — بطبيعة الحال — بمواطن الخطر فى مناطقهم ، وأدْرَى بسبل النجاة منها ، ويحدثنا الرواة أن كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز فى طريقه إلى سوق دُوَمة الجندل كان يتخفر بقريش ما دام فى بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليفٌ لمضرى ، فإذا أخذ طريق العراق تخفر ببنى عمرو بن مرْثد من بنى قيس بن ثعلبة فتجيز ذلك له ربيعة كلها ، أما إذا مضى إلى مهرة ، وهى ليست بأرض مملكة ، فإنه كان يتخفر فيها ببنى مُحَارب من مهرة ، فإذا مضى إلى حضرموت حيث تقام سوق الرابية التى « لم يكن يصل إليها أحدٌ إلا بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز صاحبه » فإن قريشاً كانت تتخفر ببنى آكل المرار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة [٦] ، ومن هنا كان أصحاب القوافل يلجئون فى أكثر الأحيان إلى رؤساء القبائل ، أو إلى سيد

---

(١) Krenkow; Ency. of Islam, art. "Al-Shanfara".

(٢) Ency. of Islam; art, Arabia, p. 325.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 179.

(٤) Ibid; pp. 179, 186.

(٥) Ibid; p. 185.

(٦) ابن حبيب : المحبر /٢٦٤ — ٢٦٧ .

فيهم مطاع ، ليجيروا لهم قوافلهم ، كما كان يفعل النعمان مع لطائمه التى كان يبعث بها كل عام إلى سوق عكاظ ، فقد كان يجيرها له سيد مضر [١]، ومن هنا أطلقوا على هذه الخفارة أيضاً الجوار [٢] ، وكان هذا الجوار « عملا مربحاً يسعى وراءه سادةُ الصحراء سعياً شديداً » [٣] ، فقد كان أصحاب القوافل يشركونهم فى عملياتهم التجارية ، أو يقاسمونهم الأرباح ، أو يفتحون لهم حسابات جارية فى نوافذ مصارفهم ، على حد تعبير لامانس [٤] . ولم يكن يعدلُ سعىَ هؤلاء السادة وراء هذا الجوار إلا حرص أصحاب القوافل عليه ، حتى لقد كانوا يستميلونهم أحياناً بالمصاهرة [٥] ، ولعل أشهر قصص هذا الجوار قصة « إيلاف قريش » التى أشار إليها القرآن الكريم [٦] ، ويحدثنا العتبى ومحمد بن سلام عن قصة هذا الإيلاف حديثاً طويلا يرويه لنا القالى فى نوادره [٧] ، وكذلك يحدثنا الجاحظ فى بعض رسائله [٨] عن هذا الإيلاف حديثين آخرين ، وكيفما كان هذا الإيلاف فيبدو لى أن المسألة — فى أبسط صورها — ترجع إلى أن القرشيين قاموا بمفاوضات مع جيرانهم الذين تمر قوافلهم بديارهم ، من أجل تأمين سلامة هذه القوافل ، والإذن لها بالمرور ، وحصلوا على ترخيص من ملوك البلاد التى كانت لهم « متاجر » أو « وجوهاً » — كما

---

(١) الأغانى ١٩/ ٧٤ .

(٢) الأغانى ١٦/ ٩٩ سطر ١٢ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185

(٤) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

(٥) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ١٧ .

(٦) سورة قريش ٢٧٤ ، والإيلاف : العهد والذمام (لسان العرب ، مادة ألف) وهو « عهود بينهم وبين الملوك » (الألوسى : روح المعانى ٣٠/ ٢٣٨) ويفسره الأزهرى بأنه « شبه الإجارة بالخفارة » (المصدر السابق / ٢٤٠) ، وقد أجمع الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف (رسالة فضل هاشم على عبد شمس من رسائل الجاحظ / ٧٠) ، وفى حديث ابن عباس « وقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف لهاشم » (لسان العرب مادة ألف) .

(٧) ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٨) رسالة فضل هاشم على عبد شمس / ٧٠ ، ٧١ .

كانوا يسمونها[١] — ليدخلوا بتجاراتهم أسواق هذه البلاد ، ويذكر الجاحظ فى تفسير قوله تعالى « وآمنهم من خوف » فى قصة هذا الإيلاف أنه « خوفُ مَن كان هؤلاء الإخوة (يعنى هاشما وإخوته) يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال »[٢] .

وإلى جانب هذه الخفارة كان بدو القبائل يقومون أحياناً بدور الرسل أو « البريد » بين القوافل فى أثناء الطريق وبين المراكز التجارية التى خرجت منها أو التى تقصدها ، فإذا جد ما يستدعى اتصال القافلة بأحد هذه المراكز استأجر أصحابها بعض البدو من القبيلة التى يمرون بها ، وبعثوا به إلى حيث يريدون . ويحدثنا رواة السيرة أن أبا سفيان عندما تعرضت قافلة قريش لخطر مهاجمة المسلمين لها عند بدر « استأجر ضَمضَمَ بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة »[٣] ، وكان هذا نظير عشرين مثقالا استأجره بها[٤] .

ولكن إلى جانب هذه العناصر الكادحة من بدو القبائل ، وجدت عناصر متمردة رأوا فى هذه القوافل الضخمة التى تنتقل بين أطراف الجزيرة محملة بثرواتها وكنوزها ، مخترقة البادية ، أرضَ الجوع والجدب والضيق ، صورةً من صور اختلال التوازن الاقتصادى ، ومثلا من أمثلة سوء توزيع الثروة ، فرفضوا أن يشاركوا فى هذه الأوضاع الاقتصادية المختلة ، ورأوا أن يقفوا منها موقفاً معادياً يعتمد على القوة فى كسب الرزق ، ففى مرور هذه القوافل فى مناطق الصحراء المقفرة الموحشة فرصةٌ صالحة للغارة والغزو ، وصَيدٌ موَات للسلب والنهب ، ورزقٌ ساقه الله إليهم يجدُر بهم أن يعتمدوا على قوتهم فى اغتصابه ، فاجتمعوا فى عصابات ، وانضم إليهم خلعاء القبائل ،

(١) انظر الأغانى ٩/٥٦ ، والمحبر /١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧١ .
(٣) تاريخ الطبرى ٢/٢٧٠ .
(٤) الواقدى : كتاب المغازى /٢٢ .

وشذاذ الأحياء ، وصعاليك القبائل التى تنزل بعيداً عن طرق القوافل ، ووقفوا يتربصون بها فى مواسم مرورها ، ويقطعون عليها الطرق ، وينتهبون ما يقدرون على انتهابه، ليتقاسموه فيما بينهم ، ويشركوا فيه أحياناً أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الخاصة دون المشاركة فى الغزو والغارة .

ومن الطبيعى أن يتربص هؤلاء المتمردون من الصعاليك بالقوافل الصغيرة ، لأنها غنيمة أيسر منالا ، وأضمن عاقبة ، ويحدثنا ابن قتيبة عن فاتكين التقيا « فسارا حتى لقيا رجلا من كندة فى تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك » فتربصا به ، حتى قتلاه واقتسما ماله [١] . ولهذا كان أصحاب القوافل يحرصون — إلى جانب ما كانوا يتخذونه من وسائل لسلامة قوافلهم — على أن تكون هذه القوافل كبيرة ضخمة كثيرة العدد ، وقد بلغت قافلة قريش التى تصدى لها المسلمون عند بدر ألف بعير [٢] ، وبلغ عدد الرجال المرافقين لها قريباً من سبعين راكباً فى بعض الروايات [٣]. وثلاثين أو أربعين فى رواية أخرى [٤] ، ويصفها ابن إسحق بأنها « عير عظيمة » [٥] ، وكانت بعض قوافل قريش تصل إلى ألفين وخمسمائة بعير [٦] ، وكان مرافقو بعض هذه القوافل يبلغون أحياناً ثلاثمائة [٧] ، وقد رأى سترابو قافلة من قوافل العرب التجارية وشبهها بالجيش [٨] ، ويذكر لامانس أن هذه القوافل كانت تتميز عادة بضخامتها العددية [٩] .

ومع ذلك لم يحل هذا كله دون استمرار حركات المتمردين ضد هذه

---

(١) عيون الأخبار ، المجلد الأول ٢/١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الواقدى : المغازى /٢٠ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢/٢٦٧ .

(٤) المصدر السابق /٢٧٠ .

(٥) المصدر نفسه /٢٧٠ .

(٦) الواقدى : المغازى /٢ .

(٧) المصدر السابق /٧ .

(٨) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185. & Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

(٩) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

القوافل ، أو « تعوير المتجر » كما كان يقول أهل مكة[١] ، ويحدثنا الرواة أن لطائم النعمان التي كان يبعث بها كل عام للتجارة إلى عكاظ كان يعترضها بعض بني كنانة فينتهبها[٢] ، وليس من شك في لطائم النعمان كانت ضخمة كثيرة العدد والرجال .

ويبدو أن هذه الغارات — مهما تختلف أسبابها المباشرة باختلاف أصحابها — يرجع سببها العام إلى اختلال التوازن الاقتصادي في ذلك المجتمع الذي يضع طائفة من أفراده بين نابين من فقر وجوع ، بينما يضع في أيدي طائفة أخرى كنوز الثروة ومفاتيح الاقتصاد ، وهو لا يفصل بين هاتين الطبقتين ، ولا يجعل كلا منهما تعيش في عالمها الخاص ، وإنما أباح لإحداهما أن تعرض ثراءها ، وتتيه بما أغدق عليها أمام أعين الطائفة الأخرى ، فتزيد من إحساسها بالفقر والجوع ، فكان من الطبيعي — إذا ما أتيحت لهذه الطائفة البائسة الفرصة لاغتصاب أي شيء من الطائفة الأخرى — أن تنتهزها مؤمنة بأن هذا الاغتصاب حق ، ما دامت لا تبغي من ورائه سوى أن تعيش .

فإذا ما تركنا هذه القبائل التي كانت تنزل على الطرق التجارية ، ومضينا إلى داخل البادية العربية حيث تنزل القبائل بعيدة عن مراكز النشاط التجاري ، فإننا نجد ثمة صوراً أخرى من صور الصراع بين الفقر والغنى .

والمجتمع البدوي من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين ، يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل ، أو « أرباب المخائض » كما يسميهم بعض الشعراء[٣] ، وطبقة الصعاليك .

والناظر في المجتمع البدوي يلاحظ لأول وهلة أن الفرق الاقتصادي بين هاتين الطبقتين كان بعيداً ، بقدر ما كان الفرق النفسي بينهما قريباً ، ومن

---

(١) الواقدي : المغازي /١٩٦ .

(٢) ابن حبيب : المحبر /١٩٦ .

(٣) يزيد بن الصقيل العقيلي في الكامل للمبرد /٥٩ .

هاتين الظاهرتين المتناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى نشأت ظاهرة الصعلكة .

وقد حصرت البيئة الجغرافية لأعراب البادية مواردهم الطبيعية فى المراعى ، ووقفت ظروفهم الحضاريةُ بمجال عملهم عند الرعى ، ومن هنا انحصرت ثروتهم فى قطعان من الإبل والغنم والمعز . ومن الطبيعى أن تكون الإبل مقياس ثروتهم ، فهى خير ما فى هذه الثروة ، وقد سموْها « النَّعَم »[١] ، لأنها النعمة الكبرى التى أنعم الله بها عليهم ، وقد كان من عوامل سقوط اعتبار الفرد فى الهيئة الاجتماعية أن تقوم المعز أو صغار الماشية فى حياته مقام الإبل[٢] ، وبينما كانت المعز مادة يشتق منها الساخرون من الهجائين عناصر سخريتهم ، كانت الإبل مادة يشتق منها المادحون عناصر مدحهم ، أما الغنم فليست بحيوان الصحراء الأول ، لشدة حاجتها إلى المراعى ، وقلة صبرها على الماء . ومن هنا كانت الإبل حيوان الصحراء الأولَ بلا منازع ، والدعامة التى تقوم عليها ثروة أبنائها ، وبحق سموْها مالا[٣] ، لأنها — على حد التعبير الاقتصادى الحديث — « الرصيد » الذى تعتمد عليه « ميزانيتهم » ، و« العُمْلة » التى يتعاملون بها فى حياتهم ، « منها مهورُ نسائهم ، وديات دمائهم ، ورَهنُ ميسرهم »[٤] . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ « وَسماً » خاصًّا لإبلها تميزها به[٥] ، كما تتخذ كل دولة فى العصر الحديث رسماً خاصًّا لنقدها .

وكانت ثروة الأفراد فى المجتمع البدوى تقاسُ بمقدار ما يملكون من الإبل ، « فكل ثرائهم كان يقوَّم بالإبل »[٦] ، وما أكثر ما نسمع عن أولئك

---

(١) لسان العرب مادة (نعم) .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٣) « وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل » (لسان العرب ، مادة مول) ، ويقول الزمخشرى « مال العرب الإبل » (أساس البلاغة ، المادة نفسها) ، ويقول الشاعر « فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن » (حماسة أبى تمام ٤ / ٦٧) .

(٤) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 247.

(٦) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

الذين كان لهم « نعم قد ملأ الأرض »[١] ، أو « نعم قد ملأ كل شيء »[٢] ، أو أولئك الذين كانوا يفقئون أعينَ فحلهم ليردوا عن إبلهم العين لأنها بلغت ألفاً[٣] ، أو ذلك الذى فقأ أعين عشرين بعيراً لأن إبله بلغت عشرين ألفاً ، والذى ربما ذبح فى أيام الحجيج عشرة آلاف بدَنة[٤] ، وفى الأخبار أن عتَّاب بن ورقاء تكفل مرة بدفع تسع ديات[٥] ، وما أكثر ما نسمع عن ديات بلغت آلافاً من الإبل[٦] .

وإلى جانب هذه الطبقة من المالة الذين ملأ نعمهم الأرض ، وجدت طبقة أخرى من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً ، أو — كما يقول بعض شعرائها — « تجرِّر حبلا ليس فيه بعير »[٧] . وقد رأينا فى الفصل الأول صورة لفقر هؤلاء الصعاليك ، وكيف أن بعضهم كان يماق حتى لا يبقى له شيء ، أو يفتقر فيخرج وقد آلى على نفسه ألا يرجع حتى يستغنى .

والأمر الذى لا شك فيه أن حياة هذه الطبقة الفقيرة من البدو كانت فى مستوى اقتصادى سيئ جداً ، حتى ليضطر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق ، كما يحدثنا القرآن الكريم[٨] ، أو بيعهم ليستعينوا بأثمانهم على الحياة ، كما نرى فيما يرويه الرواة عن صَعصَعة بن ناجية الذى كان يشترى الموءودات من آبائهن ، إذ يذكرون عنه أنه لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، قال له : « يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية ، أفينفعنى

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١/٢٣٤ .

(٢) الأغانى ١٨/١٣٤ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ١/٢٣٤ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٨٧ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ٣/١٣٤ .

(٦) بلغت الدية التى دفعت لبنى ثعلبة بن سعد فى حرب داحس والغبراء ألف ناقة (نقائض جرير والفرزدق ١/١٠٥) وقد عرض بنو أسد على امرئ القيس بعد قتلهم أباه ألف بعير دية (الأغانى ١٩/٨٥) وبلغت الديات فى حرب عبس وذبيان ثلاثة آلاف بعير (الأغانى ١٠/٢٩٧) .

(٧) الأحيمر السعدى فى المؤتلف والمختلف للآمدى /٣٦ .

(٨) الأنعام /١٥١ ، والإسراء /٣١ .

ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال : أضْللتُ ناقتين عُشَراوين ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائهما ، فرُفع لى بيت حريدٌ ، فقصدته فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما ؟ قلت : ميسَمُ بنى دارم فقال : هما عندى وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مضر ، فجلستُ معه لتُخْرَجا إلىّ ، فإذا عجوزٌ قد خرجت من كسر البيت فقال لها : ما وضعتْ ؟ فإن كان سقباً شاركنا فى أموالنا ، وإن كانت حائلا وأدناها ، فقالت العجوز : وَضَعت أنثى ، فقلت : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العربُ أولادها ؟ قلت : إنما أشترى منك حياتها ولا أشترى رقها ، قال : فبكم ؟ قلت : احتكم ، قال : بالناقتين والجمل ، قلت : ذاك لك على أن يبلغنى الجمل وإياها ، قال : ففعل ، فآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لى سنة فى العرب على أن أشترى كل موءودة بناقتين عشراوين وجمل . فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتها[1] . . . » ، وهى قصة تعطينا صورة واضحة عن الفرق الكبير بين هاتين الطبقتين الاقتصاديتين فى المجتمع البدوى ، وبين أولئك الذين يبيعون بناتهم بهذا الثمن البخس ، وذلك الذى يشترى ثمانين ومائتى موءودة ، ثم أرأيت إلى هذا اللون من ألوان « التجارة » عند هؤلاء الأعراب الفقراء ؟ بيع بناتهم نظير ناقتين وجمل راجين من وراء ذلك أن يتكون لهم رأس مال من الإبل يعينهم على الحياة ، ويساعدهم على رفع مستواهم الاقتصادى ، ولو كان ذلك على حساب أكبادهم التى تمشى على الأرض ، كما يقول شاعرهم القديم[2] .

والقصة بعد هذا تشير إلى نفسية أولئك الأعراب الفقراء ، وإحساسهم بما سميناه « القرب النفسى » بينهم وبين الأغنياء ، أرأيت إلى ذلك الأعرابى كيف يقول لذلك السيد إن ناقتيه اللتين أضلهما قد أحيا الله بهما قوماً من أهله ؟ كأنما يرى أن الأغنياء والفقراء أسرة واحدة ، وأن هذا الفرق الاقتصادى بينهما

---

(١) المبرد : الكامل /٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) حطان بن المعلى ، فى حماسة أبى تمام ١٥٣/١ .

لا تأثير له فى « العامل المشترك » بينهما وهو كرم العنصر وطيب النجار ، ثم أرأيت إليه كيف يتساءل منكراً : وهل تبيع العرب أولادها ؟ وانظر كيف عبر بالعرب ولم يقل الناس ، كأنما يرى أن العرب جنس متميز لا يجرى عليهم ما يجرى على سائر الأجناس ، أولئك الذين يرى أولادهم رقيقاً يشترى عند « أهله » من السادة الأغنياء ؟ وليس ينقض هذا الإحساس بالجنس أنه باع ابنته بعد ذلك ، فقد كان ذلك تحت ضغط الفاقة وإلحاح الحاجة ، ثم هو لم يفعل ذلك إلا بعد أن تعهد له هذا السيد بأنه لن يستعبدها ، وهو عذر — مهما يكن واهياً — يصور ذلك الإحساس النفسى الذى كان يسيطر على نفوس هؤلاء البدو ، فإن « الصفقة » لم تتم بين ذلك السيد وذلك الصعلوك إلا بعد هذه المحاولة من السيد لإرضاء نفس الصعلوك . ومهما يكن من أمر ذلك الأعرابى ، فالشىء الذى لا ريب فيه هو أن هؤلاء البدو — بقدر ما كانوا فى فقر مادى — كانوا على جانب كبير من الغنى النفسى . ومعنى هذا أن البدوى الفقير كان يرى نفسه مساوياً للسيد الغنى ، ويرفض أن يكون فقره سبباً فى النزول بنفسه أو تطامن كبريائه ، وأن الحياة إذا كانت قد ظلمته برغمه ، فإن عليه أن يعمل على أن يزيل عنه ذلك الظلم ، سالكاً فى ذلك أى سبيل ، والغاية تبرر الوسيلة .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن مجال العمل أمام هؤلاء البدو الفقراء كان ضيقاً جداً ، فهذه قضية مفروغ منها ، لأن أخلاف الحياة الاقتصادية الثلاثة : الزراعة والتجارة والصناعة لا تدر خيراً فوق رمال الصحراء القاحلة ، وفى وسط تلك الظروف الحضارية المتأخرة . ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا لهؤلاء الأغنياء ، يقومون لهم بالرعى وخدمة الإبل ، أو يعينون نساء الحى ، كما يقول عروة بن الورد[1] ، فإذا رفضت نفوسهم القيام بهذه الأعمال لم يكن هناك بد — إبقاء على حياتهم — من الغزو والإغارة للسلب والنهب محاولين — كما يقول بعض الباحثين — « أن يزيلوا هذا الحيف المقدر بأسنة رماحهم ،

(١) انظر ديوانه /٧٧ .

معتقدين أن من الحلال دهم القوافل ، وسلب ما بأيديهم ، تعويضاً لهم عما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة »[١] .

ولكن يجب أن نسجل أن حركات القبائل فى هذا الصراع بين الفقر والغنى كانت حركات قبلية ، تصدر عن القبيلة وتجرى برضاها ، أما حركات الصعاليك فقد كانت حركات فردية ، تصدر عن شخصياتهم المتمردة ، حتى لو أدى الأمر إلى أن يخلع الصعلوك نفسه من قبيلته فى سبيل تنفيذ حركته . وعلى هذا الأساس من التفسير الاقتصادى نستطيع أن نفهم كثيراً من حركات صعاليك العرب .

ومعنى هذا أن ثمة صراعاً كان يدور فى داخل البادية العربية بين طبقة المالة أصحاب المخائض والمتمردين من طبقة الصعاليك ، وأن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت الإبل عادةً ، لأنها الثروة الأساسية فى المجتمع البدوى ، فكان هؤلاء المتمردون يتربصون بقطعان الإبل ما أمكنتهم الفرصة ، وينهبون منها ما يقدرون على نهبه ، أو يقتلون أصحابها أو رعاتها ويسوقون القطيع بأسره ، ولكن ليس معنى هذا أن الإبل كانت المادة الوحيدة التى دار حولها هذا الصراع ، فإن أيدى الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم ، ففى أخبار تأبط شرا أنه خرج غازياً مع رجل يريدان بجيلة ، فأتى ناحية منهم « فقتل رجلا ثم استاق غنماً كثيرة »[٢] ، وفى أخبار عروة أنه سلب هذلياً فرسه[٣] ، ولكن الأمر الذى نراه بكثرة تلفت النظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تعرضهم للإبل ونهبها .

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب/٨٢ .
(٢) الأغانى ١٨/٢١٣ .
(٣) الأغانى ٣/٨٤ .

الباب الثانى

شعر الصعاليك



الفصل الأول

ديوان الصعاليك

١

مصادره :

يقف الدارس لشعر الصعاليك أمام مسألة بالغة الخطر ، تواجهه منذ البداية ، وتوشك أن تنصرف به عن المضى فى دراسته ، إذ هى عماد هذه الدراسة ، والمحور الذى تدور حوله ، تلك هى مسأله مصادر هذا الشعر : أين هى ؟

ومن الحق أن نسجل قبل الإجابة عن هذا السؤال أن مسألة مصادر الشعر الجاهلى من المسائل التى تواجه الباحثين فيه منذ البداية ، ذلك لأن أكثر مجموعات شعر القبائل التى تزخر بأسمائها كتب التراجم قد فُقدت ، ولم يصل إلينا منها إلا القليل ، أما دواوين الشعراء فقد تركزت عناية الرواة والشراح بدواوين المشهورين منهم ، أما أولئك الذين لم يكن لهم خطر فى نظرهم فلم يكن حظهم من العناية بهم كبيراً . هذا إلى أن عمل هؤلاء الرواة والشراح قد اتجه اتجاهاً فنيًّا أو لغويًّا خالصاً ، أما فكرة جمع الوثائق الأدبية التى تمثل الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو غير ذلك من جوانب العصر المختلفة فشىء وراء اهتمام هؤلاء الرواة ، مع ما له من أهمية للباحث الأدبى والباحث التاريخى على حد سواء . وليس من شك فى أن هؤلاء الرواة لو نظروا إلى عملهم على أنه عمل تاريخى يحرص على تسجيل كل جوانب العصر الذى يجمعون وثائقه الأدبية ، حتى تلك التى تصور انحطاطه أو ضعفه ، لتغير وجه التاريخ الأدبى للعصر القديم تغيراً كبيراً .

أما أولئك المغمورون من الشعراء فقد بُعثرتْ مجموعاتهم الشعرية بين ثلاثة مصادر : كتب الثقافة العربية المختلفة ، كل منها يستغلها لأغراضه الخاصة وفى دائرته الخاصة ، ثم مجموعات المختارات من شعر الشعراء ، وهذه — بطبيعة الحال — كانت متأثرة بذوق أصحابها ، كما أنها كانت محصورة داخل دائرة الاختيار ، وهى دائرة مهما تتسع ضيقة ، ثم كتب التراجم التى تذكر بعض أخبار من تترجم لهم وبعض نماذجهم الفنية ، وحتى هذه — أو على الأقل أكثرها — لم تكن تعنى إلا بالمشهورين . ولنستمع إلى ابن قتيبة فى مقدمة « الشعر والشعراء » يحدثنا عن الأساس الذى أقام عليه كتابه ، لنرى صورة من ذلك الاهتمام الذى يقف عند المشهورين فحسب ، ولا يكاد يفكر فيمن عداهم : « قال أبو محمد : وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما من خفى اسمه ، وقل ذكرُه ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة »[1] . ومعنى هذا أن رواة الشعر العربى — أو على الأقل أكثرهم — كانوا ينظرون إلى الشعر القديم على أنه وسيلة لأغراض لغوية لا على أنه نتاج عصر متعدد الجوانب .

والأمر فى شعر الصعاليك أسوأ من هذا ، فقد عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمثلون طائفة خارجة على المجتمع ، متمردة على أوضاعه وتقاليده ، لا تحرص على قبائلها كما لا تحرص قبائلها عليها ، ونتيجة هذا أن القبائل لم تحرص على شعرهم ، لأنه يمثل ذلك الخروج عليها ، وذلك التمرد على أوضاعها وتقاليدها ، ولأنه حديث فردى يعنى بتصوير شخصيات أصحابه بقدر ما يهمل شخصيات قبائلهم ، وما حاجة القبائل إلى ذلك اللون من الشعر الذى لا يهتم بها فى شىء ، بل على العكس يهتم بتسجيل تمرده عليها والإساءة إليها ؟ وماذا يحمل هذه القبائل على الحرص على هذا الشعر بعد أن لم تحرص على أصحابه ؟ وقد رأينا إلى جانب

---

(١) ص ٢ ، ٣ .

هذا أن هؤلاء الصعاليك عاشوا حياة متشردة بين أرجاء الصحراء الواسعة الرهيبة ، حيث يعيش الحيوان النافر ، والوحش الضارى ، ونتيجة هذا أن سبل الاتصال بين هؤلاء الصعاليك وبين مجتمعهم لم تكن ميسرة ، بل على العكس كانت معقدة أشد التعقيد ، إذ هى صلة عداوة مستحكمة ، لا تجعل أحدهما يطمئن إلى الآخر ، وقد قلنا من قبل إن المجتمع فقد اطمئنانه إلى هؤلاء الصعاليك كما فقدوا هم طمأنينتهم فيه . ومعنى هذا أن كثيراً من شعر الشعراء الصعاليك ضاع بين آفاق الصحراء المجهولة ، وذهبت أنغامه ما بين حيوانها ووحشها ، حيث لا ناطق ولا سميع ولا راوية إلا هؤلاء الصعاليك أنفسهم الذين بَعُدَ ما بينهم وبين مجتمعهم ، وقد هدد تأبط شرا عاذليه إن لم يتركوا عذله ليتركنهم إلى آفاق الصحراء المجهولة حيث لا أحد — مهما تكن معرفته — بمنبئهم عن موضعه[1] ، وإذن فكيف يصل ما يقوله من شعر فى تلك الآفاق المجهولة إلى آذان المجتمع الأدبى ؟

ومع ذلك فقد وصلت إلينا مجموعة لا بأس بها — وإنْ تكن قليلة — من شعر هؤلاء الصعاليك . وقد نتساءل : كيف وصلت إلينا هذه المجموعة برغم كل هذا ؟

مصادر هذه المجموعة ، عندى ، ثلاثة :

فليس من شك فى أن هؤلاء الشعراء الصعاليك قد مرت بهم فى حياتهم فترات عاشوا فيها مع قبائلهم حياةً قبلية متوافقة توافقاً اجتماعيًّا ، وهى تلك الفترات التى سبقت حياتهم المتصعلكة ، إذ ليس مما يمكن تصوره أن يبدأ هؤلاء الصعاليك حياتهم المتصعلكة منذ أن ترى أعينهم نور الحياة ، وإنما الذى يمكن تصوره أنهم عاشوا فترة من حياتهم — قصرت أو طالت — مع قبائلهم ، فليس التصعلك بالظاهرة الوراثية ، وإنما هو كما رأينا فى الفصول السابقة ظاهرة تعمل فيها عوامل جغرافية واجتماعية واقتصادية . ومن الطبيعى أن يكون بعض هؤلاء الشعراء الصعاليك قد اكتملت ملكاتهم الفنية قبل أن يتصعلكوا ،

---

(١) انظر البيتين ٢٣ و ٢٤ من قصيدته القافية (ابن الأنبارى : شرح المفضليات/١٨) .

وأن يكونوا قد شاركوا سائر شعراء قبائلهم فى حياتهم الفنية ، وقد رأينا مثلا لهذا قيس بن الحدادية الذى شارك قبيلته اجتماعيًّا وفنيًّا مشاركة قوية ، خاض معها غمار أيامها ، بل قادها أحياناً إلى مواطن النصر ، وتغنى بهذا كله فى شعره . ومن الطبيعى أيضاً أن تحرص القبيلة على هذا الشعر وترويه ، وتتغنى به ، وتتناقله جيلا بعد جيل ، حتى يتلقفه من أفواه أبنائها رواة الشعر العربى الذين كانوا يشدون الرحال إلى البادية ليجمعوا شعر قبائلها . ومعنى هذا أن جزءاً من شعر الصعاليك ، وهو ما يصح أن نطلق عليه « الشعر خارج دائرة الصعلكة » ، قد وصل إلينا عن طريق قبائلهم نفسها .

ومن هذه المجموعة أيضاً ذلك الشعر الذى خلا من مهاجمة القبيلة أو التعرض لها بما تكره ، كوصف الغارات ، أو وصف وحش الصحراء ، أو قصص تلك الأشباح التى كانت تتراءى للصعاليك فى تشردهم فى ليالى الصحراء المظلمة ، فما على القبيلة ضَيرٌ من رواية هذا الشعر ، أو هذه الأقاصيص العجيبة التى ترضى الذوق الشعبى ، فى أوقات فراغها أو فى ليالى أسمارها . ولعل مما يؤيد هذا قلة ما وصل إلينا من شعر هؤلاء الصعاليك الذى هاجموا فيه قبائلهم ، أو تعرضوا فيه لها بما تكره ، وليس من شك فى أنه كان شعراً كثيراً ، فإن هذه المجموعة من الشعر قد أغفلتها القبائل ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . ويشبه هذا ما نلاحظه من ضياع تلك المجموعة من الشعر التى قالها مشركو مكة فى أول ظهور الإسلام ، عند احتدام الصراع بين شعراء مكة المشركين وشعراء المدينة الذين اعتنقوا الإسلام ، ووقفوا يدعون له ، ويدافعون عنه .

ومن هذه المجموعة أيضاً شعر أولئك الصعاليك الذين فقدوا توافقهم الاجتماعى مع قبائلهم لأسباب اقتصادية فى أكثر الأحيان ، أو اجتماعية فى بعض الأحيان ، ولكنهم لم يفارقوها ، كما نرى عند طائفة من صعاليك هذيل ، أو عند السليك الذى قلنا إن العصبية القبلية عنده قد اتسعت حتى أصبحت « عصبية جنسية » ، أو عند تأبط شرا الذى جعل من قبيلته فهم — أو بتعبير

أدق — من موطنها مركزاً يعود إليه بعد غاراته[١] ، فهذه الطوائف من الصعاليك لم تجد قبائلهم ضيراً من أن ترْوىَ ما وصل إليها من شعرهم ، وبخاصة لأنه يصلح مادة للسمر الممتع الشهى .

ومعنى هذا أن المصدر الأول من مصادر شعر الصعاليك هو قبائلهم نفسها .

وقد رأينا أن الصعاليك الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم ، وطردتهم من حماها ، قد استجاروا ببعض القبائل أو ببعض ساداتها ، إما استجارة دائمة وإما استجارة مؤقتة . ومن الطبيعى أن يتحدث شعراء هذه الطائفة من الصعاليك الشذاذ عن هذا الجوار فى شعرهم ، فيمدحوا من أجاروهم ، ويثنوا عليهم بما يرونه رَدًّا لذلك الدَّيْن الذى طُوقت به أعناقهم. ومن الطبيعى أيضاً أن يتعرضوا لقبائلهم التى خلعتهم ، فيكيلوا لها الهجاء ، ويخصوا بالذات أولئك الذين كانوا سبباً فى خلعهم . ومن الطبيعى أن تحرص هذه القبائل التى أجارتهم ، وهؤلاء السادة الذين أنزلوهم فى حماهم ، على هذا الشعر حرصاً شديداً ، وأن يعملوا على إذاعته بين العرب ، لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم ، وإشادة ببعض أمجادهم ، وليس ما يمنع من أن تذيع هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك فى قبائلهم التى خلعتهم ، لأنه فرصة للنيل منها .

وإذن فالمصدر الثانى من مصادر شعر الصعاليك هى تلك القبائل التى استجار بها الخلعاء منهم .

والمصدر الثالث من مصادر شعر الصعاليك هم الصعاليك أنفسهم . وأظن أنه ليست هناك غرابة فى أن يروى الصعاليك شعر شعرائهم ، ويتغنوا به ، ويرددوه فى كل مناسبة ، لأنه صورة من حياتهم ، وصدى لما يدور فى نفوسهم . ومن الطبيعى أن يعمل هؤلاء الصعاليك على أن يذيعوا هذا الشعر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأنه تعبير عن مذهبهم فى الحياة ، وتعليل لذلك الأسلوب الذى سلكوه فى حياتهم ، لعلهم بهذا يضمون إليهم أنصاراً جُدُداً ،

---

(١) فأبت إلى فهم وما كدت آئبـاً ... وكم مثلهـا فارقتهـا وهى تصفر
(حماسة أبى تمام ١/٣٨) .

أو يقنعون مجتمعهم بأنهم على حق فى حركتهم . وساعدهم على هذا ما كان يجده هذا الشعر من إعجاب فى الأوساط الشعبية التى كانت تُفْتَتَن بهذا اللون من الشعر ، بما فيه من غرابة ، وما فيه من بطولة ، ولأنه تعبير عن أشياء لعلهم أكثر من يحسونها ويشعرون بها . ولعل شعر عروة بن الورد وصل إلينا أكثره عن طريق هذا المصدر ، لأن عروة كان يمثل شخصية الزعيم الشعبى صاحب المذهب الذى يحرص على أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأنصار ، ولعل هذا هو السبب فى أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك وصلت إلينا .

أما تلك المجموعة من الشعر التى نظمها الصعاليك المخضرمون بعد ظهور الإسلام ، والتى يصح أن نطلق عليها « شعر ما بعد الصعلكة » ، فإن شأنها شأن سائر الشعر فى ذلك العصر ، رواها الرواة كما رووه ، وحفظوها كما حفظوه ، إذ أن الصعاليك المخضرمين قد ودعوا حياة التصعلك بعد ظهور الإسلام وشاركوا فى الحياة الجديدة كما شارك غيرهم .

عن طريق هذه المصادر وصل إلينا شعر الصعاليك . ويبدو أن بعض رواة الشعر العربى قد تنبهوا إلى أن هذا الشعر يكوِّن مجموعة متشابهة المقومات الفنية ، فعملوا على جمعه فى دواوين خاصة به[1] . ولكن مع الأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه الدواوين إلا أسماؤها وأسماء مؤلفيها ، أما هى فقد ضاعت مع ما ضاع من التراث العربى القديم ، وليس بين أيدينا الآن من هذه الدواوين — فيما أعرف — سوى قطعة من « كتاب أشعار اللصوص » لأبى سعيد السكرى الذى أشار إليه البغدادى فى مقدمة الخزانة بين الكتب التى اعتمد عليها فى تأليفها[2] ، والذى ذكره ابن النديم من بين مؤلفات السكرى[3] ، ويذكر بركلمان أن هذه القطعة هى ديوان طَهْمَان من العصر الأموى ، وأن

(١) انظر ما ورد فى فهارس معجم الأدباء لياقوت عن كتب أشعار اللصوص والشطار والفتيان والفتاك (جزء ٢٠) .
(٢) خزانة الأدب ١ / ١٠ .
(٣) الفهرست /٧٨ .

الأستاذ رايت نشرها[١] ، وفى خزانة الأدب للبغدادى قطعة أخرى منه[٢] ، هى مجموعة من أخبار عبيد الله بن الحُرّ وأشعاره ، وهو أيضاً من صعاليك العصر الأموى ، وينقل عنه ياقوت فى معجم البلدان فى كثير من المواضع[٣] ، وكذلك ينقل عنه صاحب الأغانى[٤] ، ويذكر بركلمان أن فى شرح الحماسة للتبريزى مقتطفات منه[٥] . ويبدو أن هذا الكتاب من الكتب التى كانت لها قيمتها ، والقطع التى وصلت إلينا منه تدل على هذا دلالة قوية ، وصاحب الخزانة يثنى عليه[٦] ، وحسب هذا الكتاب أنه من عمل السكرى الذى يقول عنه ابن النديم « الذى عمل من علماء أشعار الشعراء فجوّد فأحسن أبو سعيد السكرى »[٧] . وللسكرى أيضاً كتابان آخران يذكرهما ابن النديم ، هما أشعار فهم وأشعار الأزد[٨] . وليس من شك فى أن هذين الكتابين كانا يضمان شعر تأبط شرا وغيره من صعاليك فهم ، والشنفرى وحاجز وغيرهما من صعاليك الأزد . ومما يؤسف له حقاً أن تضيع هذه المجموعة من كتب السكرى التى لو قد وصلت إلينا لأفادتنا كثيراً كما أفادنا ديوان الهذليين له .

وتشير مصادر الأدب العربى إلى دواوين لبعض الشعراء الصعاليك ، فيشير الآمدى فى ترجمته لأبى الطَّمَحان القينى إلى « ديوانه المفرد »[٩] ، وينقل ذلك عنه البغدادى فى خزانته[١٠] ، ويذكره أيضاً ابن النديم ، ويذكر

---

(١) Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 21.

(٢) ١/٢٩٧ — ٢٩٩ .

(٣) انظر على سبيل المثال مادة (شعفان) ٥/٢٧٤ ، ومادة (شعفين) ص ٢٧٥ فى أخبار عن عروة بن الورد .

(٤) انظر ٢٠/١٥٩

(٥) Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 108.

(٦) ١/٢٩٩.

(٧) الفهرست /١٥٧ .

(٨) المصدر السابق /١٥٩ .

(٩) المؤتلف والمختلف /١٤٩ .

(١٠) ٣/٤٢٦ .

أن الذى عمله الأصمعى وأبو عمرو[١] ، ومما يؤسف له أن يفقد هذا الديوان أيضاً . ويشير صاحب الخزانة أيضاً إلى ديوان تأبط شرا فى نص ينقله عن ابنى جنى فى تصحيحه رواية بيت له يقول فيه « وكذلك وجدتها فى شعر هذا الرجل بالخط القديم ، وهو عتيد عندى إلى الآن »[٢] . ويذكر بركلمان فى حديثه عن تأبط شرا أن « بعض مختارات من ديوانه جمعها ابن جنى مخطوطة فى الاسكوريال المجلد الثانى / ٧٧٨ »[٣] .

وقد وصل إلينا من دواوين الشعراء الصعاليك ديوانان : ديوان عروة بن الورد ، وديوان الشنفرى .

ويذكر ابن النديم أن شعر عروة قد جمعه اثنان من الرواة : الأصمعى وابن السكيت[٤] ، ولكن لم يصل إلينا إلا الثانى . وقد طبع هذا الديوان عدة مرات ، طبعه نولدكه فى جوتنجن سنة **١٨٦٣** مع مقدمة وتعليقات وترجمة ألمانيا ، ثم طبع مرة أخرى فى المطبعة الوهبية بمصر سنة **١٢٩٣** هـ فى مجموع مشتمل على أربعة دواوين أخرى هى دواوين النابغة الذبيانى ، وحاتم الطائى ، وعلقمة الفحل ، والفرزدق ، تحت اسم « مجموع مشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب » ، وديوان عروة فيه مختلف فى ترتيبه عن طبعة نولدكه ، وفى أوله ترجمة عروة نقلا عن الأغانى دون إشارة إلى ذلك ، ثم طبع هذا المجموع مرة أخرى فى بيروت بالمطبعة الأهلية بدون ذكر لتاريخ الطبع ، ويبدو أن هذه الطبعة منقولة عن الطبعة المصرية ، وإن يكن صاحبها يذكر فى أولها أنها « طبعة جديدة مصححة منقحة ، مقابلة على عدة نسخ ، مرتبة على الحروف ، مضافاً عليها كثير من شعره مما تفرق فى دواوين الأدب » .

وأدرج لويس شيخو ديوان عروة مع شرح ابن السكيت فى شعراء

---

(١) الفهرست / ١٥٨ .

(٢) ٣ / ٥٤٠ .

(٣) Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 25.

(٤) الفهرست / ١٥٨ .

النصرانية[١] ، وأضاف إليه ما ورد فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام مع بعض أخبار منقولة عن الأغانى .

ثم طبعه مرة أخرى الشيخ ابن أبى شنب الأستاذ بكلية الأدب بالجزائر ، بمطبعة جول كربونل بالجزائر سنة ١٩٢٦ ، وأضاف إليه جملة من شعره مما لم يذكر فيه ، وشرحا على الأبيات يكمِّل به شرح ابن السكيت .

ومن ديوان عروة نسخة خطية فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠٨٤ (أدب) ، وهى أيضاً من جمع ابن السكيت وشرحه ، وهى صورة من ديوانه المطبوع .

ولديوان عروة ترجمة فرنسية قام بها الأستاذ R. Basset ونشرها فى المجلة الأفريقية التى تصدرها كلية الأدب بالجزائر بالعدد ٦٢ سنة ١٩٢٨ .

أما ديوان الشنفرى فقد كان حظه من العناية دون حظ ديوان عروة ، فبين أيدينا منه نسختان : نسخة مطبوعة صنعها الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، ونشرها فى مجموعة « الطرائف الأدبية » بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ يذكر فى مقدمتها أنها عن نسخة خطية من الديوان عثر عليها بكتبخانة خسرو باشا فى استنبول تحت رقم ١٤٩ ، وعن مجموعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٤ (أدب) يظن أنها نسخة أخرى من الديوان مبتورة ، وقد أضاف إلى ما ورد فى هاتين المخطوطتين بعض أبيات وجدها فى مصادر الأدب العربى الأخرى ، ولكنه أسقط من الديوان التائية المفضلية ، ولامية العرب ، ورثاء تأبط شرًّا « لأن الأولين وإن كانتا توجدان فى النسختين إلا أن ما عند غيرهما أوفى وأتم ، والثالثة خلتا عنها مرةً ، فما لى ولإثباتها ، وهى فى عامة الكتب ، على أنها لا يوثق بعزوها إليه » — كما يقول فى مقدمته[٢] .

والنسخة الأخرى التى بين أيدينا من هذا الديوان نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى عن نسخة خطية بخط محاسن بن إسماعيل بن على من شعراء حلب ،

---

(١) من ص ٨٨٠ إلى ص ٩١٦ .
(٢) ص ٣٠ .

فرغ من كتابتها بدمشق فى منتصف شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٥ هـ . وهذه النسخة المصورة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت اسم « شعر الشنفرى » تحت رقم ٦٦٧٦ (أدب) ، وهى نسخة من الراجح أن الميمنى لم يطلع عليها لأنه لم يشر إليها فى ديوانه الذى طبعه .

وإلى جانب هذين الديوانين هناك مجموعة أشعار هذيل التى عملها السكرى أيضاً[١] ، وبين أيدينا منها الجزء الأول الذى نشره الأستاذ كوسجارتن John Godfrey Lewis Kosegarten تحت اسم «كتاب شرح أشعار الهذليين » فى لندن سنة ١٨٥٤ ، والجزء الذى نشره الأستاذ يوسف هل فى ليبزج ، سنة ١٩٣٣ تحت اسم « مجموعة أشعار الهذليين الجزء الثانى » ، والقسم الذى نشرته دار الكتب المصرية تحت اسم « ديوان الهذليين القسم الثانى » فى سنة ١٩٤٨ . فى هذه المجموعات من أشعار الهذليين طائفة من دواوين صعاليك هذيل : أبى خراش[٢] ، والأعلم[٣] ، وصخر الغَىّ[٤] ، وعمرو ذى الكلب[٥] ، كما أن فيها طائفة متناثرة من شعر تأبط شرا[٦] ، الذى كانت بينه وبين هذيل عداوة مشبوبة الأوار .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من دواوين الشعراء الصعاليك وجدنا أنفسنا أمام مشكلة صعبة ، هى مشكلة شعر سائر الصعاليك : أين نجده ؟

لا مفر لنا — من أجل هذا — من الرجوع إلى كل مصادر الأدب العربى ، سواء منها المطبوعة أو المخطوطة ، لننقب — بعد استئذان علماء الآثار — عن أبياته ومقطوعاته وقصائده . والواقع أن شعر الصعاليك مفرق تفريقاً شديداً بين

---

(١) ابن النديم : الفهرست / ٧٨ .
(٢) مجموعة أشعار الهذليين ٢ / ٤٧ — ٧٨ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ — ١٧٢ .
(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٥٤ — ٦٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٧٧ — ٨٧ .
(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦ — ٤٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٥١ — ٧٦ ، ٢٢٣ — ٢٤٠ .
(٥) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٢ — ٢٤١ ، ولم تصل طبعة دار الكتب إلى ديوانه .
(٦) انظر شرح أشعار الهذليين ١ / ٤ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢ ، وهناك طائفة من أخباره وحديث شعراء هذيل عنه متناثرة فى ٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

هذه المصادر ، حتى ليصح أن نقول — فى شىء من الحذر — إن كل هذه المصادر تضم أبياتاً من شعر الصعاليك . وأظن أن ليس فى هذا غرابة ، فما دام شعر الصعاليك يمثل البادية العربية فى كثير من جوانبها اللغوية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية تمثيلا صادقاً صحيحاً ، فمن الطبيعى أن يتخذه اللغويون والرواة والجغرافيون والمؤرخون مصدراً من مصادرهم الأساسية ، لأنهم يجدون فيه شواهد لكثير مما يقررون .

ومن هنا كانت المجموعة اللغوية من أهم مصادر شعر الصعاليك ، وأخص بالذكر منها لسان العرب وتاج العروس وجمهرة اللغة لابن دُرَيْد ، وأهمية هذه المصادر — إلى جانب ما تقدمه لدارس شعر الصعاليك من شرح لألفاظه ومعانيه ، وإلى جانب ما تتيحه له من فرصة الموازنة بين الروايات المختلفة — ترجع أيضاً إلى ما انفردت به من أبيات لم ترْو فى مصادر هذا الشعر الأخرى[1] ، بل إن الأمر ليصل أحياناً إلى انفرادها بمجموعة كبيرة من الأبيات لشاعر واحد من بحر واحد وقافية واحدة مما يرجح أنها من قصيدة واحدة[2] ، أو انفرادها بأبيات تصلح أن تكون تكملة لما روته المصادر الأخرى[3] .

فإذا تركنا هذه المجموعة اللغوية وجدنا أن المجموعة الجغرافية ، وأخص بالذكر منها معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، من المصادر

---

(١) انظر على سبيل المثال فى لسان العرب المواد : قطر . وجر . بأس . سكن . نوم (تابط شرا) — جوش . شهق . قها (أبو الطمحان) — رمل . صرى (السليك) — ولغ (حاجز) — وانظر أيضا ابن دريد : جمهرة اللغة ١ / ١٤٠ (حاجز) .

(٢) انظر الأبيات اللامية من بحر الطويل لتأبط شرا فى المواد : جلب . خعب . ركب . شحـ . كلب . صوف . ثمل . ختل . رسل . رعل . سلل . كدل . هبل . هدمل . جثم . رعى . غزا . وهى أبيات نرجح — لاتحاد وزنها وقافيتها وموضوعها — أنها من قصيدة واحدة لم تصل إلينا ، كما نرجح أن الأبيات التى تروى فى معلقة امرئ القيس ، والتى يشك الرواة فى صحة نسبتها إليه ، ويرجحون أنها لتأبط شرا ، وهى التى يتحدث فيها عن حمله قربة الماء وقطعه الوادى المقفر حيث تعوى الذئاب ، من هذه القصيدة أيضا .

(٣) انظر على سبيل المثال لسان العرب : مادة (جذمر) حيث يروى بيت لتأبط شرا لعله من قصيدته الرائية التى يرويها له الأصمعى فى الأصمعيات / ٣٥ .

الأساسية أيضاً لشعر الصعاليك . ويرجع ذلك إلى أن هذا الشعر — لكثرة ما يرد فيه من أسماء الأماكن فى الجزيرة العربية — يُعَدُّ مادة صالحة يستشهد بها هؤلاء الجغرافيون فى دراستهم . وقيمة هذه المجموعة من المصادر — إلى جانب ما تقدمه لنا من هذا الشعر — ترجع إلى أنها تعيننا على ضبط نصوصه ، وتصحيح روايته ، بما تقدمه لنا من ضبط لألفاظ الأماكن التى ترد فيه ، والتى قد تكون واردة فى المصادر الأخرى محرفة أو مصحفة[1] .

فإذا ما تركنا هاتين المجموعتين اللتين تعنيان بشعر الصعاليك من حيث هو وسيلة لأغراضهما اللغوية والجغرافية، نصل إلى مجموعة تُعْنَى بهذا الشعر من حيث هو غاية فنية تقصد لذاتها ، وهى مجموعة المختارات من شعر الشعراء ، وعلى رأس هذه المجموعة نضع المفضليات للضبى ، لا لكثرة ما فيها من شعر الصعاليك ، فليس فيها منه سوى قصيدتين : إحداهما قافية تأبط شرا[2] ، والأخرى تائية الشنفرى[3] ، ولكن لأنها روت هاتين القصيدتين كاملتين ، مما أتاح لنا فرصة الوقوف أمام نصين كاملين من ديوان الصعاليك . هذا إلى جانب أن ابن الأنبارى فى شرحه عليهما قدم لنا مجموعة أخرى من شعر الصعاليك ، لم تروَ فى المصادر الأخرى[4] .

ومن الطبيعى أن نذكر مع المفضليات الأصمعيات ، لأنها بمثابة التكملة لها ، أو الجزء الثانى منها، وقد قدمتْ لنا أيضاً قطعتين من ديوان الصعاليك ،

---

(١) انظر على سبيل المثال ما ورد فى لسان العرب ، مادة (مرج) ، للسليك :

وأذعر كلابا يقــود كلابـــه ومرجة لما أقتبسها بمقنب

فإننا حين نمضى إلى المجموعة الجغرافية لا نجد (مرجة) بالجيم ، وإنما هى (مرخة) بالخاء وهى « بلد باليمن ومن نواحيه واد كثير النخل » (ياقوت : معجم البلدان ٨/١٩) ، فإذا أضفنا إلى هذا ما قررناه فى التفسير الجغرافى لظاهرة الصعلكة من أن السليك قد تخصص فى الإغارة على اليمن ، وأن حركات الصعاليك كانت تتجه إلى المناطق الخصبة ، تأكد لنا أن صحة هذا الاسم بالخاء ، وأن موضعه فى لسان العرب يجب أن يكون فى (مرخ) لا فى (مرج) .

(٢) من ص ١ — ٢٠ .

(٣) من ص ١٩٤ — ٢٠٧ .

(٤) انظر بيتى الشنفرى الداليين فى ص ١٩٧ ، وأبياته الثلاثة الدالية أيضا فى ص ١٩٨ ، وقد نقلها الميمنى عنه فى ديوانه الذى نشره فى الطرائف الأدبية (ص ٣٤ ، ٣٥) .

إحداهما رائية عروة المشهورة[١] ، والأخرى رائية لتأبط شرا[٢] ، وهذه الأخيرة قد انفردت بها الأصمعيات دون المصادر الأخرى ، وقد قلنا منذ قليل إن فى لسان العرب بيتاً نرَجح أن يكون منها .

وهناك « جمهرة أشعار العرب » لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، وفيها قطعة كبيرة من رائية عروة المشهورة[٣] يضعها فى مجموعة « المنتقيات » .

ثم هناك « منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٥٣ ش أدب) ، الموجود منها جزءان ، فى الأول منهما طائفة من قصائد عروة بن الورد ، وفى الثانى بعض مقطوعات للشنفرى وتأبط شرا .

وهناك مخطوطة أخرى مجهولة المؤلف فى الخزانة التيمورية (تحت رقم ١٢٧٥ تيمورية شعر) فيها قصائد للشنفرى ولعمرو بن براقة الهمدانى .

ثم هناك مجموعات الحماسة ، وعلى رأسها حماسة أبى تمام التى تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك متنوعة الأغراض ، كما يمدنا التبريزى فى شرحه عليها بمجموعة أخرى كبيرة ، تجعل من هذا المصدر مصدراً أساسيًّا لشعر الصعاليك .

وتقف إلى جانب حماسة أبى تمام فى مستوى واحد حماسة الخالديين ، وهى مخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر) ، فإنها تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، بل إنها تنفرد أحياناً برواية قطع منه[٤] .

ثم هناك حماسة البحترى ، وهى أيضاً تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك موزعة على أغراضها .

---

(١) ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ص ٣٥ .

(٣) ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) انظر على سبيل المثال : أبيات عمرو بن براقة (ورقة رقم ٤٤٣) ، وبيتى السليك (ورقة رقم ٣٧٠ ورقم ٣٧١) وبيتى تأبط شرا (ورقة رقم ٢٩١) .

ثم هناك الحماسة الصغرى لأبي تمام ، وهى المعروفة بالوحشيات ، ومنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٢٩٧ أدب) وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك أيضاً الحماسة البصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى ، ومنها نسختان فى دار الكتب المصرية ، إحداهما مخطوطة (تحت رقم ٥٢٠ أدب) ، والأخرى مصورة (تحت رقم ٦٣٠٠ أدب) ، وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك حماسة ابن الشجرى ، وهى مطبوعة ، وفيها قصيدة لتأبط شرا ، هى لامية له[١] ، وقطعة لعمرو بن براقة من قصيدته الميمية المشهورة[٢] .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من المختارات التى تعنى بشعر الصعاليك من حيث هو غاية فنية تقصَد لذاتها ، فإننا نقف عند مجموعة أخرى من مصادر هذا الشعر تعنى به من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، وتَعْنى بها كتب التراجم ، وما أحسبنى فى حاجة إلى القول بأن كتاب الأغانى لأبى الفرج على رأس هذه المجموعة بدون استثناء ، ففيه أكبر مجموعة من شعر الصعاليك يرويها صاحبه فى أثناء تراجمه لأصحابها[٣] .

وكذلك الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ولكننا نلاحظ أنه أغفل ترجمة الشنفرى ، وإن يكن قد روى له بضعة أبيات فى مقدمته[٤] ، وربما كانت ترجمة الشنفرى قد سقطت من مخطوطات الكتاب .

---

(١) ص ٤٧ .

(٢) ص ٥٥ .

(٣) عروة بن الورد (٣/ ٧٣ — ٨٨ دار الكتب) ، وفضالة بن شريك (١٠/ ١٧١ — ١٧٣ بولاق) وأبو الطمحان (١١/ ١٣٠ — ١٣٤ بولاق) ، وحاجز (١٢/ ٤٩ — ٥٣ بولاق) . وقيس بن الحدادية (١٣/ ٢ — ٨ بولاق) ، والسليك (١٨/ ١٣٣ — ١٣٨ بولاق) . وتأبط شرا (١٨/ ٢٠٩ — ٢١٨ بولاق) ، وصخر الغى (٢٠/ ٢٠ — ٢٢ بولاق) وعمرو ذو الكلب (٢٠/ ٢٢ ، ٢٣ بولاق) ، وأبو خراش (٢١/ ٥٤ — ٧٠ ليدن) ، والشنفرى (٢١/ ١٣٤ — ١٤٣ ليدن) ، وعمرو بن براق (٢١/ ١٧٥ ، ١٧٦ ليدن) .

(٤) ص ١٩ .

ثم المؤتلف والمختلف للآمدى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وتراجمُ الشعراء فيهما — وإن تكن موجزة جدًّا — تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعرهم.

ثم كتاب « المغتالين » لابن حبيب ، ومنه نسختان فى دار الكتب المصرية : نسخة خطية (تحت رقم ٥٧ ش أدب) ونسخة مصورة (تحت رقم ٢٦٠٦ تاريخ) . وطرافة هذا الكتاب تأتى من أنه يهتم بتلك اللحظات الأخيرة فى حياة من يترجم لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر الشعراء الصعاليك قد قتلوا ، أدركنا أهمية هذا الكتاب للباحث فى شعر الصعاليك ، وإن كنا نلاحظ أن تراجم الشعراء فيه موجزة .

ثم كتاب « مَنْ نُسِبَ إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب أيضاً ، وقد كنا ننتظر أن نجد فى هذا الكتاب شيئاً كثيراً عن الشعراء الصعاليك ما دام كثير منهم كانوا أغربة يُنْسبون إلى أمهاتهم ، ولكن ابن حبيب ، أو لعل النسخة التى وصلت إلينا من كتابه ، قد خيبت ظننا ، فليس فيها من الشعراء الصعاليك سوى قيس بن الحدادية ، وليس فيها من شعره سوى قطعة من أرجوزته التى أنشدها قبيل مقتله [1] .

ثم كتاب «المعمَّرين » للسجستانى ، وفيه البيتان اللذان أنشدهما أبو الطمحان فى شيخوخته [2] .

فإذا ما تركنا مجموعة كتب التراجم التى تُعْنَى بشعر الصعاليك من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، وصلنا إلى مجموعة أخرى تعنى به من حيث هو مادة للدراسة الأدبية أو اللغوية ، ونعْنى بها كتب الأمالى والمحاضرات والأحاديث ، ونخص بالذكر منها الكامل للمبرد ، والأمالى للقالى ، والنوادر له أيضاً ، والتنبيه لأبى عبيد البكرى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والمحبَّر لابن حبيب ، ومحاضرات الأدباء للراغب ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ، ونقد الشعر لقدامة ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ،

---

(١) ص ٦ .
(٢) ص ٦٣ .

والوساطة بين المتنبي وخصومه ، وغيرها من كتب تلك المجموعة الضخمة من التراث العربي .

ثم هناك مجموعة كتب الشواهد ، ونخص بالذكر منها خزانة الأدب للبغدادى ، وشرح الشواهد الكبرى للعينى ، ففيهما مقدار كبير جداً من شعر الصعاليك . ومرد ذلك إلى اهتمام النحاة بهذا الشعر فى شواهدهم . وميزة الخزانة — فوق هذا — أنها ترد كل ما ترويه إلى مصادره التى تنقله عنها ، وما أكثر المصادر التى اعتمد عليها صاحب الخزانة فى تأليفها ، والتى أشار إليها فى مقدمته لها[1] ، حتى لتعد الخزانة من المصادر الأولى لشعر الصعاليك .

وقد قلنا إن الشعراء الصعاليك — نتيجة لتشردهم — ذكروا طائفة كبيرة من حيوان الصحراء فى شعرهم ، ومعنى هذا أن الكتب العربية التى تعنى بدراسة الحيوان تضم مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك ، ونخص بالذكر من بين هذه الكتب كتاب الحيوان للجاحظ .

ومن بين الشعراء الصعاليك جماعة أدركوا الإسلام ، وأسلموا فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، كأبى خراش وأبى الطمحان ، فهؤلاء نجد تراجمهم وطائفة من شعرهم فى كتب الصحابة ، كالإصابة لابن حجر ، وأسد الغابة لابن الأثير . ومن هذا القبيل أيضاً ما ترويه كتب السيرة من شعر عروة بن الورد وأخباره ، نظراً لأن إحدى سبيّاته كانت فى بنى النضير عندما أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر[2] .

هذه أهم المجموعات التى تكوّن مصادر « ديوان الصعاليك » ، وهذه أهم كتبها ، ولم نقصد من ذكرها إلى الحصر ، فإنه ليس باليسير ، وقد قلنا فى أول حديثنا عنها إننا نستطيع أن نقول ، فى شىء من الحذر ، إن كل مصادر الأدب العربى تضم أبياتاً من شعر الصعاليك ، وإنما كل ما قصدنا إليه من

---

(١) انظر ١/٨ — ١٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : السهيلى : الروض الأنف ٢/١٧٨ — ١٨١ .

هذا الحديث هو أن نهيئ « المفاتيح » التى نتوصل بها إلى « كنوز » ديوان الصعاليك .

٢

مادته :

حين ننظر فى « المادة » التى تجمعت لنا من كنوز ديوان الصعاليك نلاحظ عليها ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، ثم الشك الذى يحيط ببعض نصوصها .

والأمر الذى لاشك فيه هو أن مادة شعر الصعاليك قليلة قلةً لا تتكافأ مع كثرة مصادرها ، ومرد ذلك من غير شك إلى ضياع جزء كبير منها ، لأنها — من ناحية — شعر جاهلى ، ونحن نعرف أن الشعر الجاهلى قد ضاع أكثره ، ولم يصل إلينا منه إلا أقله ، وهى حقيقة معروفة مقررة عند القدماء[1] ، ثم هى — من ناحية أخرى — نتاج طائفة من الشعراء متمردة على قبائلها ، متشردة فى مجاهل الصحراء . وليس الأمر استنتاجاً نظريًّا ، وإنما هى حقيقة يذكرها القدماء ، فهم يذكرون عن قيس بن الحدادية أنه « شاعر قديم كثير الشعر »[2] ، وليست مجموعة شعر قيس التى بين أيدينا بالتى يصح أن نطلق على صاحبها أنه « كثير الشعر » . وليس من شك فى أن كثيراً من الشعراء الصعاليك كانوا مثل قيس من حيث كثرة الشعر ، وأن كل الشعراء

---

(١) يقول أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (ابن سلام : طبقات الشعراء / ١٠) ، ويعلل عمر بن الخطاب لهذا بهلاك رواته من العرب فى الفتوح الإسلامية (المصدر السابق / ١٠) ، ويقول ابن قتيبة « ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (الشعر والشعراء / ٣) ، ويحدثنا الأصمعى أنه « كان ثلاثة أخوة من بنى سعد لم يأتوا الأمصار فذهب رجزهم » (المصدر السابق / ٤) .

(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٣٢٦ .

الصعاليك كانوا مثله ومثل سائر الشعراء الجاهليين من حيث ضياع أكثر شعرهم .

وإلى جانب هذه القلة فى المادة تلاحظ أيضاً كثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، وهى ظاهرة نلاحظ على كل نصوص الشعر الجاهلى ، ولكنها تلاحظ بصورة قوية فى نصوص شعر الصعاليك . ومن اليسير أن نفهم هذا ما دمنا قد عرفنا أن الشعراء الصعاليك كانوا يمثلون طائفة متمردة على قبائلها ، متشردة فى مجاهل الصحراء ، وما دام هذا الشعر قد وصل إلينا مفرقاً فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، ولم يصل إلينا إلا قليل منه فى دواوين مستقلة .

وكما يُلاحظ هذا الاضطراب فى ألفاظ هذا الشعر ، يلاحظ فى ترتيب أبياته ، ويلاحظ أيضاً فى عدد هذه الأبيات ، وهذا ما سنحاول الإشارة إليه فيما يمر بنا منه فى هذا البحث .

فإذا ما تركنا هاتين الملاحظتين الشكليتين ، فإننا نصل إلى الملاحظة الثالثة ، وهى الشك الذى يحيط ببعض نصوص هذا الشعر ، وهى ملاحظة جوهرية ، لأنها تتصل بالمادة التى بين أيدينا : أهى حقًّا لأصحابها أم هى مزيفة عليهم ؟ وشعر الصعاليك فى هذه المسألة ليس بدعاً من سائر الشعر الجاهلى الذى اتهم بالتزييف والانتحال اتهاماً شديداً ، والذى تعرض لحملة شديدة كانت على وشك أن تعصفَ بأركانه . ولسنا نبرئ الشعر الجاهلى من هذا الاتهام . ولكنا أيضاً لا نمضى مع هذا الاتهام إلى ذلك الحد الذى يجعل من رواة الشعر الجاهلى « عصبة من المزيِّفين » لا همَّ لهم إلا صناعة نماذج من الشعر ثم حملها على الشعراء الجاهليين ، والذى يجعل درس الشعر الجاهلى ضرباً من الأعمال « البوليسية » التى لا هم لها إلا البحث عن هؤلاء المزيفين ومصادرة « عملتهم » الزائفة .

والأمر الذى لا أكاد أشك فيه هو أن الشعر الجاهلى قد لقى من عناية القدماء نصيباً موفوراً ، وأن نقاد هذا الشعر لم يشكوا فى شىء منه إلا سجلوا هذا الشك ، وحسبنا هذا الشك دليلا على عناية القدماء بأمر هذا الشعر . أما

ما كان التزييف فيه بارعاً إلى درجة خفيت على القدماء أنفسهم من النقاد والرواة ، فما أظن أننا نبيح لأنفسنا الادعاء بأننا أدق حسًّا بالشعر الجاهلى من هؤلاء القدماء الذين كانوا أقربَ منا عهداً بعصر هذا الشعر . أما إذا كان الراوية أو الناقد مجرَّحاً عرفتْ عنه الغفلة أو الكذب ، أو كان المتن نفسه يحمل فى أثنائه دليلا على الكذب أو التزييف ، فهنا تكون مواضع الشك والاتهام . وليست هذه الخطة بدعاً فى الدرس ، وإنما هى خطة سار عليها علماء الحديث فى دراستهم لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وتحقيقها .

ومجموعة شعر الصعاليك التى دارت حولها أحاديث الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخليًّا » بمعنى أن الرواة قد اتفقوا على أنها من شعر الصعاليك ، ولكنهم اختلفوا فى نسبتها إلى أيهم . ومن الأمثلة على هذه المجموعة تلك البائية التى ترْوَى مرة لأبى خراش الهذلى[1] ، ومرة للأعلم الهذلى[2] ، ومرة لتأبط شرا[3] وهم جميعاً من صعاليك منطقة واحدة هى منطقة السراة .

ومن الأمثلة على هذه المجموعة أيضاً تلك الدالية التى يرويها الأصمعى وأبو عمرو الشيبانى والسكرى لصخر الغى الهذلى[4] ، والتى يذكر أبو عبيدة « أنه رأى جماعة من شعراء هذيل يختلفون فى هذه القصيدة فيرويها بعضهم لصخر الغى ، ويرويها بعضهم لعمرو ذى الكلب . وأن الهيثم بن عَدِىّ حدثه عن حماد الراوية أنها لعمرو ذى الكلب »[5] ، وكلا الشاعرين من صعاليك هذيل .

والخَطْب فى هذه المجموعة هين . فإن المسألة لم تخرج عن دائرة الصعاليك . وهذا الاختلاف — وإن يكن له تأثير فى الدراسة الفنية للشاعر الواحد —

(١) ديوان الهذليين ، القسم الثانى /١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) الآمدى : المؤتلف والمختلف /٩٥ .
(٣) ديوان الهذليين ، القسم الثانى /١٦٨ ، ١٦٩ ، وابن دريد : جمهرة اللغة ١/ ٢٤٠ .
(٤) الأغانى ٢٠/١٩ ، وشرح أشعار الهذليين ١/١٢ ، ويرويها له أيضاً ابن قتيبة فى الشعر والشعراء /٤٢٠ .
(٥) الأغانى ٢٠/١٩ .

لاتأثير له فى الدراسة الفنية لشعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ، ولا تأثير له فى الدراسة الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

ومن هنا وقفنا من هذه المجموعة موقفين مختلفين ، فاعتمدنا عليها فى دراسة ظاهرة الصعلكة ، وفى دراسة شعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ، أما حين ندرس شاعراً معيناً ، فمن الطبيعى **ألا** نعتمد عليها ، لا فى دراسة حياته ، ولا فى دراسة فنه ، وإلا وصلنا إلى نتائج مشكوك فى مقدماتها .

أما المجموعة الأخرى فإن الشك فيها شك « خارجى » بمعنى أنه يدور حول نسبتها إلى الشعراء الصعاليك أو إلى غيرهم من الشعراء ، كتلك الأبيات التى تنسب مرة إلى تأبط شرا[1] ، ومرة ثانية إلى البَعِيث[2] ، ومرة ثالثة إلى هُدْبة العذرى[3] ، وكتلك الأبيات البائية التى تنسب فى بعض المصادر إلى أبى الطمحان[4] ، وفى بعضها إلى لَقِيط بن زُرَارة[5] ، وكالبيتين اللذين ينسبان فى بعض المصادر إلى السليك[6] ، وفى بعضها إلى المعتصم بالله ابن هارون الرشيد[7] .

وقد يكون من اليسير أن ينتهى الباحث إلى رأى فى هذا الاختلاف إذا أعانته بعض الخصائص الفنية فى نصوص هذه الأبيات على التعرف على شخصيات أصحابها ، فمثلا قد يكون من اليسير أن نصحح نسبة البيتين الأخيرين إلى المعتصم ، إذ أن سمات « الأرستقراطية » تبدو على ما فى صورة ذلك السيد الذى يأمر غلامه بأن يهيئ له حصانه ويطرح عليه سرجه ولجامه ، فإذا أضفنا إلى هذا أن البيت الثانى يرْوَى فى بعض المصادر « أبلغْ الأتراك »[8]

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، المجلد الأول /٢٨١ .
(٢) المصدر السابق /٢٧٦ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/١١٦ .
(٤) المبرد : الكامل /٣٠ ، وانظر أيضاً ص ٦٦ ، ٥٠٧ .
(٥) الجاحظ : الحيوان ٣/٩٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء /٤٤٧ .
(٦) أسامة بن منقذ : لباب الآداب /١٨٢ .
(٧) المرزبانى : معجم الشعراء /٤٢٥ .
(٨) المصدر السابق /٤٢٥ .

مكان« أبلغ الفتيان »، رجحت لدينا نسبة هذين البيتين للمعتصم، ومن الحق أن السليك كان له فرس اسمه « النحام »[١] ، ولعل هذا هو الذى أشكل على بعض الرواة فنسبوا البيتين له ، ولكن هذا ليس كافياً لإثبات صحة هذه النسبة ، فقد يكون فى خيل المعتصم ما يحمل هذا الاسم .

والأمر فى الأبيات التى تنسب إلى أبى الطمحان أو لقيط بن زرارة يشبه هذا الأمر ، فإن فى الأبيات فخراً بقوم الشاعر بالسيادة والحسب ، وهذا أليق بلقيط ذلك السيد التميمى الذى يصفه ابن قتيبة بأنه « كان أشرف بنى زرارة »[٢] ، كما أن فخر الشاعر بلسان قومه ليس من الخصائص المألوفة فى شعر الصعاليك ، ومن هنا نستطيع أن نرجح نسبة هذه الأبيات إلى لقيط ، وقد تنبه ابن قتيبة إلى هذا حيث يقول « وبعض الرواة ينحل هذا الشعر أبا الطمحان القينى ، وليس كذلك ، إنما هو للقيط »[٣] .

وقد تنبه القدماء إلى مثل هذا ، فقد اختلف الرواة فى أربعة أبيات من معلقة امرئ القيس : أهى له أم لتأبط شرا ؟ وهى تلك الأبيات التى يتحدث فيها الشاعر عن حمله قربة الماء ، وتشرده فى الوديان المقفرة مع الذئاب الجائعة ، وعن فقره وإسرافه وهزاله[٤] : أما الأصمعى فقد ذهب إلى أن هذه الأبيات ليست لامرئ القيس وإنما هى لتأبط شرا ، وتابعه فى هذا الرأى أبو حنيفة الدينورى وابن قتيبة ، وأما السكرى فقد خالفهم فى هذا ورواها لامرئ القيس فى معلقته[٥] ، وقد تنبه صاحب خزانة الأدب إلى أن هذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك لا بكلام الملوك[٦] .

وقد يقال إن امرأ القيس تصعلك حقبةً من حياته ، فلعله يعبر عن هذه

---

(١) انظر الكامل للمبرد / ٤٧١ ، ولسان العرب مادة (نحم) .
(٢) الشعر والشعراء /٤٤٦ .
(٣) المصدر السابق /٤٤٧ .
(٤) التبريزى : شرح القصائد العشر /٣٧ ، ٣٨ .
(٥) البغدادى : خزانة الأدب ١/٦٥ .
(٦) المصدر السابق /٦٥ .

الحقبة فى هذه الأبيات ، ولكن يلاحظ أن وضع هذه الأبيات فى المعلقة وضع قلق ، إذ أنها حديث شاب « أرستقراطى » عن اللهو والنساء والصيد فليس من المعقول أن يتحدث فى أثناء هذا عن حمله قربة الماء وفقره وتشرده ، وقد رجحنا منذ قليل أن هذه الأبيات قطعة من لامية لتأبط شرا لم تصل إلينا ، وقلنا إنه من الممكن أن تتألف من تلك الأبيات الكثيرة الواردة له فى لسان العرب من وزن واحد وعلى قافية واحدة .

وصورة أخرى من هذا « الشك الخارجى » نراها حين تتهم بعضُ نصوص شعر الصعاليك بأنها قد صُنعت وحملت عليهم ، فمثلا يقول أبو عمرو تعليقاً على القصيدة القافية المنسوبة إلى قيس بن الحدادية فى مدح أسد بن كُرْز : « وهذه الأبيات من رواية أصحابنا الكوفيين ، وغيرهم يزعم أنها مصنوعة ، صنعها حماد الراوية لخالد القسرى فى أيام ولايته وأنشده إياها ، فوصله ، والتوليد بيِّن فيها جدًّا »[1] ، ويذكر أبو الفرج بعد أن روى القصيدة البائية المنسوبة إلى قيس بن الحدادية أيضاً التى يفتخر فيها بقومه ، ويعيِّر عامر ابن الظرب بفراره : « هذه القصيدة مصنوعة والشعر بيِّن التوليد »[2] .

ولعل أشهرَ ما تعرض لهذا الشك من شعر الصعاليك لاميتان : إحداهما تنسب إلى الشنفرى ، وهى المعروفة بلامية العرب ، ومطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميلُ

والأخرى اختلف القدماء فى نسبتها اختلافاً شديداً ، ومطلعها :

إن بالشعب الذى دونَ سلع لقتيلا دمه ما يطل

وكلتا اللاميتين اتهم بصنعهما خلف الأحمر[3] .

والقدماء يصفون خلفاً بأنه « كان من أمرس الناس لبيتِ شعرٍ »[4] ،

---

(١) الأغانى ١٣/٥ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق /٤ .

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٣٠٧، وابن قتيبة : الشعر والشعراء /٤٩٧ ، والجاحظ : الحيوان ١/١٨٢ ، والقالى : الأمالى ١/١٥٦ .

(٤) ابن النديم : الفهرست /٥٠ .

ويقول ابن سلام : « أجمع أصحابنا أن الأحمر كان أفرس الناس ببيت شعر » [١] . ويقول الأخفش : « لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر الأصمعي » [٢] . ويقول أبو اليزيد : « أتيت بغداد حين قام المهدى محمد ، فوافاها العلماء من كل بلدة بأنواع العلوم ، فلم أر رجلا أفرس ببيت شعر من خلف» [٣] . ولكنهم مع الأسف يصفونه بأنه « كان يقول الشعر فيجيد ، وربما نَحَلَه الشعراء المتقدمين ، فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم» [٤] ويقول أبو الطيب عبد الواحد اللغوى : « كان خلف يضع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يُعرف » [٥] . ويذكر ابن قتيبة أنه « كان يقول الشعر وينحله المتقدمين » [٦] ، ويقول ابن عبد ربه : « وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيُحْسِن وينحله الشعراء » [٧] ، ويذكر ابن النديم عنه أنه «كان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب ويَنْحَله إياهم » [٨] ، بل إنه هو نفسه يصرح بهذا فى بعض الأخبار أنه قال : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيحَ من أشعار العرب ، وأعطيه المنحول فيقبلُ ذلك منى ، ويدخله فى أشعارها » [٩] .

ومعنى هذا أننا أمام « مزيِّف » بارع يعرف أساليب العرب فى الشعر ويقلدها ثم يحملها عليهم ، فلا يكادون يميزونها ، وهنا موطن الخطر ، فلو لم يكن خلف على هذه البراعة، لاستطاع القدماء ، ولاستطعنا نحن أيضاً. أن نعرف ما هو صحيح النسبة إلى أصحابه مما يرويه من الشعر وما هو منحول عليهم .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٦٧ .
(٢) المصدر السابق ١١/٦٧ .
(٣) ابن النديم : الفهرست /٥٤ .
(٤) ابن الأنبارى : نزهة الألبا فى طبقات الأدبا /٦٩، ٧٠.
(٥) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٦٨ .
(٦) الشعر والشعراء / ٤٩٧ .
(٧) العقد الفريد ٥/٣٠٧ .
(٨) الفهرست /٥٠ .
(٩) الأغانى ٦/٩٢ .

ولعل الأمر فى اللامية الأخيرة « إن بالشّعب » أيسر ، فإن الشك يكتنفها اكتنافاً شديداً لم تتعرض لمثله أية قصيدة أخرى من « ديوان الصعاليك » ، وتكاد مصادر الأدب العربى المختلفة لا تتفق على قائلها ، فهى مرة تُنسب إلى تأبط شرا[١] ، ومرة إلى ابن أخت تأبط شرا[٢] ، ومرة إلى الشنفرى[٣] ، هذا إلى جانب نسبتها إلى خلف الأحمر[٤] ، بل إن أبا تمام الذى ينسبها فى حماسته فى صراحة إلى تأبط شرا[٥] ، ينسبها فى بعض المصادر الأخرى فى صراحة أيضاً إلى الشنفرى[٦] ، بل الغريب أن تنسب أحياناً إلى الشنفرى فى رثاء تأبط شرا[٧] ، مع أن المعروف أن الشنفرى قُتل قبل تأبط شرا ، وأن تأبط شرا هو الذى رثاه[٨] ، والجاحظ لا يعرض لها إلا متشككاً ، فهو يقول مرة : « وقال تأبط شرا أو أبو محرز خلف بن حَيَّان الأحمر »[٩] ، ويقول مرة أخرى : « وقال تأبط شرا ، إن كان قالها »[١٠] . وينقل ابن دريد بيتاً منها فى أسلوب المتشكك حيث يقول : « وقد رُوِىَ البيت المنسوب إلى الشنفرى أو إلى تأبط شرا . . . »[١١] ، ووضع العبارة على هذه الصورة المتشككة ، والتعبير بكلمة « المنسوب » ، يشعران بما كان يدور فى نفس ابن دريد من الشك فى صحة هذه النسبة إلى أىٍّ من الشاعرين. ويقول ابن عبد ربه : « ويقال

(١) حماسة أبى تمام ٢/١٦٠ . ولسان العرب : مادة (سلع) .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/٢٥٢ ، ٣/٢٩٨ ، ٥/٣٤٥ ، ٣٤٦ .
(٣) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٥٣٢ . ولسان العرب : مادة (سلع) . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة ٢٤٩ .
(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٤٩٧ .
(٥) حماسة أبى تمام ٢/١٦٠ .
(٦) حماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة ٢٥٠ .
(٧) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٥٣٢ . ولسان العرب : مادة (سلع) . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة ٢٤٩ .
(٨) الأغانى ٢١/١٣٦ .
(٩) الحيوان ١/١٨٢ .
(١٠) المصدر السابق ٣/٦٨ .
(١١) جمهرة اللغة ١/٦٩ .

إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا وهو :

إن بالشعب الـــذى دون سلع لقتيـــلا دمـــه ما يطـــل

لخلف الأحمر ، وإنه نحله إياه »[١] . ويقول التبريزى فى صراحة عن هذا الشعر : « وذكر أنه لخلف الأحمر ، وهو الصحيح »[٢] . وكذلك يفعل ابن قتيبة إذ يذكر فى صراحة لا تحتمل شكًّا أن قائل هذه القصيدة هو خلف ، وهو يذكر هذا فى ترجمته له[٣] .

ومعنى هذا أن القدماء لم يتفقوا على نسبتها إلى أحد من الشعراء الصعاليك ، وإنما كان اختلافهم فى هذا اختلافاً عريضاً ، وأنهم يقفون منها موقف المتشكك فى صحة نسبتها إلى أىٍّ من الشعراء الصعاليك ، بل إن بعض من يُعتدُّ برأيهم يصرحون فى قوة بأنها لخلف .

ولكنا نعود فنقف أمام نص للخالديين فى حماستهما يذكران فيه — بعد أن ذكرا هذه القصيدة منسوبة إلى الشنفرى — « وقد زعم قومٌ من العلماء أن الشعر الذى كتبنا للشنفرى هو لخلف الأحمر ، وهذا غلط »[٤] ، ثم يرويان خبراً طويلا[٥] عن الصولى عن أبى العيناء عن العُتْبى فى إثبات هذا ، خلاصته أن العتبى كان جالساً يوماً بالمربد مع « جماعة من أهل الأدب » ومعهم خلف الأحمر يتذاكرون « أشعار العرب » ، ثم أخذ خلف ينشدهم قصيدة له على رَوِىٍّ هذه اللامية وقافيتها « يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة وما نالهم وجرى عليهم من الظلم » ، إذ هجم عليهم الأصمعى ، وكان منحرفاً عن أهل البيت ، فقطع خلف قصيدته ، ودخل فى هذه اللامية ، ولم يكن فى الجماعة « أحدٌ عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى » ، فلما انصرف الأصمعى أقبلوا على خلف يُطْرُون سرعة بديهته ، ومقدرته على الارتجال ، ولكنه قال لهم

---

(١) العقد الفريد ٥/٣٠٧ .

(٢) شرح حماسة أبى تمام ٢/١٦٠ .

(٣) الشعر والشعراء /٤٩٧ .

(٤) ورقة رقم ٢٥٠ (مخطوطة) .

(٥) من ورقة رقم ٢٥١ — إلى ورقة رقم ٢٥٤ .

« إن كان تقريظكم لى لأنى عملت الشعر فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى تأبط شرا[١] ، ووالله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكموه ما أمسى أو يقومَ به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسى ، فادّعاء شعر لو أردتُ قول مثله ما تعذر علىّ أهون عندى من أن يتصل بالسلطان فألحق باللطيف الخبير » .

والخبر على هذه الصورة يحمل فى ثناياه كذبه ، فماذا يحمل خلفـًا على أن يَدّعى أمام الأصمعى أن هذه القصيدة له ، ولا ينسبها صراحة إلى صاحبها ؟ ثم كيف نتصور أن الأصمعى لم يكن يعرف هذه القصيدة لو كانت حقًّا للشنفرى أو غيره من الشعراء الجاهليين ، وهو الذى يقرنه الأخفش بخلف الأحمر فى العلم بالشعر ، ويقول إنه لم يدرك أحدًا أعلمَ بالشعر منهما[٢] ؟ كيف نتصور أن خلفاً يسىء الظن بالأصمعى إلى هذا الحد الذى ينشده فيه قصيدة جاهلية ، ويدّعيها لنفسه ، دون أن يظن أن الأصمعى قد يكون يرويها هو أيضاً ؟ ثم كيف نتصور أن هذه « الجماعة من أهل الأدب » المجتمعة لتتذاكر « أشعار العرب » — على حد تعبيرات القصة — قد خلت من واحد يعرف أن هذه القصيدة جاهلية ؟ ثم أين سائر أفراد هذه « الجماعة من أهل الأدب » ولم لم يَتذكرْ واحدٌ منهم غير العتبى هذا الخبر ؟

أما أنا فأرجح ترجيحاً شديداً أن العتبى راوى هذا الخبر هو مختلقه . ويؤيد هذا انفراده بروايته ، وقوله إنه لم يبق من يعرفه غيره ، وأنه تحدث به فى مجلس له ورجلٌ يقرأ عليه شعر الشنفرى ، فلما وصل إلى هذه اللامية قال بعض من كان فى المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر ، فضحك العتبى مستخفًّا به ، ومضى يقص هذا الخبر . وهذا يجعلنا نرجح أن المسألة كانت تحدياً بينه وبين بعض الحاضرين ، وفى مثل هذا الموقف قد يعمدُ بعض الناس إلى الاختلاق . ثم قد يكون العتبى اختلق هذه القصة ليبرئ خلفاً من

---

(١) كذا فى المخطوطة (ورقة رقم ٢٥٢) وأظن أن صوابه « للشنفرى يرثى تأبط شرا » .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٦٧ .

تهمة الكذب ، وكلاهما شيعى .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فقد حاول القدماء ممن نسبوها إلى خلف أن يدللوا على صحة هذه النسبة ، يروى التبريزى عن النمرى أنه قال « ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها — جَلَّ حتى دَقَّ فيه الأجلُ — فإن الإعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا »[١] . ويُرْوى عن أبى الندَى أنه قال « مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سَلْعاً وهو بالمدينة ، وأين تأبط شرا من سلع ؟ وإنما قُتِل فى بلاد هذيل[٢] » . ولكن صاحب معجم البلدان يذكر أن فى ديار هذيل جبلا اسمه سلع[٣] ، ولكنه — من ناحية أخرى — ينقل عن بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذه القصيدة ليست لتأبط شرا « بأن سلعاً ليس دونه شِعْبٌ »[٤] .

على هذه الأسس التاريخية والفنية نظن ، بل نرجح ، أن هذه اللامية ليست لأحد من الشعراء الصعاليك ولا فى رثاء أحد من الصعاليك .

أما القصيدة الأخرى ، لامية العرب ، فإن الأمر فيها أصعب من هذا ، فليس حولها هذا الخلاف العريض الذى رأيناه حول اللامية الأولى ، فإن الرواة الذين تعرضوا لها ينسبونها إلى الشنفرى[٥] ، ما عدا صاحب تاج العروس الذى ينسبها إلى تأبط شرا[٦] ، وليس بين أيدينا من النصوص الصريحة على أنها ليست للشنفرى سوى نص يرويه القالى عن ابن دريد يذكر فيه أن هذه القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى لخلف الأحمر[٧] . وهو نص له قيمته ، لأن ابن دريد

---

(١) شرح حماسة أبى تمام ٢/١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المصدر السابق /١٦١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣/١٠٨ ، مادة (سلع) .

(٤) المصدر السابق ١/٥ (المقدمة) .

(٥) انظر على سبيل المثال التبريزى فى شرحه على حماسة أبى تمام ١/٢٣٤ ، والبغدادى فى خزانة الأدب ٢/٤١٤ ، ٣/٣٣٤ ، والعينى فى شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب) ٢/١١٧ وإن كنا نلاحظ أن العينى يذكر أن الشنفرى هو عمرو بن براق ، وهو خلط ، وهبة الله العلوى فى ديوان مختارات شعراء العرب/ ٢١ ، وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ١٣٠.

(٦) مادة (آم) .

(٧) الأمالى ١/١٥٦ .

كان قريبَ عهد بخلف ، فأكثر أخباره مرْوية عن تلاميذ الأصمعى عن خلف ، ثم إنه كان على صلة بأعمال المدرسة البصرية التى ينتمى إليها خلف[١] ، فإذا أضفنا إلى هذا أن أبا الفرج قد أغفل هذه اللامية فى ترجمته للشنفرى إغفالا تامًّا ولم يشرْ إليها أى إشارة على كثرة ما روَى من شعره[٢] ، كما فعل مع اللامية الأولى فى ترجمته لتأبط شرا[٣] ، وأن لسان العرب — على كثرة ما نقل من شعر الصعاليك — لم يردْ فيه أى ذكر لها ولا أى بيت منها ، بدأت كفة الشك فى صحة نسبتها إلى الشنفرى ترجح .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فإن أول ما يلفت نظرنا أن هذه اللامية طويلة طولا ليس مألوفاً فى شعر الصعاليك ، وسنرى فيما بعد أن شعر الصعاليك كان فى مجموعه شعر مقطوعات ، فهذه اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتاً ، فى حين لا تزيد أطول قصيدة فى « ديوان الصعاليك » وهى تائية الشنفرى المفضلية على خمسة وثلاثين بيتاً فى بعض المصادر[٤] ، أى أن هذه اللامية تبلغ ضعف أطول قصيدة فى ديوان الصعاليك تقريباً . وإلى جانب هذا نلاحظ قلة الاضطراب فى رواية ألفاظها ، وفى ترتيب أبياتها ، وهى ظاهرة ليست مألوفة فى شعر الصعاليك ، فقد لاحظنا فى أول هذا الفصل أن مما يميز شعر الصعاليك الاضطراب فى رواية ألفاظه وترتيب أبياته . فإذا أضفنا إلى هذا ما لاحظه كرنكو[٥] من قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها ، وهى ظاهرة ليست طبيعية فى قصائد الشعر العربى المبكرة ، زادت كفة الشك فى صحة نسبة هذه اللامية إلى الشنفرى فى الرجحان .

وقد نتساءل بعد هذا : ما السر فى تلك العناية الغريبة التى لقيتها هذه

---

(١) Krenkow; The Ency. of Islam, Art. Al-Shanfara.

(٢) ٢١/١٣٤ — ١٤٣ .

(٣) ١٨/٢٠٩ — ٢١٨ .

(٤) انظر فى شرح ابن الأنبارى على المفضليات (ط بيروت) تعليق الأستاذ Lyall على البيت الأخير من التائية (ص ٢٠٧) .

(٥) The Ency. of Islam, Art. Al. Shanfara.

اللامية حتى تؤلَّف فيها تلك الشروح الكثيرة المتعددة[١] ، وحتى يحرص الغربيون على ترجمتها إلى لغاتهم[٢] ؟

الذى يبدو لى أن سر إقبال الشراح العرب عليها هو أنهم وجدوا فيها مادة لغوية طيبة ، ثم أخذت المسألة تصبح لوناً من التقليد والتنافس بين الشراح ، أما الغربيون فقد وجدوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب فى الجزيرة العربية ، فكان اهتمامهم بها لغرض اجتماعى ، كما كان اهتمام العرب بها لغرض لغوى .

والحق يقال إن خلفاً قد صور حياة صعاليك العرب فى هذه اللامية تصويراً رائعاً ممتازاً ، حتى ليصح أن تكون مصدراً من مصادر دراسة حياتهم الاجتماعية . والأمر الذى لاشك فيه هو أن خلفاً قد تمثل أولا حياة صعاليك العرب وخصائص شعرهم الفنية ، ثم مضى يصور هذه الحياة وهذا الفن فى قصيدة رائعة ، حاول ما استطاع أن يجعلها صورة صادقة لما عـرَفَ عن شعرهم وأخبارهم ، حتى ليصح أن نطلق عليها لا « لامية العرب » وإنما « لامية الصعاليك » أو « دنيا الصعاليك » .

---

(١) انظر فهرس دار الكتب المصرية فى شروح هذه اللامية التى تبلغ أكثر من عشرين شرحاً .

(٢) انظر The Ency. of Islam, art. Al-Shanfara.

الفصل الثانى

موضوعات شعر الصعاليك

١ ـ الشعر داخل دائرة الصعلكة

أحاديث المغامرات :

من الطبيعى ـ ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ـ أن يكون أكبر ما يعنَى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم ، لأن هذه المغامرات هى « الحرفة » التى قامت عليها حياتهم ، والأسلوب الذى انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها فى حياته ، المعجب بها ، الفخور ببطولته فيها ، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت فى وجهه سبل النجاة .

وهم يصفون كل ما يحدث فى هذه المغامرات ، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك فى وضع خطتها ، إلى أن تنتهى الغارة ، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خطتهم ، وحققوا أهدافهم ، وهم يصفون ، فى أثناء ذلك ، الطريقَ الذى سلكوه ، ويتحدثون عن رفاق الغارة ، ودور كل واحد فيها ، وكيف نفذوا خطتهم ، وكيف كانت آثارها فى أعدائهم ، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا .

فهذا الشنفرى يخرج فى عِدَّة من فَهْم[1] فيهم عامر بن الأخنس وتأبط شرا والمسيَّب وعمرو بن براقة ومرَّة بن خليف يقصدون العوْصَ ، وهم حى من بجيلة ، فلما انتهوا من الغارة ، وأخذوا طريق العودة ، اعترضت لهم خثعم ،

(١) الأغانى ١٨ / ٢١٥ ، ٢١٦ ، وديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٣٢ .

ودارت بينهم معركة انتهت بانتصار الصعاليك ، فإذا ما انتهت المعركة فرَغَ الشنفرى إلى فنه يحدثنا عنها حديثاً رائعاً فيه دقة وتفصيل ، يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج لها ، غيرَ مبال بحياته أو حريص عليها ، وفيم المبالاة أو الحرص وهو يعلم أن أجله لابد آت فى يوم من الأيام :

دَعِينى وقولى بعدُ ما شئتِ إننى سيغْدَى بنعشى مرةً فأُغيَّبُ

وهو لا يطيل فى هذا الحديث لأنه فى لهفة إلى أن يدرك رفاقه ، والموقف لا يحتمل رَيثاً ولا إبطاء ، فليترك امرأته بعد هذا القول الفاصل «دعينى وقولى بعدُ ما شئت» ، وبعد هذا الحجة القاطعة «إننى سيغدى بنعشى مرةً فأغيبُ» ، وليسرع إلى رفاقه فى لهفة شديدة ، يمثلها انتقاله السريعُ من هذا الحديث إلى حديثه عن خروجهم فى مغامرتهم . وهو يذكر لنا أنهم كانوا ثمانية ، وأنهم خرجوا جميعاً مسرعين ، لم يعْهدوا إلى أحد بالقيام على شئونهم ، ولم يُوصُوا أحداً بأهلهم ، وهم جميعاً فتيان كأنهم الذئاب ، وجوههم مشرقة لا تبدو عليها مظاهر جزع أو خوف :

خرَجنا فلم نعْهدْ وقلَّتْ وَصَاتنا ثمـــانية ما بعدها متعتَّبُ

سرَاحينُ فتيانٌ كأَن وجوههمْ مصابيحُ أَو لونٌ منَ الماء مُذْهَبُ[1]

ثم هاهم أولاء فى طريقهم إلى هدفهم مسرعين ، لا يعرجون على شيء حتى على الماء ، على شدة حاجتهم إليه ، وعلى علمهم أن الزاد ظن مغيبٌ ، ثم هاهم أولاء بعد ثلاثة أيام على أقدامهم يصلون إلى هدفهم يتقدمهم دليل خفيفٌ فارع شجاع :

نمرُّ برَهْوِ الماء صَفحاً وقد طوَتْ ثمائلنا ، والزادُ ظن مغيَّبُ

ثلاثاً على الأَقدامِ حتى سمَا بنا على العَوْصِ شَعْشاعٌ من القوم محرَبُ[2]

(١) الذى هنا رواية الأغانى ، وفى الديوان «مستعتب» مكان «متعتب» . والسراحين : الذئاب .

(٢) الرهو : مستنقع الماء . الثمائل جمع ثميلة وهى سقاء الماء . الشعشاع : الطويل الخفيف . المحرب : الشديد الحرب الشجاع .

ثم يصور المعركة التى دارت قبيل الفجر ، فى ظلام الهزيع الأخير من الليل ، وقد تنبه لهم الحى الذى يهاجمونه ، فعلت صيحاتهم ، واختلطت بصيحات الصعاليك . ودارت المعركة وقام كل من الصعاليك بدوره فيها فى بطولة وشجاعة : أما تأبط شرا فقد بدأ هجومه السريع بسيفه الذى يهتز فى يده لسرعة ضرباته ، وأما المسيَّب فقد أعمل فيهم سيفه فى تصميم لا يلين ، وأما الشنفرى فقد وقف للدفاع هو وجماعة من فتيان الصعاليك ، وثبتوا فى موقفهم ، حتى انجلت المعركة عن انتصار الصعاليك بعد أن قتلوا جماعة من أعدائهم وسلبوهم ، أما سائرهم — على كثرتهم — فقد انتابهم فزع شديد ، حتى خيل إليهم أن كل مرتفع من الأرض يصبُّ عليهم كل الصعاليك الثمانية :

فثاروا إلينا فى السَّواد فهجْهجوا وَصَوَّتَ فينا بالصباح المثوِّب
فشنَّ عليهمْ هزَّةَ السيفِ ثابتٌ وصَمَّم فيهم بالحسام المسيَّبُ
وَظلْتُ بفتيان معى أتقيهمُ بهن قليلا ساعةً ثم خيَّبوا
وقد خر منهمْ راجلان وفارسٌ كميٌّ صرعناه وخَوْمٌ مسلَّبُ
يشن إليه كلُّ ريعٍ وقلعة ثمانيةً ، والقومُ رَجْلٌ ومقْنبُ[1]

وهنا ، وقد انتهى الشاعر من تصوير هذه الغارة الناجحة ، لم يعدْ أمامه هو وأصحابه إلا أن يسرعوا عائدين إلى قواعدهم سالمين ، ليحدثوا قومهم الصعاليك فى فخر واعتزاز بما قاموا به من بطولة :

فلما رآنا قومُنا قيل أفلحوا فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذَّب

وهذا السليك يخرج مع رفيقين له يريدون الغارة « فى عشية فيها ضباب ومطر » ، حتى يأتوا بيتاً « قد انفرد من البيوت » ، ويأبى السليك إلا أن يكون بطل هذه الغارة ، فيخلف صاحبيه وراءه ، ويتربص هو بمفرده ، حتى

---

(١) هجهجوا : صاحوا . المثوب : الداعى المكرر الدعاء . الوخوم : الثقيل . الريع : المرتفع من الأرض . الرجل : الجماعة على أرجلهم . المقنب : الجماعة على الخيل — وقد خالفنا الأستاذ الميمنى فى شرحه للبيت الأخير (انظر الطرائف الأدبية / ٣٢) .

إذا خرج رب البيت بإبله ليعشيها تبعه السليك ، حتى إذا ما أخذت الشيخَ سنةٌ من النوم وقد غطى وجهه بثوبه من البرد حانت الفرصة للسليك ، فاستله من ردائه فضربه فأطار رأسه ، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره صاحباه ، فطرَدَاها معه[١] ، حتى إذا ما اطمأنوا فرَغَ السليك لفنه مسجلا هذه المغامرة فى هذه المقطوعة الرائعة :

وَعاشية راحت بطاناً ذَعرْتها بسوْط. قتيل وَسطها يَتسيَّفُ[٢]
كأَن عليه لونَ برد محبَّر إذا ما أَتاه صارم يتلهفُ[٣]
فبات له أَهلٌ خلاءٌ فناؤُهم ومرتْ بهمْ طير فلم يتعيفوا[٤]
وباتوا يظنون الظنون ، وصحبتى إذا ما علوْا نَشْزًا أَهلوا وأَوْجفوا[٥]
وما نلتها حتى تصَعلكتُ جِمَّةً وكدتُ لأَسباب المنيــة أَعرفُ[٦]
وحتى رأَيتُ الجوعَ بالصيفِ ضرنى إذا قمتُ تغشانى ظلالٌ فأُسْدِف[٧]

فالشاعر الصعلوك هنا يبدأ مقطوعته من حيث انتهت مهمته الخطرة ، فهو لا يذكر شيئاً عن خروجه للغارة ولا عن تربصه لها ، وإنما يبدأ بذكر طرده الإبل بعد أن قتل صاحبها ، كأنما هو فرح بتلك الغنيمة التى أنقذته من الجوع والإشراف على الهلاك ، فهو لا يرى إلا تلك الإبل التى نهبها ، ثم ينتقل إلى موازنة طريفة بين طرفى الصراع : بين أصحابه الصعاليك وأهل ذلك الشيخ القتيل ، أما هؤلاء فقد خلا فناؤهم من إبلهم ، ولكنهم مطمئنون حتى إنهم لم يتعيفوا الطير التى مرت بهم ، لأن خبر الغارة لما يبلغهم بعد ، وأما أولئك

---

(١) الأغانى ١٨/١٣٤ ، ١٣٥ ، والميدانى : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .

(٢) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « وعاشية روح بطان » ، و « بصوت قتيل » . والعاشية : الإبل ترعى ليلا . ويتسيف : يضرب بالسيف .

(٣) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « صارخ » مكان « صارم » ، وفيه أيضا « متلهف » . ويريد بقوله « لون برد محبر » طرائق الدم على القتيل .

(٤) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « لها » مكان « له » .

(٥) كذا فى المصدرين . النشز : المكان المرتفع . أهل : صاح ورفع صوته . أوجفوا : حملوا الإبل على الوجيف وهو ضرب من السير .

(٦) كذا فى المصدرين .

(٧) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « يغشانى » . أسدف أى أظلم بصره من شدة الجوع .

فقد نجوا بغنيمتهم فوق طريق جبلى وعر ، وهم يصيحون صيحة الفرح والفوز ، ويحثون الإبل المنهوبة على الإسراع بينما أهل الشيخ يفكرون أين استقر به وبإبله المقام ؟ وماذا أخره حتى تلك الساعة من الليل ؟ وفى هذه الغمرة من الفرح لا ينسى السليك أن يبرر غارته ، فهو لم يقدم عليها إلا بعد أن أصبحت المسألة مسألة حياة أو موت ، فقد أشرف على الهلاك لشدة فقره وجوعه ، حتى ليصيبه الدُّوار كلما قام لفرط ضعفه وإعيائه ، وتظلم عيناه لشدة هزاله وإجهاده .

وهذا تأبط شرا يحدثنا فى مقطوعة له[1] عن مغامرة طريفة من مغامراته ، خرج فيها إلى غار فى بلاد هذَيل ، أعدائه الألداء ، ليشتار عسلا ، وعلمت هذيل بخبره ، فوجدوا الفرصة سانحة ليتخلصوا منه ، فحاصروه فى الغار وطلبوا إليه التسليم ، ولكنه راح يراوغهم وقد أخذ « يُسيل العسل على فم الغار ، ثم عَمدَ إلى زق فشده على صدره ، ثم لصق بالعسل ، ولم يزل يزلق حتى جاء سليماً إلى أسفل الجبل ، فنهض وَفاتهم » .

يبدأ الشاعر الصعلوك قصيدته بأبيات فى الحكمة يودعها خلاصة تجربته التى مر بها ، فالشخص الحازم هو الذى يستعين بالحيلة فى مواطن الخطر ، لينجو بها منه ، وهو الذى يعمل للأمر حسابه قبل أن يأخذه على غرة ، وعلى المرء أن يكون مرناً فى تصرفاته إذا ما سدت منافذُ الأمر عليه :

إذا المرءُ لم يحتلْ وقد جدَّ جِده ... أَضاعَ وقاسى أمره وهو مدْبرُ

ولكنْ أَخو الحزْم الذى ليس نازلا ... به الخطبُ إلا وهو للقصْد مبصر

فذاكَ قريعُ الدهر ما عاشَ حوَّلٌ ... إذا سُدَّ منه منخرٌ جاشَ منخرُ[2]

---

(١) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١/٣٨ وما بعدها ، والبغدادى : خزانة الأدب ٣/٣٥٧ وما بعدها ، والعينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ٢/١٦٥ – ١٧٠ ، وفى الأغانى ١٨/٢١٥ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات عن سائر المصادر الأولى ، ومع انفراده بزيادة بيت على آخر القصيدة ، وقد آثرنا رواية المصادر الأولى لأنها أدق فى التعبير عن نفسية الشاعر .

(٢) قريع الدهر : يريد به المجرب البصير . وقوله : « إذا سد منه منخر » المراد به إذا ضاقت عليه الأمور ، وسدت المسالك .

فإذا ما انتهى الشاعر من هذا « الدرس النظرى » انتقل إلى « التطبيق العملى » ، يبدأ به منذ أن تحرجت أموره حين حاصرته لحيان[١] ، وينقل لنا طرفاً من حواره معهم ، ذلك الحوار الذى أراد أن يخدعهم به حتى يفرغ من إعداد وسيلته للنجاة :

أقولُ للحيان وقد صَفِرَتْ لهم ... وطابى ، ويومى ضَيقُ الجُحْرِ مُعْوِرُ[٢]

هما خطتا إما إسارٌ ومنةٌ ... وإما دَمٌ ، والقتلُ بالحر أَجدَرُ

وأخرى أُصَادِى النفس عنها وإنها ... لمَوْرِدُ حزْمٍ إنْ فعلتُ وَمصْدَرُ

ولا يكاد الشاعر يفرغ من تهيئة وسيلة نجاته حتى يسارع إلى تنفيذها ، فإذا هو يفرش لها صدره فى براعة تساعده عليها ضخامةُ صدره ودقة متنه ، حتى نجا من الموت الذى وقف ينظر إليه خزيان ، ثم إذا هو فى قبيلته وقد عاد إليها بعد أن كاد يهلك :

فرَشتُ لها صَدْرِى فزَلَّ عن الصَّفا ... به جؤْجؤٌ عبلٌ ومتنٌ مُخصَّرُ[٣]

فخالطَ سهْلَ الأَرض لم يكدَحِ الصفا ... به كدْحةً ، والموتُ خزْيانُ ينظرُ

فأبتُ إلى فهم ولم أكُ آيباً ... وَكمْ مثلها فارقتها وهى تصْفِرُ[٤]

شعر المرَاقِب :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم ، تحدثوا أيضاً عن تربصهم بأعدائهم ، وترصدهم لضحاياهم ، وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، فوق المرتفعات العالية التى يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناس ولا يرونهم ، والتى كانوا يسمونها « المراقب » . وتكثر فى شعر الصعاليك هذه الأحاديث

---

(١) لحيان : بطن من هذيل .

(٢) الوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن . وصفرت : خلت . والمراد بقوله « صفرت لهم وطابى » أن نفسه أشرفت على الهلاك بسببهم . والمعور : الذى انكشفت عورته للعدو فهو مكشوف غير محصن . والمراد بقوله « ويومى ضيق الجحر معور » أنه فى مركز حرج ضيق المنافذ .

(٣) الصفا : الصخر . والجؤجؤ : الصدر . والعبل : الضخم .

(٤) فهم : قبيلته . وقوله « وهى تصفر » المراد به أنها تلغط فى أمره ، وتكثر القول فى شأنه ، أو المراد أنها تتأسف على إفلاته منها .

التى يصح أن نطلق عليها « شعر المراقب » .

والمرْقبة التى يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائماً منيعة أبية على سواه ، وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقها والليلُ مقبلٌ يغشى الكون بدياجيه الكثيفة ، ليكون هذا أمعنَ فى التخفى ، وأقرب إلى مواتاة الفرصة ، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم ، و « الليل أخفى للوَيل » كما يقول العرب فى أمثالهم [1] ، و « الصعاليك نومهم قليل » كما يقول الشاعر الصعلوك عمرو بن براقة [2] .

ويرسمُ الشنفرى فى قصيدة من شعره لوحةً رائعة لمرْقبة منيعة عالية يعجز دونها الصيادُ الماهر الخفيف الذى يخرج بكلابه المضرّاة للصيد ، ويصف كيف صَعدَ إليها وقد أقبل الليل بظلامه الحالك الشديد الذى يلف الكون ، وكيف قضَى الليل فوقها متربصاً ، مُحْدباً على ذراعيه مبالغة فى تخفيه كما يتطوى الأفعوان المتكسر ، ولا شىء معه سوى نعلين باليتين ، وثياب أخلاق ، ثم أصحابه الذين لا يفارقونه ، سيفه وقوسه وسهامه :

ومَرْقبةٍ عيطاءَ يقصرُ دونها	أخوالضرْوَةِالرَّجلُالخفيفُالمشفَّفُ
نميتُ إلى أعلى ذُرَاها وقد دَنا	من الليل ملتَفُّ الحديقة أسدفُ
فبت على حد الذراعين مُحْدباً	كما يتطوى الأَرقشُ المتقصِّفُ
قليلٌ جَهازى غيرَ نعلين أَسحَقتْ	صدورُهما مخصورةً لا تُخصَّفُ
ومَلحفة دِرْس وجرْد ملاءَة	إذا أَنجمتْ منْجانب لاتكفَّفُ [3]

---

(١) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/١٢٠ .

(٢) الأغانى ٢١/١٧٥ .

(٣) الأغانى ٢١/١٤٠ ، ١٤١ . وديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٧ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . ورواية الأبيات فى المصدرين الأخيرين مضطربة يكثر فيها التحريف ، ولذا آثرنا رواية الأغانى – العيطاء : العالية المرتفعة ، أو الأبية المتنعة . أخو الضروة : الصياد معه كلاب ضراها للصيد . الرجل بسكون الجيم وفتح الراء كالرجل بضمهما . المشفف : النحيل . الأسدف : المظلم . محدبا : من أحدب إذا انحنى . أسحقت : بليت . الملحفة : ما يلبس فوق الثياب من دثار البرد ونحوه. الدرس بكسر الدال : الثوب الخلق ، ومثله الجرد بفتح الجيم . أنجمت : ظهرت وطلعت . كف الثوب : خاط حاشيته .

فإذا ما قتل الشنفرى ، ووقف تأبط شرا يرثيه ، لم ينس تلك المراقب الشماء التى طالما رَبض فوقها فى انتظار فرائسه ، فرائس الغزو وفرائس الثأر :

ومرْقبة شماءَ أقعيتَ فوقها ليغنمَ غاز أو ليدْركَ ثائرُ[1]

وأما عند تأبط شرا فالمرقبة ذات صورة طريفة ، إنها مرقبة تعلو سائر المراقب ، وهى — إلى جانب هذا — معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية ، ولكنه — مع ذلك — ما إن ينتصف الليل حتى ينهض إليها ليبدأ فى تنفيذ خططه :

ومرقبة يا أم عمرو طِمِرَّة مذَبذَبة فوقَ المراقب عَيْطلِ
نهضتُ إليها من جثوم كأنَّها عجوزٌ عليها هِدْمِلٌ ذاتُ خيعل[2]

وأما ذو الكلب فالمرقبة التى يتربص فوقها بعيدةٌ واسعة عالية ملساء ، وهو متربص فوق حرْفها طول يومه يخفى شخصه ، حتى إذا حانت الفرصة تحدر فوقها وهو ما يزال متخفياً كما يتحدر الماء الصافى :

ومرقبة يحارُ الطرْفُ فيها تزِلُّ الطيرَ مشرفة القذَال
أقمتُ برَيدها يوماً طويلا ولم أُشرفْ بها مثل الخيال
ولم يَشْخصْ بها شرَفى ولكنْ دنوتُ تحدُّرَ الماء الزلال[3]

وأما أبو خراش فالصورة التى يرسمها لمرقبته أشملُ وأكثر تفصيلا ، فهى مرقبة فى نتوء مشرف من الجبل كأنه حد الفأس ، يشرف على طريق ضيق كأنه النفق ، يتسرب فيه الناس بعضهم فى إثر بعض ، وقد أقيم فوق هذا النتوء عرْشٌ يستظل المتربص تحته ويختفى فيه ، ولكن هذا العرش قديم متهدم لم يبق منه إلا عودان أحدهما قائم والآخر ملقى على الأرض :

---

(١) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) لسان العرب ، مادة (هدمل) ، ومادة (جثم) . ويروى البيت الثانى أيضاً فى أمالى القالى ١ / ٣٨ — الطمرة : المرتفعة . العيطل : الطويلة . الهدمل : الثوب الخلق . الخيعل : ثوب من ثياب النساء كالقميص ، أو هو قميص لا كمين له .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٧ — القذال : الرأس ، يريد به رأس المرقبة . الريد : الحرف يندر من الجبل ، ومعنى البيت الثانى أنه أقام بها منكبا ولم يقم مشرفا .

لستُ لمرَّةَ إنْ لم أُوف مرقبةً ... يبدو لى الحَرْفُ منها والمقاضيبُ

فى ذات رَيْد كذَلْق الفأس مُشْرفة ... طريقها سَرَبٌ بالناس دُعبوبُ

لم يبقَ من عرْشها إلا دَعامتها ... جِذْلان : منهدمٌ منها ومنصوبُ[١]

ولكن أبا خراش يختلف هنا عن زملائه شعراء المراقب ، فهو لم يكن وحيداً فوق مرقبته ، وإنما كان معه صاحب له ، وهو معنىٌّ بصاحبه أكثر من عنايته بنفسه ، فهو صاحبٌ حذر قوى النفس لم يرْضَ لها أن يكون عبداً راعياً ، وإنما آثر أن يكون صعلوكاً عاملا ، يتربص فوق المراقب فى سواد الليل ، رافضاً تلك الراحة البغيضة التى ينعم بها الضعفاء الذين لا خير فيهم ، ممن يؤْثرون النوم والدفء على العمل والكفاح :

بصاحب لا تُنالُ الدهر غِرَّتُهُ ... إذا افتلى الهدفَ القِنَّ المعازيبُ

بعثتُــه بسواد الليل يرْقبنى ... إذْ آثر النومَ والدفءَ المناجيبُ[٢]

ويمضى أبو خراش بعد ذلك مضيفاً إلى صورة صاحبه خطين آخرين ، فهو قائم فوق هذه المرقبة كأنه السهم ، ثم هو سَمْحُ النفس على نحافته وقلة لحمه :

يظل فى رأسهــا كأنه زُلَمٌ ... من القدَاح به ضَرْسٌ وتعقيبُ

سَمْحٌ من القوم عرْيانٌ أَشاجعه ... خَفَّ النواشرُ منه والظنابيبُ[٣]

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٥٩ ، ١٦٠ — أوفى : أشرف . الحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، وقد رجحنا من قبل أنها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل « المقاضيب » التى تأتى بعدها ، وهى الأرض تنبت النبات الرطب . ذلق الفأس : حدها . السرب : الشائع الذى يتسرب فيه الناس بعضهم فى إثر بعض . الدعبوب : الموطوء . الجذل : العود .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٦٠ — افتلى الهدف أى فلاه من أهله ، أى عزله وفصله . الهدف : الثقيل الوخم من الرجال . القن : الذى أبوه عبد وأمه أمة . المعازيب : الإبل والشاء التى تعزب عن أهلها فى المرعى . يريد بصاحب ليس براع تبعده إبله وشاؤه عن أهله . المناجيب : الضعفاء الذين لا خير فيهم .

(٣) المصدر السابق /١٦١ — الزلم بفتح الزاى وضمها : القدح لا ريش عليه . الضرس : تأثير العض . عريان أشاجعه يعنى ليس بكثير اللحم . النواشر : عصب ظهر الكف . الظنابيب : عظام الساق أو حرفها .

وأما صَخر الغى—وإنْ لم يردْ فيما بين أيدينا من شعره حديثٌ عن المراقب— فإن حديثها قد ورَدَ عنه فى رثاء شاعر هذَلى له هو أبو المثلَّم، حيث يصفه بأنه « ربّاء مرقبة »[1] .

وأما عروة فصفة الزعامة لا تفارقه ، فهو لا يقف رَبيئاً لأصحابه ، وإنما يبعث أحدهم ليرقبَ لهم الطريق فوق المرتفعات ، وهو يرسم فى بعض شعره صورة لهذا الربىء ، وقد وقف فوق مرقبة ثابتاً لايتحرك كأنما غُرِس َفوقها ، ولكن عينيه لا تستقران ، فهو يقلبهما دائماً فى الفضاء الذى يحيط بهم ، حيث أناخوا إبلهم ، وأوقدوا مواقدهم يهيئون لأنفسهم طعاماً :

إذا ما هبطنا منهلا فى مَخوفة — بعثنا رَبيئاً فى المرابئ كالجذْل
يقلِّب فى الأَرض الفضاء بطرْفه — وهن مناخاتٌ ومرْجلنا يغلى[2]

التوعد والتهديد :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن الترّبص والترّصد تحدثوا عن التوَعد والتّهديد ، حتى يجمعوا بين ركنَى الجريمة القانونيين : الترّبص وسبق الإصرار !

وأكثر منْ يتوعدهم الشنفرى بنو سلامان ، أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم ، والذين كانوا السبب المباشر لتصعلكه ، والذين عاهد نفسه ليقتلنّ منهم مائة بما اعتبدوه[3] . وهو يتوعدهم فى شعره توعداً عنيفاً ، فيعلن لهم أنه — ما لم يَحل الموتُ بينه وبينهم — لن يكف عن غزوهم ، فالمسألة عنده مفروغ منها ، وكل ما يرجوه أن يمد الله فى أجله حتى يشفى غليله منهم حين يلاقيهم فى عقر دارهم :

فإلاَّ تزُرْنى حَتْفتى أو تلاقنى — أمشِّ بدَهْرٍ أو عِدَافٍ بنَوَّرَا
أمشِّى بأطراف الحَمَاط ، وتارةً — ينفِّضُ رجلى بُسْبطاً فعَصَنْصرَا
أبغِّى بنى صَعب بن مُـــرٍّ بدارهم — وسوف ألاقيهم إن الله أخَّرا

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٣٤ .
(٢) ديوانه / ١١١ ، ١١٢ — الجذل هنا جذع الشجرة .
(٣) انظر الأغانى ٢١/١٣٤ .

ويوماً بذات الرَّسِّ أو بطن مِنْجَل هنالك نَبْغى القاصىَ المتغوِّرَا[١]

وهو إذا كان يتأخر عن غزوهم أحياناً فليس هذا دليلا على أنه قد كف عنهم ، وإنما هو يمهلهم إلى حين ، وهو واثق من قدرته على غزوهم ، فهو يعرفهم وهم يعرفونه . وأحب شىء إليه أن يغير عليهم ، وأن يقطع الطريق على سادتهم ، وهو الخبير بطرق الصحراء ومسالكها ، القدير على الاهتداء فى مجاهلها :

كأَنْ قدْ ، فلاَ يغْرُرْك منى تمكُّثى ، سلكتُ طريقاً بين يَرْبَغَ فالسَّرْد
وإنى زَعيمٌ أنْ ألفَّ عجاجتى على ذى كساء من سلامان أو برْدِ
وأمشى لدى العَصْدَاء أبغى سرَاتهم وأسلك خَلاًّ بين أَرْفاغَ والسرْد
همُ عرفونى ناشئاً ذا مخيلة أمشِّى خلال الدار كالأَسد الوَرْد
كأَنى إذا لم أُمس فى دار خالد بتيماء لاأهدَى سبيلا ولاأَهْدِى[٢]

أما عمرو ذو الكلب فيعلن أعداءه بأن الصراع بينه وبينهم سيكون مريراً لا رحمةَ فيه ، الوَيلُ فيه للمغلوب ، وينذرهم بأنه لن يرحمهم إذا ظفرَ بهم ، كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا هم ظفروا به ، فليكن الصراع بينه وبينهم عنيفاً ، وَليغزُهم برفاقه الصعاليك الشجعان الذين يختلف عددهم بين الواحد والجماعة ، وهو — فوق ذلك كله — يتوعدهم بأنه لن يكف عن غزوهم حتى يقتلهم ويرمل نساءهم :

فإنْ أثْقِفْتمُونى فاقتلونى وإنْ أَثْقَفْ فسوف ترَوْنَ بالى
فأَبرَحُ غازيًا أهدى رَعيلا أَؤُم سوادَ طود ذى نِجَال
ويبرحُ واحدٌ واثنان صَحبى ويوماً فى أَضَاميم الرجال

(١) ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٥ ، ٣٦ . والأغانى ٢١/ ١٣٥ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ١٠ ، ١١ . مع اختلاف فى الألفاظ والترتيب — دهو أو رهو ، وعداف ، وبنور ، وبسيط ، وعصنصر : أسماء جبال . الحماط : شجر يشبه شجر التين . بنو صعب بن مر هم إخوة سلامان . ذات الرس وبطن منجل : موضعان .

(٢) ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٤ . والأغانى ٢١/ ١٣٥ . والبكرى : معجم ما استعجم ١/ ١٣٩ . يربغ : موضع بين عمان والبحرين . السرد وأرفاغ : جبلان لبنى سلامان ، وبهما منازلهم . العصداء : أرض لبنى سلامان . الخل : الطريق ينفذ فى الرمل ، أو النافذ بين رملتين ، أو النافذ فى الرمل المتراكم .

بفتيان عَمارطَ منْ هذَيل   همُ ينفون آناسَ الحِلال
وأبرحُ فى طوَال الدهر حتى   أقيمَ نساءَ بَجْلَةَ بالنعَال[١]

وأما تأبط شرا فقد كان أوسع ميداناً من ذى الكلب ، فإنه لا يقنع بغير غزو خثعم وبجيلة وثمالة وهذيل ، وهو يرد الفضل فى هذا كله إلى قدميه اللتين أودع الله فيهما عذاباً وشرًّا يصبهما عليهم :

أرى قدمىَّ وَقْعهما خفيف   كتحليل الظَّليم حذَا رِئالهْ
أرى بهما عذاباً كل يوم   لخثعمَ أو بجيلةَ أو ثماله
وشرًّا كان صُبَّ على هذيل   إذا علِقتْ حبالَهُم حباله[٢]

وهو لا يترك دم صديقه دون أن يثأر له ، وإنما يهدد بالانتقام الشنيع ، يقتل فيه الرجال ، ويسبى النساء ، فأكبر همه كما يقول « دم الثأر أو يلقى كميًّا مسفَّعاً »[٣] ، غاية ما فى الأمر أنه يحترم تقاليد مجتمعه الدينية ، فيؤخر انتقامه حتى تنتهى الأشهر الحرُم :

مُعُدُّوا شهورَ الحُرْم ثم تَعرَّفوا   قتيلَ أناس أو فتاةً تعانَقُ[٤]

وهو فى هذا الاحترام لمقدسات مجتمعه يخالف تلميذه الشنفرى الذى يصرح فى بعض شعره بأنه قتل قتيلا فى أيام حجه وَسطَ الحجيج المصوِّت بمنى :

قتلنا قتيلا مُهْدِياً بملبـــد   جمارَ منى وَسْطَ الحجيج المصوِّتِ[٥]

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ — أثقفه : ظفر به . البال فى البيت الأول معناه الحال . قوله « فأبرح غازيا » يريد به فلا أبرح . الرعيل : الجماعة المتقدمة . النجال : ما يخرج من الأرض . الأضاميم : الجماعات ، واحدها إضامة . العمارط : الصعاليك . الحلال : جمع حلة ، والمعنى أنهم يمرون بأصحابها فيهربون من خوفهم . بجلة : قبيلة .

(٢) الأغانى ١٨/٢١٨ ، وأيضا /٢١٦ — التحليل : العدو . الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام . حذا : حاذى .

(٣) حماسة أبى تمام ١/٤٦ . والأغانى ١٨/٢١٧ وفيه « مقنعا » مكان « مسفعا » .

(٤) الأغانى ١٨/٢١٤ . الحرم : الإحرام . ويريد بقوله « فتاة تعانق » سبية تقع فى أسره .

(٥) المفضليات /٢٠٥ . والأغانى ٢١/١٤٠ وفيه « محلهما بين الحجيج » . وأيضا /١٣٧ =

ومن أطرف ما نصادفه في هذا الباب توعد الصعلوك للصعلوك ، وتأتى طرافته من أنه يمثل صراعاً بين قوتين متكافئتين ، ومن هنا كان حرصُ كل منهما على تجنب الاصطدام بالآخر من أخص ميزات هذا اللون من التوعد ، ولكن هذا الحرص ليس جبناً ، وإنما هو محاولة لتفادى الكارثة ، ولهذا كان حديث الشاعر الصعلوك عن حرصه هذا مقروناً عادةً بحديثه عن قوته ، ومقدرته على التغلب على خصمه إذ أن أى ضعف يبدو منه فى هذا الحديث قد يكون سبباً فى أن يدفع حياته ثمناً له ، ولهذا كله كان توعد الصعلوك للصعلوك فى شعر الصعاليك قليلا جداً ، ولعل أصدق مثال لهذه « الحرب الباردة » بين الشعراء الصعاليك توعُّدُ صخر الغى الهذلى لتأبط شرا ، أو ابن تُرْنَى كما كان يلقبه ، فهو فى قصيدة له يصفه أولا بأنه يعانى صراعاً نفسيًّا ، سببه حقده عليه وعجزه عنه ، ثم ينصحه ثانياً بأن يخفف من حدة هذا الصراع النفسى ، ولكنه يحذره من أن يجعل وسيلته إلى ذلك الاصطدام به ، فإنه لو فعل للقى حتفه لا محالة ، ثم يعود فيخفف قليلا من حدة أساوبه ، فيمزج العنف باللين فى حديث فيه لباقة وفيه دهاء ، يجعل وسيلته إليه أن يشير إلى بعض الصفات المحمودة فى خصمه ، ويسأله ألا يكون سبباً فى الإساءة إليها :

فإن ابن تُرْنَى إذا جئتكمْ ... أَرَاه يُدَافعُ قولا عنيفا
قدَ افنى أَنامله أَزْمُهُ ... فأَمسَى يعض علىَّ الوظيفا
فلا تقعدنَّ على زَخَّة ... وتُضمر فى القلب وَجدًا وَخِيفا
ولا تُقْدِمَنَّ على خطة ... تكون إذنْ لك حتفاً ذفيفا
ولا أبغينَّكَ بعد النهى ... وبعد الكرامة شرًّا ظلِيفا
ولا أَرْقعنَّك رَقْعَ الصَّدِيـ ... ـع لاءَم فيه الصنَّاع الكتيفا[1]

=وفيه « قتلت حراما » و « ببطن منى وسط الحجيج » ، وهى رواية البغدادى فى خزانة الأدب ٢ / ١٨ — المهدى : الذى يقدم الهدى . والملبد : المحرم الذى يأخذ صمغا فيلبد به شعره لئلا يشعث فى مدة الإحرام . والمعنى : قتلنا رجلا محرما برجل محرم . وقوله « جمار منى » أى عند جمار منى . والمصوت : الملبى الذى يرفع صوته بالتلبية فى الحج .

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٦ ، ٤٧ — الأزم : العض . الوظيف : الذراع . الزخة : =

وصف الأسلحة :

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم ، فهى القوة الثالثة التى يعتمدون عليها فى مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ، تلك القوى الثلاث التى تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا فى رثائه للشنفرى حيث يقول :

فلا يبعدَنَّ الشنفرَى ، وسلاحه الـ حديدُ ، وشدٌّ خطوُه متوَاترُ[١]

والأسلحة التى يصفها الشعراء الصعاليك هى تلك التى كان يعرفها العرب فى العصر الجاهلى ، سواء منها أسلحة الهجوم : السيف ، والرمح ، والقوس ، والسهام ، أو أسلحة الدفاع : الدرع ، والترس ، والمغفر . ويلح الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحاً شديداً ، وليس فى هذا غرابة ، إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون فى حياتهم الفقيرة ، وهى من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه فى هذه الحياة الحمراء المتمردة . وفى أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لورَثته بعد موته سوى درع ومغفر وسيف ورمح وجواد[٢] ، فهذا كل ما يحرص عليه فى حياته ، وكل ما سيظل محافظاً عليه إلى آخر رمق منها حتى يرثه ورَثته من بعده .

ويصرح صخر الغىّ فى بعض شعره بأنه حريص على سلاحه لا يفرط فيه ، لئلا يطمعَ فيه أحد من أولئك الذين يتوعدونه ، ويتربصون به ، من أعدائه الذين طالما وتَرَهم ، فهو يعدد سلاحه فى قصيدة طويلة له ويصفه ، ثم يقول عنه :

ذلك بَزِّى فلن أفرِّطه أَخافُ أَنْ ينجزوا الذى وَعدُوا[٣]

ويصل اعتداد الأعلم الهذلى بسلاحه إلى درجة أنه يرى فيه وسيلة تنقله من

=الغيظ . الخيف : جمع خيفة . الحتف الذفيف : القاتل الذى يجهز عليه . الظليف : الشديد أو الغليظ . رقعه : أصلحه بالرقاع كرقعه (بالتشديد) . الصديع : النصف من الشىء المشقوق نصفين . لاءم . أصلح . الكتيف : الضبات ، يريد لا أرقعنك بالهجاء .

(١) الأغانى ٢١ /١٣٧ . وديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٩ — الشد : الجرى .

(٢) انظر ديوانه /٢٠٧ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ /١٣ — والبز : السلاح .

دائرة البشرية إلى دائرة يكون فيها صنواً للموت :

متى ما تلقني ومعى سلاحى تلاق الموتَ ليس له عديلُ[١]

ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة وصفَ المفتون بها الذى يهتم بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل فى حديثه عنها كل شىء فيها : لونها ، وشكلها ، وصوتها ، وطريقة صنعها ، وطريقة استخدامها ، وقيمتها فى حياته ، وفعلها فى أعدائه .

فالسيف عند عمرو بن براقة «جلُّ ماله» لا يفارق يمينه ، بل هو طوع أمرها ، ولكن لحمله تقاليد ، فصاحبه يجب أن لا ينام الليل ، إذ أن من تقاليد حمله أن يكون صاحبه من «أبناء الليل» الذين يرعون حق «أبوته» :

وكيف ينامُ الليلَ منْ جل ماله حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ
غموضٌ إذا عض الكريهة لم يدَعْ له طمعاً ، طوْعُ اليمين ملازمُ[٢]

وهو عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد أن تجتنبه المظالم فى ذلك المجتمع الذى يدين بشريعة القوة :

متى تجمع القلبَ الذكىَّ وصارمًا وأنفاً حميًّا تجتنبكَ المظالمُ[٣]

وهو عند عمرو ذى الكلب الهذلى وشاحٌ لصدره :

تمنَّانى وأبيضَ مشرفيًّا وشاحَ الصدر أخلِصَ بالصِّقالِ[٤]

وصخر الغى الهذلى حريصٌ على أن يرسم لسيفه صورة دقيقة ، فهو سيف ماض من حديد جيد أصيل ، رقيق الشفرتين ، يجرى الفرند فى متنه ، ثم هو سيف منتقى ، فَلَا عنه سيوفَ أربح حتى أخرجه من بينها سيفاً معدومَ النظير ، لا تقوى أشد العظام على ضربته ، وإنما تتكسر تحتها قطعاً :

وصارمٌ أخلِصَتْ خشِيبتُهُ أبيضُ مَهْوٌ فى متنه رُبَدُ

---

(١) المصدر السابق /٦٣ .

(٢) القالى : الأمالى ٢/١٢٢ ، والأغانى ٢١/١٧٥ ، وفيه «صموت» مكان «غموض» ، و «مكارم» مكان «ملازم» . والسيف الغموض : الذى يغيب فى اللحم .

(٣) المصدران السابقان : الأمالى الصفحة نفسها ، والأغانى /١٧٦ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ٢/٢٣٥ .

فَلَوْتُ عنه سيوفَ أَرْيحَ إذ   باءَ بكفى ولم أكد أجِدُ
فهو حسامٌ تُتِرُّ ضربته   ساقَ المذكىِّ فعظمها قِصَدُ[1]

أما تأبط شرا فيعرض علينا صورة طريفةً لسيفه ، فهو — إلى جانب أنه حاد ثقيل لا يفارقه حتى أبلى محمله — سيف أصيلٌ إذا كل لا يحتاج إلى صَيقل ، وإنما حسبه أن يحده صاحبه على الصخر فإذا هو حاد كما كان :

فطارَ بقَحْف ابنة الجن ذو   سفاسِقَ قد أخلقَ المحملا
إذا كلَّ أمهيتُـه بالصفا   فحدَّ ولم أُرِه صَيقلا[2]

وأما الشنفرى فيهتم بأثر سيفه فى أعدائه ، وبالحديث عن براعته فى استخدامه ، فهو يقصد به أطراف سواعدهم ، ليعجزهم بذلك عن العمل :

وأبيضُ من ماء الحديد مهندٌ   مِجذٌّ لأطراف السواعد مِقطفُ[3]

وهو حريص على أن يصور رفاقه ونفسه فى غاراتهم وهم يستخدمون سيوفهم فى الهجوم والدفاع حتى ينهزم أعداؤهم :

فشنَّ عليهم هِزَّةَ السيف ثابتٌ   وَصمم فيهم بالحسام المسيَّبُ
وظلتُ بفتيـان معى أتقيهمُ   بهن قليلا ساعةً ثم خيبوا[4]

ولا يعدلُ وصفَ السيف عند الشعراء الصعاليك إلا وصفهم القوس والسهامَ . وأكثر من اهتم بوصفها منهم الشنفرى والهذليون . ويبدو أن مرد هذه الظاهرة الفنية إلى ظواهر اجتماعية خاصة فى حياتهم ، فقد كان الشنفرى — كما يصوّره الرواة مفتوناً بسهامه ، حريصاً على أن تكون مُعلمةً يعرفها الناس ،

---

(١) المصدر السابق /١٣ — خشيبته : طبيعته . مهو : رقيق الشفرتين . ربد : أى لمع تخالف لونه ، يريد الفرند . فلا : بحث . أريح : قرية بالشام . باء بكفى : أى صار بكفى . تتر : تبرى . المذكى : المسن أو البدين . القصد : الكسر ، أو القطع فيها مخ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٦— سفاسق السيف : طرائقه . أمهى السيف : أحده.

(٣) ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٨ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . والأغانى ٢١ / ١٤١ وفيه « فحد لأطراف السواعد معطف » . والتحريف فيه واضح .

(٤) الأغانى ١٨ / ٢١٦ ، وديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٣٢ — الضمير فى « بهن » يعود على السيوف المفهومة من السياق .

فكان يميزها بعلامة خاصة حتى تعرف ، ويحدثنا الرواة أنه كان « يصنع النبل ويجعل أفواقهم من القرون والعظام » ، فكان أعداؤه إذا رماهم « يعرفون نبله بأفواقها فى قتلاهم »[١] ، وأما الهذليون فقد عرفَ عنهم الرمى من بين ثلاث صفات مميزة سجلها لهم القدماء[٢] .

وهم يصفون السهام فى جميع أطوارها ، منذ بريها ، وتركيب الريش فيها ، حتى استخدامها ، فى الرمى ، كما يصفون نصالها وأفواقها . ويتحدث الشنفرى فى بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها ، وكيف يركب فى قداحها الريش ، وكيف يتابع فيها البرْىَ حتى تصير صالحة للاستعمال ، ثم يتحدث عن قيمة هذه السهام التى أعدها هدية لأعدائه الذين يبغضهم :

وَرَدْتُ بمأثور يمان وَضَالة ... تخيرتها مما أريش وأرْصُفُ
أركبها فى كل أحمر غاثر ... وأنسجُ للولدان ما هو مُقْرِفُ
وتابعتُ فيه البْرىَ حتى تركته ... يرنُّ إذا أنزفته ويزفزفُ
بكفى منها للبغيض عُرَاضَةٌ ... إذا بعتُ خَلاًّ ما له متعرَّفُ[٣]

ويتحدث فى مقطوعة أخرى عن رميه أحد أعدائه بسهم قوىّ لا عوج فيه ، ثم يصف أجزاء هذا السهم ، فهو عود من نبع عليه ريش من ريش العقاب ، وله فوقٌ كأنه عرقوب القطاة :

ومستبسلٍ ضافى القميص ضممته ... بأزرقَ لا نِكسٍ ولا متعوِّجِ

---

(١) الأغانى ٢١/١٤٢ – « أفواقهم » كذا فى المصدر ، ومن الواضح أنه خطأ صوابه « أفواقها » . وأفواق جمع فوق وهو موضع الوتر من السهم .

(٢) يقول الأصمعى : « إذا فاتك الهذلى أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه » . (المصدر السابق /٥٧) .

(٣) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٨ . والأغانى ٢١/١٤١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ . مع اختلاف فى الروايات ، والذى هنا رواية المصدر الأول – المأثور : السيف . الضالة : يريد بها هنا السهام . الغثرة : غبرة إلى خضرة . المقرف : الدانى . أنزفته : كذا فى نسختى الديوان ، وأظنها تحريفاً صوابه ما فى الأغانى « أنفذته » . الزفزفة : صوت القدح حين يدار على الظفر . العراضة : الهدية . الخل : الطريق فى الرمل .

عليه نُسارىٌّ على خُوطِ نبعة وفُوقٍ كعرقوب القطاة مُدحْرَجِ(١)

وأما عمرو ذو الكلب فيعنى بوصف نصال سهامه لأنها التى يكمنُ فى سنانها الموت ، فهى حيناً رماح طائرة يكسوها ريش منسول :

وَثُجْرًا كالرماح مسيَّرات كسينَ دَوَاخل الريش النُّسَالِ(٢)

وهى حيناً آخر كأنها شوْكُ العضَاه :

وفى قعر الكنانة مرهفاتٌ كأن ظباتهـا شوْكُ السَّيالِ(٣)

وهم يتحدثون أحياناً عن عدَدها ، فهذا الشنفرى يصف تأبط شرا أو « أم العيال » كما كان يسميه مداعباً ، ويذكر عدد سهامه التى يحملها فى جعبته :

لها وَفضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفا إذا آنستْ أولى العدىِّ اقشعرتِ(٤)

أما حين يذكرون القوس فأشد ما يهتمون به صوتها حين ينبضُون فيها ، أو حين يتهيئون للرمى ، فهو صوت يفتنهم فتنة شديدة تبدو فى ذلك الإلحاح الشديد على تسجيله فى شعرهم ، وليس فى هذا غرابة فإن هذا الصوت إيذان ببدء عملهم الذى وهبوا حياتهم له . وصوت القوس فى سمع صخر الغى عندما ينبض فيها كأنه أصواتُ قوم يبحثون عن شيء فقدوه :

وَسَمْحةٌ من قِسِىٍّ زَارَةَ صف راءَ هتوفٌ عِدَادُها غرِدُ

---

(١) ديوانه المطبوع / ٣٤ . والأغانى ٢١ / ١٤١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢ . مع اختلاف فى رواية البيتين — الأزرق يريد به السهم . النكس : السهم ينكسر فوقه فيجعل أعلاه أسفله . النسارى : ريش النسارية وهى العقاب ، ويذكر الميمنى فى تعليقاته على الديوان أنه لم يجدها فى المعاجم ، وقد ظن أنها من ريش النسر . المدحرج : المدور .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ — الثجر : جمع أثجر وهو النصل العريض الوسط . النسال : ما تساقط من الريش .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ — السيال : نبات له شوك أبيض طويل ، أو ما طال من السمر .

(٤) المفضليات / ٢٠٤ . والأغانى ٢١ / ١٤٠ وفيه « سلجا » و « إذا ما رأت » — الوفضة : الجعبة . السيحف : السهم العريض النصل . العدى : القوم من الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

كأن إرنانها إذا رُدمتْ ... هزْمُ بُغاة فى إثر ما فقدوا[١]

ولكنه فى سمع عمرو ذى الكلب عجيجٌ ، كأنه حنين ناقة مسنة تسبقها إبل شابة فتية ، فهى عاجزة عن مسايرتها وهى لهذا دائمة الحنين :

وفى الشمال سمحةٌ منَ النشَمْ ... صفراءُ من أقواس شيبانَ القدُمْ
تَعِجُّ فى الكف إذا الرامىاعتزمْ ... ترَنمَ الشارف فى أخرى النَّعمْ[٢]

وهو فى سمع الشنفرى رنين وهتاف ، ولكنه رنين حزين كصوت الشجى أثقلته شجونه وأحزانه :

وَصفرَاءُ من نبْع أبىّ ظهيرة ... تُرنُّ كإرنان الشجىِّ وتهتفُ[٣]

ولكن هذا الصوت الحزين الخافت ينقلب عندما تأخذ السهام فى الانطلاق إلى صوت نشط مدوّ كأنه دوىّ نحل عائد إلى غاره ، فهو ملتف حوله مطيف به ، يبحث عن منفذ إلى داخله فى نشاط ودوى :

إذا طال فيها النزع تأبى بعَجْسها ... وترمى بذَرْوَيها بهن فتقذفُ
كأن حفيفَ النبل من فوق عجسها ... عوازبُ نحل أخطأ الغار مُطنِفُ[٤]

والشنفرى لا يكتفى بهذا ، بل يأبى إلا أن يكون دقيقاً فى وصفه ، فهو يلاحظ أن للقوس عند الرمى صوتين : صوتاً عند بدء الرمى ، وصوتاً بعد الانتهاء منه ، فانطلاق السهم يبدأ بصوت عال صارخ ، ثم ما إنْ ينطلق السهم حتى يهدأ رنين القوس ، ويتحول إلى صوت ضعيف خافت نتيجة لاهتزازات وترها ، فهما صوتان مختلفان ، أما أولهما فهو عنده صياح ، وأما الآخر فأنين كأنين الجريح :

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/١٣. وديوان الهذليين ٢/٦٠ - السمحة : القوس المواتية . زارة : حى من أزد السراة . عدادها : صوتها . غرد : شديد الصوت . ردمت : أنبض فيها . الهزم : الصوت .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٩ ، ٢٤٠ — النشم : شجر . الشارف : الناقة المسنة .

(٣) الأغانى ٢١/١٤١ . وديوانه المطبوع /٣٨ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٠ ، وفيهما « وحمراء » بدلا من « وصفراء » — الظهيرة : القوية الظهر .

(٤) الأغانى ٢١/١٤١ . وديوانه المطبوع /٣٨ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ ، مع اختلاف فى الروايات — العجس ، مثلثة العين ، مقبض القوس . والذروان : طرفاها . والمطنف : الذى يعلو الطنف وهو رأس الجبل .

وقاربتُ من كفيَّ ثم فرَجتها بنزْع إذا ما استكرِهَ النزْعُ مخلج

فصاحت بكفي صيحةً راجعتْها أنينَ الأميمِ ذى الجراح المشجَّج[١]

وكما يهتم الشعراء الصعاليك بصوت القوس ، يهتمون أيضاً بلونها ، وهى عند الهذليين فى ضوء ما وصل إلينا من شعرهم صفراء دائماً :

وَسمحةٌ من قسى زارةَ صفـ راء هتوفٌ عدَادها غرِدُ[٢]

وصفراء البُراية عود نبْع كوَقف العاج فى ورْك حُدَال[٣]

وفى الشمال سمحة من النشَمْ صفراء من أقواس شيبانَ القدُم[٤]

ولكنها عند الشنفرى أحياناً صفراء وأحياناً حمراء ،ويبدو أن مرد هذا إلى دقة ملاحظة الشنفرى ، وصدق تعبيره عن تجاربه ، فالقوس تكون صفراء فى أول أمرها ، فإذا ما كثر استعمالها وَتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية صارت حمراء . يقول فى تائيته متحدثاً عن أصحابه فى بعض غزواته بهم :

وباضعةٍ حمـــر القسىِّ بعثتها وَمَنْ يغزُ يغنمْ مرةً وَيشمَّتِ[٥]

ويقول فى قصيدة أخرى :

وصفراءُ من نبع أَبى ظهيرةٌ تُرِنُّ كإرنان الشجى وتهتفُ[٦]

ومن هنا اختلف الرواة فى هذا البيت ، فبعضهم يرويه « وحمراء من

---

(١) الأغانى ٢١/١٤١ ، ١٤٢ . وديوانه المطبوع /٣٤ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢ ، مع اختلاف فى الروايات – النزع : مد القوس . مخلج : من خلج بمعنى جذب وغمز وانتزع ، وفى نسختى الديوان « محلج » من حلج النداف . الأميم : المشجوج على أم رأسه .

(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ١ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٥–الوقف : السوار . الورك : جانب القوس ، ومجرى الوتر منها ، والقوس المصنوعة من ورك الشجرة أى عجزها . القوس الحدال : التى مال عنقها ، وتطامنت إحدى سيتيها .

(٤) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٢ .

(٥) المفضليات /٢٠٢– الباضعة : القاطعة ، ويريد بها قوما غزاة . حمر القسى : يقول ابن الأنبارى فى شرحه على المفضليات /٢٠٣ « غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر ، والقسى تحمر على القدم » . يشمت : يخيب ولا يغنم .

(٦) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٣ .

نبع »[١] ، ولكن من الطريف أن تأبط شرا فى رثائه له يصف قوسه بأنها صفراء :

يُفرِّج عنه غُمَّةَ الروْع عزْمُهُ وصفراءُ مرْنانٌ وأبيضُ باترُ[٢]

أما وصف الصعاليك للرماح فهو قليل ، ولعل السبب فى هذا قلة اعتمادهم عليها فى مغامراتهم ، وذلك لأنها من الأسلحة التى يستخدمها الفرسان أكثر مما يستخدمها الرجالة ، ومن هنا كان أشهر من تحدث عنها من الشعراء الصعاليك عروة بن الورد وهو من الصعاليك الفرسان[٣] ، وهو يرسم فى رائيته المشهورة صورة رائعة له ولأصحابه ، وهم على خيلهم يطاردون إبلا نهبوها ، وقد أشرعوا رماحهم وسيوفهم ليدفعوا عنها أصحابها الذين خرجوا خلفهم ليستردوها :

سيفزِعُ بعد اليأس منْ لايخافنا كواسعُ فى أخرى السَّوام المنفَّر

نطاعنُ عنها أولَ القوم بالقنا وبيض خفاف ذات لون مشهَّر[٤]

وهى صورة تستمد روعتها من صدقها وحيويتها ، فهذه الخيل القوية السريعة التى يمتطيها الفرسان الصعاليك مشغولة بمطاردة أخريات الإبل المنهوبة ، أما فرسانها أنفسهم فمشغولون بمقاتلة طلائع القوات المهاجمة من أصحاب الإبل . وقد مر بنا أن عروة ذكر رمحه من بين الأسلحة التى هى كل ما سيخلفه لورثته من بعده ، وهو يذكر أنه رمح أسمر ، قناته من الخطى المشهور ، ثم هو رمح مقوم معتدل :

وأسمرُ خطىٌّ القناة مثقَّفٌ وأجردُ عريانُ السراة طويلُ[٥]

والطريف فى حديث عروة عن رمحه أنه لا يذكره إلا مقترناً بجواده ، كما نرى فى هذين المثلين ، مما يؤيد تعليلنا لقلة وصف الشعراء الصعاليك للرماح بأنها من أسلحة الفرسان .

---

(١) انظر الموضع السابق ، الهامش نفسه .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع /٢٨ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ، ورقة رقم ٤١٧ .

(٣) الأغانى ٣/٧٣ .

(٤) ديوانه /٨٣ ، ٨٤ .

(٥) انظر ص ٥٤ من هذا البحث .

ومع ذلك نجد عند بعض الصعاليك السرويين آثاراً ضئيلة من أحاديث الرماح . يتحدث تأبط شرا ، فى رثائه لصاحبين له قتلا فى بعض غزوهما ، عن مغامراته بفتيان من الصعاليك يحملون فى أيمانهم نوعين من الأسلحة ، ماحاً سمراً ونصالا ذات شعبتين :

لأطْرُدَ نَهباً أو نرُودَ بفتية ... بأيمانهم سمر القنا والفتائقُ[١]

ويتحدث الشنفرى عن طعنه قتلة أبيه طعنة سامة تمج من حولها سم ثعبان خطر :

فإن تطعنوا الشيخ الذى لم تُفَوِّقوا ... منيته ، وغبتُ إذْ لم أشهَّدِ
فطعنةُ خلسٍ منكمُ قد ترَكتها ... تمج على أقطارها سُمَّ أسودِ[٢]

ويتحدث أبو الطمحان عن ضرب يزيل الرءوس عن الأعناق ، وطعن شديد يحدث صوتاً كأنه تشهاق وَلد الحمار حين يهم بالنهق :

بضرب يزيل الهام عن سكناته ... وطعن كتشهاق العفا همَّ بالنَّهقِ[٣]

وهى جميعاً — ما عدا بيت تأبط شرا — حديث عن آثار استخدام الرماح فى الطعن ، وليست وصفاً صريحاً لها .

ومن الطريف أننا لا نجد حديثاً عن الرماح فى شعر صعاليك هذيل ، ما عدا بيتاً واحداً لأبى خراش ، وهو مع ذلك ليس فى مقام الحديث عن

---

(١) الأغانى ١٨ / ٢١٤ — النهب : الغنيمة . والفتيق : النصل له شعبتان .

(٢) ديوانه المطبوع / ٣٥ . وشرح ابن الأنبارى على المفضليات / ١٩٨ — لم تفوقوا : يرى الميمنى فى تعليقاته على الديوان أنه تحريف « ولعل صوابه لم تفوتوا من الفوت » ، ويرى Bevan أن صوابه « لم تموقوا » (انظر تعليقات Lyall على هذا البيت فى شرح المفضليات / ١٩٨) ، وعندى أن الكلمة صحيحة لا تحريف فيها ، وأنها من فوق الفصيل إذا سقاه اللبن فواقا فواقا ، والفواق ما بين الحلبتين من الوقت ، والمفوق ما يؤخذ قليلا قليلا من مأكول ومشروب ، ويكون المعنى على هذا « أنكم طعنتموه طعنة قاتلة لم تدع له فرصة للنجاة » . والطعن خاص بالرماح (انظر الثعالبى : فقه اللغة / ٣٠١) .

(٣) لسان العرب : مادة (شهق) . والسيوطى : المزهر ٢ / ٢٣٤ ، وفيه « بضرب كآذان الفراء فضوله » — السكنة : مقر الرأس من العنق . التشهاق : الشهيق . العفا : ولد الحمار .

استخدامه لها ، وإنما فى مقام تشبيه إخوته الذين يرثيهم بها [١] .

وكما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحة الهجوم ، يتحدثون عن أسلحة الدفاع : الدرع والترس والمغفر ، ولكنه حديث خافت الأنغام . وهذا طبيعى لأن الصعاليك ليسوا فى حاجة إلى أسلحة للدفاع لأن سلاحهم الدفاعى الأول — أو بتعبير آدق — سلاح أكثرهم سرعة العدو الخارقة للعادة ، وهو سلاح طالما استخدموه فأنجاهم . ولهذا كان طبيعياً أن يتحدث عروة عن درعه ومغفره كما نرى فى أبياته التى أشرنا إليها والتى يتحدث فيها عما سيخلفه لورثته من بعده ، فإن عروة كما نعرف عنه لم يكن من العدائين ، ومع ذلك لم يتحدث عن هذه الأسلحة الدفاعية إلا فى هذا الموضع ، إلا إذا كان شعر عروة الذى بين أيدينا ليس كل شعره ، وكان فى شعره المفقود حديث عن هذه الأسلحة الدفاعية . ولكن الغريب حقاً أن يرد ذكر هذه الأسلحة الدفاعية فى شعر صعاليك هذيل ، ووجه الغرابة أن الهذليين مشهورون بالعدو ، فهم ليسوا فى حاجة إلى هذه الأسلحة الدفاعية لأن سلاحهم معهم دائماً . ومع ذلك فالمسألة لا تصل إلى درجة المشكلة لأن حديث صعاليك هذيل عن هذه الأسلحة لم يتجاوز حديثهم عن الترس فقط ، وهو مع هذا حديث خافت الأنغام لا يعدو حالتين : إما إشارة سريعة له ، وإما وصفاً لصنعه ، فصخر الغى يشير إلى ترسه ، عند ذكره لمجموعة أسلحته ، أو « بزّه » كما يسميها ، إشارة سريعة لا تتجاوز جزءاً من شطر يصفه فيه بأنه مقبب ، موثق :

إنى سينهَى عنى وعيدهمُ   بيضٌ رِهابٌ ومُجْنَأٌ أُجُدُ [٢]

وقد يكون عمرو ذو الكلب أشد عناية بترسه من صخر الغى ، فهو يفرد له بيتاً فى إحدى قصائده يصفه فيه بخمس صفات : فهو أسمر ، مقببٌ ، مصنوع من جلد ثور ، أصم لا خلل فيه ، تصيبه النصال فترتد عنه وقد تكسرت ظباتها :

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٢٤ (البيت الأول) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/١٣ — رهاب أى رقاق . مجنأ أى مقبب . أجد أى موثق قوى .

وأسمرَ مُجْنأً من جلد ثور أصمَّ مفلَّلا ظُبَة النصال[١]

أما أبو خراش ، ثالث الصعاليك الهذليين الذين وصفوا الترس ، فقد وصف ترسه بأنه موثق ، مصنوع من جلد ثور ، ولكن وقفته طالت عند هذه الصفة الثانية ، إذ مضى يصف هذا الثور ، وكيف نشأ فى واد خصيب مطير ، حتى شب قويًّا يطعن الثيران المتصدية له ، فترتد دامية من طعناته ، ضخماً كأنه خيمة كبيرة :

أواقد ، لا آلُوكَ إلا مهنَّدا وجلدَ أبى عجل وثيقَ القبائل
غذَاه من السِّرَّين أو بطن حَلْية فروعُ الأَبَاء فى عميم السوائل
مِشَبٌّ إذا الثيران صدتْ طريقه تصدَّعن عنه داميات الشوَاكل
يظل على البَرْز اليفاع كأنه طِرَافٌ رَستْ أوتادُه عند نازل[٢]

وهكذا نستطيع أن نقرر ، فى ضوء ما بين أيدينا من شعر الصعاليك ، أنهم بقدر ما كانوا حريصين على ذكر أسلحة الهجوم ، مفتونين بوصفها ، كانوا نفورين من ذكر أسلحة الدفاع ، مقلين من وصفها .

الحديث عن الرفاق :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التى يستخدمونها فى مغامراتهم ، يتحدثون عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها ، ودور كل واحد منهم . وما أكثر ما نجد فى شعرهم ألفاظ الرَّجْل ، والمَنْسِر ، والسُّرْبَة ، والمِقْنَب ، والفتيان ، والأصحاب ، والصحب ، والقوم ، وأمثال هذه الألفاظ التى تدل على الجماعة ،

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٣٩ — لا آلوك : أى لا أدع جهدا فى أمرك . أبو عجل هو الثور . السرين : هى رتقة السوين بلدة على الساحل قريبة من مكة بين حلى وجدة . الأباء : القصب . العميم : ما اعتم من النبت فى سوائل المطر ، والسوائل الأماكن التى تسيل بالماء . المشب : الشاب من الثيران أو المسن . الشواكل : كل لحم مضطرب بين الجنب والورك . الطراف : الخيمة .

وما أكثر ما نجد فى شعرهم استخدام ضمير الجماعة، يعبرون به عن رفاقهم لا عن قبائلهم .

وقد مر بنا فى صدر هذا الفصل[1] حديث الشنفرى فى بائيته عن رفاقه الذين خرج معهم ليغزوا العوْصَ ، أولئك الرفاق الثمانية الذين يعتز بهم ، ويملأ الإعجاب بهم نفسه ، حتى ليصفهم بأنهم :

سَرَاحِينُ فتيانٌ كأَنَّ وجوههم مصابيحُ أَو لونٌ من الماءِ مُذْهَبُ

ورأينا كيف وصف خروجهم معه ، وسيرهم إلى العوص ثلاث ليال على الأقدام ، والدور الذى قام به كل واحد منهم فى الغارة ، فمن مهاجم بسيفه لا ينثنى ولا يلين ، ومن مدافع عن رفاقه يحمى ظهورهم ، حتى تم لهم النصر ، وعادوا بغنيمتهم إلى قومهم الصعاليك .

وفى تائيته المفضلية المشهورة يحدثنا الشنفرى أيضاً عن غزوة له لبنى سلامان أعدائه الألداء ، بل ألد أعدائه ، على رأس جماعة من رفاقه الصعاليك[2] ، وهو يبدأ الحديث برسم صورة لرفاقه ، صورة سريعة ولكنها قوية ومعبرة ، فهم جماعة من الغزاة المغامرين قد احمرت قسيهم لكثرة غزواتهم ، ويقدم نفسه لنا رئيساً عليهم ، يبعثهم للغزو وهو يعلم أن النصر والهزيمة أمران يتعرض لهما كل مغامر ، وما احتمال الهزيمة بصارف له عن المغامرة ، فهذه طبيعة المغامرة ، ومن يغزُ يغنمْ مرة ويشمَّت مرة أخرى . ثم بعد أن ينتهى من تقديم رفاقه وتقديم نفسه ، يأخذ فى وصف خروجهم ، فيحدد أولا الموضع الذى اجتمعوا فيه بأمره تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ثم يذكر الدوافع التى دفعته إلى هذه المغامرة ، ثم يهوّن على نفسه مشقة الطريق ، فستنتهى هذه المشقة باقترابه من هدفه حيث يراوح أعداءه ويغاديهم بغاراته ، ثم يعود بعد هذا إلى رفاقه ليتحدث عنهم حديثاً طويلا ، وهو يخص أحدهم — وهو تأبط شرا الذى كان يقوم على زادهم فى غزواتهم ، ويتولى أمر « التموين » فيها — بحديث مرح

---

(١) انظر : ص ١٨٢ من هذا البحث .

(٢) المفضليات /٢٠٢ — ٢٠٥ وانظر أيضاً ص ٥٠ من هذا البحث .

يداعبه فيه مداعبة طريفة ، فهو « أمهم » التى تقوم على قرتهم ، وتقتر عليهم مخافة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، يعلن أنه غير راض عن هذه السياسة التى تنتهجها « أمهم » لأن « عيالها » جياع من تقتيرها ، فما تخشاه عليهم توقعهم فيه ، ولكنها لا تؤثر نفسها بشىء عليهم ، حتى لقد أصبحت نحيلة دقيقة ، وهى « أم » ليست كسائر الأمهات ، إنها غير محجبة ، لا يحجبها ستر ، ولا يضمها بيت ، تحمل جعبة فيها ثلاثون سهماً عريضة النصال ، وتعلو فى سرعة فائقة وفى يمينها سيف صارم بتار :

وأمِّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتهم ... إذا أطعمتهم أوتحتْ وأقلَّتِ

تخاف علينا العيل إنْ هى أكثرتْ ... ونحن جياع ، أىَّ آلٍ تألَّتِ

مصَعلكة لا يقصرُ الستر دونها ... ولا تُرتجَى للبيت إن لم تُبَيِّت

لها وَفضَة فيها ثلاثون سيحفا ... إذا آنستْ أولى العدىِّ اقشعرّت

وتأتى العدىَّ بارزًا نصفُ ساقها ... تجول كعير العانة المتلفت

إذا فزعوا طارت بأبيضَ صارمٍ ... ورامتْ بما فى جَفْرها ثم سَلَّت

حسام كلون الملح صاف حديدُه ... جُرَاز كأقطاع الغدير المنعَّت

تراها كأذناب الحسيل صوادرًا ... وقد نهلتْ من الدماء وعلَّت[1]

ويتحدث عروة كثيراً عن أصحابه ، ولكنه حديث الزعيم أو القائد ، لا حديث الرفيق أو الزميل ، فهو يدعوهم إلى الخروج معه للغزو والغارة :

أَقيموا بنى لبنى صدور مطيكمْ ... فإن منايا القوم خيرٌ من الهزْل

---

(١) أوتحت : أقلت . العيل : الفقر . قوله « أى آل تألت » يعنى أى سياسة ساست ، يقال آله أولا إذا ساسه . مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك ، وبفتحها : نحيفة . الوفضة : الجعبة ، والسيحف : السهم العريض النصل . العدى : القوم من الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال . المتلفت : أى الذى يتلفت إلى الحمر يطردها عن أتنه ، ويروى « المتفلت » أى الذى يتفلت إلى قتال الحمر عن عانته ، والعانة : جماعة الأتن الوحشية . الجفر : الكنانة . الجراز : السيف القاطع . الحسيل : جمع حسيلة وهى أولاد البقر ، شبه السيوف بأذناب الحسيل إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها .

فإنكمُ لن تبلغوا كل همتى ولا أرْبتى حتى تروا منبت الأثْل[١]

وهو يصرح بأنه سيغزو بهم – لا معهم – ليحقق أهدافه ، أو يرضى نفسه :

فإنى لمستافُ البلاد بسُرْبة فمبلغُ نفسى عذرَها أو مطوِّفُ[٢]

وهو قائد بارع ، يجمع جنوده، ويخرج بهم فرساناً ورجالة ليغيروا ، حتى إذا ما انتهت الغارة ، وأخذوا طريق العودة، ونزلوا عند بعض المياه لينحروا مما نهبوه، حتى ينالوا حظهم من الطعام والراحة، تحول القائد البارع إلى قائد حذر ، يبعث ربيئاً منهم فوق شرف عال ، ليراقب لهم الطريق حتى لا يفجأهم عدو وهم غافلون :

لعل انطلاقى فى البلاد ورحلتى وشدى حيازيمَ المطية بالرَّحل
سيدفعنى يوماً إلى رَبِّ هَجْمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل
قليل تواليها وطالب وِتْرِها إذا صححتُ فيها بالفوارس والرجل
إذا ما هبطنا منهلا فى مخوفة بعثنا رَبيئاً فى المرابئ كالجِذْل
يقلِّب فى الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخاتٌ ، ومرْجلنا يغلى[٣]

ولعل أطرف ما فى حديث عروة عن أصحابه حديثه عن مضايقاتهم له ، وشكواه من بعض تصرفاتهم التى يضيق صدره بها ، وبخاصة تنكرهم له بعد أن يخصبوا ويستغنوا ويصبحوا كالأغنياء المتمولين ، ولكنه – مع هذا كله – يغفر لهم ، لأنهم عياله وأبناؤه ، وهو أبوهم الذى يتقبل منهم ما يرتكبونه فى حقه ، ثم لأنه يقوم منهم مقام السيد الذى تفرض عليه سيادته أن يتحمل ما يصدر عنهم ، فيعفو عن جاهلهم ، ويغفر لمسيئهم ، ثم لأنه أخيراً يقف

---

(١) ديوانه /١٠٦ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩٠٨ . مع اختلاف لفظى يسير .

(٢) ديوانه /٩٣ .

(٣) ديوانه /١٠٨ – ١١٢ . الهجمة : الجماعة من الإبل ، أولها أربعون إلى ما زادت ، أو ما بين السبعين إلى المائة ، أو إلى دوينها .

منهم موقف الزعيم الخبير بنفسية جماهيره[١] .

ويتحدث تأبط شرا عن رفاقه حديث المعجب بهم ، المعتز برفقتهم ، المقدر لقيمتهم فى حياته المغامرة ، تلك الحياة التى يحياها وحيداً إلا منهم ، فهم عونه على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفزعه أمر . وهم دائماً أبطال شجعان شعث ، لكثرة اشتغالهم بالغزو والكفاح ، والضرب فى أعماق الصحراء ، وجوب آفاقها ، عيونهم نفاذة تتوقد بنار الحماسة والجرأة والإقدام كأنها نار الغضا المتأججة :

مساعرةٌ شُعْثٌ كأن عيونهم حريقُ غضاً تُلْقى عليه الشقائقُ[٢]

وهو لهذا لا ينسى أبداً فضلهم وقيمتهم فى مغامراته ، وهو يسأل الله أن يتولى عنه جزاءهم ، لأنه عاجز عن جزائهم :

جزَى الله فتياناً على العوْص أمطرَتْ سماؤهمُ تحت العجاجة بالدَّمِ[٣]

فإذا ما سقط أحدهم صريعاً اشتد جزعه عليه ، فإذا مصابه فيه لا يعدله مصاب ، وإذا آماله فى الحياة تنهار :

أبعدَ قتيل العوْص آسى على فتى وصاحبه أو يـأملُ الزادَ طارقُ[٤]

وهو يرى أن فقد أحدهم خسارة لا تعوض ، وإضعاف للجماعة التى تشق طريقها فى الحياة بقوة أبنائها ، وكسر لسلاح من أسلحتها يستحق الأسف ، بل يستحق الأسى والحزن والبكاء ، وهو — على قلة دموعه — لا يبخل بها على من تفقده هذه الجماعة من أبنائها الممتازين ، أولئك الذين يمتازون بما يجب أن يمتاز به كل صعلوك عامل : من بصر بكسب المحامد ، وسبق إلى غايات المجد ، وقوة وزعامة بين الرفاق ، وخفة فى الجسم ، وجرأة على اقتحام الأهوال

---

(١) انظر أبياته اللامية التى يقص فيها قصة من هذه المضايقات فى ديوانه من ص١١٣ — إلى ص ١١٨ ، ومن ص ١٢٣ — إلى ص ١٢٥ .

(٢) الأغانى ١٨/٢١٤ — مساعرة : جمع مسعر وهو موقد نار الحرب . والشقائق هنا المراد بها أعشاب الجبال .

(٣) الأغانى ١٨/٢١٥ .

(٤) المصدر السابق /٢١٤ .

والسرى فى الليل البهيم المظلم ، وشجاعة فائقة ، ورأى صائب ، وكرم واسع ، وفصل فى الأمور ، وحب للحركة والغزو ، وبغض للدعة والإقامة والاستقرار :

لكنما عوَلى إن كنتُ ذا عوَل ... على بصير بكسب الحمد سباقِ
سباق غاياتِ مجْدٍ فى عشيرته ... مرَجِّع الصوت هدًّا بين أرفاق
عارى الظنابيب ممتد نواشرُه ... مدلاج أدهمَ واهى الماء غسَّاق
حمال ألوية ، شهاد أندية ... قوال محْكمة ، جوَّاب آفاق
فذاك همى وغزْوى أستغيث به ... إذا استغثت بضافى الرأس نَغَّاق[1]

ومن هنا كثر رثاؤه لأصحابه ، فهو وفىّ لهم ولذكراهم ، لا تنسيه إياهم شواغل حياته . وهو يرثى صديقه الأعز ، وتلميذه النابغة ، الشنفرى ، رثاء حارًّا تتجلى فيه تلك اللوعة التى أصابته بعده، وتلك الحسرة التى استشعرها لفقده ، وتلك الفجيعة التى لا يجد لها دفعاً ، وهو يأسف لأنه لم يكن معه فى ساعة الشدة حين قتل ، إذن لوقف إلى جانبه أخاً ناصراً معيناً :

فلو نبَّأتنى الطيرُ أو كنت شاهدًا ... لآساك فى البلوَى أخٌ لك ناصرُ[2]

وهو لا ينسى فى غمرة هذا الأسى أن يسجل تعاونهما معاً فى ساعات الشدة ، وأوقات الكفاح :

إذا راعَ رَوْعَ الموت رَاعَ ،وإنْ حمى ... حمى معه حرٌّ كريم مصَابرُ[3]

---

(١) المفضليات /١٣ — ١٥ . العول : الإعوال . مرجع الصوت : يريد أنه يصيح بأصحابه آمراً وناهياً . الهد : الصوت الغليظ . الظنابيب : جمع ظنبوب وهو حرف عظم الساق ، ويريد بقوله « عارى الظنابيب » أنه خفيف اللحم ، والعرب تمدح الهزال وتذم السمن . النواشر : عروق ظاهر الذراع ، ويريد بقوله « ممتد نواشره » أنه طويل الذراعين دلالة على تمام خلقه . الأدهم هنا : الليل ، والغساق : الشديد الظلمة . المحكمة : الكلمه الفاصلة القاطعة للأمور . ضافى الرأس : رجل كثير شعر الرأس لكثرة اشتغاله با لغزو فهو لا يتعاهد شعره . النغاق : الذى يصيح فى إثر الطرائد .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع /٢٩ .

(٣) المصدر السابق /٢٩ .

أحاديث الفرار :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصارهم فيها ، وفوزهم على أعدائهم ، يتحدثون أيضاً عن فرارهم وهربهم ، دون أن يجدوا فى هذه الأحاديث غضاضة ، أو أمراً يدعو إلى الخجل والمداراة . وفيم الخجل ما دام الفرار أمراً طبيعيًّا من قوم عدّائين ، أو — بعبارة أخرى — سلاحاً من أسلحتهم يضمن لهم النجاة ليعيدوا الكرة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية ؟ فإذا لاحظنا —إلى جانب هذا — أن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التى يفخرون بها دائماً، وهى سرعة العدو ، أدركنا سر حرصهم على أحاديث الفرار فى شعرهم ، لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة .

وقد اشتهر بعض الصعاليك بفرارهم ، وبخاصة صعاليك الحجاز ومنطقة جبال السراة ، وبالذات صعاليك هذيل التى كانت تنزل فى هذه المنطقة ، وقد رأينا من قبل[1] ما يذكره الأصمعى من كثرة انتشار العدّائين فى الحجاز والسراة ، أولئك الذين كانوا «يعدون على أرجلهم ويختلسون » ، وما يذكره من « أن بهذيل وحدها منهم أربعين » ، ويصف الرواة حاجزاً الأزدى بأنه « كان مع غاراته كثير الفرار »[2]. ويفرد البحترى فى حماسته باباً « فيما قيل فى الفرار على الأرجل »[3] ، يروى فيه اثنتى عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء ، منها ثمانى مقطوعات لأربعة من الصعاليك[4] ، أى أن ثلثى المقطوعات من شعر الصعاليك ، ونصف الشعراء من الصعاليك ، فإذا لاحظنا أن من هذه المقطوعات الثمانى ثلاثاً لحاجز وحده[5] ، أدركنا أن الرواة كانوا على حق حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثنتى عشرة

---

(١) انظر : ص ٨٠ من هذا البحث (فصل التفسير الجغرافى) .

(٢) الأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) .

(٣) الباب الخامس والعشرون من ص ٦٣ — إلى ص ٦٩ .

(٤) أبو خراش الهذلى (ص ٦٣ ، ٦٤) ، وحاجز الأزدى (ص ٦٤ ، ٦٥) ، والأعلم الهذلى (ص ٦٦) ، وتأبط شرا (ص ٦٨ ، ٦٩) .

(٥) ص ٦٤ ، ٦٥ .

التى يضمها الباب أربعاً لشعراء من هذيل(١) ، أى ثلث الباب كله أو ما يعادل نصف عدد مقطوعات الصعاليك أدركنا دقة ملاحظة الأصمعى عن كثرة العدائين فى هذيل .

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح فى أخبار الهذليين وأشعارهم حتى لتعد سمةً من سمات الشعر الهذلى . وفى شعر الأعلم الهذلى قصيدة طويلة(٢) يتحدث فيها عن فراره مع صاحب له من مغامرة لهما فى بعض بلاد كنانة . وهو يبدؤها مباشرة بالحديث عن ذلك المأزق الحرج الذى وجد نفسه فيه حين رأى القوم يطاردونه هو وصاحبه ، وقد اقتربوا منهما حتى لم يعدْ بينهما وبينهم إلا أقل من رمية سهم ، ثم يصور الفزع الذى انتابه فشلَّ مقدرته على الرمى ، وإن لم يشل تفكيره عن أن يحث صاحبه على العدو حتى ينجوا معاً :

لما رأيتُ القوم بالـ ... علياء دون قِدَى المَنَاصِبْ
وَفريتُ منْ فزع فلا ... أَرْمى ولا ودَّعتُ صاحبْ
يغرُون صاحبهم بنا ... جهدًا وأغرى غيرَ كاذب
أغرى أبا وهب ليعـ ... جزهم ومَدوا بالحلائبْ(٣)

ثم يمضى فى وصف تلك الجماعات التى تطاردهما ، وسرعة عدو أحد مطارديه ، ثم ينتقل إلى الاعتذار عن فراره بأنه خشى أن يقتل بسيوفهم فيصير طعاماً للذئاب والضباع والثعالب والطير الجارحة :

وخشيتُ وَقْعَ ضريبة ... قد جرِّبتْ كلَّ التجاربْ
فأَكون صَيدَهمُ بها ... وأصير للضُّبع السواغبْ
جزَرًا وللطير المربَّـ ... ـة والذئاب وللثعالبْ

---

(١) ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ وما بعدها ، وديوان الهذليين ٢/٧٧ وما بعدها . وفى حماسة البحترى /٦٦ قطعة منها .

(٣) القدى : القدر . المناصب : الرامى الذى يناصبك الرمى ، يرميك وترميه . فريت : تحيرت ودهشت . الحلائب : الجماعات يجىء بعضها فى إثر بعض .

وتَجسرُ مُجْرِية لها لحمى إلى أَجْرٍ حوَاشبْ[١]

ثم يصف هذه الضباع وجراءها، وكيف تنزع جلدَ المرء نزعاً شديداً ، ولا يكاد ينتهى من رسم هذه الصورة المفزعة لمصيره لو قتل ، حتى يعود لذكر عدوه فى شدة الحر ، ولكنه لا يبالى بشىء من هذا ، فقد اقترب من منطقة الأمان ، ولاحت لعينيه منازل السلامة، وهنا فقط يذكر أهله وفقرهم ، وأولاده الصغار وحاجتهم ، كأنما يزنب نفسه التى أغرته بالفرار والهرب دون أن يحقق شيئاً من أهدافه :

حتى إذا انتصف النهارُ وقلت يومٌ حَقٌ ذائبْ
رَفَّعتُ عينىَّ الحجازَ إلى أناس بالمناقب
وذكرتُ أهلىَ بالعرَاء وحاجة الشُّعْث التَّوالبْ
المُضْرمين من التلاد اللاحمين إلى الأقاربْ[٢]

ولا يجد حاجزٌ غضاضة من أن يتحدث عن فراره إلى صاحبته الجميلة المتأنقة ، وحسبه — وحسبها أيضاً — أنْ نجا من أعدائه بعد أن كادوا يقتلونه :

ألاَ هل أتى ذاتَ الخواتم فَرَّتى عشيةَ بين الجُرْف والبحر من بعر
عشية كادت عامرٌ يقتلوننى لدى طرَف السَّلْماء راغيةَ البَكر[٣]

وهو ينتهزها فرصة كغيره من الشعراء الصعاليك العدائين ، ليتحدث عن سرعة عدوه التى تفوق سرعة الظبى الهارب من مطاردة طائر جارح له :

فما الظبى أخطت حلقةُ الظفر رِجْله وقد كاد يلقى الموت فى حلقة الظفر
كمثلى أوانَ القوم بين مُعَيَّع وآخر كالنشوان مرْتكز يغرى[٣]

---

(١) الضريبة : السيف . جزرا : أى قطعا ، يقال : تركته جزرا للسباع . الطير المربة : المقيمة على لحم أبدا . مجرية : أى ضبع ذات جراء . الأجرى : الجراء. الحواشب : المنتفخات البطون .

(٢) يوم حق ذائب : أى شديد الحر . المناقب : أماكن . التوالب : الجحاش الصغار ، يريد بها هنا أولاده .

(٣) حماسة البحترى / ٦٥ . والأغانى ١٢/ ٥٢ (بولاق) ، والرواية فيه مضطربة لفظيا . عيع : عى عن أمر قصده. ومرتكز أى معتمد على سية قوسه . والجرف وبعر : موضعان . وراغية البكر : مثل فى الشدة والشؤم ضرب فى بكر ناقة صالح . (انظر أساس البلاغة مادة — رغو —) .

ويدافع تأبط شرا فى قصيدة له عن فراره وتركه رفيقاً له بأنه ما كان ليستطيع أن ينتظر حتى يدهمه مطاردوه الذين كانوا وراءه كالنحل ، ولا أن يبطئ فى عدوه حتى تصيبه السهام التى كانوا يرسلونها خلفه فترديه صريعاً ، وهو لهذا يثنى جسده ، ويسرع بعيداً عن الشر كأنه الظليم المذعور :

ولم أنتظر أن يَدْهمُونى كأَنهم   ورائىَ نحلٌ فى الخلية واكنا
ولا أن تُصيبَ النافذاتُ مقاتلى   ولم أكُ بالشدِّ الذليق مدَاينا
فأَرسلتُ مثنيًّا عن الشر عاطفاً   وقلت تزَحزَحْ لا تكوننَّ حائنا
وحثحثتُ مشعوفَ النَّجاء كأَنَّنى   هِجَفٌّ رأَى قصرًا سِمالاً وداجنا[1]

وبعد أن يمضى فى وصف سرعة الظليم ، على طريقة الهذليين فى الإلحاح على أوصاف المشبه به ، ينتقل إلى الصورة التى رأيناها عند الأعلم ، صورة الفزع من الموت على أيدى الأعداء ، تلك الصورة التى تقترن عادة بإلقاء الجسد لحيوان البادية الضارى ، وبخاصة الضباع ، تلك الفصيلة التى اشتهرت بولَعها بجيَف الموتى كما يقرر علماء الحيوان[2] ، فيحدثنا عن نجاته من مطارديه ، ولو لم ينجُ منهم لأمسى قتيلا فى صحراء غبراء ، أو بين براثن ضَبع تنبش الأرض بحثاً عن الجيَف :

فزُحزحتُ عنهمْ أَو تجئنى منيتى   بغبرَاءَ أَو عرْفاءَ تفرى الدفائنا
كأَنى أَرَاها الموتَ ، لا دَرَّ دَرها   إذا أَمكنتْ أَنيابها والبراثنا[3]

ويدافع أبو خراش عن فراره ، ويضفى على دفاعه لوناً من « المذهبية » ،

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ — الشد : العدو . الذليق : الحاد . النجاء : الإسراع ، والمشعوف هنا : من أصيب قلبه بذعر . الهجف : الظليم . والقصر هنا : اختلاط الظلام . والسمال : جمع سملة وهى بقية الماء فى الحوض . والداجن : لعل معناه هنا المطر المطبق ، أو الصياد المتعود للغزو . ويكون الشاعر بهذا يصور فزع الظليم حين أخذ الظلام يختلط ، والمطر يسقط ، أو حين رأى عند اختلاط الظلام ماء عنده صياد متربص .

(٢) الدميرى : حياة الحيوان ٢/٧١ .

(٣) الأغانى ١٨/٢١٣ — العرفاء : الضبع .

فهو يفر لا لأنه جبان ، فهو إلى جانب فراره مقاتل شجاع ، ولكن لأنه يرى أحياناً أن قتاله لا يجديه شيئاً إلا أن يوردَه موارد الهلاك ، وهو مع ذلك لا يكف عن القتال إلا إذا لم يجد لنفسه مجالا فيه :

فإنْ تزْعُمى أنى جبنتُ فإننى أفر وأرْمى مرة كلَّ ذلك
أقاتلُ حتَى لا أرى لى مُقاتَلا وأنجو إذا ماخفتُ بعضَ المهالكِ[٢]

ولكن الأعلم يعلن فى منتهى الصراحة والبساطة أنه حين تكاثر عليه أعداؤه فر منهم مسرعاً ، ولم يحاول قتالهم :

بذلتُ لهم بذى وَسُطانَ شَدًّى غداتئذٍ ولم أبذُلْ قتالى[٢]

سرعة العدو :

ولا يكاد الشعراء الصعاليك يتحدثون عن شىء فى مثل ذلك الإلحاح الذى نراه فى حديثهم عن مغامراتهم كما يتحدثون عن سرعة عدْوهم ، ويبدو أن مرَد هذا إلى أمرين : أولهما شعورهم بأنها ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم فى البشرية ، وثانيهما إيمانهم بأنها من الأسباب الأساسية فى نجاتهم من كثير من المآزق الحرجة . ومن هنا كان حديثهم عنها حديث المعجب بنفسه تارة ، والمعجب بها تارة أخرى : المعجب بنفسه لأنه تفرد بها من بين سائر الناس ، والمعجب بها لأنها كم أنقذته من أخطار أحدقت به .

وأحسب أننا لسنا فى حاجة إلى القول بأن الشعراء الصعاليك الذين تحدثوا عن سرعة عدْوهم هم أولئك الذين تحدثنا عنهم فى تفسيرنا الجغرافى لظاهرة الصعلكة وهم الصعاليك السرويون — كما يسميهم الأصمعى[٣] — وبخاصة صعاليك هذيل وفهم والأزد ، أما أولئك الذين لم يعرَفوا بالعدْو كعروة بن الورد فمن الطبيعى ألا يتحدثوا عن شىء لم يعرفوا به .

ويتحدث الصعاليك العداءون عن هذه الميزة حديث المعجبين بأنفسهم

(١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ ، وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة ٣٩٧ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٦٣ .
(٣) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

الذين يرون أنهم قادرون على شيء يعجز عنه بعض الناس، على نحو ما نرى في قول الأعلم :

فلا وأبيك لا ينجو نجائى   غداةَ لقيتهم بعض الرجال[١]

ولكن ذا الكلب لا يرضى بهذه « البعضية » ، وإنما يوسع دائرة حكمه حتى تشمل كل ذى قدم :

فجئتُ لا يشتد شدى ذو قدَمْ[٢]

بل إن أبا خراش لا يرضى بالبشر طرفاً ثانياً فى هذه المباراة كأنما يرى أن البشر أبطأ من أن يصلحوا لها ، وإنما يعقد المباراة بينه وبين حمار الوحش ، ذلك الحيوان المشهور بسرعة العدو . ومع ذلك فحمار الوحش لا يستطيع أن يجاريهُ فى عدوه :

أقبلتُ لا يشتد شدىَ واحد   عِلْجٌ أقبُّ مسيَّرُ الأقرابِ[٣]

وقد رأينا حاجزاً يتحدث إلى صاحبته الجميلة المتأنقة عن فرته دون أن يجد فى هذا الحديث غضاضة ، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه إذ استطاع النجاة من أعدائه عدْوًا على قدميه . فهو فى هذا الحديث كأنما يقدم إلى صاحبته لوناً من ألوان البطولة التى يراها جديرة بإعجابها . حتى ليتساءل فى أول حديثه فى لهفة ظاهرة « ألا هل أتى ذات الخواتم فرتى ؟ »

وهم يتحدثون عن هذه الميزة أيضاً حديث المعجبين بها ، المقدرين لقيمتها فى حياتهم . يصرّح حاجز بأن الفضل الأكبر فى نجاته من بعض مواقفه الضيقة لا يرجع إلى قتاله ، وإنما يرجع إلى عدْوه . وهو — لهذا ولشدة إعجابه برجليه اللتين أتاحتا له هذا العدو — لا يتورع عن أن يفديهما بأمه وخالته . وماذا جنى

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٠ .

(٢) المصدر السابق / ٢٣٩ ، وتروى لأبى خراش ، وقد قلنا فى الفصل السابق إن هذا الاختلاف لا يضيرنا فى هذا الدراسة لأنه اختلاف داخلى .

(٣) ديوان الهذليين ٢ / ١٦٩ ، وتروى لتأبط شرا وللأعلم ، والقول فى هذا كالقول فى البيت السابق — والعلج : حمار الوحش السمين القوى . والأقب : الضامر البطن . ومسير الأقراب : أى مخطط الخاصرتين .

من أمه وخالته غير ذلك السواد الذى صبغه بصبغة بغيضة كانت سبباً من أسباب تلك الحياة المتصعلكة التى يحياها ، والتى زجت به فى هذا الموقف الضيق الذى لولا رجلاه لفقد حياته فيه :

فغير قتالى فى المضيق أغاثنى ... ولكنَّ بذْلى الشدَّ غير الأكاذب
فدًا لكما رِجْلىَّ أمى وخالتى ... بشدكما بين الصفا والأثائب[1]

ويصرح أبو خراش بأنه لولا سرعة عدوه فراراً من أعدائه لآمت امرأته وَيتِمَ ابنه :

ولولا دِراكُ الشد قاظت حليلتى ... تخيَّرُ من خطَّابها وهى أيِّمُ
فتقعد أو ترْضَى مكانى خليفةً ... وكاد خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَم[2]

ويقص علينا تأبط شرا فى قافيته المشهورة كيف أنجاه عدْوُه من عدُوه ، برغم ما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلةَ صاحوا وأغروا بى سرَاعهمُ ... بالعيكتين لدىَمَعْدَى ابن بَرَّاق
كأنما حثْحثوا حصًّا قوادمه ... أو أم خِشف بذى شثٍّ وطبَّاق
لا شىءَ أسرعُ منى ، ليس ذا عذَر ... وذا جناح بجنب الرَّيْد خفاق
حتى نجوتُ ولما ينزعوا سَلَبى ... بواله من قبيض الشد غَيْداق[3]

وكما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدْوهم ، يتحدثون عن شدة عدْو رفاقهم ، ويصف تأبط شرا أحد أصحابه الصعاليك بأنه سريع العدْو يسبق الريح :

---

(١) حماسة البحترى / ٦٤ . والأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٤٨ . والأغانى ٢١/٥٦ ، ٥٧ – قاظت : من القيظ ، أى أدركها القيظ ، وهو الصيف .

(٣) المفضليات /٧ – ١١ . حصا قوادمه يريد به الظليم ، والأحص : الذى تناثر ريشه وتكسر ، والقوادم من ريش الجناح : ماولى الرأس . وأم خشف يريد بها الظبية . والشث والطباق : من نبت السراة ، وإنما خصهما لأنهما يضمران ما يرعاهما من الحيوان ، ويشدان لحمه . وذا عذر يعنى به فرسا ، والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . الريد : أعلى الجبل ، وإنما خص جارح الجبل لأنه أسرع طيرانا من جارح السهل . الواله : الذاهب العقل . والقبيض : السريع . والغيداق : الكثير الواسع .

ويسبق وَفْد الريح منْ حيثُ ينتحى   بمنخرق من شده المتدارك[1]

ويشبه الأعلم انقضاض جماعة من الصعاليك العدائين من كل ناحية على فريسة عرَضَتْ لهم فى أثناء تربصهم بالصحراء بتفجر الماء من حوض قديم متهدم يحاول صاحبه أن يصلحه ولكن الماء يغلبه فيتفجر من شتى نواحيه :

تخافُ لِزَامَ عادية ثَعول   كما يتفجَّر الحوضُ اللَّقِيفُ[2]

ويرسم أبو خراش صورة رائعة لجماعة من العدائين يحرص كل منهم على ألا يتخلف عن رفاقه حتى لا يفتضح بينهم ، وهم خارجون للغزو فى ليلة ممطرة ، وقد ابتلت أقدامهم ، والشجر يتكسر من وقعها ، فيلتف تحتها أكواماً كأنها أوساط الإبل السود :

وليلة دَجن من جمادَى سريتها   إذا ما استهلتْ وهى ساجيةٌ تهمى
وَشوْط فِضَاحٍ قد شهدتُ مُشايحاً   لأُدْرِكَ ذَحلاً أو أَشِيفَ على غُنْم
إذا ابتلت الأقدامُ والتف تحتها   غثاء كأجوَاز المقرَّنة الدُّهم[3]

وكما يتحدثون عن شدة عدو رفاقهم ، يتحدثون عن شدة عدو أعدائهم أيضاً ، ليثبتوا لأنفسهم تلك الميزة عن طريق غير مباشر . ويرسم الأعلم فى بائيته التى يتحدث فيها عن فراره هو وصاحب له من بعض أعدائهما صورةً رائعة لمطاردتهم لهما ، يصف فيها خروجهم خلفهما ، وكيف يغرون أسرعهم ليدركهما ، بينما يغرى هو صاحبه ليفوتهم ، ثم يصف تلك الجماعات التى تطاردهم ، والتى يجىء بعضها فى إثر بعض ، كما تدفع الرياح السحب فتجلجل بالرعود ، ثم يصف سرعة عدو أحد مطارديه الذى ينطلق خلفه كأنه حمار وحش ضامر يسرع ليرد الماء :

---

(١) حماسة أبى تمام ١/ ٤٨ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٨ — اللزام : العذاب . الثعول : التى لها زيادات بمنزلة الضرع . اللقيف : الذى أصلحه صاحبه فطينه وسواه من نواحيه .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٣٠ — شوط فضاح : أى إن سبق فيه رجل افتضح . المشايح : الجاد فى كلام هذيل . أشيف : أشرف .

يُغْرون صاحبهم بنا جهدًا وأُغْرِى غيرَ كاذبْ
أُغرى أبا وهب ليعـ جزهم ومدُّوا بالحلائبْ
مدَّ المجلجل ذى العمَا ء إذا يَرَاحُ من الجنائبْ
يُغْرَى جـذيمة والردا ء كأنه بـأَقبَّ قارب[1]

ويرسم أبو خراش فى ميميته التى يتحدث فيها عن فراره من خزاعة صورة دقيقة لمطارديه ، وقد اقترب منه أحدهم حتى صار كأنه توأم له ، والسهام تنهال حوله ولكنها تبخطئه ، وكيف زاد من سرعته حين رأى وراء ظهره أحد مطارديه مسرعاً وقد بسط ذراعيه ، ومد ساقيه الطويلتين ، وهو حريص على أن يدركه لأن له ثأراً عنده ، وأبو خراش حريص على أن ينجو منه لأنه شخص فاتك جرىء أثيم :

بـأَسرعَ منى[2] إذ عرفتُ عَدِيَّهمُ كأَنى لأَوْلاهم من القرْب توْأَمُ
وأَجودَ منى يوم وافيتُ ساعيا وأَخطأَنى خلْفَ الثنية أَسهُمُ
أُوَائلُ بالشد الذليق وحثَّنى لدى المتن مشبوحُ الذراعين خَلْجَمُ
تذَكَّر ذَحلاً عندنا وهو فاتكٌ من القوم يعرُوه اجتراءٌ ومأْثمُ[3]

ومن أطرف الأشياء أن يحدثنا الأعلم عن كراهيته لمطارده ، لا لشىء إلا لأنه عداء سريع لا يألو جهداً فى مطاردته :

كرهتُ جذيمةَ العبدى لما رأَيتُ المرءَ يجْهدُ غيرَ آلِ[4]

وأكثر ما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدوهم مقرونة بموازنة بينهم وبين الطير أو بعض حيوان الصحراء المشهور بسرعة العدو .

ويتردد ذكر حمار الوحش عند صعاليك هذيل ، ولا نعثر به عند غيرهم

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ ، ٥٦ . وحماسة البحترى / ٦٦ — العماء : أرفع السحاب فى السماء . يراح : تصيبه الريح . القارب : طالب الماء ليلا . أبو وهب صاحبه ، وجذيمة عدوه .

(٢) متعلقة بوصفه ظبيا يطارده الصيادون يشبه به نفسه فى شدة عدوه .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٤٧ . وحماسة البحترى / ٦٤ . والأغانى ٢١/٥٦ — واءل : طلب النجاة . مشبوح الذراعين : عريضهما . الخلجم : الطويل .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/٦٠ .

من الشعراء الصعاليك فيما بين أيدينا من شعرهم ، فيما عدا مقطوعة تروى لأبى خراش أو للأعلم أو لتأبط شرا ، وهى تلك البائية التى أشرنا إليها[١] ، حتى ليصح أن نقول إن ذكرَ حمار الوحش فى صدد الحديث عن العدو خاصة هذلية .

يصف صخر الغى صاحباً له بشدة العدو فيشبهه بحمار وحش ضامر تعضه الحمر فيفر منها هارباً :

معى صاحبٌ داجنٌ بالغزا ... ة لم يكُ فى القوم وَغْلاً ضَعيفا
ترى عدْوَه صُبحَ إقوائه ... إذا رَفعَ المَأبِضَان الحَشيفا
كعدْو أقبَّ رَبَاع ترى ... بفائله ونَسَـــاهُ نُسوفا[٢]

أما الأعلم فالصورة التى يرسمها لحمار الوحش أكثر خطوطاً وألواناً ، فهو عنده ضامر البطن ولكن فى غير هزال كأنه عرْقُ السدر فى حمرته . وهو سريع يسبق الإبل والخيل النجيبة ، خرج ليلا فى طلب الماء ، فلاحت له أتان سمينة مكتنزة اللحم ، فهو حريص على إدراكها :

يغْرَى جـــذيمة والردا ... ء كأنه بـأقبَّ قاربْ
خاظٍ كعرْق السدْر يسـ ... ـبق غارة الخوص النجائب
عَنَّتْ له سفعاءُ لكَّـ ... ـتْ بالبَضِيع لها الخَبَائب[٣]

وأما الظليم ، وهو من أسرع حيوان الصحراء عدوا[٤] ، فقد ورد ذكره عند تأبط شرا والأعلم ، كما ورد ذكر النعامة عند أبى خراش . أما تأبط شرا

---

(١) انظر : ص ٢١٦ الهامش ٣ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٤٨ — داجن : معاود مرة بعد مرة ، أو متعود للغزو . الوغل : النذل . الإقواء هنا : النزول فى القفر من الأرض . المأبضان : باطن الركبة وباطن المرفق . الحشيف : الثوب الخلق . الرباع : الذى ألقى رباعيته وهى السن التى بين الثنية والناب . الفائل والنسا : عرقان . النسوف : آثار العض .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٥٦ — خاظ أى مكتنز ممتلىء لحما . سفعاء : سوداء الوجه فى حمرة . لكت : قذفت باللحم . البضيع : اللحم . الخبائب : طرائق اللحم . لها هنا بمعنى منها .

(٤) فى أمثال العرب « أعدى من الظليم » (الميدانى : مجمع الأمثال ١/٤٢٩) .

فالظليم عنده مذعور يقطع الصحراء وقد مد جناحيه ، وكل ما يحرص عليه تأبط شرا وصفه بالسرعة ، ومن هنا كثرت فى أبياته تلك المترادفات التى تدل على السرعة ، ولكنه لا يكتفى بهذا بل يعقد بين هذا الظليم وبين الخيل السريعة مباراة ، فإذا هو أسرع منها :

وحثحثتُ مشعوفَ النَّجاء كأننى ... هِجَفٌ رأى قصرا سِمالا وداجنا
من الحصِّ هُزْرُوفٌ كأن عِفاءه ... إذا استدْرَجَ الفيْفا ومدَّ المغابنا
أزَجُّ زَلوجٌ هَذْرَفىٌّ زَفَازفٌ ... هِزفٌ يبذ الناجيات الصوافنا[1]

وأما الأعلم فالصورة عنده أكثر خطوطاً وألواناً ، فالظليم عنده سريع يعترض فراخه فى وقت العشية ، وهو غليظ الساقين طويلهما ، وقد تساقط ريشه ، وهو مذعور قد اختبأ بين أشجار طويلة ، فإذا عدا خفق جناحاه خفقان ريح جنوبية بثياب جديدة غير ممزقة :

كأن ملاءتىَّ على هِزَفٍّ ... يعنُّ مع العشية للرِّئال
على حت البُراية زَمخرِىِّ الـ ... ـسواعد ظل فى شَرْىٍ طوال
كأن جناحه خفقانُ ريح ... يمانية برَيْط غير بالى[2]

وأما أبو خراش فهو يشير للنعامة فى صدد حديثه عن شدة عدوه إشارة سريعة[3] ، كما يفعل مع حمار الوحش ، وهو لا يقف طويلا عندهما لأنه مشغول بحيوان آخر سريع هو الظبى .

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ — الهزروف : الظليم السريع الخفيف . الحص : جمع أحص هو القليل شعر الرأس . المغابن : جمع مغبن وهو الإبط . الأزج من النعام . البعيد الخطو . الزلوج : الناجى من الغمرات . الهذرفى : نسبة إلى الهذرفة وهى السرعة . زفازف : من الزفزفة وهى رمى الطائر بنفسه أو بسط جناحيه . هزف : سريع .

(٢) ديوان الهذليين ٢/٨٣ ، ٨٤ . وحماسة البحترى / ٦٦ . وروى البيت الأول فى لسان العرب مادة (خرق) وفيه « هجف » مكان « هزف » ، وروى البيت الثانى فى مادة (شرى) ومادة (حت) — الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام أو حوليه . الزمخرى : الأجوف ، وكان العرب يظنون أن النعام لامخ بساقيه . وقوله « على حت البراية » يريد به أنه سريع حتى لا يبقى منه إلا براية . والشرى : شجر .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٤٥ — البيت الأول .

والمنظر الذى يتخيره أبو خراش للظبى حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد بثوا حبالهم فى مسارحه ليعلق فيها ، ولكنه ينجو منها ، فلا يجد الصيادون مفرًّا من رميه بسهامهم وإطلاق كلابهم خلفه ، ولكنه يفوتها ، ومع ذلك يظل مذعوراً غير مطمئن يصغى إلى ناحيتهم وقد نصب أذنيه كأنهما قطعتا لعدم تحركهما ، فإذا ما سمع صوت ذباب يطوف حوله ذُعر وخيل إليه أنه صوت سهام الرماة ، فانطلق كما ينطلق السهم مخلفاً وراءه غباراً مختلفاً ألوانه كأنه الملاء :

فو الله ما ربداءَ أو علجُ عانة ... أقبُّ وما إن تيسُ رَبل مصمِّمُ
وبُثتْ حبالٌ فى مرَادٍ يرودُهُ ... فأخطأه منها كفافٌ مخَزَّم
يطيح إذا الشَّعْراء صاتت بجنبه ... كما طاح قِدْحُ المستفيض المَوَشَّمُ
كأَن الملاء المحْضَ خلف ذراعه ... صُرَاحيُّه والآخِنىُّ المتحَّم
تراه وقد فات الرماة كأَنه ... أَمام الكلاب مُصْغىَ الخد أَصْلمُ
بأَسرعَ منى إذ عرفتُ عديَّهم ... كأَنى لأُوْلاهم من القرْب توأَم[1]

ويتردد ذكر الظبى أيضاً فى شعر حاجز ، وهو حيناً يتخير منظر الظبى المذعور الهارب من جوارح الطير بعد أن كاد يلقى الموت فى أظفارها ، كما رأينا فى أبياته الرائية من قبل ، وهو حيناً آخر يذكره مع حيوانين آخرين من حيوان الصحراء السريع : الأرنب ، والوعل ، وهو لهذا يكتفى بأن يذكر أنه ظبى فى منطقة جبلية ، فهو خفيف نشيط قوى ، أما الأرنب فهو يمر بها مرًّا سريعاً ، وأما الوعل فيتخير له منظراً يكون فيه فى أقصى سرعته ، حين يحس الصيادين خلفه ومعهم كلابهم المدربة :

---

(١) المصدر السابق / ١٤٥ ، ١٤٦ . والأغانى ٢١/٥٦ — الربداء : النعامة السوداء إلى غبرة . والتيس هنا الذكر من الظباء. والربل : نبت ينبت فى أول الشتاء . وقوله : فى مراد يروده أى فى مسارح يسرح فيها . والكفاف : الحبالة يصيدون بها الظباء تجعل كالطوق . والمخزم : المنظم . يطيح : يسرع . والشعراء : ذباب يلسع . والمستفيض : الذى يفيض بالقداح يضرب بها . والموشم : الذى به علامات . وصراحيه : أبيضه . والآخنى : نوع من الثياب . والمتحم : الذى به خطوط خضر وحمر . والأصلم : المستأصل الأذن .

وكأنما ابتعثَ الفوارسُ أرنبا ... أو ظبيَ رابية خُفَافًا أشعبا
وكأنما طردوا بجنبيْ عاقل ... صَدَعاً من الأَرْوَى أحس مكلِّبا[1]

وهذان البيتان هما الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذى ورد فيه ذكر للأرنب والوعل فى صدد الحديث عن العدو .

وإذا كان حاجز يشبه نفسه بالظبى الهارب من جوارح الطير فإن أبا خراش يعكس هذه الصورة فيشبه نفسه بالعقاب تطارد صيداً ، فهو يقدم لنا فى بعض قصائده صورة رائعة قوية لتلك المطاردة ، فهى عقاب كاسرة منقضة تطلب الصيد ، ولها فرخ فى رأس جبل ، تحمل له طعامه مما تصيد حتى امتلأ وكرها بعظامه ، وقد رأت على بعد صيداً فتحفزت له ثم انقضت فوقه فى أرض فضاء ليس فيها ما يستره :

كأنى إذ عدَوْا ضَمَّنتُ بزِّى ... من العقبان خائتة طلُوبا
جريمةَ ناهض فى رأس نِيقٍ ... ترى لعظام ما جمعتْ صليبا
رأت قنصاً على فوْت فضَمتْ ... إلى حيزومها ريشًا رطيبا
فلاقته ببلقعة بَرَاز ... فصادم بين عينيها الجَبُوبا[2]

وهذا أيضاً الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذى ورد فيه ذكر العقاب فى صدد الحديث عن شدة العدو .

ويشبه أبو خراش ابنه ، والقوم يطاردونه بعد غارة له عليهم ، بطائر خفيف العظم ، قليل اللحم ، عائد إلى وكره ، وقد دنا الليل ، فهو جاد فى طيرانه يبسط جناحيه ويقبضهما فى شدة وقوة :

---

(١) حماسة البحترى / ٦٥ — الخفاف : الخفيف القلب المتوقد . الأشعب : ما كان بين قرنيه بعيدا جدا . الصدع بتحريك الدال وتسكينها : الفتى الشاب القوى . المكلب : معلم الكلاب الصيد . وانظر البيتين أيضاً فى الأغانى ١٢ / ٥٢ (بولاق) مع اختلاف لفظى .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٣٣ ، ١٣٤ — الخائتة : العقاب تنقض على الصيد . الناهض هنا المراد به فرخها ، وقوله « جريمة ناهض » يريد به أنها تكسبه ، وجريمة القوم : كاسبهم . النيق : الشمراخ فى الجبل . الصليب : الودك وهو الدسم ، يقال : صلب العظام إذا استخرج ودكها على فوت أى على سبق . البراز : الفضاء البارز . الجبوب : الأرض .

كأنهمُ يَشَبَّثُون بطـائر خفيف المُشَاش عظمه غير ذى نَحْض
يبادر قرب الليل فهو مُهَابذ يحثّ الجناح بالتبسُّط والقبض(١)

وقد نتساءل : أين الخيل بين هذه الفصائل المختلفة من الحيوان السريع ؟ ولماذا لم يذكرها الصعاليك العداءون فى مجال حديثهم عن العدو كما ذكروا هذه الفصائل ؟

يبدو لى أن سبب ذلك أن الصعاليك العدائين كانوا ينظرون إلى الخيل على أنها أقل منهم سرعة ، وهى نظرة يؤيدها واقع حياتهم ، وقد رأينا فى الفصل الأول من الباب الأول أن رواة الأدب العربى يذكرون عنهم أنهم كانوا يسبقون الخيل ، ويروون عنهم قصصاً فى هذا الصدد ، ومهما يكن من مبالغة فى هذه القصص فإنها تصور أصداء حقيقة واقعية ، وقد فسرنا هذه الظاهرة فى حياة الصعاليك العدائين عند تفسيرنا الجغرافى لظاهرة التصعلك ، وانتهينا إلى أنها — على ما فيها من غرابة — ليست بالمستحيلة فى الحياة الواقعية . فإذا أضفنا إلى هذا أن الصعاليك العدائين لم يكونوا على صلة دائمة بالخيل ، وإنما كانت صلتهم بها صلة عداوة ، وهى تلك الصلة بين المطارد والطريد ، مما جعل نفوسهم مشبعة بالسخط على ذلك الحيوان السريع الذى يستغله أعداؤهم فى مطاردتهم ، استطعنا أن نجد تعليلا آخر لهذه المسألة .

ولهذا نلاحظ أن الصعاليك العدائين لا يذكرون الخيل فى صدد الحديث عن عدْوهم إلا مقترنة بأنهم أسرع منها ، أو على الأقل بأنها ليست أسرع منهم ، كما نرى عند تأبط شرا الذى يصرح بأنه يسبق الخيل عدْوًا على قدميه ، ويكسو طلائعها المتقدمة الغبار الثائر من عدْوه :

يفوتُ الجيادَ بتقريبه ويكسو هَواديها القَسْطلا(٢)

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٥٩ . ولسان العرب : مادة (هبذ) ومادة (هذب) — المشاش : جمع مشاشة وهى رأس العظم الممكن المضغ . النحض : اللحم أو المكتنز منه . المهابذ : الذى يسرع فى طيرانه ، من المهابذة وهى الإسراع فى الطيران .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ . وحماسة ابن الشجرى / ٤٧ — التقريب : ضرب من العدو . القسطل : الغبار .

ويحرص الصعاليك العداءون على تسجيل ظاهرة طريفة فى حديثهم عن العدو ، وهى حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها ، وهى ظاهرة تستمد طرافتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها ، ومن أطرف الأشياء فى هذا الصدد أنهم أكثر ما يذكرون ثيابهم يذكرون أنها بالية ممزقة .

يصف صخر الغى صاحباً له بأنه يعدو فيرفع باطنُ ركبتيه ثوبَه الخلقَ :

ترى عَدوَهُ صُبحَ إقوائه   إذا رَفعَ المأبِضَان الحَشيفا

كعدو أقبَّ رَباع ترى   بفـــائله وَنسَاه نُسوفا[1]

أما أبو خراش فثوبه الخلق البالى يهتز فى أثناء عدوه كأنه ينتفض من حمى تلازمه :

فَعدَّيتُ شيئاً والدَّرِيسُ كأنَّما   يُزَعزِعُه وِرْدٌ من المُوم مُرْدِمُ[2]

وهو أحياناً يضيق بثيابه لأنها تعوقه عن سرعة العدو فيطرحها عنه :

وَرَفعتُ ساقًا لا يُخافُ عثارُها   وَطَرحتُ عنى بالعرَاء ثيابى[3]

وفى قصيدة أخرى يصف جماعة من العدائين وقد ألقوا ثيابهم عنهم من شدة عدوهم :

وَعادية تُلقى الثياب وَزَعتها   كرِجْل الجراد ينتحى شَرَفَ الحزْم[4]

ويتحدث تأبط شرا غن مطاردة حاجز الأزدى وأصحابه له ، ويصفهم بأنهم قد ألقوا عن أجسادهم ثيابهم البالية ، وشمروا عن سيقانهم ليسهل عليهم إدراكه :

فَتعْتعْتُ حِضْنىْ حاجز وصحابه   وقد نَبذوا خلْقَانهم وتشنَّعوا[5]

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٤٨ . وانظر : ص ٢٢٠ من هذا البحث .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٤٤ . والأغانى ٢١/٥٦ . وحماسة البحترى /٦٣ — الدريس : الثوب الخلق . الموم : الحمى . المردم : الملازم .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٨ ، وتروى للأعلم ولتأبط شرا ، وهذا الاختلاف لا يضيرنا فى شىء فهم جميعاً صعاليك .

(٤) المصدر السابق /١٣٢ — الرجل بالكسر : القطعة العظيمة من الجراد . الحزم : المكان المرتفع كالحزن .

(٥) الأغانى ١٨/٢١٨ ، وفيه « تتعتعت » وواضح أنه تحريف — تعتعه : حركه بعنف . تشنعوا : تهيأوا للقتال .

ومما يتصل بهذا حديثهم عن نعالهم ، ووصفها بأنها بالية ممزقة ، لكثرة سيرهم وعدوهم . يتحدث تأبط شرا عن صعوده إلى المرقبة بنعل بالية ممزقة قد شدها بسيور بعد أن جعل تحتها نعلا أخرى :

بشَرْثة خَلق يُوقى البنانُ بها شَددتُ فيها سَريحاً بعد إطراق[١]

ويصف الشنفرى نعليه بأنهما ممزقتان كأنهما أشلاء السمانى ، وبأنه خلعهما فى بعض طريقه إما ليسهل عليه عدوه ، وإما لأنهما لم تعودا صالحتين للاستعمال لتمزقهما الشديد :

وَنعل كأشلاء السُّمانَى تركتها على جنب مَوْر كالنَّحيزة أغبرا[٢].

وهى صورة نجدها عند أبى خراش أيضاً :

ونعل كأشلاء السُّمَانَى نَبذتها خلاف ندى من آخر الليل أو رِهمْ[٣]

ومن الطريف أننا نجد لأبى خراش قصيدة نظمها فى مدح رجل حذاه نعلين جديدتين[٤] ، وهو فيها مقدر له هذا الصنيع تقديراً كبيراً ، معجب بنعليه الجديدتين ، يصفهما ، ويصف صنعهما ، ويتحدث عن قيمتهما فى حياته ، إذ يروح بهما متأنقاً للهوه ، ويستخدمهما فى سيره وعدوه ، ومن يدرى فلعل له فيهما مآرب أخرى ! !

وهنا نقف لنتساءل : أين شعر السليك فى العدو ، وهو الصعلوك العداء الرجلىّ الذى يُضرب به المثل فى سرعة العدو ، والذى تحدث عن سرعته رواة

---

(١) المفضليات /١٧ — الشرثة : النعل البالية . والسريح : القد أو السيور التى تشد بها النعال . والإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلها .

(٢) ديوانه المطبوع /٣٥ . وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ ، وفيه « وأشلاء نعل كالسمانى » المور : الطريق الموطوء المستوى . والنحيزة : لعل أقرب معانيها إلى معنى البيت أنها نسيجة شبه الحزام تكون على الفسطاط .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٣١ — الرهم : المطر الضعيف الساكن اللين .

(٤) انظرها فى المصدر السابق /١٤٠ ، ١٤١ . وفى الأغانى ٢١/٥٧ ، ٥٨ .

أخباره والشعراء المعاصرون له ، والذى اتخذه الشعراء من بعدُ مادة طريفة لأحاديثهم عن السرعة ؟

الحق يقال إنها مسألة غريبة ألا نجد للسليك شعراً يتحدث فيه عن سرعة عدوه ، ولكن يبدو أن أقرب الفروض لتعليل هذه المسألة هو أن شعر السليك فى عَدوه وسرعته قد فقد . وليس من شك عندى فى أن جانباً كبيراً من شعر السليك قد فُقد ، فليس من المعقول أن كل ما نظمه السليك من شعر لا يعدو تلك الأبيات القليلة المتفرقة فى مصادر الأدب العربى المختلفة . وإذا كنا قد لاحظنا أن مجموعة السليك الفنية لا تضم حديثاً عن هذا الجانب من حياته ، فإننا نلاحظ أيضاً أنها لا تصور جوانب حياته الأخرى تصويراً كاملا أو شبه كامل ، وإنما هى مقطوعات قليلة لا تكاد تصوّر حياة صاحبها . أما صورة حياة السليك فمصدرها الأول أخبار الرواة وأقاصيصهم عنه . ومع ذلك فشعر السليك — كما يبدو مما وصل إلينا — ليس من الجودة بحيث نأسف على ضياعه ، وقديماً سئل الأصمعى عنه فقال « ليس من الفحول »[١] .

الغزوات على الخيل :

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن غزواتهم على الخيل . وليس هناك ما يمنع الصعاليك من استخدام الخيل فى غزواتهم إذا وجدت ، وليس فى هذا ما يطعن فى مقدرتهم على العدو ، فهى مقدرة معترف لهم بها . هذا إلى أن بعض الصعاليك لم يكونوا عدائين .

وقد عرفت أسماء خيل بعض الصعاليك ، فَقَرْمَل فرس عروة بن الورد[٢] ، والنَّحَّام فرس السليك[٣] ، واليحموم فرس الشنفرى[٤] .

---

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

(٢) ديوانه / ١٢٠ . ولسان العرب : مادة (قرمل) .

(٣) القالى : النوادر / ١٨٥ . ولسان العرب : مادة (نحم) .

(٤) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .

ويتحدث الصعاليك أحياناً عن غزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الأقدام ، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول من الباب الأول من أبيات تأبط شرًّا وعروة . ويتحدثون أحياناً أخرى عن غزواتهم على الخيل حديثاً مستقلا . وهى ظاهرة أكثر ما نجدها فى شعر عروة .

فهو يتوعد حيناً أولئك الأغنياء المطمئنين الذين حسبوا أن لن يجرؤ على غزوهم أحد ، وينذرهم بأنه سوف يفزعهم بخيل نشطة تطرد أمامها إبلهم المنفرة طرداً عنيفاً :

سَيُفْزِع بعد اليأس مَنْ لا يخافنا ... كواسعُ فى أخرى السَّوَام المنفَّر[١]

وحيناً آخر يصرح بأنه لن يكف عن المغامرة فى سبيل الغنى ومعه جماعة من الصعاليك الفرسان حتى يحقق أهدافه أو يُعذر نفسه :

فإنى لمسْتافُ البلاد بسربة ... فمبلغُ نفسى عُذرَها أو مطوف[٢]

ويشير أحياناً أخرى إلى نجاته من مأزق حرج على ظهر جواده « قرمل » ، وهو يَعد ذلك منةً لهذا الجواد لا تنسى :

[illegible]ـيلة شيباء التى لستُ ناسيا ... وليلتنا إذ مَنّ ما مَن قَرْمل[٣]

ويصرّح السليك ، ذلك الرجلىّ الذى يضرب به المثل فى سرعة العدو ، بشدة حاجته إلى فرسه فى أثناء غارات أصحابه الفرسان على أهدافهم :

وما يدريك ما فَقرى إليه ... إذا ما الركب فى نهب أغاروا[٤]

وكذلك الشنفرى ، ذلك الرجلىّ الآخر الذى يضرب به المثل أيضاً فى سرعة العدو ، يتحدث عن فرسه حديثاً طريفاً ، ففرسه لا عيب فيه سوى هزاله ، ولكنه جرىء مقدام ، تطغى جرأته وإقدامه فى أثناء القتال على هزاله ، بل إن الخيل السمينة لا تستطيع الوقوف أمامه :

(١) ديوانه / ٨٣ .
(٢) ديوانه / ٩٣ .
(٣) ديوانه / ١٢٠ .
(٤) لسان العرب : مادة (ركب) .

ولاعيبَ فى اليحْموم غيرهزاله على أنه يوم الهيَاج سمينُ
وكم من عظيم الخلْق عبل موثَّق حواه ، وفيه بعدَ ذاك جنون[١]

وطرافة الصورة تأتى من أن الشنفرى يُضْفى صفات التصعلك على جواده ، فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه أيضاً جرىء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة ، وأن الرزق فى الشجاعة ، وأن الجواد الخامل كالصعلوك الخامل . وتأتى طرافة الصورة أيضاً من أن الشنفرى يلوّن صورة جواده بألوان مغامراته هو ، فإذا جواده صورة منه ، كم حوى من خيل سمينة قوية موثقة ، كشأنه هو مع أفراد مجتمعه الأغنياء ، وهكذا يقدم لنا الشنفرى جواده على أنه « جوادٌ صعلوكٌ » .

فإذا ما قتل الشنفرى ، وفزع صديقه الحميم وأستاذه تأبط شرا لأحزانه عليه يستمد منها رثاءه له ، لم ينس ذلك « الجواد الصعلوك » فخصه ببيتين رائعين من مرثيته ، عند حديثه عن الوسائل التى كان يعتمد عليها الشنفرى فى قتاله ، عزمه ، وقوسه ، وسيفه ، وفرسه :

وأشقرُ غَيداقُ الجراء كأنه عُقابٌ تَدلَّى بين نيقَين كاسرُ
يَجم جُمومَ البحر طال عُبابه إذا فاض منه أوّلٌ جاش آخر[٢]

الآراء الاجتماعية والاقتصادية :

من الطبيعى أن يعلل الشعراء الصعاليك لمغامراتهم الدامية التى وهبوا لها حياتهم ، وأن يفسروا الدوافع التى دفعتهم إلى تلك الثورة التى أشعلوها فى وجه مجتمعهم ، حتى تكون حركتهم التى وصفها مجتمعهم بالشذوذ قائمةً على أساس معلل مسبب ، وحتى تكون إجاباتهم حاضرة لكل من يسألهم :

---

(١) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .

(٢) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤١٧ — الغيداق : الطويل . والجراء : الجرى . والنيق : أرفع موضع فى الجبل . وجم الماء : كثر واجتمع .

لم فعلتم هذا ؟ وحتى يهيئوا للباحثين فى حركتهم أن يعرفوا أسبابها ودوافعها .
وقد رأينا فى الباب الأول أن حركة الصعاليك قامت نتيجة لعوامل ثلاثة : عامل جغرافى ، وعامل اجتماعى ، وعامل اقتصادى ، وأن العامل الجغرافى — وإن يكن أولَ هذه العوامل — ليس العامل المباشر ، وإنما العامل الاجتماعى والعامل الاقتصادى هما العاملان المباشران فى قيام هذه الحركة . وليس من شك فى أن الشعراء الصعاليك كانوا يشعرون بهذه المعانى شعور المتصل بها الآخذ بأسبابها . وقد أدرك الشعراء الصعاليك عن طريق هذا الشعور أن حديثهم عن العامل الجغرافى لن يجدى حركتهم شيئاً ، ولن يضيف إلى حيثيات الحكم فى قضيتهم ما يفيدها ، لأنه عامل عام يشترك فى التأثر به مجتمعهم كله ، وإنما الذى ينفع قضيتهم ، ويصلح مادةً للدفاع عنها العاملان الآخران الاجتماعى والاقتصادى ، ومن هنا حرصوا كل الحرص على تسجيل آرائهم الاجتماعية والاقتصادية .

ومن الطبيعى أن يتحدث الصعاليك عن انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، تلك الظاهرة التى كان لها أكبر الأثر فى تصعلكهم ، والتى تُعد نقطة التحول أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق اجتماعى ، وبين حياتهم المتصعلكة بما فيها من شذوذ .

يعلن حاجز فى صراحة أنه — وإن يكن أزديا من سَلامان — أصبح منتسباً إلى بنى مخزوم من قريش ففيهم حلفه ، وهم لا يخذلونه إذا استنصر بهم وإنما يسرعون شجعاناً إلى نجدته :

قومى سَلامانُ إذ ما كنت سائلةً   وفى قريش كريم الحلْف والنَّسَبِ
إنى متى أدعُ مخزُوما ترَىْ عُنُقاً   لا يَرْعَشون لضرب القوم منْ كثب[1]

ويدعو قيس بن الحدادية أن يجزى الله عنه خيراً أولئك الذين حمَوْه بعد أن خلعه قومه ، فما يملك شيئاً ليجزيهم به ، وهو الصعلوك الفقير ، سوى

(١) الأغانى ١٢/٤٩ (بولاق) — العنق : الجماعة من الناس والرؤساء .

ذلك الدعاء الصادق الصادر من أعماق نفسه :

جَزَى اللهُ خيرًا عن خليع مُطرَّدٍ ... رجالا حموه آلَ عمرو بن خالد

وماله لا يدعو لهم وقد آووه ، وعطفوا عليه ، ونصروه بعزهم وشرفهم وبأبنائهم الأبطال الأمجاد :

وقد حَدِبت عمرو علىَّ بعزها ... وأبناؤها منْ كل أروعَ ماجد

وهو لهذا يعلن على الملأ أن هؤلاء القوم الذين لجأ إليهم ، إنما هم الأصحاب والأهل والثروة والنصر :

أولئك إخوانى وجل عشيرتى ... وثروتهم والنصرُ غير المحارد[1]

بل إن أبا الطمحان يعلن أنه قد نسى أهله فى جوار من استجار بهم بعد خلعه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، حتى لقد عرفت كلابهم ثيابه فما تهرّ عليه :

وقد عَرَفتْ كلابهمُ ثيابى ... كأنى منهمُ ونسيتُ أهلى[2]

ولا ينسى الصعاليك الخلعاء خلع قبائلهم لهم حتى فى آخر لحظات حياتهم ، حين يمر بهم ماضيهم الحافل بالمغامرة والكفاح ، فإذا قصة الخلع هى الحد الفاصل بين حياتين ، والسر الأول فى تلك الحياة القاسية التى عاشوها ، والتى يودعونها فى هذه اللحظات . هذا قيس بن الحدادية يقاتل أعداءه الذين تكاثروا عليه حتى قُتل وهو يرتجز ذاكراً أول ما يذكر قصة خلعه وبغض أهله له .

أنا الذى تخلعه مَواليه ... وكلهم بعد الصفا قاليه

وكلهم يقسم لا يباليه[3]

وإذا كان الصعاليك الخلعاء والشذاذ قد صوّروا فى شعرهم هذه العقد النفسية التى كان منشؤها انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، فإن الصعاليك الأغربة لم يتحدثوا فى شعرهم عن ظاهرة اللون التى كانت عقدة العقد فى حياتهم ، والتى كانت سبباً فى انعدام التوافق الاجتماعى بينهم وبين قبائلهم ، وفيما عدا

---

(١) الأغانى ١٣ / ٥ (بولاق) — المحارد : من حاردت الناقة إذا انقطعت ألبانها أو قلت .

(٢) الجاحظ : الحيوان ١ / ٣٨٠ .

(٣) الأغانى ١٣ / ٨ (بولاق) . وابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء / ٦ .

تلك المقطوعة التى أشار فيها الشنفرى إلى أنه هجين[1] لا نكاد نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الأغربة على إشارة إلى هذه الظاهرة ذات الأثر البعيد فى حياتهم .

والذى يبدو لى تعليلا لهذا هو أن الصعاليك الأغربة كانوا يجدون غضاضة فى الحديث عن هذه الظاهرة التى كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلى لهم ، حتى إن إشارة الشنفرى إليها فى تلك المقطوعة السابقة كانت إشارة ملتوية تبدو عليها محاولة التنصل منها ، أو على الأقل الدفاع عنها . كما أن حديثهم عنها لا يفيدهم شيئاً فى قضيتهم ، لأنها ظاهرة خلقية لا يدَ لهم فيها ، ولا قدرة لهم على تغييرها ، وهذا عكس الفقر الذى كثر حديثهم عنه ، فهو ظاهرة يستطيعون دفعها وتغييرها ، والمقصر فى هذا من الصعاليك الحاملين عليه وزره ، وعليه لعنة الصعاليك العاملين ، وهذا — بطبيعة الحال — إذا لم يكن فيما فُقد من شعر الصعاليك الأغربة حديث عنها .

أما عقدة العقد التى اشترك فيها جميع الصعاليك ، وتحدث عنها جميع شعرائهم فهى الفقر ، تلك الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية التى كانت السبب الأقوى فى تصعلكهم .

ويتحدث الشعراء الصعاليك فى أكثر من موضع من شعرهم عن فقرهم ، وأسبابه ، وتأثيره فى أجسامهم ، وأثره فى حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التى يسلكونها للتخلص منه ، والأسباب التى يحرصون من أجلها على التخلص منه ، إلى غير ذلك من ألوان الحديث .

يصوّر الأعلم الهذلى فقره فى صورة بدوية ساذجة ، ولكنها طريفة :

زَعمتْ خَنَازِ بأَن بُرْمتنا   تَغْلِى بلحم غير ذى شحم[2]

والشاعر الصعلوك هنا قد سجل على نفسه الفقر . ولن تجديه شيئاً هذه

---

(١) ديوانه المطبوع / ٤٠ قصيدة حرف (ا ك) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٥ ، ولسان العرب مادة (خنز) وفيه « تجرى » مكان « تغلى » — وخناز : لقب امرأة ، والخناز فى اللغة : المنتنة .

المحاولة « المكشوفة » لمداراة فقره حين ادعى أنه زعم من هذه المرأة التى يسبها ، ومع ذلك فهو يردّ عليها فى آخر مقطوعته بأنه يفخر بأكل هذا اللحم الجزيل ، ما دامت نفسه لم يمسّها عار ولا إثم :

إنا لنأكل لحمنا ،فاستيقنى فى غير مَنْقَصَة ولا إثم[١]

وفى قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة له ، وهو يفر من أعدائه بعد مغامرة من مغامراته فى سبيل العيش ، وقد ذكر أهله الفقراء فى صحرائهم المجدبة ، وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراءه فى العراء ولا شىء لهم سوى تلك الذلة التى تبدو عليهم كلما نظروا لحاً إلى أقاربهم فى انتظار شىء يجودون به عليهم :

وذَكرْتُ أهلىَ بالعرَا ء وحاجةَ الشعث التوالبْ

المصرمين من التــلا د اللامحين إلى الأقارب[٢]

ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أسباب فقرهم ، وهم يردونه عادة إلى كرمهم وإسرافهم . فعروة أبو الصعاليك يرد فقره إلى بذله ماله للفقراء المحتاجين الذين يأتون إليه يشكون فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم :

إذا قلتُ قد جاءَ الغنى حال دونه أبو صبْيَة يشكو المفَاقر أعجفُ

له خَلَّةٌ لا يدخل الحق دونها كريمٌ أصابته خطوب تجرِّفُ[٣]

ويسجل تأبط شرًّا فى قافيته المفضلية حواراً بينه وبين شخص يعذله على كرمه وإسرافه ، يصوّر نفسه فيه كريماً لا يُبقى على شىء عنده ، مغامراً فى سبيل الحصول على مزيد من المال ليرْضى به مطالب كرمه ، وماذا فى الحياة يدفعه إلى الحرص ما دام كل ما فيها فانياً مهما يحرص الإنسان عليه :

بل مَنْ لَعذَّالة خَذَّالة أشب حَرَّق باللوم جلدى أىّ تحراق

يقول أهلكتَ مالا لو قَنعتَ به من ثوب صدقٍ ومن بَز وأعلاق

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٦ .
(٢) المصدر السابق /٥٨ . وانظر ص ٢١٣ من هذا البحث .
(٣) ديوانه /٩٢ . وحماسة أبى تمام ٤/١٢٢ .

عاذلتي إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاع وإنْ أبقيتهُ باق[١]

ويذكر أبو خراش أنه كريم يدعو امرأته دائماً إلى ألا تدخر شيئاً، ولا تبقى لغد شيئاً ، فإذا لم يجدا فى غد بعض زادهما فسيحاول أن يحصل لها على زاد غيره ، أو فلتمسك فمها عن الطعام :

لقد علمتْ أم الأُديبر أننى أقول لها : هَدِّى ولا تَذْخَرى لحمى

فإن غدا إلاّ نجِدْ بعض زادنا نُفِئْ لك زادًا أو نُعَدِّك بالأَزْم[٢]

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن أثر الفقر فى أجسامهم ، وما يحمله لهم من جوع وهزال . وقد مرّ بنا[٣] حديث السليك عن فعل الجوع به فى أشهر الصيف المحرقة ، وما كان يصيبه من إغماء ودوار ، حتى لقد أوشك أن يفقد حياته صريع الفقر والجوع والهزال ، أو — بعبارة أخرى — صريع الصعلكة :

وما نلتها حتى تَصَعلكتُ حقبةً وكدتُ لأَسباب المنية أعرف

وحتى رأيتُ الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشانى ظلالٌ فأُسدف

ويرسم تأبط شرًّا فى بعض شعره صورة لجسمه دقيقة كل الدقة ، صورة الشخص الذى لا يُبقِى من الزاد إلا ما يتعلل به ، حتى لقد نشزَت أضلاعه ، والتصق معاه :

قليل ادخار الزاد إلا تَعلة فقد نَشزَ الشرْسُوفُ والتصق المعى[٤]

وينظر بعض الشعراء الصعاليك إلى المسألة من زاوية أخرى ، فيتحدثون عن صبرهم على الجوع واحتمالهم له ، متخذين من هذا الحديث مجالا للفخر

---

(١) المفضليات /١٨ — الخذالة : الذى يخذله فى إرادته ويخالفه فيها . والأشب : المخلط عليه المعترض . والبيت الثانى معناه أنه يأمره أن يبخل ويمسك عليه ماله حتى يستغنى عن الغزو ولا يحتاج إلى طلب المال (انظر شرح ابن الأنبارى) .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٢٥ — هدى : أى اقسمى هديتك وما عندك . الأزم : الإمساك وترك الأكل .

(٣) انظر الباب الأول : الفصل الأول (التعريف بالصعلكة) ص ٣٠ .

(٤) حماسة أبى تمام ٢/٢٧ ، والأغانى ١٨/٢١٧ .

بقوة نفوسهم وصدق عزائمهم ، ولكننا نلاحظ أن بين النظرتين فرقاً فى المجال : فأما الذين يشكون من الجوع فإنهم يتحدثون عن ذلك فى مجال حديثهم عن مغامراتهم المتمردة ، وأما الذين يتحدثون عن صبرهم عليه فإنهم يتحدثون عن ذلك فى مجال حديثهم عن قوة نفوسهم .

ويقدم لنا أبو خراش صورةً نبيلة لذلك الجوع . الذى يُطيل حبسه حتى يمله فيمضى عنه دون أن يلحقه منه عار ، وهو يكتفى بالماء القراح فى حين يستمتع البخلاء الأشحاء بزادهم ، فإذا ما تلظى الجوع فى بطنه فإنه يرده ويغلبه على أمره ، وهو يؤثر عياله على نفسه بالطعام ، وهو يفعل ذلك كله حتى يعيش حياة كريمة مترفعة لا تسقط إلى مهاوى المذلة والهوان والعار حيث يكون الموت خيراً من الحياة :

وإنى لأثوى الجوعَ حتى يَملنى ... فيذهبَ لم يَدْنسْ ثيابى ولا جِرْمى
وأغتبقُ الماءَ القَراحَ فأنتهى ... إذا الزاد أمسى للمزَلَّج ذا طعْم
أرد شُجاعَ البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيرى من عيالك بالطُّعْم
مخافةَ أن أحيا برَغم وذلة ... وللموتُ خير من حياة على رغم[1]

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن تلك السياط النفسية التى يصبها الفقر على نفوسهم ، والتى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الباب الأول .

وفى شعر عروة أحاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية ، ومقامهم خلف أدبار البيوت ، وسوء منظرهم فى هذا المقام الذليل ، وعن تلك الغضاضة التى يراها عليهم ، وكيف يتوارون من الناس ، فلا يقيمون إلا حيث لا يراهم أحد ، وعن ضيق أقاربهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم :

رأيتُ بنى لبنىَ عليهم غضاضةٌ ... بيوتهمُ وسط الحلول التكنُّفِ[2]
ذرينى أطوّفْ فى البلاد لعلنى ... أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضر
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن ... جَزوعاً ، وهل عن ذاك منْ متأَخَّر

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٢٧ ، ١٢٨ ، والأغانى ٢١/٦٠ — المزلج : البخيل .
(٢) ديوانه / ٩٤ .

وإن فاز سهمى كفكم عن مَقاعد | لكم خلفَ أدبار البيوت ومنظر(١)

إذا المرءُ لم يَطلبْ مَعاشاً لنفسه | شكا الفقر أو لامَ الصديقَ فأكثرا
وصار على الأدنَين كَلاً ،وأوشكتْ | صلاتُ ذوي القربى له أن تَنَكرا(٢)

ويرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإماء السود من الضيم والهوان ، وهو عاجز لفقره عن أن يفعل من أجلهن شيئاً حتى ليشيب رأسه مما يقاسيه نفسياًّ من أجلهن :

أشابَ الرأسَ أنىَ كل يوم | أرى لى خالةً وَسطَ الرحال
يَشُقُّ علىَّ أن يلقين ضَيما | ويعجز عن تخلصهن مالى(٣)

والسليك فى هذين البيتين لا يقصد خالاته القريبات شقيقات أمه بالذات . ولكنه يقصد بهن عامة الجنس ، فهو يصوّر فيهما هوان الجنس الأسود الذى تنتمى إليه خالاته ، ويقول المبرد « وإنما توجّع لخالاته لأنهن كنّ إماء »(٤).

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك ، بعد أن عرضوا لمشكلة الفقر وآثرها وأسبابها ، عن آرائهم فيها ، وكيف يكون السبيل إلى حلها . والسبيل الوحيد إلى ذلك عندهم ، كما أسلفنا ، الثورة على المجتمع ، أو بالذات على طبقة المالة فيه ، واغتصاب حقوقهم منها ، معتمدين على قوتهم ، مهما يكلفهم ذلك من ثمن.

وقد صوّر الشعراء الصعاليك هذا كله فى شعرهم ، فكما تحدثوا عن مغامراتهم وهى الناحية العملية من حلهم للمشكلة ، تحدثوا عن الناحية النظرية فيها ، فسجلوا آراءهم الاجتماعية والاقتصادية تسجيلا صادقاً بارعاً .

فهم يحتقرون تلك الطائفة الخاملة من الصعاليك الذين قبلوا وضعهم الاجتماعى الذليل وقنعوا به ، فعاشوا على هامش المجتمع ينتظرون من فضَلات

---

(١) ديوانه / ٦٧ .

(٢) ديوانه / ١٩٠ .

(٣) المبرد : الكامل / ٢٩٩ . والبغدادى : خزانة الأدب ٣/ ١٢٨ وفيها « يعز » مكان « يشق » .

(٤) الكامل / ٢٩٩ .

الأغنياء ما يسدون به رمقهم ، ويعدون ذلك الغنى كل الغنى ، لا يفكرون إلا فى أنفسهم يلتمسون لها ذلك الزاد القليل الذليل ، أما التفكير فى أن يكون لهم من الثراء ما يُطعمون به غيرهم ، ويسجلون به لأنفسهم أحاديث خالدة تتناقلها الأجيال من بعدهم ، فهذا أبعد الأشياء عن محيط نفوسهم الضعيفة التى تحيا حياة خاملة متكاسلة أقصى ما فيها من عمل خدمة النساء « الأرستقراطيات » إذا احتجن إليهم .

أما الصورة التى يريدون أن يكون عليها أفراد جماعة الصعاليك فهى صورة الصعلوك المغامر القوى النفس والجسد ، الذى يشرق وجهه فى أوقات الشدة ، والذى يهب حياته للمغامرة ، ويبث الرعب فى قلوب أعدائه حتى ليخشونه فى وجوده وفى غيابه ، فإذا استغنى فإنه جدير بهذا الغنى لأنه حصل عليه بقوته ، وإذا جاءه أجله فى ميدان كفاحه فليمض إلى ربه حميداً مبرأ من العار والذم[١] .

وهم حريصون كل الحرص على أن يفرق المجتمع بين هاتين الطائفتين ، وكم يتمنون لو عرف لكل طائفة قيمتها ، فاحتقر الأولى ، وَقدرَ الأخرى حق قدرها . وهذا السليك يوضح ذلك الفرق لصاحبته حتى تكون على بينة من أمرها فلا تخلط بينه وبين صعاليك الطائفة الأولى الخاملة الضعيفة ، لعلها إن أدركت هذا الفرق كفت عن هجره ونال إعجابها :

أَلا عَتبتْ علىَّ فَصَارمتنى ... وأعجبها ذوو اللمم الطوالِ

فإنى يا ابنة الأقوام أُربى ... على فَضْل الوَضىء من الرجال

فلا تَصلى بصعلوك نَئوم ... إذا أمسى يُعد من العيـال

ولكنْ كلّ صعلوك ضَروب ... بنصل السيف هامات الرجال[٢]

---

(١) انظر الحديث عن هاتين الصورتين : صورتى الصعلوك الخامل والصعلوك العامل فى رائية عروة فى ديوانه /٧٣ – ٨٢ والأصمعيات /٢٩ ، ٣٠ وجمهرة أشعار العرب /١١٥ ، وحماسة أبى تمام ١ /٢١٩ ، ٢٢٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) المبرد : الكامل /٢٩٨ .

وما دام الأمر كذلك فليرسموا لأولئك الذين آمنوا بدعوتهم خطة العمل ، وليحببوها إلى قلوبهم ، وليدافعوا عنها وعنهم كما دفعوهم إليها . وقد ترددت هذه المعانى كثيراً فى شعرهم ، ووقف عروة بن الورد بالذات — كما يقف صاحب المذهب — يدعو إلى مذهبه ويحببه إلى قلوب الناس ، ويدافع عنه . وليس فى هذا غرابة ، فلم يكن عروة يعد نفسه صعلوكاً من الصعاليك ، وإنما كان يعد نفسه زعيما للصعاليك ، أو داعية لفلسفة التصعلك ، إن صحت العبارة . وبهذه النظرة نظر إليه رفاقه ، وبحق سموه أبا الصعاليك[1] .

والخطة العملية فى فلسفتهم الغزو والإغارة ، وكما كثر فى شعرهم الحديث عن الجانب التنفيذى من هذه الخطة ، كثر أيضاً حديثهم عن الجانب التشريعى منها ، أو بعبارة أخرى كثرت دعوتهم إليها . وأكثر من ظهر عنده هذا الجانب التشريعى عروة بحكم وضعه داعيةً لفلسفة الصعلكة . وأساس دعوتهم أن هذه الخطة هى السبيل الوحيدة للغنى لمن هو فى مثل حالتهم :

متى تَطلب المالَ الممنَّع بالقنا تَعشْ ماجدًا أو تَخْترمك المخارم[2]

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الأهداف التى يقصدونها بغزواتهم ، فيحددون تلك الطوائف من مجتمعهم التى يرون أن يوجهوا إليها رءوس حرابهم . ومن الطبيعى أن تكون طبقة المالة أكثر طبقات مجتمعهم تعرضاً لغزواتهم ، لأنها الهدف الدسم الذى يسيل له لعابهم . ويتحدث تأبط شرا عن ثلاث طوائف من هؤلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : أصحاب المواشى ، وأصحاب المزارع الخصبة ، وأصحاب النوق الحوامل :

فيوماً على أهل المواشى وتارة لأَهل رَكيب ذى ثميل وسنبل[3]

ولكنَّ أَربابَ المخاض يَشُفهمْ إذا اقتفروه واحدًا أَو مشيَّعَا[4]

---

(١) الأغانى ٣/٨١ .

(٢) عمرو بن براقة فى الأمالى للقالى ٢/١٢٢ .

(٣) لسان العرب : مادة (ركب) ومادة (ثمل) — الركيب : المزرعة . والثميل : الحب .

(٤) حماسة أبى تمام ٢/٢٨ ، والأغانى ١٨/٢١٧ — يشفهم : يهزلهم ، ويكد عيشهم . واقتفروه : تتبعوا أثره .

أما الأعلم فإنه يقصد أولئك السمان المترفين ضعاف القلوب ، وهو يرسم فى مقطوعة له صورة ساخرة طريفة لنموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافاً لغزواته ، فهو رجل غنى سمين مترف ، يعيش بين الستائر والحظائر ، وجَّهت امرأته إليه برها وعنايتها حتى سمّنته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب لو اخترق صحراء لفزّعته شخوصُها ، ولحسب كل شخص فيها فارساً ، لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله فى أرجائها ، الذين إذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم يحاول صاحبه إصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هارباً ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى :

أَيسخطُ غَزونا رجلٌ سمين ... تُكَنِّنه السنارة والكنيفُ

ولو رَفَّعتَ ثوبك فى خروق ... تَرُوعك فى مهالكها الشُّدوف

تخاف لِزام عادِيةٍ شَعول ... كما يتفجر الحوضُ اللقيفُ

إذنْ لذكرت حالك غَيرَ عصر ... وأفسدَ صُنعَها فيك الوجيفُ[1]

أما أولئك الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم ، أو خلعوا هم أنفسهم منها ، فكما يشاركون غيرهم من الصعاليك فى غزوهم أولئك الأغنياء ، يحرصون — إلى جانب ذلك — على الانتقام من أولئك الذين كانوا سبباً فى صعلكتهم . ومن هنا نجد أن لهم أهدافاً أخرى غير هؤلاء الأغنياء . كما كان يفعل الشنفرى مع بنى سَلامان .

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الغاية التى يريدون أن يصلوا إليها من وراء هذه الخطة الدامية التى يسلكونها فى حياتهم ، وهى — بطبيعة الحال — الغنى . ويسجل الأعلم فى أبيات له الأسباب التى يحرص على الغنى من أجلها

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٨ ، ٦٩ — الخروق : جمع خرق وهو القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح . والشدوف : جمع شدف (بالتحريك) وهو الشخص . واللزام : العذاب . والشعول : التى لها زيادات بمنزلة الضرع . واللقيف : الذى أصلحه صاحبه فطينه وسواه من نواحيه . والوجيف : ضرب من السير ، أو هو الاضطراب .

فى ثلاثة : فأمواله تغنيه عن الناس من ناحية ، وهو يعين بها الداعين إذا حلت بهم عظيمة من ناحية ثانية ، ثم هو — من ناحية ثالثة — يعدّها للأضياف والمعوزين فى أيام الجدب والشدة التى لا يجد الناس فيها ما يطعمون به من بكرت بغلام ، ولا تجد الأم شيئاً تسكت به فطيمها عن البكاء والصراخ جوعاً :

أُحَيْشِيُّ إنا قد يُمتعنا الغنَى ... بأموالنا نريحها ونُسيمها
ونحبسها على العظائم نَتَّقى ... بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها
إذا النفَسَاء لم تخَرَّسْ ببِكرها ... غلامًا ، ولم يَسكت بحَتْر فطيمها[1]

ويذكر صخر الغى أنه قتل رجلا من مزينة وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل فقير كريم لا يكاد يثبت له مال :

فى المزنى الذى حَشَشتُ به ... مَالَ ضَريك تلاده نَكِدُ[2]

أحاديث التشرد :

قلنا إن هذه الحياة الواقفة فى وجه المجتمع المتمردة عليه الخارجة على نظمه ، كان من أثرها أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد هؤلاء طمأنينتهم فيه ، وقلنا إن النتيجة الطبيعية لهذا كانت هى التشرد .

وقد تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم فى أرجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها المخيفة ، وافتخروا باهتدائهم فيها دون دليل ، أو قيامهم بمهمة الدليل لجماعة من رفاقهم ، واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم ، أو لمدح رفاقهم الصعاليك . يفتخر تأبط شرا — فى حديثه إلى امرأة خطبها فامتنعت عليه — بأنه لطول تشرده ألفته وحش الصحراء واطمأنت إليه ، حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيتُ بمغنى الوحش حتى ألفنه ... ويُصبح لا يحمِى لها الدهر مرتعا

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٧ . و « بها » فى البيت الثانى ساقطة ، ولا يستقيم الوزن بدونها . الخرسة : طعام الولادة . والحتر : الشىء القليل .

(٢) المصدر السابق / ١٣ — حششت به : قويت به . ضريك : فقير .

رأين فتى لا صيدَ وحش يهمه فلو صافحتْ إنساً لصافحنه معا (١)

ويفتخر فى قافيته المشهورة بكرمه وتشرده ، ويتوعد عاذليه إنْ لم يكفوا عن عذله بترك ديارهم والمضىّ متشرداً فى الآفاق البعيدة حتى يختفى عنهم وما هم بقادرين على معرفة مكانه مهما يجدّوا فى السؤال عنه :

إنى زعيمٌ لئن لم تتركوا عَذلى أنْ يسأل الحىُّ عنى أهل آفاق

أن يسأل القومُ عنى أهل معرفة فلا يخبِّرهم عن ثابت لاق (٢)

ويمدح صديقاً له من الصعاليك ، فلا يجد خيراً من أن يبدأ مدحه بذكر تشرده :

قليل التشكى للمهمٍّ يصيبه كثير الهوى شتّى النوى والمسالك

يظل بمَوْماة ويمسى بغيرها جَحيشاً ويعْرَوْرِى ظهورَ المهالك (٣)

ثم يمدحه بطائفة من المعانى الأخرى ، ولكنه لا ينسى أن يختم مقطوعته بذكر تشرده مرة أخرى ، كأنما هو حريص على أن يؤكد هذه الميزة لصاحبه الذى بلغ به تشرده أن أصبحت الوحشة أنسه الأنيس ، والصحراء الغامضة المجهولة كتاباً مفتوحاً يهتدى فيه كما تهتدى الشمس فى فلكها :

يَرى الوحشة الأُنْس الأَنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٤)

ويفتخر عروة بمقدرته على الاهتداء فى الفلاة الغامضة المخوفة التى يُعرض سالكها نفسه للمهالك من غير أن يستشير أحداً أو يستعين بأحد :

وغبراءَ مخشىٍّ رَداها مَخوفة أخوها بأسباب المنايا مغَرَّرُ

قَطعتُ بها شَكَّ الخِلاَجِ ولم أقل لخيابة هَيَّابة كيف تأمر (٥)

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ .

(٢) المفضليات /١٨ . وابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) حماسة أبى تمام ١/٤٧ — جحيشا : منفردا . يعرورى : يركب .

(٤) المصدر السابق /٤٩ .

(٥) ديوانه /١٣٠ — غبراء : مظلمة ليست بمسفرة الطرق . وشك الخلاج : مايخالجه ويشككه .

وتأخذ الصورة عند أبي خراش وضعاً آخر . فهو لا يقنع باهتدائه فى مجاهل الصحراء ، بل يذكر فى مجال فخره أنه يهدى رفاقه فى الليالى المظلمة :

وإنى لأهدِى القوم فى ليلة الدجى وأرمى إذا ما قيل هل مِنْ فتى يَرمى(١)

ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أماكن تشردهم فى قلب الصحراء ، وبعدها عن المناطق المأنوسة ، وما يحيط بها من أهوال ، وما يكتنف الطريق إليها من مخاوف .

يتحدث تأبط شرا عن شِعب من شعاب الصحراء ، فى جهة نائية مهجورة ، ضَرَبت حوله الجبال نطاقاً ، حتى غدا الطريق إليه وعراً ، وملأته الصخور ، وتجمعت فيه آثار من مياه قديمة لا تُعرف مصادرها ، ويفتخر بأنه اهتدى إليه دون دليل ، ودون أن يسأل أحداً عنه :

وشِعبٍ كشَلِّ الثوب شَكْسٍ طريقه مَجَامعُ صَوْحيه نطاقٌ مُحَاصرُ
به من سيول الصيف بِيضٌ أقرها جُبارٌ ، لصُمِّ الصخر فيه قَراقرُ
تبطنته بالقوم ، لم يَهدنى له دليلٌ ، ولم يُثبتْ لىَ النعتَ خابرُ
به سَمَلاتٌ من مياه قديمة مواردهـــا ما إنْ لهن مصادرُ(٢)

ويتحدث الشنفرى عن واد بعيد فى أعماق الصحراء ملتف الشجر ، قد ألفته الجن والآساد ، حتى بات يخشاه المغامرون الشجعان ، وكيف أقدم فى جرأة وشجاعة على السير فيه فى وقت مبكر قبل أن يتطاير الندى عن أشجاره :

ووَاد بعيد العَمْق ضَنك جماعه بواطنُه للجن والأُسْد مَألَفُ
تَعسَّفتُ منه بعد ما سَقط الندى غَماليلَ يَخشى غِيلها المتعسفُ(٣)

وقد قلنا إنه نتيجة لهذا التشرد وردت فى أشعار الصعاليك أحاديث كثيرة

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٣١ .

(٢) الأصمعيات ١ / ٣٥ . ويروى البيت الثانى فى لسان العرب مادة (جبر) « به من نجاء الصيف » — الشل : أن يصيب الثوب سواد ولا يذهب بغسله . الصوح : حائط الوادى وأسفل الجبل أو وجهه القائم كأنه حائط . الجبار : السيل . السملة : الماء القليل .

(٣) الأغانى ٢١ / ١٤١ — الغماليل : الروابى . والغيل : الشجر الكثير الملتف .

عن حيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها وما يُخيل للسارى فيها من أشباح .

وحين نستعرض مجموعة شعر الصعاليك التى بين أيدينا نجد أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً من هذه الفصائل السابقة : الذئب ، والضبع ، والسِّمع ، والنمر ، والأسد ، والثعلب ، والضب ، ثم حمار الوحش ، والنعام ، والوعول ، والظباء ، والأرانب ، ثم الحيات ، والعظايا ، ثم النسر ، والصقر ، والعقاب ، والغراب ، والبوم ، والسمانى ، والقمرىّ ، والقطاة ، والهدهد ، ثم النحل ، والجراد ، ثم الجن ، والغيلان .

ومن الطبيعى ألا يتحدث الشعراء الصعاليك عن هذه الأنواع جميعاً بدرجة واحدة ، فإن بعضها أقرب إلى طبيعة حياتهم ، وأدل على تصويرها ، وأصلح للانتفاع به فى فهم من بعضها . ومن هُنا تفاوت اهتمام الشعراء الصعاليك بهذه الأنواع تفاوتاً كبيراً .

وقد رأينا كيف استغل العداءون منهم تلك المجموعة من الحيوان السريع العدو فى حديثهم عن سرعة عدوهم استغلالا رائعاً ممتازاً ، ورأينا تأبط شرا يذكر فى بعض شعره أن وحش الصحراء قد ألفته ولم تعد تخشاه أو تنفر منه ، كما رأينا الشنفرى ، وهو يصف الوادى البعيد الذى اعتسفه ، يذكر أنه موطن للجن والآساد .

ولكن الأمر لا يقف بالشعراء الصعاليك عند هذا الحد ، بل يتجاوز ذلك أحياناً إلى تعرضهم لبعض هذه الأنواع بالوصف الدقيق المفصل ، الأمر الذى لا يتهيأ إلا لمن اتصل بها اتصالا قريباً عرف منه طبائعها وعاداتها .

ففى شعر عروة وصف للأسد ، فهو عريض الساعدين عريض الصدر ، رابضٌ فوق أجمة يتساقط قصَبُها فوق ظهره ، ولكن إذا بدت له فريسة فما هى إلا وثبة واحدة حتى يقتنصها ، أما زئيره فيشبه صوت الرعد :

تَبغانِىَ الأعداءُ إما إلى دم	وإما عُراض الساعدين مصَدَّرَا
يَظَلُّ الأباء ساقطاً فوق متنه	له العَدْوةُ الأولى إذا القِرْنُ أصْحرا

كأَن خَوَاتَ الرعد رزُّ زئيره من اللاء يسكنَّ الغريف بَعشَّرا[١]

وتستأثر الضباع بجزء كبير من شعر الأعلم ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ، ويصف جراءها ، وفعلهن بفريستهن ، فالضبع غليظة لها ثمانى جَوَاعر ، خلف أظلافها شعرات مجتمعة ، وفويق هذه الشعرات دوائر مثل الخلاخيل يخالف لونها سائر لون الأرجل :

عَشَنْزَرَةٌ جواعرها ثمان فُوَيقَ زَمَاعها خَدمٌ حُجولُ[٢]

ويصف جراءها ، وانتفاخ بطونهن ، وسواد جلودهن كأنما ارتدين ثياب رهبان ، وقصر آذانهن العريضة التى تشبه المغارف ، وما يفعلنه بالفريسة المسكينة التى تجر أمهن إليهن لحمها ، وكيف ينزعن جلدها كما ينزع القيون بطائن الجفون البالية :

وتَجر مُجْـرِيةٌ لها لحمى إلى أجر حَوَاشبْ

سُودٍ سَحاليل كأَن جلودهن ثياب راهبْ

آذانهن إذا احتَضَرْ نَ فريسةً مثل المذانب

يَنزعنَ جلدَ المرء نَزْ عَ القين أخلاق المذاهب[٣]

وهى صورة يخشاها تأبط شرًّا أيضاً ، ويصورها فى بعض قصائده ، فالضبع تنبش الأرض عن الجيف المدفونة ، ثم تنشب فيها أنيابها وبراثنها ، ثم تدعو رفيقاتها وبناتها ، فيسارعن إليها ليشاركنها نهشها :

---

(١) ديوانه / ٥٥ ، ٥٦ — العراض : العريض . والمصدر : العريض الصدر . والأباء : القصب . وأصحر : برز إليه . وخوات الرعد : صوته . والرز : الصوت تسمعه من بعيد ولا ترى صاحبه . والغريف : الشجر الملتف . وعثر : أرض قبل تبالة تسكنها الأسود ، وتبالة بلدة من أرض تهامة جنوبى الطائف .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٤ — العشنزرة : الغليظة المسنة . والزماع : جمع زمعة ، وهى شعرات خلف ظلف الشاة فضرب به مثلا . والخدم جمع خدمة وهى لون يخالف سائر لون رجلها مثل الخلخال .

(٣) المصدر السابق ١ / ٥٧ ، ٥٨ — مجرية : أى ضبع ذات جراء . والحواشب : المنتفخات الجنوب . والسحاليل : العظام البطون . والمذانب : المغارف التى يغرف بها . والمذاهب : بطائن مذهبة تغشى بها أجفان السيوف .

فزُحْزحتُ عنهم أو تجئني منيتي بغبراءَ أو عرفاءَ تفرى الدفائنا
كأنى أراها الموتَ لادرَّ درها إذا أمكنتْ أنيابهـا والبراثنا
وقالتْ لأخرى خلفها وبناتها : حُتوفٌ تنَقى مُخَّ من كان واهنا
أخاليجُ وُرّادٌ على ذى محافل إذا نزعوا مَدوا الدلا والشواطنا[١]

أما الشنفرى فلا يخشى على جسده الضبع ، بل يحرص على أن يهيء لها منه وليمة شهية ، وهو لهذا يبشرها بمقتله ، ويطلب إلى قاتليه ألا يدفنوه :

لا تَقْبروني إن قبرى مُحَرَّمٌ عليكم ولكنْ أبشرى أم عامرِ[٢]

ويرسم أبو خراش فى قصيدة له صورةً طبيعية صادقة لحمار الوحش وأتنه التى استبان حملها ، وما يدور بينه وبينها ، فهى تتأبى عليه ، وهو يصاولها ويتبعها . ولكن هذا ليس كل شىء فى حياة هذا الحيوان ، وإنما هناك جانب نفسى آخر فى حياته ، هو ذلك الذعر الذى يملأ نفسه َهمًّا من خشية الصيادين ، ويعبر الشاعر عن هذا الذعر بمنظر الحمار وقد اعتلى مرتفعاً من الأرض يشرف منه على الآفاق حوله ، وقد امتلأت نفسه خوفاً وهمًّا ، حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب بعد يوم طويل شديد الحر تذكر إناثه ، فأخذ يطاردها مرة أخرى وهى تعدو أمامه فتثير غباراً ممتدًّا كأنه خيوط لم تُبرم :

أرَى الدهرَلايُبْقى على حدَثانه أقبُّ تباريه جَدائدُ حُولُ
أبَنّ عِقَاقاً ثم يَرْمَحْن ظَلْمَهُ إباءً وفيه صَوْلة وذميلُ
يظل على البرْز اليَفَاع كأنه من الغار والخوف المحِمِّ وبيل
وظل لها يوم كأن أوَارَه ذكاالنار منفَيْح الفُروغ طويل
فلما رأين الشمس صارت كأنها فويق البَضيع فى الشعاع خميل

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ — الضمير فى « عنهم » يعود على أعدائه الذين يطاردونه وهو يفر منهم . والأخاليج : جمع إخليج وهو السريع ، أو من خلج بمعنى جذب وانتزع . الدلا : هى الدلاء جمع دلو . والشواطن : الحبال .

(٢) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٦ . والشعر والشعراء /١٩ — وأم عامر : الضبع .

فهيَّجها وانشامَ نَقعاً كأَنه ‏ إذا لفها ثم استمر سَحيلُ[١]

ويرسم أيضاً صورة طبيعية صادقة للون من ألوان الصراع الذى يدور فى تلك الصحراء المقفرة بين كائناتها الحية ، والصراع هنا بين صقر وأرنب ، فالصقر فوق مرتفع مشرف على الآفاق ، رأى على بعد أرنباً بين شقوق الأرض ، فهوى إليها ، ولكنها تسرع لتنجو منه ، فيزيد هو من سرعته حتى انقض عليها فانتظم قلبها :

ولا أمعرُ الساقين ظل كأَنه ‏ على مُحْزَئِلَّات الإكام نصِيلُ
رأى أرنباً من دونها غولُ أَشرُج ‏ بعيدٌ عليهن السرابُ يزول
فَضَم جناحيه ومن دون ما يرى ‏ بلادٌ وُحوشٌ أَمرُعٌ ومُحُول
تُوَائلُ منه بالضَّراء كأَنها ‏ سَفاةٌ لها فوق التراب زَليلُ
يقرِّبه النهض النجيح لما يرى ‏ ومنه بدُوٌّ تارة ومثول
فأَهوى لها فى الجو فاختل قلبها ‏ صَيودٌ لحبات القلوب قتول[٢]

ولعل أطرف ما فى شعر الصعاليك من هذا الباب أحاديث الجن والغيلان .

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١١٧ – ١١٩ . أقب : حمار ضامر البطن . جدائد : جمع جدود وهى التى لا لبن لها . وحول : جمل حائل وهى التى لم تحمل من عامها . والعقاق : الحمل . والظلم : طلب السفاد فى غير موضعه . والذميل : سير لين مع سرعة . والبرز : ما يبرز للشمس . واليفاع : المرتفع من الأرض . وقوله الخوف المجم يريد به الخوف الذى يأخذه معه هم وحديث نفس . والوبيل : العصا الغليظة الشديدة ، يريد أنه من الخوف ضمر حتى صار كالعصا . ذكا النار : اشتعالها . من فيح الفروغ : أى يفور ويهتاج من مجراه الذى يجرى منه كمثل فرغ الدلو . البضيع : الجزيرة فى البحر . والخميل : القطيفة لها أهداب ، يقول : صارت الشمس حين دنت للغروب فويق جزر البحر كأنها قطيفة لها أهداب يشبه بها أشعتها . وقوله : انشام نقعا أى دخل فيه ، والنقع : الغبار . والسحيل : خيط لم يبرم يشبه به الغبار ، أى أن الحمار دخل فى غبار كأنه هذا النسيج قبل أن ينسج .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٢١ – ١٢٣ . أمعر الساقين : لا ريش عليهما ، يريد به صقرا . المحزئل : المرتفع . النصيل : حجر طويل أملس يجعل فى البئر . الأشرج : شقوق تكون فى الأرض بعيدة طوال . غول : أى ذات بعد . يزول : أى يتحرك . بلاد وحوش : أى بلاد واسعة تسكنها الوحوش . توائل : أى تتوارى لتنجو منه . الضراء : ما واراك من الشجر . السفاة : الشوكة . وقوله لها فوق التراب زليل : أى من خفتها تزل فوق الأرض . اختل قلبها : أى انتظمه .

وأكثر ما يرد ذلك فى شعر تأبط شرًّا ، وهى صورة — وإن تكن محاطة بإطار أسطورىّ — تصور ما كان يخيله الوهم لذلك الصعلوك المغامر المتشرد البعيد الآفاق فى الليالى المظلمة بين أرجاء الصحراء الموحشة ، حيث تتجسم الرؤى أشباحاً مخيفة ، وتختلط الأصوات فى لحن غامض رهيب . ومع ذلك فقد يكون ما يقصده تأبط شرًّا من الغيلان تلك الفصيلة من الحيوان المعروفة باسم « الغورلا »[1] ، ولكن هذا لا ينفى أن صورتها عنده محاطة بإطار أسطورى . وهو يصور لقاءه لها ، بعد أن يمهد لذلك بالحديث عن الليل ، ثم يصفها ، ويسجل ما دار بينه وبينها ، وتنتهى القصيدة بينهما دائماً بقتلها :

وأدهمَ قد جُبتُ جلبابه ... كما اجتابت الكاعبُ الخيْعَلا
إلى أن حدا الصبحُ أثناءه ... ومزَّقَ جلبابه الأَلْيَلا
على شيمِ نار تنوَّرتها ... فبت لها مدبرًا مقبلا
فأَصبحت والغولُ لى جارةٌ ... فيا جارتَا أنت ما أهولا
وطالبتها بُضْعها فالتوت ... بوجه تَغَوَّل فاستغوَلا
فقلتُ لها يا انظرى كى تَرىْ ... فَولتْ فكنتُ لها أَغْوَلا
فطار بقَحْفِ ابنة الجن ذو ... سَفاسِقَ قد أخلقَ المحملا
إذا كَلَّ أمهيْته بالصفا ... فحدَّ ولم أَره صَيْقلا
عَظايةُ قفر لها حُلتا ... ن من وَرَق الطلح لم تُغزَلا
فَمنْ سالَ أين ثَوَتْ جارتى ... فإن لها باللوَى منزلا[2]

وهناك مقطوعان أخريان تصوران قصتين أخريين مع الغول والجن[3] ،

---

(١) فى القاموس المحيط : من معانى الغول السعلاة ، والحية ، وساحرة الجن ، « أو دابة رأتها العرب وعرفتها ، وقتلها تأبط شرا » (مادة غول) .

(٢) الشعر والشعراء /١٧٦ ، ١٧٧ . والأغانى ١٨ / ٢١٠ — الخيعل : ثوب تلبسه المرأة كالقميص ، أو قميص لا كمين له . العظاية : دويبة كسام أبرص .

(٣) انظر الأغانى ١٨ / ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ والبغدادى : خزانة الأدب ٣ / ١٠٨ . والبكرى : معجم ما استعجم ١ / ٢٥٧ . ولسان العرب : مادة (حد) .

ولكن الشك يحيط بنسبتهما إلى تأبط شرا ، إذ أنهما كما تنسبان له تنسبان لغيره من الشعراء ، ولكن هذا يدل دلالة واضحة على شهرة تأبط شرًّا بحديثه عن الجن والغيلان ، حتى ليختلط الأمر على الرواة فيما يُروَى من هذا الحديث أهو له أم لغيره من الشعراء .

٢ – الشعر خارج دائرة الصعلكة

آثار القبلية فى شعرهم :

الباحث فى شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت فى أغراض قبلية ، وتتسم بسمات الشعر الجاهلى القبلى ، وهى مجموعة – وإن تكن قليلة متضائلة – تبدو للنظرة الأولى غريبة على شعر الصعاليك ، لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك قد تحللوا من التزاماتهم القبلية ، فتحللت شخصياتهم الفنية من التأثر بها ، فكان طبيعيًّا أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبلية التى نراها فى سائر الشعر الجاهلى .

ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة ، فمن الطبيعى أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بدورين اجتماعيين : الدور الأول وهو فترة ما قبل التصعلك ، تلك الفترة التى كان الصعلوك فيها عضواً عاملا فى المجتمع القبلى قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعى الذروة التى يبدأ من عندها الدور الثانى فى حياته الاجتماعية ، وهو فترة تصعلكه التى قد تستمر حتى مقتله أو موته . وليس يعنينا أن يقلع الصعلوك عن تصعلكه ، فهو فى هذه الحالة لا يبدأ دوراً ثالثاً من حياته الاجتماعية ، وإنما يعود عودة اجتماعية لا عودة زمنية إلى الدور الأول . ومن الطبيعى أيضاً أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية فى الدور الأول فشاركوا شعراء القبيلة فى حياتهم الفنية ، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما انتهى الدور الثانى بالعودة إلى الحياة القبلية . ومعنى هذا أن هذه المجموعة القبلية من شعر الصعاليك نتاجٌ لفترتين تمثلان فى الحقيقة دوراً اجتماعيًّا واحداً : فترة ما قبل التصعلك وفترة ما بعد التصعلك .

ولعروة بن الورد العبسى مجموعة قليلة من القصائد والمقطوعات فى موضوعات قبلية[١]، كما نعثر برواسب ضئيلة جداً من الحياة القبلية عند صخر الغى الهذلى ، والسليك بن السلكة السعدى . أما صخر الغى فلا يتجاوز ما وصل إلينا من شعره القبلى أبياتاً قليلة فى مقطوعتين يناقض فيهما شاعراً فيهدده بكثرة قومه ، وبأنهم ينصرونه ، ويأبون له الضيم :

وخَفِّضْ عليكَ القولَ واعلمْ بأننى   من الأَنَس الطاحى الحُلول العرمْرَمِ
أَبتْ لىَ عمرو أن أضَامَ ومَازِقٌ   وقرْدٌ ولحْيانٌ وسَهمٌ فَسلّم[٢]

ويعلنه بأن قومه يلبون دعوته إذا دعاهم ، فيسرعون لنصرته كما تسيل الشعاب بالماء :

أَبا المثلّم إنى غــير مُهْتضَم   إذا دعوتُ تميما سالت المُسُلُ[٣]

وأما السليك فكل ما وصل إلينا من شعره القبلى مقطوعة واحدة فى ثلاثة أبيات يحذر فيها قومه من مغيرين قابلهم فى بعض تشرده مسرعين إليهم ، ويذكر أن قومه يكذبونه ، ويؤكد لهم صدقه :

يُكذِّبنى العمْران عمرو بن جندب   وعمرو بن سعد والمكذِّب أَكْذَبُ
ثكلتكما إن لم أَكن قد رأَيتها   كراديسَ يَهْديها إلى الحى موكب
كراديس فيها الحَوْفزَانُ وقومه   فوارس هَمام متى يَدعُ يركبوا[٤]

ومن مجموعة شعر حاجز القليلة التى وصلت إلينا خمس قطع من هذا الشعر القبلى قالها فى ظروف قبلية معروفة يذكرها الرواة . وحاجز فى هذه القطع مندمج فى المجتمع القبلى اندماجاً واضحاً ، يعبر بلسان قومه كما يعبر أى شاعر جاهلى قبلى ، يفخر بهم فيذكر أنهم كرماء ، ويعتز بأبيه وعمه اللذين أسديا

(١) انظر ديوانه : القطعتين رقم ١٠ ورقم ٢٤ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢١ – الأنس : الحى . والطاحى : المتسع المنتشر . والأسماء فى البيت الثانى أسماء قبائل .
(٣) المصدر السابق /٢٤ – وتميم هنا من هذيل . والمسل : جمع مسل وهو مسيل الماء .
(٤) الأغانى ١٨/١٣٦ . والشعر والشعراء /٢١٦ .

للقبيلة يدين بيضاوين فى يومين من أيامها . والطريف حقًّا أن حاجزاً يبدأ إحدى هذه القصائد كما يبدأ الشعراء القبليون قصائدهم بالنسيب[1] ، فيحيى صاحبته ويدعو لها بالسلامة ، ثم يصفها ويتحدث عن صرمها له وبعدها عنه ، ثم ينتقل — كما يفعل الشعراء القبليون أيضاً — إلى الحديث عن ناقته ورحلته عليها ، ثم ينتقل انتقالا مفاجئاً — كعادة الشعراء القبليين أيضاً — إلى الحديث عن قومه .

وكما يفخر حاجز بقومه يذكر أيامهم التى انتصروا فيها :

إنْ تذكروا يوم القَرِىّ فإنه	بَواءٌ بأيام كثيرٍ عَديدُها
فنحن أبحنا بالشخيصة واهنًا	جهارًا فجئنا بالنساءِ نقودها
ويوم كِرَاء قد تَدارك رَكضنا	بنى مالك والخيلُ صُعرٌ خدودها
ويوم الأَراكات اللواتى تأَخرت	سَرَاة بنى لهبان يدعو شريدها
ونحن صبَحنا الحى يوم تَنُومة	بملمومة يُهْوِى الشجاعَ وئيدها
ويوم شَرُوم قد تَرَكنا عصابة	لدى جانب الطرفاء حمراً جلودها
فما رَغِمتْ حلفا لأَمر يصيبها	من الذل إلا نحن رغما نزيدها[2]

ويسجل شماتته ، أو — بعبارة أدق — شماتة قبيلته بأعدائهم ، ويعيرهم بما فعلوه بهم من قتل رجالهم وسبى نسائهم :

ياضَمرَ هل نلناكمُ بدمائنا	أم هل حَذَوْنا نعلكم بمثال
تبكى لقتلى من فُقَيم قُتِّلوا	فاليوم تبكى صادقاً لهلال
ولقد شفانى أنْ رأيت نساءَكم	يبكين مُرْدفة على الأَكفال
ياضمرَ إن الحرب أضحت بيننا	لَقِحتْ على الدكَّاء بعد حِيال[3]

ويتوعد أعداء قبيلته ، ويهددهم بأبطال شجعان من قومه مسلحين

---

(١) (ميميته) الأغانى ١٢/٥٠ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق / ٥١ . البواء : الكفء . والململومة : الكتيبة .

(٣) المصدر السابق /٥٢ . الحيال : العقم .

بالسيوف والرماح قد عرفتهم القبائل من قبل :

سَتمنعنا منكم ومن سوء صنعكم ... صفائحُ بيضٌ أخلَ[illegible] الصياقلُ
وأَسمرُ خَطىّ إذا هُز عاسلٌ ... بأَيدى كماة [illegible] (١)

وأما قيس بن الحدادية فنى مجموعة شعره القليلة أيضاً التى وص[illegible] إلينا ، نعثر بثلاث قطع من الشعر القبلى ، إذا أخرجنا تلك القصيدة البائية المشكوك فيها ، والتى أشرنا إليها فى الفصل السابق (٢) .

وشأن قيس فى هذا الشعر شأن حاجز فى شعره القبلى شأن سائر الشعراء القبليين ، يفخر بانتصار [illegible] أعدائهم ، ويسجل اسماء من قتلوا منهم ، ويذكر عودتهم بالإبل [illegible] والنساء اللائى سبوهن (٣) ، ويعتز بقومه حين تغزوهم قبيلة أخرى [illegible]بون لهم ، ويردونهم [illegible] خاسرين ، بعد أن أعمل فيهم فرسانهم الرماح والسيوف التى تنتزع [illegible] (٤) ، ويهجو أعداء قومه ويرد عليهم دعواهم بالنصر بأنهم يفخرون بيوم ليس لهم ، ويعيرهم بفرارهم أمامهم ، والخيل تركض خلفهم ، وقد تركوا وراءهم أسرى (٥) . وقد يحس[illegible] من الطريف أن نلاحظ أن اثنتين من هذه القطع الثلاث نقيضتان بين قيس وبين شاعرين من أعداء قومه (٦) يرد بهما عليهما ، وهى صورة أدل على قبلية هذا الشعر ، لأن قيساً حريص على أن يكون رده على هذين الشاعرين من جنس قولهما ، وهما شاعران قبليان .

وعلى كل حال فهذه المجموعة من الشعر القبلى التى تقابلنا فى شعر الصعاليك قليلة ، كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

---

(١) المصدر نفسه / ٥٠ .
(٢) الأغانى ١٣ / ٤ (بولاق) . وانظر ص ١٧٤ من هذا البحث
(٣) انظر قصيدته الحائية فى المصدر السابق / ٣
(٤) انظر مقطوعته الدالية فى المصدر نفسه / ٥ .
(٥) انظر مقطوعته الميمية فى المصدر نفسه / ٤ .
(٦) الحائية والميمية السابقتان .

المجموعة الإسلامية فى شعرهم :

حين ننظر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك نجد مجموعة أخرى قليلة نظمها المخضرمون منهم : أبو الطمحان القينى ، وأبو خراش الهذلى ، وفَضَالة ابن شَرِيك الأسدى ، بعد أن أشرقت الجزيرة العربية بنور ربها .

وقبل أن نمضى فى استعراض موضوعات هذه المجموعة التى يصح أن نطلق عليها « المجموعة الإسلامية فى شعر الصعاليك » نقف لنسجل ملاحظتين : أولاهما أن مجموعة شعر أبى الطمحان ليس من اليسير تمييز الجاهلى فيها من الإسلامى ، إذ أن كل ما يرويه الرواة حولها من أخبار لا يكفى لتحديد الوقت الذى قيلت فيه ، كما أن هذه المجموعة خالية تماماً من الإشارات التى تحدد زمنها ، ما عدا بيتين يصف فيهما انحناء جسمه وتقارب خطوه[١] ، مما يرجح أنه قالهما فى شيخوخته المتأخرة ، وبيتين آخرين فى مدح يزيد بن عبد الملك يذكر الأصمعى أنه أعطاهما مغنياً ليتغنى بهما فى مجلس يزيد[٢] .

وأما الملاحظة الأخرى فهى أن كل ما وصل إلينا من شعر فضالة بن شريك إسلامى . تؤكد ذلك أخباره والأسماء الإسلامية التى وردت فيه ، أما شعره الصعلكى فلم يصل إلينا شىء منه ، مع أنهم يذكرون عنه أنه « كان شاعراً فاتكا صعلوكاً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام »[٣] . وهى ظاهرة غريبة وقفت طويلا أمام تعليلها ، وانتهيت إلى فرضين : إما أن فضالة لم يكن قد نضج فنيًّا فى الجاهلية ، ولم يتم نضجه إلا بعد الإسلام ، وإما أن يكون له شعر داخل دائرة التصعلك ولكن عملت ظروف خاصة على ضياعه ، وأنا أرجح هذا الفرض الأخير ، وأرجح أن أهم هذه الظروف المركز الاجتماعى لابنه فاتك ، فقد « كان سيداً جواداً »[٤] ، وكان كريماً على بنى أمية ، وهو

---

(١) السجستانى : كتاب المعمرين / ٦٣ . والبغدادى : خزانة الأدب ٣/ ٤٢٦ . والأغانى ١١/ ١٣٠ ، (بولاق) وحماسة البحترى / ٣٢٣ .

(٢) العقد الفريد ٦/ ٣٧ .

(٣) الأغانى ١٠/ ١٧١ (بولاق) .

(٤) المصدر السابق / ١٧١ .

الوافد على عبد الملك بن مروان قبل أن ينهض إلى حرب ابن الزبير فضمن له على أهل العراق طاعتهم وتسليم بلادهم إليه ، وأن يُسلموا مصعباً إذا لقيه ويتفرقوا عنه ، وله يقول الأقيشر فى هذه الوفادة :

وَفد الوفود فكنتَ أفضل وافد   يافاتك بن فضالة بن شريك[1]

وقد يؤيد هذا أن كل أخبار تصعلك فضالة قد ضاعت أيضاً ، والسبب هنا هو السبب هناك ، ولو قد وصل إلينا شىء منها لوقفنا من هذا الفرض موقف المتشكك .

ومهما يكن من أمر فإن موضوعات « المجموعة الإسلامية فى شعر الصعاليك » قد خلت من تلك الموضوعات التى عرفناها فى شعرهم داخل دائرة التصعلك ، وهذا طبيعى بعد أن غير الإسلام من أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يعد للتصعلك مجال فيها . وتوشك موضوعات هذه المجموعة الإسلامية أن تنحصر فى تلك الموضوعات العامة التى يعرفها الشعر العربى : المدح والهجاء والرثاء .

أما المدح والهجاء فيوشك فضالة أن يستأثر بهما . ويبدو أن فضاله أدرك أن هذه وسيلة من وسائل العيش تغنيه عن التصعلك ، فاندمج فى الوسط السياسى الأموى ، وشارك شعراءه ، وأصبح شاعراً أموياً يمدح الأمويين ويهجو أعداءهم . وهو يؤثر بالمدح خاصة يزيد بن معاوية[2] ، وقد تبدو هذه الصلة بين يزيد وفضالة طبيعية ، فقد كان يزيد بما فيه من استهتار وجاهلية أقرب إلى نفس فضالة الصعلوك ، حتى ليجيره من عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ بعد أن هرب منها لهجائه عاصم بن عمر بن الخطاب ، واستعداء عاصم الأمير عليه[3] ، وهو — وإن يكن قد آثر يزيد بمدحه — لم ينس أن يمدح بنى أميه عامة[4] .

---

(١) الأغانى ١١/٢٧١ (دار الكتب) وانظر أيضاً ١٠/١٧١ (بولاق) .
(٢) الأغانى ١٠/١٧٠ ، ١٧٢ (بولاق) .
(٣) المصدر السابق /١٧١ ، ١٧٢ .
(٤) المصدر نفسه /١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

أما الهجاء فقد صبه مرةً على عاصم بن عمر بن الخطاب ، كما رأينا ، لأنه «نزل به فلم يقره شيئاً ، ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيء وقد عرّفوه مكانهم» ، وهو يعلن له فى بعض هجائه أنه لولا فضل أبيه لقلده خزياً وعاراً:

فلولا يَدُ الفاروق قَلَّدتُ عاصما مُطَوَّقة يَخْزَى بها فى المواسم[١]

وصبه مرة ثانية على رجل من سُلَيم أودع عنده ناقة وخرج فى سفر فلما عاد وطلبها منه ذكر السلمى أنها سرقت[٢].

وصبه مرة ثالثة على عبد الله بن مُطيع والى عبد الله بن الزبير على الكوفة بعد أن طرده عنها المختار الثقفى[٣] ، وعلى عبد الله بن الزبير نفسه فى قصيدة ينسبها بعض الرواة إليه ، وينسبها بعضهم إلى ابنه عبد الله[٤].

وصبه مرة رابعة على رجل من الكوفة تزوج امرأة فسأل فى صداقها[٥] ، وهى مسألة مشينة وبخاصة فى نفس صعلوك لم يرض أن يتخذ من السؤال وسيلة فى يوم من الأيام .

وقد روى بيتان لأبى الطمحان يمدح بهما يزيد بن عبد الملك وكان قد انتجعه :

يكاد الغمام الغُرُّ يُرعِدُ أنْ رأى مُحَيا ابن مروان وينهلُّ بارقُه
يظل فتيتُ المسك فى رونق الضحى تَسيلُ به أصداغه ومَفارقه[٦]

أما الرثاء فقد اختص به أبو خراش ، شأنه فى ذلك شأن سائر الشعراء الهذليين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة . والطريف أن أبا خراش فى الإسلام يرثى أصدقاءه فى الجاهلية ، وبين أيدينا من شعره الإسلامى أربع قطع يرثى بها صديقين من أصدقاء الجاهلية : أخاه أو ابن عمه زهير بن

(١) المصدر نفسه / ١٧١ .
(٢) المصدر نفسه / ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) المصدر نفسه / ١٧٢ .
(٤) المصدر نفسه / ١٧١ ، ١٧٣ .
(٥) المصدر السابق / ١٧٢ .
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦ / ٣٧ ، ٣٨ .

العَجْوة[١] الذى يخصه بثلاث منها: قصيدتين ومقطوعة[٢] ، ودُبيَّة سادن العزى الذى يرثيه بمقطوعة من أربعة أبيات[٣] . وتتجلى لوعته وفجيعته بالذات على زهير الذى يبدو من حديثه عنه أنه كان أيضاً رفيقا له فى مغامراته[٤] ، أما دبية فلا يتحدث عنه حديث الملتاع المفجوع بقدر ما يتحدث عنه حديث الذاكر لأيامه الآسف على انقضائها ، ولعله وفاء بدين كان لدبية فى عنق أبى خراش ، أو — بعبارة أدق — فى قدمى أبى خداش منذ أيام تصعلكه ، فقد حذاه دبية مرة نعلين فرح بهما فرحاً شديداً ، ومدحه بمقطوعة يسجل فيها هذه الهدية وقيمتها له[٥] . والأمر الذى لا شك فيه أن أبا خراش كان جريئاً [illegible] وقف فى الإسلام يرثى دبية سادن العزى الذى قتله خالد بن الوليد بأمر [illegible] النبى صلى الله عليه وسلم[٦] . ومع ذلك فمن المحتمل أن أبا خراش حين قُتل دبية لم يكن قد أسلم بعد ، ولكن يبدو أنه احتمال ضعيف نظراً لطبيعة المرثية التى بين أيدينا ، فإن أبا خراش فيها لم يتعرض لقاتل دبية على الإطلاق ، ولو كان أبو خراش قالها قبل إسلامه لتعرض [illegible] بن الوليد كما فعل مع قاتل زهير . ومع ذلك فقد يكون الرواة أسقطوا [illegible] تعرضه لخالد ، وحتى مع هذا الاحتمال بأنه قالها قبل إسلامه فلا شك [illegible] أنه كان جريئاً حين وقف يرثى دبية فى ذلك الوقت الذى أخذ فيه المسلمون يسيطرون على الموقف فى جزيرة العرب ، إذ أن دبية لم يقتل إلا بعد فتح مكة[٧] .

ويرثى أبو خراش صديقيه بمعان مألوفة فى الشعر الجاهلى عامة : الكرم والشجاعة [illegible] الإنسان أمام الموت الذى لا ينجو منه حى حتى الحيوان

[illegible] أخوه ، ويقال إنه ابن عمه (انظر ابن الأثير : أسد الغابة ٥ / ١٧٨ ، ١٧٩).

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٤٨ — ١٥٠ ، ١٦١ — ١٦٤ ، ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق / ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٤) انظر الأبيات السبعة فى المصدر السابق / ١٥٠ .

(٥) انظر مقطوعة اللامية فى المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر كتاب الأصنام / ٢٢ ، ٢٣ .

(٦) انظر كتاب الأصنام / ٢٤ — ٢٦ .

(٧) المصدر السابق / ٢٤ ، ٢٥ .

الشارد فى صحرائه ، ولكنا نقف أمام ظاهرتين طريفتين تستحقان التسجيل :

أولاهما : رواسب الصعلكة فى شعر أبى خراش الإسلامى .

والأخرى : تأثير الإسلام فيه .

فما زالت صورة الفقراء المهتلكين الجياع ذوى الثياب البالية ، والضباع التى تنتظر أجساد القتلى فى اشتهاء ظامئ ، والثأر الذى يملأ النفوس حقداً وغليلا ، وذكريات الماضى الذى لا ينساه أبو خراش ، تتردد فى رثائه لزهير ، وبخاصة فى لاميته[1].

ومع هذه الصورة نعثر على صورة أخرى لتلك الحياة التى تغيرت ظروفها نتيجة لظهور الإسلام ، فقد أحاطت برقاب هؤلاء الصعاليك سلاسل الدين الجديد ، فلم يعودوا قادرين على أن يمضوا فى حياتهم كما كانوا فى الجاهلية ، وأصبح مقياس الأمور فى هذه الحياة الإسلامية العدل والحق ، أما الظلم والباطل فقد مضى عهدهما الطائش الجاهل ، وأصبح فتيان الصعاليك وقد تفرقت جماعاتهم كأنما فرق بينهم الموت :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكنْ أحاطتْ بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذلُ

فأصبح إخوانُ الصفاء كأنما أهالَ عليهم جانبَ الترب هائل[2]

وأشد ما يملأ نفس أبى خراش غيظاً وغليلا أنه أصبح عاجزاً عن أن يثأر لصاحبه من قاتله ، وهو من قريش ، أولئك الذين صارت الإمارة والملك فيهم ، ولولا ذلك ما كان ليخشاهم ، ولكن ماذا يفعل سوى أن يظل طول عمره مغيظاً محنقاً عليهم حتى يُقْتلوا بصاحبه :

فما كنتُ أخشى أن تنال دماءنا قريشٌ ولمَّا يُقْتلوا بقتيل

وأبرحُ مـــا أُمِّرْتمُ وملكتمُ يَدَ الدهر ما لم تُقْتلوا بغليل[3]

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٤٨ — ١٥٠ ، ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق /١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه /١٥٧ .

وهكذا تمتزج الصورتان فى صورة رائعة طريفة لوناها التصعلك والإسلام .

والطريف أيضاً أن أبا خراش بعد أن أسلم وحسن إسلامه[١] ، وبعد أن عاش فى الإسلام عمراً طويلا امتد به حتى خلافة عمر بن الخطاب[٢] ، حين يقف على البرزخ الفاصل بين الحياة والموت ، لا يأسف على شىء كما يأسف على ساقه التى نهشتها حية ، والتى طالما أعانته فى حياته وكان لها عليه فضل أى فضل :

لَعمرُكَ والمنايا غالبــاتٌ ... على الإنسان تَطلعُ كلَّ نجْدِ
لقد أهلكتِ حَيةَ بطن أنف ... على الأَصحاب ساقا ذات فَقْدِ[٣]
لقد أهلكتِ حيةَ بطن أنف ... على الأَصحاب ساقاً ذات فضْل
فما تَرَكتْ عدُوًّا بين بصرى ... إلى صنعاءَ يطلبه بذَحْل[٤]

وهذه أيضاً من رواسب تلك الحياة المتصعلكة التى أخلص لها أبو خراش فى جاهليته إخلاصاً عميقاً ظلت آثاره تتسرب من حين إلى حين فى شعره الإسلامى .

ولأبى خراش بعد ذلك قصيدة فى سبعة أبيات يصور فيها حزنه على هجرة ابنه خراش الذى كان قد حمد الله فى بعض أيام تصعلكه البعيدة على أن أنجاه له يوم قتل عروة أخوه[٥] ، وكان خراش قد هاجر فى خلافة عمر وغزا مع المسلمين ، وكان أبوه بطبيعة الحال فى ذلك الوقت شيخاً كبيراً ، فهو يتحدث إلى ابنه فى نهاية الأبيات حديثاً تبدو فيه روح الإسلام واضحة ، فليس البر أن يهاجر خراش لينال أجر الشهادة مع المجاهدين مخلفاً أباه وراءه شيخاً كبيراً ضعيفاً فى أشد الحاجة إليه ، وإنما البر أن يرعى أباه الذى بلغ عنده الكبر :

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٥/١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق /١٧٩ .
(٣) ديوان الهذليين ٢/١٧١ . والأغانى ٢١/١٩ .
(٤) الأغانى ٢١/٧٠ .
(٥) ديوان الهذليين ٢/١٥٧ — ١٥٩ .

أَلاَ فَاعلمْ خراشُ بأَن خيرَ الـ   مهاجر بَعدَ هجرته زهيدُ
فإنك وابتغاءَ الخير بعدى   كمخضُوب اللَّبان ولا يصيدُ[١]

وإنما نستشف من هذين البيتين الآيتين الكريمتين « وقضى ربكَ ألاّ تعبدُوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندكَ الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أف ولا تنهرْهُما وقُلْ لهما قوْلاً كريماً . واخفضْ لهما جناحَ الذل منَ الرحمة وقلْ ربّ ارْحمهما كما ربياني صَغيرا »[٢] .

وبعد أمر عمر رضى الله عنه بعد أن استمع إلى هذه الأبيات بأن يعود خراش إلى أبيه ، وألا يغزو من كان له أب شيخ إلا بعد أن يأذن له[٣] .

---

(١) المصدر السابق / ١٧١ . والأغانى ٢١/٦٩ .
(٢) سورة الإسراء / ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) الأغانى ٢١/٦٩ .

الفصل الثالث

الظواهرُ الفنية فى شعر الصعاليك

١

شعر مقطوعات :

حين ننظر فى شعر الصعاليك الذى بين أيدينا من الزاوية التى تظهرنا على بنائه الخارجي ، فأول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر مقطوعات . ولسنا نعنى بهذا انعدام القصيدة فيه ، وإنما نعنى ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة . وإذا استثنينا تائية الشنفرى المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين فى بعض المصادر[١] ، والخمسة والثلاثين فى بعض المصادر الأخرى[٢] ، ولامية عمرو ذى الكلب الهذلى ذات الثلاثين بيتاً[٣] ، ورائية عروة بن الورد المشهورة[٤] ، وفائية صخر الغى الهذلى[٥] ، وكل منهما فى سبعة وعشرين بيتاً ، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شرًّا فى رثاء الشنفرى التى جمعها ناشر ديوان الشنفرى وتألفت منها قصيدة فى سبعة وعشرين بيتاً[٦] ، وقافية تأبط شرًّا المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين[٧] ، وبائية الأعلم[٨] ، وميمية أبى خراش[٩] ، وكلتاهما فى

(١) المفضليات ١٩٤ – ٢٠٧ .
(٢) انظر فى المصدر السابق /٢٠٧ تعليق Lyall على البيت الأخير من التائية .
(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٢ – ٢٣٧ .
(٤) ديوانه /٦٣ – ٨٥ .
(٥) شرح أشعار الهذليين ١/٤٢ – ٤٩ .
(٦) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية /٢٨ – ٢٩ .
(٧) المفضليات /١ – ١٩ .
(٨) شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ – ٦٠ .
(٩) ديوان الهذليين القسم الثانى /١٢٥ – ١٣٢ .

أربعة وعشرين بيتاً ، ودالية صخر الغى ذات الأبيات الثلاثة والعشرين[١] ، إذا استثنينا هذه القصائد التسع ، واستثنينا معها تلك المجموعة القليلة من القصائد الطويلة التى قيلت فى أغراض عامة ، والتى أخرجناها فى الفصل السابق من دائرة شعر التصعلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التى يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة ، وأمام مجموعة أخرى من القصائد القصيرة التى توشك أن تكون مقطوعات لا تتجاوز أطولها ، وهى فائية للشنفرى ، عشرين بيتاً فى بعض المصادر[٢] ، وتسعة عشر بيتاً فى بعض المصادر الأخرى[٣] ، هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الأبيات المفردة التى يرجح جداً أنها أبيات من قصائد أو مقطوعات لم تصل إلينا .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن كل ما وصل إلينا من شعر أبى الطمحان مقطوعات قصيرة ، أطولها فى أربعة أبيات[٤] ، وأقصرها فى بيتين[٥] ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر حاجز ، ما عدا قصيدة ميمية فى تسعة أبيات[٦] ، مقطوعات قصيرة أقصرها فى بيتين[٧] ، وأطولها فى سبعة[٨] ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر السليك مقطوعات أقصرها فى بيتين[٩] وأطولها فى ستة أبيات[١٠] ، وإن تكن إحداها قد بلغت أربعة عشر بيتاً[١١] ، وكذلك قيس بن الحدادية ،

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/١٢ — ١٣ .
(٢) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٧ — ٣٩ .
(٣) الأغانى ٢١/١٤٠ ، ١٤١ .
(٤) اللامية فى الحيوان للجاحظ ١/٣٨٠ ، والبيان والتبيين ٣/١٥٠ ، ١٥١ ، والأغانى ١١/١٣٢ (بولاق) ، ورواية الجاحظ أصح ، والبائية فى الأغانى ١١/١٣٢ ، ١٣٣ (بولاق) ، والقافية فى المصدر نفسه /١٣٣ ، والرائية فى الحيوان للجاحظ ٦/١١٣ .
(٥) النونية فى الأغانى ١١/١٣٤ (بولاق) والقافية فى البيان والتبيين ٣/٢٠٢ .
(٦) الأغانى ١٢/٥٠ (بولاق) .
(٧) المصدر السابق /٥٢ ، ٥٣ .
(٨) المصدر نفسه /٥١ .
(٩) الأغانى ١٨/١٣٤ ، ١٣٧ . والشعر والشعراء / ٢١٥ .
(١٠) الأغانى ١٨/١٣٥ . والميدانى : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .
(١١) الأغانى ١٨/١٣٦ .

إذا استثنينا قصيدتين له فى الغزل[1] لأنهما خارج دائرة التصعلك ، فإن كل ما لدينا من شعره بين الأبيات الثلاثة والتسعة ، بل إن تأبط شرا ، ومجموعته الشعرية أوفر عدداً من هؤلاء ، إذا استثنينا قصيدتيه اللتين ذكرناهما بين القصائد العشر المطولات ، واستثنينا خمساً أخرى بين تسعة أبيات وستة عشر بيتاً[2] ، فكل ما يتبقى أمامنا مجموعة بين بيت واحد وسته أبيات .

وهنا نقف لنتساءل : ما السر فى هذا ؟

نحن بين أمرين : إما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك التى بين أيدينا ناقصة لا من حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب ، ولكن من حيث عدد أبياتها أيضاً . وهو فرض له إغراؤه لأنه مريح من ناحية ، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربى من ضياع أكثر الشعر الجاهلى من ناحية ثانية ، ولأنه — من ناحية ثالثة — مقبول فى مثل حالة الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص على شعرهم ، وحتى لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم .

وإما أن نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهى أن مجموعة شعر الصعاليك — فى مجموعها — مقطوعات قصيرة ، ثم نتلمس العلة فى ذلك . والعلة عندى هى طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح فى سبيل العيش التى لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، كما كان يفعل الشعراء القبليون ، تلك الطائفة « الأرستقراطية » التى فرغت للفن فراغاً هيأته لها قبائلها لا من أجل الفن ولكن من أجل أنفسها . وإلا فما معنى تلك الفرحة التى كانت تعم أفراد القبيلة جميعاً حين ينبغ فيها شاعر إنْ لم تعمل القبيلة على الاستفادة من شاعرها وتهيئ له أو — بتعبير أدق — لها سبيل هذه الاستفادة ؟

وهل نتصور مثلا أن يفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما كان يفرغ زهير

(١) الأغانى ١٣/٦ ، ٧ ، ٨ (بولاق) .

(٢) حماسة أبى تمام ١/٤٦ ، ٢/٢٦ ، والأغانى ١٨/٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

لحولياته ، أو امرؤ القيس فى حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التى ضمن له رغدها ملك أبيه ، أو النابغة فى حياته المستقرة فى بلاط المناذرة والغساسنة ؟ الأمر الذى لا شك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلقة مضطربة ، وأنهم جميعاً كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة قصيرة ، وبأنهم دائماً على موعد مع الموت الذى يترصدهم ترصد الموتور ، حتى كثر ذكر الموت عندهم ، وتردد الحديث عنه فى شعرهم ، صدى لما كان يجيش فى نفوسهم من إحساس عميق بقصر حياتهم . وهل نظن شاعراً هذه طبيعة حياته يستطيع أن يفرغ لفنه يطيله ويجوده ويعيد النظر فيه المرة بعد المرة ؟ أظن أن الطبيعى أن مثل هذه الحياة التى لا يكاد الشاعر يفرغ فيها لنفسه لا تنتج إلا لوناً من الفن السريع الذى يسجل فيه الشاعر ما يضطرب فى نفسه فى مقطوعات قصيرة موجزة ، يسرع بعدها إلى كفاحه الذى لا ينتظره ولا يمهله. أما تلك القصائد الطويلة القليلة فهى أصداء لفترات قليلة كانت تمر بحياة الشعراء الصعاليك يستريحون فيها من الكفاح فى سبيل العيش ، فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسبها العميقة فنّاً متأنياً مطمئنّاً مطوّلا مجوداً رائعاً ممتازاً .

أما أنا فأميل كل الميل إلى هذا الرأى الثانى الذى يفسر الحقيقة الماثلة أمامنا تفسيراً واقعياً دون أن يتكلف فى سبيل إنكارها الفروض النظرية التى إن جاز قبولها جاز رفضها .

ومع ذلك أليس من المحتمل أن يكون السبب فى كثرة المقطوعات فى شعر الصعاليك أنه وصل إلينا مفرقاً فى مصادر مختلفة اقتصر كل منها على ما - ما يستشهد به منه ، وأنه لو كان قد وصل إلينا مجموعاً فى ديوان مفرد أو دواوين مفردة لكان من الجائز أن يكون قصائد طويلة ؟ وهو احتمال له وجاهته . وهنا لا يسعنا مرة أخرى إلا إبداء الأسف على عدم حصولنا على تلك المجموعة من أشعار اللصوص التى جمعها السكرى ، وعلى مخطوطة ديوان تأبط شرّاً الذى جمعه ابن جنى . ولكن بين أيدينا مجموعة من الدواوين المفردة لطائفة من الشعراء الصعاليك : صخر الغى ، والأعلم ، وعمرو ذى الكلب ، وأبى خراش فى

مجموعة أشعار الهذليين ، وعروة بن الورد ، والشنفرى فى ديوانين مستقلين . وحين ننظر فى هذه الدواوين نجد أن ظاهرة انتشار المقطوعات فيها واضحة كل الوضوح ، فليس فى ديوان صخر الغى سوى ثلاث قصائد طويلة[١] من مجموعة شعره التى تبلغ ثلاث عشرة قطعة ، ومن هذه القصائد الثلاث واحدة خارج دائرة التصعلك[٢] ، وليس فى ديوان الأعلم سوى قصيدتين طويلتين[٣] من مجموعة شعره التى تبلغ ست قطع ، وليس لأبى خراش سوى سبع قصائد طويلة[٤] ، منها اثنتان خارج دائرة التصعلك[٥] ، من مجموعة شعره الكبيرة التى تبلغ اثنتين وعشرين قطعة ، وكل ما سوى هذه القصائد السبع مقطوعات وقصائد قصيرة لا تتجاوز أطولها تسعة أبيات ، وأما ذو الكلب فله قطعتان : إحداهما قصيدة طويلة[٦] ، والأخرى أرجوزة قصيرة[٧] ، وأما عروة بن الورد فإذا أخرجنا من إحصائيتنا تلك المجموعة التى أضافها ناشر ديوانه مما عثر عليه فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، لأننا نبنى حكمنا على ما جمعه القدماء من شعر هؤلاء الصعاليك فى دواوين مفردة ، واقتصرنا على المجموعة التى رواها ابن السكيت وهى تبلغ إحدى وثلاثين قطعة ، فإننا لا نجد فيها سوى سبع قصائد طويلة[٨] ، أقصرها فى أحد عشر بيتاً[٩] ، وأطولها فى سبعة وعشرين[١٠] ، وكل ما عدا ذلك مقطوعاتٌ لا تتجاوز أطولها ثمانية أبيات ، وتنخفض مجموعة منها إلى بيتين ، وأما الشنفرى ، فإذا استثنينا اللامية التى

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١ /١٢ — ١٣ ، ٣٦ — ٣٧ ، ٤٢ — ٤٩ .
(٢) المصدر السابق /٣٦ — ٣٧ .
(٣) المصدر نفسه /٥٤ — ٦٠ ، ٦٠ — ٦١ .
(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى/١١٦ — ١٢٣ و ١٢٥ — ١٣٢ و ١٣٢ — ١٣٦ و ١٤٤ — ١٤٨ و ١٤٨ — ١٥٠ و ١٥١ — ١٥٣ و ١٦١ — ١٦٤ .
(٥) المصدر السابق /١١٦ — ١٢٣ و ١٥١ — ١٥٣ .
(٦) شرح أشعار الهذليين ١ /٢٣٢ — ٢٣٧ .
(٧) المصدر السابق /٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٨) ديوانه : القصائد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ٢٣ .
(٩) المصدر السابق : قصيدة رقم ٦ .
(١٠) المصدر نفسه : قصيدة رقم ٣ .

تُنسب إليه أحياناً، ويشك فى نسبتها إليه أحياناً أخرى ، والتى بيّنا رأينا فيها فى الفصل الأول من هذا الباب الثانى ، فإننا لا نجد فى ديوانه المخطوط — لأننا لا نريد أن نعتمد على ديوانه المطبوع الذى أضاف إليه ناشره طائفة من شعره من مصادر متفرقة — سوى قصيدتين طويلتين هما تائيته[١] وفائيته[٢] ، وما عداهما مقطوعات لا تتجاوز أطولها ستة أبيات[٣] .

أليس فى هذا ما يجعلنا نقف من هذا الاحتمال موقف المتشكك فى قبوله ، ونظل عند ميلنا إلى قبول الحقيقة الماثلة أمامنا ، وهى ظاهرة « انتشار المقطوعة فى شعر الصعاليك » دون حاجة إلى تكلف فروض واحتمالات ؟

٢

الوحدة الموضوعية :

وإذ انتهينا إلى تسجيل هذه الظاهرة ننتقل إلى تسجيل ظاهرة أخرى تتصل بها ، وهى ظاهرة « الوحدة الموضوعية فى شعر الصعاليك » . فالناظر فى شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية فى مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصًّا بها ، دالا على موضوعها . وهى ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلى القبلى فى مجموعه ، تلك القصائد التى تبدأ عادةً بمقدمة طللية ، ثم تظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها ، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربى القدماء .

ونستطيع أن نمضى مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية فى كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها ، سواء ما كان منها فى وصف

(١) من لوحة رقم ٤٦ — لوحة رقم ٥٠ .
(٢) من لوحة رقم ٥٠ — لوحة رقم ٥٢ .
(٣) لوحة رقم ١٠ .

المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك التي عرضنا لها في الفصل السابق . ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها ، المعبرة عنها ، الدالة على موضوعاتها ، فمثلا بائية الشنفرى [1] «غارة على العوص» ، ورائية تأبط شرا [2] «احتيال» ، وفائية السليك [3] «العاشية المذعورة» ، وبائية حاجز [4] «نجاة» ، ورائيته [5] «فرار» ، ورائية أبي الطمحان [6] «حنين» ، وكافية تأبط شرا [7] «الصديق الصعلوك» ، ورائية الشنفرى التي أنشدها قبيل مقتله [8] «نهاية الصعلوك» أو «وصية الصعلوك» أو «وليمة الضبع» ، ورائيته التي أنشدها فيما كان يطالب به بني سلامان [9] «تهديد» ، وفائية الأعلم [10] «الأرستقراطي الهلوع» ، وضادية أبي خراش [11] «فرحة وأحزان» ، وبائيته [12] «رقيق المرقبة» ، وفائية عروة [13] «طواف الاستقرار» ورائيته [14] «الفقير والغني» ، ولاميته [15] «تراث الصعلوك» ، وهكذا نستطيع أن نفعل بسائر مقطوعات

---

(١) الأغاني ١٨/٢١٦ ، وديوانه في الطرائف الأدبية /٣٢ .
(٢) حماسة أبي تمام ١/٣٨ وما بعدها .
(٣) الأغاني ١٨/١٣٥ .
(٤) الأغاني ١٢/٥٢ (بولاق) ، وحماسة البحتري /٦٥ .
(٥) الأغاني ١٢/٥٢ (بولاق) .
(٦) الأغاني ١١/١٣٤ و ١٦/٦٩ (بولاق) .
(٧) حماسة أبي تمام ١/٤٦ .
(٨) ديوانه المطبوع /٣٦ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٦ .
(٩) المصدران السابقان : المطبوع /٣٥ ، ٣٦ ، والمصور /١٠ ، ١١ . والأغاني ٢١/١٣٥ .
(١٠) شرح أشعار الهذليين ١/٦٨ ، ٦٩ .
(١١) ديوان الهذليين ٢/١٥٧ . والمبرد: الكامل /٣٣٧ ، ٣٣٨ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) : ورقة رقم ١١٥ ، ١١٦ .
(١٢) ديوان الهذليين ٢/١٥٩ — ١٦١ .
(١٣) ديوانه /٩١ — ٩٥ .
(١٤) ديوانه /١٩٨ ، ١٩٩ .
(١٥) ديوانه /٢٠٧ .

شعر الصعاليك وقصائده القصيرة دون أن نشعر بأى تفاوت بينها وبين عناوينها.

ونتساءل : ما موقف القصائد الطويلة فى مجموعة شعر الصعاليك من هذه الظاهرة ؟ وهل استجابت لها كما استجابت المقطوعات والقصائد القصيرة ؟

الأمر الذى لا شك فيه والذى يلاحظه كل ناظر فى هذه القصائد الطويلة أول ما يلاحظ ، أنها لم تقف عند غرض واحد، بل تناولت طائفة متعددة من الأغراض ، ولكن أيخرج بها هذا عن الوحدة الموضوعية أم لا يخرج ؟ هذه هى المسألة .

حين ندقق النظر فى هذه الأغراض المتعددة نلاحظ أنها فى القصيدة الواحدة ترجع عادة إلى أصل موضوعى واحد تتفرع منه كما تتفرغ أغصان الشجرة من جذعها، فليس التعدد هنا تعدداً فى الموضوع ، وإنما هو تفرع فى أغراض الموضوع ، فلامية ذى الكلب الهذلى[1] على كثرة ما تناوله فيها من أغراض فرعية من حديث إلى صاحبته عن غزواته ، ومن حديث عن تربص أعدائه به ، وتربصه بهم وتهديده إياهم، ومن حديث عن رفاقه وعن أسلحته وعن المرقبة التى يتربص فوقها ، ترجع فى حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو ذلك الصراع بينه وبين أعدائه ، حتى ليصح أن نسميها « صراع الصعلوك » .

ورائية عروة [2] التى يتحدث فيها عن مذهبه فى الغزو ودوافعه ، وعن الصعلوك الخامل والصعلوك العامل ، وعن كرمه وفقره ، ترجع فى حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو فكرة التصعلك ، حتى ليصح أن نجعل « فلسفة الصعلكة » عنواناً لها .

وميمية أبى خراش[3] التى يتحدث فيها إلى امرأته عن فقره وكرم نفسه ، وشجاعته ، وصبره على الجوع ، ومغامراته ، وشدة عدوه ، ومقدرته على الاهتداء فى الليالى المظلمة ، وبراعته فى الرمى ، والتى يوازن فيها بينه وبين

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٢ – ٢٣٧ .

(٢) ديوانه /٦٣ – ٨٥ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٢٥ – ١٣٢ .

ذلك الرجل الغني الذى تطمح امرأته إليه ، أليس من اليسير أن نردها إلى أصل موضوعي واحد نجعله عنواناً لها وهو « مفاخر الصعلوك » ؟

وهكذا نستطيع أن نمضى مع كل قصيدة من تلك القصائد التسع المطولات فنرد أغراضها الفرعية إلى أصل موضوعي واحد يصلح أن يكون عنواناً لها .

ولكن يبدو أن فى هذا الحكم بعض الإطلاق ، وأنه يجدر بنا أن نخفف قليلا من إطلاقه ، فبين أيدينا بعض القصائد ، وإن تكن قليلة جداً ، لا تخضع لهذا الحكم : تائية الشنفرى وقافية تأبط شرا المفضليتان ، وفائية صخر الغى وداليته ، فهذه القصائد الأربع لا تخضع للوحدة الموضوعية ، وإنما تتعدد موضوعاتها ، وهو ، وإن يكن تعدداً يسيراً لا يغير من الحقيقة التى نقررها كثيراً إذ أنه فى كل منها لم يتجاوز الموضوعين ، فإنه على كل حال يجب أن يدعونا إلى وقفة قصيرة نحاول فيها أن نتبين السر فيه .

الذى يبدو لى تفسيراً لهذا أنه تقليد للشعر القبلى الذى كان مسيطراً على الحياة الفنية فى المجتمع الجاهلى ، وهذا التقليد ليس من الصعب أن نتصوره فأظن أنه ليس من اليسير أن نتصور أن الشعراء الصعاليك — برغم ما كان بينهم وبين مجتمعهم من نفور — قد بعدوا كل البعد عن الحياة الفنية فى مجتمعهم أو نفروا كل النفور منها ، وإنما المعقول أن نتصور أنهم كانوا أحياناً يحاولون تقليد تلك النماذج الفنية التى كان مجتمعهم يقدرها كل التقدير ، لعلهم يظفرون بنوع من تقدير المجتمع لهم ، ولو تقديراً فنياً ، بعد أن يئسوا من تقديره لهم تقديراً اجتماعياً . ولن يضيرهم أن يقلدوا أحياناً تلك النماذج الفنية من الشعر القبلى فى صورتها الشكلية ، فلن يغير هذا شيئاً من طبيعة حياتهم الاجتماعية المتمردة على القبيلة ، ولن يغيّر كثيراً من تقاليدهم الفنية الأساسية .

وعلى كل حال فهذه الظاهرة ، ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلى فى صورته الشكلية ، ظاهرة قليلة الذيوع فى مطولات شعر الصعاليك ، ومنعدمة تماماً فى مقطوعاته ، فليست من الخطر فى شىء على فكرتنا التى نقررها ، فكرة « الوحدة الموضوعية فى شعر الصعاليك » .

٣

التخلص من المقدمات الطللية :

إذا استثنينا هذه المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك فإننا نصل إلى تسجيل ظاهرة ثالثة، وهي ظاهرة « التخلص من المقدمات الطللية » . وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية فى شعرهم ، إذ أن المقدمات الطللية تخل — بطبيعة الحال — بهذه الوحدة الموضوعية . وفيما عدا تلك المجموعة التقليدية التى أشرنا إليها لا نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية ، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مذهب جعلوا محوره « حواء الخالدة » أيضاً ، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التى عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك التى يتدله الشاعر فى حبها ويبكى أيامه معها ، ويقف على أطلال ديارها ، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها ، التى تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته ، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هى . وليس من شك فى أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك فى مستهل قصائدهم صورة للأنثى الضعيفة التى يظهر صاحبها إلى جوارها بطلا قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته ، يرفض نصيحتها فى رفق وأدب ، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق بنفسه ، المعتد بشخصيته ، ويحاول أن يقنعها فى قوة وإيمان بسداد رأيه ، وسلامة مذهبه فى الحياة . والبراعة هنا ترجع إلى وضع صورتين متقابلتين فى معرض واحد مما يترتب عليه وضوح الألوان الفنية فى كلتيهما ، وهو وضع يذكرنا بما نعرفه من آداب فرسان أوربا فى العصور الوسطى ، حيث كانت لكل فارس سيدة يضع كل مفاخر حياته بين يديها . ومن هنا نستطيع أن نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك « مقدمات الفروسية فى شعر الصعاليك » فى مقابل « المقدمات الطللية فى الشعر القبلى » .

وقد رأينا الشنفرى فى قصيدته البائية التى جعلنا عنوانها « غارة على العوص » يستهلها بحديث إلى صاحبته بأن تتركه وشأنه الذى هو ماض إليه ، ولا تثبط عزيمته ، ولتقل بعد مضيه ما تشاء . فكل ما يعرفه هو أنه لن يموت إلا مرة واحدة .

ويستهل عمرو بن براقة قصيدته الميمية[1] بحديث بينه وبين صاحبته ، تنصحه فيه بألا يعرض نفسه للمخاطر . وأن يجعل ليله سباتاً يستريح فيه . ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة ؟ ألم تعلم بأنه أحد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل إلا قليلا ؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليين المسالمين الذين ينامون الليل كله ؟

تقولُ سُليمى لا تَعرّضْ لتَلْفَةٍ   وليلك عن ليل الصعاليك نائمُ
وكيف ينامُ الليلَ من جُل ماله   حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارم
غَموضٌ إذا عَض الكريهةَ لمَ يَدعْ   له طَمعاً . طَوْعُ اليمين مُلازم
ألم تَعلمى أن الصعاليك نَوْمهم   قليلٌ إذا نام الخلىّ المسالمُ

ويستهل السليك مقطوعة له لم يصل إلينا منها — فيما بين أيدينا من مصادر — سوى بيتين يتحدث فى أولهما عن تحذير صاحبته له . ويطمئنها على نفسه لأنه واثق من شجاعته وقوة نفسه :

تُحذّرنى أنْ أَحذرَ العام خَثعماً   وقد عَلمتْ أنى امرؤٌ غيرُ مسلَمِ[2]

وأكثر ما نرى هذه الظاهرة عند عروة بن الورد . فكثير من قصائده ومقطوعاته تبدأ بحوار بينه وبين صاحبته . أو لعلها امرأته كما يقول رواة شعره ، وهى تلومه على كرمه وإسرافه . وتعاتبه على مخاطرته بحياته . وتغريه على

---

(١) القالى : الأمالى ٢/١٢٢ ، والأغانى ٢١/١٧٥ ، ١٧٦ . والعينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب) ٣/٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٢) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٠ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/١٩٢ . وفيه « القوم » مكان « العام » .

البقاء إلى جانبها ، تارة بمعسول القول :

تقول سُليمى لو أقمتَ لَسرنا ولم تَدْر أنّى للمقام أطَوِّفُ[١]

وتارة أخرى بحارّ الدمع الذى ينهل من عينيها الجميلتين :

تقولُ ألا أَقْصِرْ عن الغزو ،واشتكى لها القولَ طرفٌ أحورُ العين دامع[٢]

وتارة غيرهما بتخويفه الأعداء الذين يتربصون به :

أرَى أم حَسانَ الغداةَ تلومنى تُخوفنى الأعداء ،والنفسُ أخوف[٣]

أما هو فيجيبها فى رفق قوى ، أو فى قوة رفيقة ، بأنه لا يفعل هذا إلا من أجلها ، ومن أجل من يغشاهما من الأهل ، ومن ينزل بهما من الفقراء . يقول لها مرة :

ذرينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى أخليكِ أو أغنيك عن سوء مَحْضَرِ[٤]

ويقول أخرى :

أبى الخفْضَ مَنْ يغشاك من ذى قرابة ومنْ كل سوداء المعاصم تَعترى[٥]

وكل ما يطلبه أن تتركه ونفسه ليشترى بها المجد الخالد ، والأحاديث الباقية ، قبل أن تفلت منه الفرصة فإذا هو عاجز عن البيع والشراء ، بيع النفس وشراء الأحاديث :

ذرينى ونفسى أمَّ حسانَ إننى بها قبلَ أنْ لا أملك البيع مشترى
أحاديثَ تَبقى والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَيِّر
تُجاوبُ أحجار الكِنَاس ،وتشتكى إلى كل معروف تراه ومنكر[٦]

وهو لا يجزع من الموت ، وهل يملك الإنسان تأخير ساعته إذا دنت ؟ إن لكل إنسان ساعة إذا حلت فلا متأخر عنها :

---

(١) ديوانه / ٩٣ .
(٢) ديوانه / ١٧٦ .
(٣) ديوانه / ٩١ .
(٤) ديوانه / ٦٦ .
٥) ديوانه / ٧١ .
(٦) ديوانه / ٦٣–٦٥ .

فإن فاز سَهْمٌ للمنية لم أكن جَزُوعاً ، وهل عن ذاك مِنْ متأَخَّرِ[١]

وهل يضمن الإنسان إذا تخلف عن المغامرة والمخاطرة ألا يدركه الموت وهو فى عقر داره ؟

لعل الذى خَوَّفْتِنا مِنْ أمامنا يُصَادفه فى أهله المتخلف[٢]

إنها مسألة مفروغ منها ، لا ينبغى لأحد أن تقعد به عن هدفه وغايته :

ألم تَعلمى يا أم حسانَ أننا خَليطا زِيَال ليس عن ذاك مَقْصَرُ

وأن المنايا ثغرُ كل منية فهل ذاك عما يبتغى القومُ مُحْصِر[٣]

والواقع أن عروة يُعدّ خير من يمثل هذه الظاهرة من بين الشعراء الصعاليك ، وفى كثير من قصائده ومقطوعاته نرى هذا اللون من أحاديث « الفروسية »[٤] . وربما كان السبب فى هذا راجعاً إلى طبيعة مركز عروة فى حركة الصعلكة الجاهلية زعيماً لها ، ومشرِّعاً لفلسفتها ، وواضعاً لتقاليدها الاجتماعية والفنية .

وقد تنحرف هذه المقدمات أحياناً بعض الانحراف ، فلا تكون حديثاً بين الشاعر الصعلوك وصاحبته ، وإنما تصبح حديثاً من الشاعر الصعلوك إلى صاحبته ، يحدثها عن شىء سوف يفعله ، أو شىء قد فعله ، فى اعتداد وثقة بنفسه ، أو فى إعجاب وفخر بها :

كأَنْ قَدْ فلا يَغرُرْكِ منى تَمكثى سَلكتُ طريقاً بينَ يَرْبَغَ فالسَّرْدِ

وإنى زعيم أن أَلفَّ عَجَاجتى على ذى كساء من سَلامان أو بُرد[٥]

---

(١) ديوانه /٦٧ .

(٢) ديوانه /٩١ .

(٣) ديوانه /١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) انظر على سبيل المثال فى ديوانه : القصيدة الثالثة /٦٣ ، والرابعة /٩١ ، والتاسعة/١٢٧ ، والثالثة والعشرين /١٦٤ ، والسادسة والعشرين /١٧٦ ، والثانية عشرة من الزيادات /٢٠٦ .

(٥) الشنفرى فى ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٤ ، والبيت الأول غير مروى فى النسخة المصورة من ديوانه ، وإنما تبدأ المقطوعة هناك بالبيت الثانى (لوحة رقم ١٠) ، وروايته « إنى لأهوى أن ألف عجاجتى » .

ألا هل أتى ذات القلائد فَرَّتى عشيةَ بين الجُرْف والبحْر من بَعْر[١]

وقد تنحرف هذه المقدمات انحرافاً آخر ، فلا تكون حديثاً من الشاعر الصعلوك إلى صاحبته ، وإنما تصبح حديثاً من صاحبته عنه ، حديثاً ساخراً تتهكم فيه ، فيَرد عليها مفتخراً بنفسه :

تقول سُليمى لجاراتها أرى ثابتاً يَفِناً حَوْقَلا
لها الويلُ ما وَجَدَتْ ثابتاً أَلَفَّ اليدين ولا زُمَّلا[٢]
ألا عَتبتْ عليَّ فصارمتنى وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فإنى يا ابنة الأقوام أربى على فعل الوضىء من الرجال[٣]

ومن اليسير أن نفهم هذين الانحرافين : أما الأول فمن الطبيعى جداً أن يتحدث الشاعر الصعلوك إلى صاحبته بمفاخره لعله يثير فى نفسها إعجابها به وتقديرها له ، وأما الآخر فإن النساء مفتونات أبداً بالمال والجمال .

وهنا نقف أمام ملاحظتين متناقضتين كل التناقض : أما أولاهما فتؤيدنا فيما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطللية ، وأما الأخرى فإنها تثير إشكالا على هذه الملاحظة .

ذلك أن السكرى فى شرحه لأشعار الهذليين يروى قصيدة لاميّة لعمرو ذى الكلب عن أبى عمرو وأبى عبد الله والأصمعى ، تبدأ ببيتين من الغزل فى رواية أبى عمرو وأبى عبد الله ، أما الأصمعى فلم يرو هذين البيتين . وإنما تبدأ القصيدة عنده بحوار بين الشاعر الصعلوك وصاحبته أو امرأته بعد أن رجع سالماً من بعض غزواته[٤] . والملاحظة التى نريد تسجيلها هنا هى عدم اتفاق رواة القصيدة على رواية هذه المقدمة الغزلية ، كأنما كان يرى بعض

---

(١) حاجز فى الأغانى ١٢ / ٥٢ (بولاق) ، وفى حماسة البحترى / ٦٥ « ذات الخواتم » .

(٢) تأبط شرا فى الشعر والشعراء لابن قتيبة / ١٧٦ ، وحماسة ابن الشجرى / ٤٧ — اليفن : الشيخ الكبير . والحوقل : الضعيف . والألف : الثقيل البطىء العيى بالأمور . والزمل : الجبان الضعيف .

(٣) السليك فى الكامل للمبرد / ٢٩٨ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

الرواة أن المقدمة الطبيعية فى شعر الصعاليك هى ذلك الحوار بين الشاعر وصاحبته حول مغامراته ، لا تلك المقدمة الغزلية التقليدية التى رأوا أنها غير مألوفة فى شعرهم .

ولكن المشكلة تأخذ فى الظهور إذ نعثر ببيتين مفردين أحدهما للسليك فى لسان العرب[1] والآخر لتأبط شرا فى معجم البكرى[2] . والبيتان يظهر عليهما طابع المقدمات الطللية التى نعرفها فى الشعر التقليدى القديم ، فهما — أولا — مُصرعان مما يشعر بأنهما مطلعا قصيدتين ، ثم هما — ثانيا — صورة من أسلوب المطالع الجاهلية ، ذلك الأسلوب الذى يحرص الشاعر فيه على ذكر أسماء المواضع ، ثم هما — ثالثاً — لون من ألوان المطالع الجاهلية فى حديثها عن الخيال الذى يُلم بالركب المسافر ، وعن عفاء الديار بعد رحيل الأحباب . وهنا تظهر المشكلة فكيف يتفق هذا مع ما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطللية ؟ لقد كانت المشكلة تكون أيسر حلا لو أن هذين المطلعين قد وصلت إلينا قصيدتاهما ، إذن لاستطعنا أن نتبين أهما داخلتان فى دائرة شعر الصعلكة أم خارجتان عنها . ونحن لم ننكر أن شعر الصعاليك الخارج عن دائرة الصعلكة قد قلد الشعر الجاهلى القبلى فى كثير من خصائصه ، ولكن المشكلة قد تعقدت بضياع هاتين القصيدتين من مجموعة شعر الصعاليك الذى بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين فى تقليد الشعر الجاهلى القبلى .

وعلى كل حال فإذا صحت نسبة هذين المطلعين إلى السليك وتأبط شرًّا ، ولم يكونا من صنع اللغويين والجغرافيين العرب ، فإننا نضيفهما إلى تلك المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك التى قلنا إنها تعد شذوذاً على خصائص

---

(١) مادة (نيل) :

ألم خيـــال من أميمة بالركب   وهن عجال عن نيال وعن نقب

(٢) معجم ما استعجم ١/٢٣١ :

عفا من سليمى ذو عنان فنشد   فأجراع مأثول خلاء فبـــديد ،

شعر الصعلكة وهما على كل حال لن يغيرا شيئاً من الحقيقة التى قررناها ، والتى نراها فى أكثر نماذج شعر الصعلكة ، وهى تخلصه من المقدمات الطللية .

٤

عدم الحرص على التصريع :

وتتصل بهذه الظاهرة ظاهرة رابعة من حيث البناء الخارجى لشعر الصعاليك ، وهى عدم الحرص على التصريع فى مطالع نماذجه الفنية . وقد كان يخيل إلى فى أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعاليك ، أو بالمقطوعات منه بالذات ، أو بالقصائد ذات الوحدة الموضوعية ، ولكنى حين استعرضت مجموعة شعر الصعاليك كلها رأيت أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة فى كل شعر الصعاليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها ، وسواء ما كان مقطوعات أو قصائد ، وسواء ما كان خاضعاً للوحدة الموضوعية أو خارجاً عليها ، وأقول « توشك » لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريع فى مطالعها ، وهى مجموعة — وإن تكن قليلة — تحول دون إطلاق الحكم على كل شعر الصعاليك . ولكن الشىء الذى نحرص على تسجيله هو أن هذه الظاهرة لا تختص بمجموعة خاصة من شعر الصعاليك دون مجموعة ، ولو أنها كانت مختصة بمجموعة دون مجموعة لالتمسنا تعليلها فى خصائص المجموعة التى تختص بها ، ولكن انتشارها بهذه الصورة « اللاقاعدية » تجعلنا نلتمس لها تعليلا آخر . وتعليلها عندى يرجع إلى تلك الثورة التى كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم ، وإلى تلك الحرية التى كانوا يعيشون فيها والتى كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ، تلك الثورة وتلك الحرية ظهرت آثارهما عن طريق العقل الباطن فى حياتهم الفنية ، فكان شعرهم ثائراً على الأوضاع الفنية فى الشعر الجاهلى القبلى ، حرًّا فى أوضاعه الفنية . ولكنا

قلنا إن الشعراء الصعاليك لم ينجوا فى بعض الأحيان من التقليد الفنى للشعر الجاهلى القبلى ، ومن هنا نجد تلك المطالع المصرعة فى بعض نماذجهم الفنية .

واستعراضنا لمجموعة شعر الصعاليك يظهرنا على طائفة من الملاحظات الطريفة :

فكل شعر أبى خراش بدون استثناء قد تخلص من التصريع تخلصاً تامًّا .

وكل شعر الأعلم بدون استثناء أيضاً قد تخلص من التصريع تخلصاً تامًّا .

وكل شعر عمرو ذى الكلب ، إذا أخذنا برواية الأصعمى فى لاميته التى عرضنا لها منذ قليل ، قد تخلص أيضاً من التصريع تخلصاً تامًّا .

وكل شعر الشنفرى ما عدا تائيته المفضلية ، وكل شعر تأبط شرا ما عدا قافيته المفضلية ، وكل شعر عروة بن الورد ما عدا رائيتين له[1] ، وكل شعر صخر الغى ما عدا داليته[2] ، وميميته التى قالها فى رثاء ابنه[3] قد تخلص من التصريع .

وكل شعر السليك ، ما عدا مقطوعة واحدة فى بيتين اثنين[4] قد تخلص أيضاً من التصريع .

وكل شعر أبى الطمحان ، ما عدا مقطوعتين[5] إحداهما فى المدح فمن الطبيعى أن يلبس الشاعر فيها « الثياب الرسمية » التى يلبسها الشعراء المادحون حين يدخلون على من يمدحون ، كل شعره ما عدا هاتين المقطوعتين قد خلا من التصريع .

وكل شعر حاجز ، ما عدا ثلاث قطع[6] إحداها يفتخر فيها بقومه ، قد خلا من التصريع .

---

(١) ديوانه /٦٣ ، ١٢٧ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/١٢ .

(٣) المصدر السابق /٣٦ .

(٤) الأغانى ١٨/١٣٤ ، والشعر والشعراء /٢١٥ .

(٥) الأغانى ١١/١٣٣ (بولاق) (القافية والحائية) .

(٦) الأغانى ١٢/٤٩ (بولاق) (البائية فى رثاء نفسه) ، ص ٥٠ (الميمية فى الافتخار بقومه) ، ص ٥٢ (البائية فى وصف فراره) .

وحين ننظر فى هذه الملاحظات فإننا نقف متسائلين أمام ظاهرة غريبة وهى انتشار التصريع — انتشاراً نسبيًّا طبعاً — فى مقطوعات شعر الصعاليك وبخاصة عند حاجز . وقد يكون من المفهوم أن ينتشر التصريع فى القصائد الطويلة التى يحتفل لها الشاعر احتفالا فنيًّا خاصًّا ، أما أن ينتشر فى المقطوعات القصيرة السريعة كما رأينا فى مقطوعة السليك ذات البيتين ، فهنا وجه الغرابة .

لست أرى تعليلا قويًّا لهذه الظاهرة الغريبة إلا أحد احتمالين : إما أن يكون هذا التصريع قد جاء عفواً دون أن يقصد إليه الشعراء الصعاليك قصداً ، وهو احتمال مقبول ، وإما أن تكون هذه المقطوعات ، وبخاصة التى قيلت فى موضوعات خارج دائرة الصعلكة ، أجزاء من قصائد طويلة لم تصل إلينا كاملة احتفل لها أصحابها احتفالا فنيًّا خاصًّا فصرعوا فى مطالعها ، وهو احتمال مقبول أيضاً .

٥

التحلل من الشخصية القبلية :

ونترك هذه الظاهرة الفرعية لنسجل ظاهرة أساسية فى « الشعر داخل دائرة الصعلكة » وهى ظاهرة « التحلل من الشخصية القبلية » . وهى ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق وما سجلناه من قبل فى دراستنا الاجتماعية لظاهرة الصعلكة من فقد التوافق الاجتماعى بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبلية فى نفوسهم . ومن الطبيعى ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعيًّا فمن الطبيعى أن تنقطع فنيًّا ، ونعنى بانقطاعها فنيًّا تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك « العقد الفنى » الذى نراه بين الشاعر القبلى وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك « لسان عشيرته » لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع ، ولا يكون شعره « صحيفة

قبيلته» لأنه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصدق من حياته هو ، يسجل فيه كل ما يدور فيها ، ويصبح ضمير الفرد « أنا » أداة التعبير فيه بدلا من ضمير الجماعة « نحن » الذى هو أداة التعبير فى الشعر القبلى ، وتصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته . ومعنى هذا أن ظاهرة الفناء الفنى لشخصية الشاعر القبلى فى شخصية قبيلته التى نلاحظها بوضوح عند أصحاب المذهب القبلى فى الشعر الجاهلى قد اختفت من مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة . وحلت محلها ظاهرة أخرى يصح أن نطلق عليها « ظاهرة الوضوح الفنى لشخصية الشاعر الصعلوك » .

ولكن شخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته ، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد ، ويدينون بعصبية مذهبية واحدة . ومن هنا كانت شخصية الشاعر الصعلوك شخصية «جماعية » ، ولسنا نقصد بالجماعية فناء الشاعر الصعلوك فى جماعته فناء يشبه فناء الشاعر القبلى فى قبيلته ، وإنما نقصد بها ذلك التشابه فى الشخصيات بين أفراد جماعة الصعاليك . ومع ذلك فليس من اليسير أن نتصور جماعة الصعاليك قد تشابهت شخصياتها حتى أصبحت شخصية واحدة ، فإن أساس حركة الصعلكة اعتداد بالشخصية الفردية ، واعتزاز بمقدرة الفرد على الوقوف فى وجه المجتمع . ومن هنا كانت لكل شاعر صعلوك — إلى جانب شخصيته الجماعية — شخصية فردية خاصة يتفرد بها بين جماعته . ولكنهم — مع اعتدادهم بشخصياتهم الفردية — كانوا حريصين على شخصيتهم الجماعية ، لأنهم — من غير شك — أقدر جماعةً على تحقيق مذهبهم فى الحياة منهم أفراداً . ولعل أصدق الأمثلة على هذا عروة وجماعته ، فقد كان عروة — مع اعتداده بشخصيته الفردية — يعبر عن جماعته ويتكلم بلسانها ، وكذلك جماعة تأبط شرًّا التى كانت تدعوه « أمهم »[1] لقيامه على شئونهم ، وتنظيمه زادهم ، مما يشعر بقوة روح الجماعة بينهم .

---

(١) تائية الشنفرى فى المفضليات شرح ابن الأنبارى ، البيت ١٩ وشرحه /١٠٣ ، وابن دريد : جمهرة اللغة ١/ ٢١ ، والسيوطى : المزهر ١/ ٣٠٢ ، وتاج العروس (مادة أم) .

والذى نريد أن نصل إليه من هذا هو تفسير ما نراه فى الشعر داخل دائرة الصعلكة من آثار الجماعة ، فضمير الجماعة « نحن » الذى يتردد أحياناً فيه ليس هو الضمير نفسه الذى نراه فى الشعر القبلى ، فنحن هنا تعبر عن الشخصية الجماعية ، ولكنها هناك تعبر عن الشخصية القبلية .

ومهما يكن من أمر ، فالشىء الذى لا ريب فيه هو أن الشعراء الصعاليك قد تخلصوا من الشخصية القبلية فى شعرهم داخل دائرة الصعلكة كما تخلصوا منها فى حياتهم ، وأنهم أصبحوا شخصية فنية « شاذة » فى الشعر الجاهلى كما كانوا شخصية اجتماعية « شاذة » فى حياتهم ، وهذا « الشذوذ » هو العامل المشترك بين شخصيتهم الفردية وشخصيتهم الجماعية ، حتى ليصح أن نطلق عليهم « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » .

وما أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن الشخصية القبلية ظاهرة فى تلك المجموعة من شعر الصعاليك التى اصطلحنا على تسميتها « الشعر خارج دائرة الصعلكة » . ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه المجموعة — وإن تكن صورة من الفن الجاهلى — تمثل « شذوذا » فى مجموعة شعر الصعاليك « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » .

٦

القصصية :

وإذ قررنا أن شعر الصعاليك صورة صادقة كل الصدق من حياة أصحابه ، يسجلون فيه كل ما يدور فيها ، فإننا نصل إلى تقرير ظاهرة مترتبة على هذه الفكرة وهى ظاهرة « القصصية فى شعر الصعاليك » ، فشعر الصعاليك — فى مجموعه — شعر قصصى يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور فى حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التى تصلح مادة طيبة للفن القصصى ، فحوادث مغامراتهم

الجريئة التى كانوا يقومون بها فرادى وجماعات وما كان يدور فيها من صراع دام مرير ، وأخبار فرارهم وعدوهم ، وتشردهم فى أرجاء الصحراء بين وحشها وأشباحها ، وتربصهم فوق المراقب فى انتظار ضحاياهم ، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصى . وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة فى شعرهم استغلالا قصصيًّا رائعاً جمع فى صورة بسيطة عناصر الفن القصصى الأساسية من الإثارة والتشويق وتسلسل لأحداث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة .

وقد رأينا عند حديثنا عن « ظاهرة الوحدة الموضوعية فى شعر الصعاليك » أن أكثر مقطوعاته وقصائده تقبل العناوين . ونظرة أخرى إلى هذه العناوين على ضوء هذه الظاهرة الجديدة ، ظاهرة القصصية ، ترينا أنها فى مجموعها عناوين قصصية . وهل « غارة على العوص » ، أو « العاشية المذعورة » ، أو « احتيال » ، أو « نجاة » ، أو « فرار » إلا عناوين قصصية ؟ وهل بائية السليك[1] إلا قصة بطلاها الشاعر وصاحبه ، ومسرحها تلك المهامه الرملية التى تصل بين ديارهما وديار أعدائهما فى الفصل الأول منها ، ثم ديار الأعداء فى الفصل الثانى ، وزمانها تلك الليلة التى خرجا فيها وذلك الصباح الذى بدأ فيه الصراع بينهما وبين أعدائهما ، وحوادثها خروجهما من ديارهما وجزع صاحبه فى الطريق ، وتشجيع السليك له وبعث الطمأنينة والأمل فى نفسه ، ثم ذلك الصراع بينهما وبين أعدائهما ، ثم تأتى الخاتمة أو الفصل الأخير من القصة بانتصار الصعلوكين واستيلائهما على الإبل ثم عودتهما بها؟ وهل لامية تأبط شرًّا[2] إلا قصة تبدأ بحوار بين صاحبة الشاعر وجاراتها ، ثم تتابع أحداث القصة التى تدور بين بطلها وهو الشاعر الصعلوك فى ليلة مظلمة حالكة وبين غول قابلها ، حتى تصل القصة إلى نهايتها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول ويخلفها

---

(١) بكى صرد لما رأى الحى أعرضت مهامه رمل دونهم وسهوب
(الأغانى ١٨/ ١٣٦) .

(٢) تقول سليمى لجاراتها أرى ثابتاً يفناً حوقلا
(الشعر والشعراء / ١٧٦ ، وحماسة ابن الشجرى / ٤٧) .

صريعة ؟ وهل تائية الشنفرى المفضلية — إذا أخرجنا منها مقدمتها الغزلية — إلا قصة غزوة من غزواته مع جماعة من رفاقه يقص فيها استعدادهم للغزوة ، ثم خروجهم لها ، ومُضيهم فى طريقهم إليها ، ثم تربصهم بأعدائهم ، وانتظارهم الفرصة المواتية ، وما كانوا يفعلونه فى هذه الفترة من الانتظار والتربص ، ثم تحقيق أهدافهم التى كانوا يسعون إليها ، ثم تعليق من الشاعر على هذه القصة ؟ وهل بائية الأعلم[1] إلا قصة نفسية دقيقة تبدأ مباشرة بمنظر الشاعر الصعلوك مع صاحب له وهما يفران من أعدائهما الذين يطاردونهما مطاردة عنيفة تستمر حتى ينتصف النهار حين يصل الصعلوكان إلى منطقة الأمان ؟ وهى قصة وإن تكن أحداثها قليلة فإن أروع ما فيها ذلك التحليل النفسى الدقيق لنفسية الهارب المذعور والمطارد الطامع فى إدراكه ، وذلك التصوير النفسى الرائع لخوف الهارب المذعور من الموت وحرصه على الحياة حين يشتد من خلفه الخطر ، ثم طمأنينة نفسه بعد نجاته وتذكره تلك «العقد النفسية» التى تدفع به إلى مثل هذه المآزق الخطرة : فقره ، وهوان أسرته ، وترف الأغنياء من حوله . والقصيدة ، أو القصة ، من هذه الناحية من الممكن أن تسلك فى عداد القصص النفسية التى يعرفها العصر الحديث .

وهكذا نستطيع أن نمضى مع مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة فإذا نحن أمام مجموعة من الأقاصيص يصح أن نطلق عليها كما يفعل القصاص المحدثون « أقاصيص صعلكة » أو « مغامرات الصعاليك » أو «غزوات وقصص أخرى » .

بل إن الأمر ليتجاوز هذه المجموعة إلى الشعر خارج دائرة الصعلكة ، وبخاصة عند الهذليين فى رثائهم ، فقد اتخذ الهذليون فيه مذهباً قصصياً ، عماده حيوان الصحراء الشارد فى أرجائها ، الممتنع فوق جبالها العالية ، يضربون به المثل على أن الموت يدرك كل كائن حى مهما يكن بعده عن مواطن الخطر وامتناعه عليه . والصورة القصصية عندهم دائماً حيوان آمن فى سربه أو فى معقله

---

(١) لما رأيت القوم بالعليا ء دون قدى المناصب
(شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ — ٦٠) .

ثم يتيح له القدر صائداً ، تارة يكون إنساناً ، وتارة يكون جارحاً من الطير ، يتربص به حتى إذا أمكنته الفرصة انقض عليه فأورده موارد الهلاك . ولكن من الحق أن نسجل أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على صعاليك هذيل ، ولكنها ظاهرة عامة عند الشعراء الهذليين ، وعند بعض الشعراء الجاهليين أيضاً .

وهنا نقف عند نص للأصمعي يرويه ابن دريد عن أبي حاتم عنه . يقول فيه : « ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه »[١] لعلنا نصل عن طريقه إلى فكرة قد تكون جديدة في تاريخ الشعر العربي ، وقد تخالف ما قد تعارفنا عليه من أن امرأ القيس هو أول من اصطنع القصة في شعره ، وأن تاريخ القصة في الشعر العربي يبدأ بامرئ القيس .

ولن نقول مع الأصمعي إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، فتلك دعوى جريئة يعوزها الدليل ، ولا تستطيع الوقوف أمام الدراسة الفنية لمجموعة شعره ذات الطابع الفني الواحد ، والشخصيه الفنية الواحدة ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا النص يشير إلى مسألة فنية مهمة أحسها القدماء وإن ضلوا الطريق إليها ، وهي أثر الصعاليك في شعر امرئ القيس . فمن المعروف أن امرأ القيس في بعض فترات شبابه كان يتبع صعاليك العرب[٢] ، ومن الطبيعي أن النفس الفنية في هذه السن المبكرة تكون قابلة للتأثر لأن نضجها الفني لم يكن قد اكتمل بَعدُ وإذن فليس من البعيد أن يكون امرؤ القيس قد تأثر من الناحية الفنية بفن هؤلاء الصعاليك وهو يستمع إليهم يقصون أقاصيص مغامراتهم وحياتهم في قصائدهم ومقطوعاتهم ، وليس من البعيد أيضاً أن يكون امرؤ القيس قد فتنه ذلك الأسلوب القصصي في شعر هؤلاء الصعاليك ، فحاول تقليده في شعره ، ثم اتخذه مذهباً فنيًّا له . وإذن فليس امرؤ القيس أول من اصطنع القصة في الشعر العربي بل هم الشعراء الصعاليك ، وليس شعر امرئ القيس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية بل تسبق هذه مرحلةٌ أولى

---

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٤ .
(٢) الأغاني ٩/٨١ .

هى مرحلة الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية فى الأدب العربى » . ومن يدرى ؟ فلعل تلك الألوان القصصية فى شعر امرئ القيس هى التى أشكلت على صاحب هذا الرأى الذى يرويه الأصمعى فخيلت إليه أن جزءاً من شعر امرئ القيس من صنع صعاليك كانوا معه .

٧

الواقعية :

والظاهرة السابعة التى نلاحظها على شعر الصعاليك هى « الواقعية » . وأول مظاهر هذه الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم ، وبعدهم عن الإمعان فى الخيال إمعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام بسحبه العالية وأبراجه العاجية . ونظرة إلى موضوعات شعرهم التى عرضنا لها فى الفصل السابق ترينا هذا المظهر واضحاً جليًّا ، فقد صور الشعراء الصعاليك فى فنهم البيئة البدوية التى يعيشون فيها بكل مظاهرها : الصحراء القاسية بشعابها وجبالها وأغوارها ، وصخورها ومياهها ، وحرها وبردها ، ولياليها المظلمة الرهيبة ، وحيوانها الشارد فى آفاقها ، ووحشها الرابض فى أرجائها ، وحشراتها المتوارية فى جحورها والساربة فوق رمالها ، وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدوها : طلوع الفجر ، وغروب الشمس ، والندى المتساقط فى أول الليل وفى آخره ، والبرق والرعد ، والسحاب والمطر ، وصوروا الحياة الواقعية التى يحيونها بكل ما فيها من واقع خيِّر وواقع شرير : الكرم والمروءة ، والعطف على الفقراء والمرضى والضعفاء ، والسلب والنهب وسفك الدماء ، وبكل ما فيها من محاسن وعيوب : الشجاعة والبطولة ، والقوة والمغامرة ، والهرب والفرار ، والفقر والجوع والهزال والهوان ، وصوروا الشخصيات الإنسانية التى يتصلون بها كما يرونها فى الواقع المحسوس بكل ما بينها من تباين واختلاف : الأعداء والأصدقاء ، والصعاليك العاملين والصعاليك الخاملين ، والنساء المشجعات والنساء المثبطات ، والنساء المعجبات

والنساء المتهكمات ، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين ، كل هذه الجوانب من الحياة الواقعية هى الأسس التى أقام عليها الشعراء الصعاليك بناءهم الفنى .

والمظهر الثانى لهذه الواقعية صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل ، بحيث لا يشعر الناظر فى شعر الصعاليك باختلاف بين الصورة الشعرية وأصلها فى الحياة ، أو بين ما يراه فى شعرهم وما يشاهده فى الحياة ، حتى ليخيل إليه أنه أمام مجموعه من الصور « الفوتوغرافية » . وهل صورة الضباع وجرائها عند الأعلم[١] ، وحمار الوحش وأتنه عند أبى خراش[٢] إلا صور « فوتوغرافية » سجلتها « عدسات » الصعاليك لهذه النماذج من الطبيعة الحية ؟ وهل صورة المرقبة عند الشنفرى[٣] ، وصورتها عند أبى خراش[٤] ، وصورة الشعب عند تأبط شرًّا[٥] ، وصورة البرق والرعد والسحاب والمطر عند صخر الغى[٦] ، إلا صور « فوتوغرافية » سجلتها « عدسات » الصعاليك لهذه الجانب من الطبيعة الصامتة ؟

ومن مظاهر هذه الواقعية أيضاً استكمال الصورة العامة ، فحين ننظر مثلا فى صورة حمار الوحش وأتنه عند أبى خراش نلاحظ أنها صورة واقعية كاملة استكملت كل عناصرها ، بحيث نشعر بأننا أمام صورة طبيعية منقولة عن الواقع نقلا دقيقاً كاملا . فحمار الوحش أقبّ خميص البطن، عنيف نشيط ، وأتنه قد استبان حَمْلها فهى متأبية عليه ، والمكان فوق مرتفع من الأرض يشرف منه حمار الوحش على الآفاق خائفاً يترقب ، والزمان يوم شديد الحر من أيام الصيف الطويلة ، ولكن المنظر يتغير حين تؤذن الشمس

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٥٧ ، ٥٨ .
(٢) ديوان الهذليين القسم الثانى /١١٧ — ١٢١ .
(٣) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٧ ، ٣٨ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ ، ٥١ .
(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى /١٥٩ — ١٦١ .
(٥) الأصمعيات /٣٥ .
(٦) شرح أشعار الهذليين ١/٤٢ — ٤٥ .

بالمغيب ، ويحين موعد أوبة هذه الحمر إلى منازلها ، فنرى حمار الوحش يترك مرقبته، ويهيج أتنه التى تسرع أمامه مثيرة خلفها حبلا طويلا من الغبار الممتد ، فيسرع خلفها وسط هذا الغبار ، ولكن الأتن تحس خطراً يتربص بها ، ذلك أن صياداً فقيراً رث الحال يحمل سهامهِ الزرق فى انتظارها ، فترهف الأتن السمع ، حتى إذا ما تأكدت من هذا الخطر أسرعت فى قوة وشدة ، ويعترض طريقها ماءٌ آجنٌ يكسوه نبات طويل ، فتلقى بنفسها فيه ، وتفتح ما بين أيديها ، وتنطلق سابحة ، ولكن الصياد يرسل سهامه ، فأما الأتن فتنجو لأنها متقدمة ، وأما حمار الوحش فقد كان أقرب إلى الصياد منها ، فيخترق فؤاده سهمٌ ضخم عريض النصل .

وأظن أننا قد لاحظنا فى هذه الصورة — إلى جانب استكمالها لكل عناصرها من الهيئة والمكان والزمان والحالة والفعل والنتيجة — حرصاً على التفاصيل واهتماماً بالجزئيات ، وهو المظهر الرابع من مظاهر هذه الواقعية . فأبو خراش حريص على تسجيل حمْل هذه الأتن وحذر حمار الوحش ، ثم هذا الحبل من الغبار الذى يخترقه حمار الوحش خلف أتنه ، ثم رثاثة حال الصياد ، وشدة عدو الأتن بعد إحساسها بالخطر ، وحركة أيديها وهى سابحة فى الماء ، وهذا النبات الطويل الذى يكسو صفحة الماء الآجن ، ومركز حمار الوحش بين الأتن والصياد مما يسَّر إصابته ونجاتها .

وحين ننظر فى تصوير الأعلم للضباع وجرائها نجد مثلاً آخر لهذا المظهر ، فالأعلم حريص على التفاصيل حرصاً شديداً ، مَعنى بالجزئيات عناية قوية ، لا ينسى حين يذكر الجراء انتفاخ بطونها ، وقصر قوائمها ، وسواد جلدها ، وقصر آذانها العريضة التى تنبسط حين تقبل على فريستها فى نهم فتنتزع جلدها نزع القيون لبطائن الجفون ، ولا ينسى حين يذكر الضباع المسنة غلظها ، وجواعرها الثمانى ، بل إنه لا ينسى تلك الشعرات المجتمعة خلف أظلافها ، ولا تلك الدوائر التى تشبه الخلاخيل التى تقع فُويقَ هذه الشعرات ، والتى يخالف لونها سائر لون الأرجل .

وهنا نصل إلى مظهر آخر من مظاهر حرص الشعراء الصعاليك على التفاصيل ، وهو اهتمامهم « بظاهرة اللون » . وقد رأينا الأعلم حريصاً على تسجيل سواد الضياع ، وتلك الدوائر التى يخالف لونها سائر لون الأرجل ، كما رأينا فى الفصل السابق اهتمام الشعراء الصعاليك بلون القوس . والحق أن الشعراء الصعاليك قد اهتموا بألوان كل أسلحتهم تقريباً ، وفرقوا بينها فى دقة رائعة تستحق الإعجاب ، فالسيف أبيض[1] ، والقِدْح أحمر[2] ، والسهم والنصل أزرقان[3] ، والرمح والترس أسمران[4] ، والقوس إما صفراء وإما حمراء . وإلى جانب هذا نجد الظباء البيض عند حاجز[5] ، والإبل الدهْم عند أبى خراش[6] ، والحصان الأشقر عند تأبط شرًّا[7] ، والخيل الحو والكمْت عند قيس بن الحدادية[8] ، ونجد الدم الحالك عند أبى خراش[9] والعصابة الحمر

---

(١) الحديث عن بياض السيف كثير جداً فى شعر الصعاليك ، وفى الشعر العربى عامة ، وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض المواضع التى ورد فيها فى شعر الصعاليك « حسام كلون الملح أبيض صارم » (عمرو بن براقة : أمالى القالى ٢ / ١٢٢) . «طارت بأبيض صارم » ، « حسام كلون الملح صاف حديده » (الشنفرى : المفضليات / ٢٠٥) . « بكفى من المأثور كالملح لونه » (عروة : ديوانه / ١٧٨) . « بيض خفاف ذات لون مشهر » (عروة : المصدر السابق / ٨٤) .

(٢) « أركبها فى كل أحمر غاثر » (الشنفرى : ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٨) .

(٣) « بأزرق لا نكس ولا متعوج » (الشنفرى : المصدر السابق / ٣٤ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٢) . « رماح من الخطى زرق نصالها » (أبو خراش : ديوان الهذليين ٢ / ١٢٤) .

(٤) « وأسمر خطى » (حاجز : الأغانى ١٢ / ٥٠ بولاق) . « سمر القنا » (تأبط : الأغانى ١٨ / ٢١٤) — « وأسمر خطى القناة » (عروة : ديوانه / ٢٠٧) . « وأسمر مجنأ من جلد ثور » (ذو الكلب ؛ شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥) .

(٥) « ترى البيض يركضن المجاسد بالضحى » (الأغانى ١٢ / ٥١ بولاق) .

(٦) « كأجواز المقرنة الدهم » (ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٣٠) .

(٧) « وأشقر غيداق الجراء » (ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨) .

(٨) « رميناهم بالحو والكمت » (الأغانى ١٣ / ٥ بولاق) .

(٩) ولا بطلا إذا الكماة تزينوا   لدى غمرات الموت بالحالك الفدم

(ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٢٦) .

الجلود عند حاجز [١] ، والوجوه المشرقة كلون الماء المذهب عند الشنفرى [٢] ، والنبت الأخضر فى الربيع [٣] ، واسوداد أنامل الفقراء فى الشتاء [٤] ، وسواد معاصم الفقيرات [٥] ، والقدر السوداء التى يجتمع حولها الفقراء الجياع [٦] ، عند عروة .

والمظهر الخامس من مظاهر هذه الواقعية الصراحةُ فى التصوير ، وتسجيل الواقع كما هو دون محاولة لإخفائه ، أو تغيير حقيقته ، وقد رأينا فى الفصل السابق أمثلة لهذه الصراحة التى تسجل الواقع كما هو فى أحاديث الشعراء الصعاليك عن فرارهم وهربهم ، وعن فقرهم وجوعهم وهزالهم ، وهوان وضعهم الاجتماعى .

ولا يجد الشاعر الصعلوك حرجاً من أن يتحدث عن فرحته بنعلين أهديتا له كما يفعل أبو خراش [٧] ، أو يتحدث عن نعليه الباليتين الممزقتين كما يفعل تأبط شراً والشنفرى وأبو خراش أيضاً [٨] ، أو عن ثيابه الأخلاق التى « إذا أنجمتْ منْ جانب لا تكفَّف » كما يقول الشنفرى [٩] ، أو عن حمله قربة الماء كما يذكر تأبط شراً [١٠] .

والمظهر السادس لهذه الواقعية الدقة فى التعبير ، تلك الدقة التى تحدد العبارة تحديداً واضحاً لا غموض فيه .

فحين يعتذر تأبط شرا عن فراره من أعدائه مخلفاً صاحبه لهم يراه يضع

---

(١) ويوم شروم قد تركنا عصابة ... لدى جانب الطرفاء حمرا جلودها
(الأغانى ١٢ / ٥١ بولاق) .

(٢) سراحين فتيان كأن وجوههم ... مصابيح أو لون من الماء مذهب
(ديوانه فى الطرائف / ٣٢) .

(٣) « حتى يؤكل النبت أخضرا » (ديوانه / ٦١) .

(٤) « كريما إذا اسود الأنامل أزهرا » (المصدر السابق / ٦٩) .

(٥) « ومن كل سوداء المعاصم تعترى » (المصدر نفسه / ٧١) .

(٦) « وإذ ما يريح الحى صرماء جونة » (المصدر نفسه / ١١٤) .

(٧) ديوان الهذليين ٢ / ١٤٠ ، ١٤١ .

(٨) المفضليات / ١٧ ، وديوان الشنفرى (المطبوع) / ٣٥ ، وديوان الهذليين ٢ / ١٣١ .

(٩) ديوانه (المطبوع) / ٣٧ ، والأغانى ٢١ / ١٤١ .

(١٠) البغدادى : خزانة الأدب ١ / ٦٥ ، ولسان العرب : مادة (عصم) . وقد رجحنا فى الفصل الأول من هذا الباب أن هذه الأبيات لتأبط شرا .

المسألة وضعاً « حسابياً » ، فماذا يفعل وقد نظر فإذا هؤلاء الأعداء أكثر من ثلاثة ؟ ولو أنهم كانوا اثنين مثليهما أو حتى ثلاثة ما فر مخلفاً صاحبه لهم :

تقولُ تَركتَ صاحباً لكَ ضائعاً وجئتَ إلينا فارقاً مُتباطنا

إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبتُ آمنا[1]

وحين يتحدث الشنفرى عن غارته على العوص مع أصحابه نراه يحدد عددهم تحديداً « حسابياً » أيضاً ، فيذكر أنهم كانوا ثمانية ، ويحدد الزمن الذى استغرقه طريقهم حتى وصلوا إلى العوص ، ثم يحدد أخيراً عدد من صرعوهم من أعدائهم[2] .

وحين يتحدث عن صديقه تأبط شراً أو « أم العيال » كما يسميه ، ويصف جعبةَ سهامه ، يحرص على أن يقدم لنا إحصائية دقيقة عن عدد هذه السهام فهى ثلاثون سهماً عراض النصال[3] .

وإلى جانب هذا « التحديد الحسابى » الذى يستمد دقته من لغة الأرقام نجد صورة أخرى تأتى من « التحديد الجغرافى » الذى يستمد دقته من ذكر المواضع وتحديدها على نحو ما يفعل كتّاب الوثائق والعقود ! !

فحين يصف الشنفرى خروجه مع أصحابه فى بعض غزواتهم يحدد مكان خروجهم تحديداً جغرافياً دقيقاً ، فيذكر أنهم خرجوا من الوادى الذى يقع بين مشْعل وبين الجبا[4]. وحين يهدّد بنى سلامان ، أعداءه الألداء ، يحدد المواضع التى سيلاقيهم بها تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ويعددها موضعاً موضعاً ، وهو تحديد يضفى على تهديده لوناً من التحدى لهم والاستخفاف بهم ، لأنه به « يكشف أوراقه » ، كما يقال فى لغة « اللاعبين »[5] . وحين يهدّد عروة أعداءه من الأوس « يكشف لهم أوراقه » أيضاً ، فيحدد لهم

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ .

(٢) ديوانه (المطبوع) /٣٢ .

(٣) المفضليات /٢٠٤ — وديوانه المصور : لوحة رقم ٤٨ — والأغانى ٢١/١٤٠ .

(٤) المصادر السابقة : المفضليات /٢٠٣ ، والديوان /٤٨ ، والأغانى /١٣٩ .

(٥) انظر رائيته فى ديوانه المطبوع /٣٥ ، ٣٦ ، وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ .

الموضع الذى سيلاقيهم به تحديداً دقيقاً ، فيذكر أنه سيلاقيهم « بمنبطح الأوعال من ذى السلائل »[1] . وكذلك يفعل الأعلم الهذلى :

فلستُ لحاصن إنْ لم تَرَوْنى ببطن صَريحة ذات النجال
وأمى قَينةٌ إن لم ترونى بعورش وسط عَرْعَرها الطوال[2]

وإلى جانب هذا « التحديد الجغرافى » نجد صورة أخرى من صور الدقة فى التعبير يصح أن نطلق عليها « التحديد التعبيرى » ، ونقصد به ذلك التحديد اللفظى الدقيق لمدلول العبارة الذى يأتى من طبيعة اللفظ أو النظم أو من طبيعتهما معاً . فحين يصف تأبط شرًّا الحية يذكر أن خروجها يكون « بُعيد غروب الشمس » :

أصم قُطَارِى يكون خروجه بُعيدغروبالشمسمختلف الرَّمْس[3]

والدقة هنا تأتى من ذلك التصغير لظرف الزمان ، وهو تصغير يحدد الوقت تحديداً دقيقاً .

وحين يصف غلاماً قابله فى بعض مغامراته ، وكادت الأعجوبة أن تحدث ويسقط تأبط شرًّا صريع سهم من سهامه ، لا يكتفى بأن يذكر أنه غلام ، ولكنه يحدد طوله وسنه تحديداً طريفاً ولكنه دقيق ، فهو غلام يزيد طوله على خمسة أشبار ، ولكنه لم يبلغ السن التى تشتهيه فيها النساء :

غُلامٌ نما فوق الخُماسىِّ قَدره ودونَ الذى قد ترتجيه النواكحُ[4]

وحين يصف تلك القلة البارزة التى تشبه سنان الرمح ، والتى يسرع إليها مع أصحابه ، يحرص على أن يسجل لنفسه سبقه إياهم فى الوصول إليها ، ولكنه

(١) انظر لاميته فى ديوانه / ٢١٠ . وذو الشلائل فيه تصحيف صوابه ما أثبتناه هنا كما هو وارد فى الأغانى ٣ / ٧٥ ، ومعجم البلدان لياقوت ٥ / ١٠٥ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٧ .

(٣) لسان العرب : مادة (قطر) — القطارى : الحية تأوى إلى قطر الجبل ، أو مأخوذ من القطار وهو سمها الذى يقطر من كثرته .

(٤) الأغانى ١٨ / ٢١٦ . وغلام خماسى : طوله خمسة أشبار (انظر القاموس المحيط مادة « خمس ») .

فى الوقت نفسه حريص على ألا يسىء إليهم ، أو أن يكون حديثه عن نفسه طعناً فيهم ، فنراه يعتمد على هذا « التحديد التعبيرى » فيذكر أنه سبقهم إليها لا لأنهم كسالى ، فهم جميعاً صعاليك نشطون ، ولكن لأنه أسرع منهم :

وقُلَّةٍ كسنان الرمح بارزة ضَحْيانة فى شهور الصيف مِحْراق
بادرتُ قُنتها صحْبى وما كَسِلوا حتى نَمَيْتُ إليها بعد إشراق[1]

وهى دقة فى التعبير يشبهها قوله فى القصيدة نفسها حين أراد أن يتحدث عن قوة نفسه وأنه حريص على رفاقه أكثر من حرصه على رفيقاته :

ولا أقول إذا ما خُلَّةٌ صَرَمتْ يا ويحَ نفسىَ من شوق وإشفاق
لكنما عِوَلى ، إنْ كنتُ ذا عِوَل على بصير بكسب الحمد سباق[2]

فهو لا يريد أن يسجل على نفسه ضعفاً سواء فى موقفه من رفيقته أو فى موقفه من رفيقه ، فحين أحس أنه قد ضعف فى مطلع البيت الثانى استدرك وحدد عبارته تحديداً دقيقاً أثبت به حرصه على رفيقه ، ونفى ما بدا من ضعف فى مطلع عبارته ، فالدقة هنا تأتى من هذه المقدرة البارعة على النفى والإثبات فى موضع واحد .

والمظهر السابع من مظاهر هذه الواقعية ظهور الخبرة العملية فى فنهم . وهو مظهر يجعلنا نشعر بأننا أمام إنسان يعيش فى الواقع العملى لا أمام شاعر يعيش فى الخيال والأوهام . وقد رأينا أبا خراش فى حديثه عن حمر الوحش يذكر تمنع الأتن الحوامل على الذكر ، وهى ظاهرة مقررة عند علماء الحيوان . وحين يصف الأعلم الظليم يذكر من بين أوصافه أنه «زمخَرِىّ السواعد»[3] أى أن عظامه جُوفٌ لا مخ فيها ، ويذكر شُراحُ شعره أن «النعام جُوف

(١) المفضليات /١٦ ، ١٧ ، ولسان العرب مادة (ضحا) ١٩ / ١١٤ ، ومادة (نمى) ١٦ / ٦٢ وفيها قلتها ، وقبل إشراق .

(٢) المفضليات / ١١ ، ١٣ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٢ ، وشرح المفضليات لابن الأنبارى / ٢٢٩ ، ولسان العرب مادة (حتت) ٢ / ٣٢٧ ومادة (زمخر) ٥ / ٤١٨ ، ومادة (برى) ١٨ / ٧٥ .

العظام لا مخ فيها[١] » ، ويقول الجاحظ فى حديثه عن النعام « ومن أعاجيبها أنها مع عِظَم عظامها وشدة عدوها لا مخ لها[٢] » ، والطريف أن الجاحظ يستشهد على هذا ببيت الأعلم الذى نحن بصدده . وهكذا نرى شعر الصعاليك مصدراً من مصادر دراسة حيوان الصحراء يعتمد عليه الدارسون فى تأييد آرائهم . وقد رأينا تأبط شرًّا حين يصف الحية يذكر أن خروجها يكون « بعيد غروب الشمس » ، وهو تحديد دقيق لوقت خروج الأفاعى من جحورها ، تؤيده الخبرة العملية ، وليس غريباً على تأبط شرا أن يذكر ذلك ، لأنه بحكم طبيعة حياته مضطر إلى ملاحظة هذه الظواهر ، وقد قيل له : « هذه الرجال غلبتَها ، فكيف لاتنهشك الحياتُ فى سراك ؟ فقال : إنى لا أسرى البرْدَيْن ، يعنى أول الليل لأنها تمورُ خارجة من جحرتها ، وآخر الليل تمور مقبلة إليها »[٣] وهكذا يكون هذا البيت صدى لتجربته العملية التى تصورها هذه العبارة .

ومن أدل الأمثلة على هذه الخبرة العملية التى تظهر فى شعر الصعاليك أنهم لا يكادون يذكرون الضباع إلا فى مجال الحديث عن الموت ، وقد رأينا ذلك الفزع الذى كان يسيطر على نفوس بعض الشعراء الصعاليك من أن تُلقَى أجسادهم بعد مقاتلهم إلى الضباع ، والذى ظهرت آثاره فى شعر الأعلم وتأبط شرًّا ، كما رأينا حديث تلك الوليمة التى يُعدها الشنفرى للضبع من جسده بعد مقتله .

ومن المقرر عند علماء الحيوان أن الضبع « مولعةٌ بنبش القبور لكثرة شهوتها للحوم بنى آدم[٤] » ، وهذه الحقيقة العلمية المقررة هى التى عرفها تأبط شرا الجاهلى ، وظهرت آثارها فى شعره ، حين وصف الضبع فى دقة رائعة بأنها « تفرى الدفائنا »[٥]. ومن الطريف أن الجاحظ عند حديثه عن الضباع وولعها بنبش القبور و « فرط طلبها للحوم الناس » يستشهد بأبيات

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٢ س ١١ ، ١٢ .
(٢) الحيوان ٤/٣٢٦ .
(٣) الأغانى ١٨/٢١٠ .
(٤) الدميرى : حياة الحيوان ٢/٦٧ .
(٥) الأغانى ١٨/٢١٣ .

الشنفرى التى يبشر فيها الضبع بجسده بعد مقتله ولكنه ينسبها لتأبط شرًّا[١] ، وهو اختلاف لا يضير قضيتنا شيئاً فكلا الشاعرين صعلوك .

ولعل أكثر الأمثلة على خبرة الشعراء الصعاليك العملية دوراناً فى شعرهم تلك الموازنات التى يعقدها العداءون منهم بينهم وبين مجموعة حيوان الصحراء المشهور بشدة العدو ، فإن اختيار هذه المجموعة دليل على خبرتهم العملية بها . وكذلك تلك الأمثال التى يضربها الهذليون بطائفة من حيوان الصحراء الشارد الممتنع عند حديثهم عن الموت ، فإن الإلحاح على ذكر أحوال هذا الحيوان وطباعه وخصاله دليل على خبرتهم العملية به .

ومهما يكن من أمر هذه الحقائق التى يذكرها الشعراء الصعاليك فليس مما يعنينا هنا مطابقتها أو عدم مطابقتها لما يقرره العلم الحديث الآن ، إذ ليس من الإنصاف أن نتخذ ما وصل إليه العلم التجريبى الحديث من حقائق علمية مقياساً لما يذكره هؤلاء الشعراء القدماء ، وإنما حسبنا أن ما يذكرونه كان صدى صادقاً لمشاهدتهم العملية فى حياتهم الواقعية ، أو لما كان يدور فى مجتمعهم من معلومات .

٨

السرعة الفنية :

وإذ كانت حياة الشعراء الصعاليك قلقة مضطربة لا تكاد تعرف للاستقرار أو الطمأنينة طعماً ، فهم دائماً مشغولون بكفاحهم من أجل العيش ، ذلك الكفاح الدامى المرير الذى فرغوا له فراغاً تامًّا ، والذى وهبوا له حياتهم ، وجعلوه مذهباً لهم يعيشون له ويموتون فى سبيله ، وإذ كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم ، كانت النتيجة الفنية لهذا أن اتسم شعرهم بالسرعة الفنية ، فالعمل الفنى عند الشعراء الصعاليك أشبهُ الأشياء بشوط من أشواط عَدْوهم ، يندفعون فيه ولا يتوقفون حتى يصلوا إلى غايتهم . وليس من البعيد أن تكون هذه السرعة الفنية التى وسمتْ شعرهم صدى نفسيًّا لتلك

---

(١) الحيوان ٦/٤٥٠ .

السرعة التى اعتمدت عليها حياتهم ، منبعثاً من أعماق « اللاشعور » . ولست أدرى فقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن الصنعة الفنية فى شعر عروة أبطأ وأشد أناةً وإحكاماً منها فى شعر صعاليك السراة ، ومن المعروف أن عروة لم يكن من العدائين وإنما الصعاليك العداءون — كما رأينا من قبل — هم أولئك الذين كانوا ينزلون منطقة السراة بين مكة واليمن[1] .

وقد رأينا من مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة فى شعرهم ، وتخلصهم من المقدمات الطللية ، ومن التصريع ، وهى مظاهر ترجع إلى الشكل العام أو البناء الخارجى للعمل الفنى .

وحين نمضى إلى داخل البناء الفنى لشعر الصعاليك نجد أن أقوى مظاهر هذه السرعة « خفوت الصنعة الفنية » فى شعرهم بحيث لا يكاد الناظر فيه يلمح أثراً من آثار التجويد الفنى المتمهل الواضح الأناة ، وإنما هو حديث سريع يتدفق من نفس الشاعر دون أن يحرص على أن يتمهل هنا أو هناك لينمقه أو يوشيه بتلك الألوان الفنية المختلفة التى يحرص عليها الشعراء المحترفون . والواقع أن حياة الشاعر الصعلوك لم تكن بالتى تتيح له من الفراغ والاطمئنان ما يجعله يتمهل فى عمله الفنى أو يتأنى فيه. وهل نستطيع مثلا أن نتصور أن السليك وقد مضى للغارة مع صعلوكين التقى بهما فى طريقه ، ثم مضى وحده ليستكشف لهما خبر نار لاحت لهم ، حتى إذا ما بلغها ووجد أن ليس عندها سوى عبيد وإماء يسهل التغلب عليهم ، رفع عقيرته متغنياً بهذين البيتين ليعلم صاحبيه أن الفرصة سانحة :

يا صاحبىَّ ألا لا حىَّ بالوادى إلا عبيدٌ وآمٌ بين أذواد
أتنظران قليلا رَيثَ غفلتهم أم تعْدوان فإن الريح للعادى[2]

هل نستطيع أن نتصور أن السليك فى هذا الجو يستطيع أن يفرغ

---

(١) الباب الأول : الفصل الثانى (التفسير الجغرافى) ص ٨٦ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٢١٥ . والأغانى ١٨/١٣٤ . وانظر البيت الثانى فى لسان العرب : مادة (روح) .

لفنه مجوداً منمقاً موشياً ؟ أظن أن الشاعر لم يكن يبغى من وراء هذين البيتين سوى أن يسمعهما صاحباه فيفهما عنه ما يريد ، فالصنعة الفنية لم تكن هدفاً يحرص عليه ، وإنما كل حرصه على أن يبلغ صاحبيه هذه الرسالة ، أو بتعبير أدق هذه « البرقية » فى أسرع وقت حتى لا تفلت منهم الفرصة .

ومثل السليك كان أكثر الصعاليك ، وخاصة العدائين منهم ، لم تتح لهم حياة الكفاح وما تلقيه على كواهلهم من تبعات جسام فراغاً لفنهم يجودونه وينمقونه ويخرجونه إخراجاً متأنياً متمهلا .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشعر عند الصعاليك لم يكن « حرفة » تقصد لذاتها ، ويفرغ صاحبها لتجويدها ، والوصول بها إلى المثل الأعلى الذى يستطيع معه أن يدخل حلبة المباراة الفنية ليقول لغيره من الشعراء : هأنذا ، وإنما كان الشعر عندهم وسيلة يسجلون بها مفاخرهم ، أو ينفسون بها عما تضيق به صدورهم من تلك « العقد النفسية » التى تمتلئ بها أعماق نفوسهم ، أو يدعون بها إلى مذهبهم فى الحياة لعلهم يجدون من يؤمن به وينضم إليهم ، أما أن يرضى عنهم المجتمع الفنى الذى يعيشون فيه فهذا أمر لم يكن فى حسابهم ، فهم يعرفون أنهم يعيشون فى مجتمعهم شذاذاً متمردين ليس بينهم وبينه إلا صلة الصراع ، وهم لهذا يدركون أن مجتمعهم لن يرضى عن فنهم كما لم يرض عنهم ، ولن يحرص عليه كما لم يحرص عليهم ، ويعرفون أن القبائل لا تحرص إلا على شعرائها ، ولا تشغل إلا بهم ، ولا تقيم وزناً إلا لهم ، ولا تخص بالتقدير والإعجاب إلا شعرهم . وهكذا انصرف الشعراء الصعاليك عن احتراف الشعر ، ولو أنهم فكروا فى احترافه لاتخذوا منه وسيلة يتكسبون بها كما يتكسب بها غيرهم من الشعراء ، ولضمنوا بهذا لأنفسهم حياة هادئة مستقرة مطمئنة كالتى كان يحياها غيرهم من الشعراء المحترفين .

ولعل « التشبيه » أقوى الألوان الفنية التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك فى شعرهم ، وهو لون يتفق تماماً مع هذه السرعة الفنية التى لاحظناها ، إذ أن الصنعة الفنية فى التشبيه صنعة سريعة لا تتجاوز عقد موازنة بين أمرين يشتركان فى معنى ، وهو — من هذه الناحية — غير الاستعارة مثلا التى تعتمد على لون

من الصنعة الفنية العميقة المتأنية . وفى صنيع القدماء من علماء البلاغة ما يشعر بهذا ، فقد جعلوا التشبيه المرحلة الأولى التى تبنى عليها الاستعارة ، ووجه بنائها على التشبيه — كما يقولون — أن استعارة اللفظ إنما تكون بعد المبالغة فى التشبيه ، وإدخال المشبه فى جنس المشبه به ادعاء. ومن هنا دار بينهم كلام طويل حول جعله بابا مستقلا من أبواب البيان مع أنه مقدمة لها تتوقف عليه ، وهل توقف بعض الأبواب على بعض يوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن أولا يوجب[1] . ومعنى هذا بتعبير أيسر أن العملية الفنية فى التشبيه عملية بسيطة من درجة واحدة ، ولكنها فى الاستعارة عملية مركبة من درجتين .

وعلى كل حال ، وبدون الوقوف عند هذه التعليلات العقلية ، فالأمر الذى لاشك فيه أن الصنعة الفنية فى التشبيه صنعة سريعة لا تحتاج إلى أكثر من وضع الأمرين المراد عقد الموازنة التشبيهية بينهما فى معرض واحد حتى يتضح وجه الشبه بينهما .

وحين ننظر فى شعر الصعاليك لنتبين كيف استخدموا هذا اللون الفنى فى صناعة نماذجهم فإن أول ما نقف عنده تلك العناصر التى استخدموها فى تأليف هذا اللون ، أو بعبارة أخرى نستأذن أصحاب الرسم فى استعارتها منهم « صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » .

وصندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك صندوق متعدد العناصر ، ولكنها فى مجموعها عناصر قاتمة قليلة الإشراق والتألق ، مستمدة من تلك البيئة البدوية القاحلة التى يعيشون فيها، ومتأثرة بتلك الحياة الخشنة القاسية التى يحيونها ، ومتسمة بتلك الواقعية التى تسيطر على تفكيرهم ومزاجهم .

والحق أن هذه العناصر أكثر من أن تحصى ، لأنها — من ناحية — مستمدة من واقع الحياة بكل ما فيه من مظاهر متعددة ، ولأنها — من ناحية أخرى — منتشرة فى شعرهم انتشاراً واسعاً . ولكننا مع ذلك سنحاول أن نردها إلى

---

(١) انظر شروح التلخيص عند قول صاحب التلخيص فى مقدمة علم البيان « ثم منه ما يبنى على التشبيه فتعين التعرض له » ٣ / ٢٨٩ وما بعدها (الطبعة الثانية بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٣هـ).

ثلاثة منابع أساسية : عالم الحيوان أولا ، والحياة الإنسانية ثانياً ، ثم البيئة الطبيعية ثالثاً ، وهو ترتيب قائم على أساس « الكم » ، كما يقول المناطقة .

أما المنبع الأول فلعله أغزر المنابع التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك فى تشبيهاتهم ، فقد استغلوا حيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها استغلالا واسعاً . ومَرد ذلك من غير شك إلى حياتهم القريبة منها نتيجة لتشردهم فى مواطنها الأصلية وبيئاتها الأولى . وقد رأينا فى الفصل السابق أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً منها ، وطبيعى أننا لم ندخل فى ذلك الإحصاء تلك الأنواع الأليفة التى تعرضوا لها بالذكر كالإبل والخيل والغنم والبقر ، لأننا كنا بصدد الحديث عن تشردهم .

وقد رأينا فى الفصل السابق كيف استغل الشعراء الصعاليك الطير وحيوان الصحراء المشهور بالعدو فى حديثهم عن شدة عدوهم . وحين ننظر مرة أخرى فى هذه الظاهرة الموضوعية فى شعر الصعاليك من الزاوية الفنية التى ندرسها الآن نجد أن التشبيه هو أكثر الأساليب شيوعاً فى هذا الحديث .

أما ضوارى الصحراء ، وجوارح طيرها ، وأفاعيها ، فأكثر ما يستغلها الشعراء الصعاليك فى تشبيه أنفسهم أو رفاقهم أو أعدائهم بها .

فالشنفرى سِمْعٌ أزل لا يبالى بشىء مهما يكن صعباً :

أنا السِّمْعُ الأزَلُّ فلا أبالى ولو صَعُبَتْ شناخيبُ العِقَابِ[1]

وبنو سلامان أعداؤه الألداء يعرفون بشائر عرامته منذ صغره يوم أن كان يمشى بينهم كالأسد الوَرْد :

هُمُ عرفونى ناشئاً ذا مَخِيلَة أمشِّى خلالَ الدار كالأسد الورد[2]

ويصف تربصه فوق المرقبة العالية المنيعة ، وكيف بات على حد ذراعيه « كما يتطوى الأرقش المتقصِّف »[3] ، أو « الأرقمُ المتعطِّف » فى رواية

(١) ديوانه المطبوع /٣٣ — والسمع فيما يرى العرب ولد الذئب من الضبع .
(٢) المصدر السابق /٣٤ .
(٣) الأغانى ٢١/١٤٠ .

أخرى[١] . ويشبه قيس بن الحدادية قومه — فى بعض شعره القبلى — بالضراغم ؛ فيقول معيراً أعداءهم بالهزيمة :

غداةَ توليتم وأدبر جَمْعكم   وأُبْنَا بأَسراكم كأنا ضراغم[٢]

ويشبه صخر الغي وروده ماء مخوفاً على حذر بمشى النمر حين يستقبل ريحاً باردة نَدية :

وماء وردتُ على زَوْرَة   كمشى السَّبَنْتى يَرَاحُ الشفيفا[٣]

ورفاق الشنفرى « سراحين فتيان[٤] » ، وصاحب أبى خراش « كالسِّرحان سُرْحوب[٥] » وعدوّ أبى خراش يسقط صريعاً كما يسقط نَسرٌ أكل لحماً مسموماً :

به نَدعُ الكمىَّ على يديه   يَخِرُّ تخاله نَسرًا قشيبا[٦]

وهى صورة قوية تستمد قوتها من عنصر « الحركة » الذى نتمثله فى سقوط النسر صريعاً ، ذلك السقوط العنيف المفاجئ الذى يمثل لنا سقوط العدو تمثيلا قويًّا بعد أن عبر عنه الشاعر بتلك اللفظة الموحية المعبرة « يخر » .

ولكن تأبط شرًّا يخرج على هذه القاعدة ، فيشبه حصان الشنفرى فى رثائه له بالعُقاب التى تنقض بين ذروتين شامختين :

وأشقرُ غَيْداقُ الجِرَاء كأنه   عُقابٌ تدلَّى بين نِيقَين كاسرُ[٧]

ويستغل الشعراء الصعاليك النحل فى صورتين : صورة تعتمد على الصوت ، وصورة تعتمد على الهيئة . أما الأولى فهى صورة القوس حين تنطلق منها سهامها

---

(١) ديوانه المطبوع / ٣٧ .

(٢) الأغانى ١٣ / ٤ (بولاق) .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٧ ، وشرح المفضليات لابن الأنبارى / ٨٧٢ ، ولسان العرب مادة (روح) ٣ / ٢٨٢ ، ومادة (زور) ٥ / ٤٢٣ ، وورد الشطر الثانى فقط فى مادة (شفف) ١١ / ٨٣ .

(٤) ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٢ ، والأغانى ١٨ / ٢١٦ .

(٥) ديوان الهذليين ، القسم الثانى / ١٦١ .

(٦) المصدر السابق / ١٣٥ — القشيب هنا : المسموم .

(٧) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ ، وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤١٧ .

فتحدث حفيفاً مبهماً غير واضح هو فى سمع بعض الشعراء الصعاليك كصوت النحل ، وأما الأخرى فهى صورة الجماعات الكثيرة المتزاحمة سواء أكانوا أعداء يطاردونهم ، أم وفود المعوزين المحتاجين على أبواب الكرماء .

فحفيف النبل فى سمع الشنفرى حين ينطلق من قوسه كصوت النحل العائد إلى غاره وقد أخطأه فهو يحوِّم حوله :

كأن حفيف النَّبل من فوق عَجْسها   عَوَازبُ نحل أخطأ الغارَ مُطْنِفُ[1]

وأعداء تأبط شرًّا من خلفه وهم يطاردونه كالنحل الكثير الذى يتجمع فى خليته :

ولم أنتظرْ أنْ يَدهمُونى كأنهمْ   ورائى نَحلٌ فى الخلية واكنا[2]

وطالبو الحاجات الذين يغشون باب بعض الكرماء الذين يمدحهم أبو خراش يشبهون النحل الذى يهوى إلى غاره :

ترى طالبى الحاجات يَغْشَوْن بابه   سراعاً كما تَهْوى إلى أُدَمَى النحل[3]

وكما استغل الشنفرى النحل فى تصوير حفيف سهامه استغل القطاة فى تصوير أفواقها ، ففُوقُ سهمه مدوَّر كعرقوب القطاة :

عليه نُسَارِىٌّ على خُوط نبعة   وفُوق كعرقوب القطاة مُدَحْرج[4]

وإذا كان المطاردون عند تأبط شرًّا كالنحل فإن العدائين عند أبى خراش كأرجال الجراد الذى يقصد إلى الأماكن الغليظة المرتفعة :

وعادِيَة تُلْقى الثيابَ وَزَعتُها   كرِجْل الجراد ينتحى شَرَفَ الحَزْم[5]

ويستغل الشعراء الصعاليك من الغربان جانبين متناقضين : سوادها الحالك ، وصفاء عيونها الشديد . فقطعان السوام عند صخر الغى كجماعات الأغربة فى سوادها :

---

(١) الأغانى ٢١/١٤١ .

(٢) الأغانى ١٨/٢١٣ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٦ — أدمى : موضع .

(٤) ديوانه المطبوع / ٣٤ . والمصور : لوحة ٥٢ . والأغانى ٢١/١٤١ .

(٥) ديوان الهذليين ٢/١٣٢ .

فأرسلوهنَّ يَهْتَلكْنَ بهم شَطرَ سَوَام كأنها العَجَدُ[١]

أما عيون الماء في ديار أبي الطمحان التي يحن إليها وهو خليع مجاور في مكة فهي في صفائها كعين الغراب :

إذا شاء راعيها استقى من وَقيعة كعين الغراب صَفوُها لمْ يُكَدَّرِ[٢]

ويستغل الشعراء الصعاليك السماني استغلالا طريفاً ، فهم يشبهون بأشلائها نعالهم الممزقة ، وهي طرافة تأتي من تلك المفارقة الغريبة بين طرفي التشبيه :

ونعل كأشلاء السُّمانَى تركتُها على جنب مَوْر كالنحيزة أغبرا[٣]

ونَعل كأشلاء السماني نَبذتها خِلافَ نَدى منْ آخر الليل أو رِهَم[٤]

ويستغل الشعراء الصعاليك الإبل في تشبيهاتهم على صورة واسعة ، ولكنها لا تصل إلى الدرجة التي نراها في استغلالهم لحيوان الصحراء السريع أو ضواريها . ومرد ذلك — فيما يبدو — إلى قلة اتصالهم بتلك الفصيلة من الحيوان التي هي أول سمات « الرأسمالية » العربية . وقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن أكثر الأوضاع التي يتخيرونها للإبل في تشبيهاتهم تعد من الناحية النفسية أصداء لذلك الحقد الذي كان يملأ نفوسهم عليها ، فالصعلوك الخامل المذموم عند عروة :

يُعينُ نساءَ الحي ما يَسْتَعِنَّه فيمسي طليحاً كالبعير المُحَسَّرِ[٥]

والجبل بعد أن غسله المطر وصقله عند صخر الغي كالبعير الأجرب الذي طُليَ ونتف :

فذاكَ السُّطاعُ خِلافَ النِّجَا ء تحسبه ذا طلاء نَتيفا[٦]

وحين يسخر أبو خراش من امرأته التي لا تستطيع صبراً على الجوع يذكر

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/١٣ — والحديث في البيت عن الفرسان والخيل. الاهتلاك: رمي النفس في تهلكة . والعجد : الغربان .

(٢) الأغاني ١١/١٣٤ (بولاق) . والحيوان للجاحظ ٣/٤٢١ — الوقيعة : المكان الصلب يمسك الماء . وفي الأمثال « أصفى عيناً من الغراب » (المصدر الأخير /٤٢١) .

(٣) الشنفرى في ديوانه المطبوع /٣٥ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

(٤) أبو خراش في ديوان الهذليين ٢/١٣١ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

(٥) ديوانه /٧٧ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/٤٤ — السطاع : جبل . خلاف النجاء أي بعد المطر .

أن جوفها كجوف البعير :

إذا هي حنتْ للهوى حنَّ جوفها كجوف البعير ،قلبُهاغير ذي عزْمِ[1]

والقبر عنده فى احديدابه ومنظره العام كالبعير :

إذا راحوا سواى وأسلمونى لخشناء الحجـارة كالبعير[2]

ومع ذلك فلا يخلو الأمر من بعض الصور الطريفة التى أحسن الشعراء الصعاليك اختيار أوضاعها وألوانها ، فحين يصف أبو خراش عدوَه هو ورفاقه فى ليلة ممطرة من ليالى جمادى الباردة ، يشبه الغثاء الكثيف الملتف تحت أقدامهم بأوساط الإبل الدهم التى قُرن بعضها ببعض :

إذا ابتلت الأقدامُ والتف تحتها غُثاءٌ كأجواز المقرَّنة الدُّهم[3]

وصوت القوس عند عمرو ذى الكلب كحنين الناقة المسنة المتخلفة عن الإبل الفتية لأنها لا تستطيع مسايرتها :

تعجُّ فى الكف إذا الرامى اعتزمْ تَرَنمَ الشارف فى أُخرى النَّعم[4]

أما الخيلُ فهى قليلة الدوران فى تشبيهات الشعراء الصعاليك لدرجة كبيرة . ويبدو أن السبب فى هذا قلة اعتمادهم عليها فى حياتهم . ولكن الصور التى وردت — على قلتها — مشرقة زاهية . ولعلَّ أطرف هذه الصور على الإطلاق صورتان : صورة الفجر عند تأبط شرا حين لاح ضوؤه كأنه تلك الخطوط البيضُ فى جواد أدهم :

وقد لاحَ ضوءُ الفجر عَرْضاً كأنه بلمْحتـــه أقرابُ أبلقَ أدهمِ[5]

وصورة البرق الذى يلمع بين السحاب الأسود عند عروة كأنه فرس بلقاء حديثة النتاج تُنحى برجليها ذكور الخيل عن ولدها فيبدو بياض بطنها :

إذا قلتُ استهل على قُدَيْدٍ يَحورُ ربَابه حَوْرَ الكسيرِ

---

(١) ديوان الهذليين القسم الثانى /١٢٦ .

(٢) المصدر السابق /١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه /١٣٠ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/٢٤٠ .

(٥) الأغانى ١٨/٢١٥ .

تَكَشَّفَ عائذ بلقاءَ تَنْفى ... ذكورَ الخيل عن ولد، شَغُور[١]

ويستغل تأبط شرًّا جبنَ الغنم وخوفها فى رثائه للشنفرى، فيشبه أعداءه وهو يجيل فيهم سلاح الموت بالغنم المذعورة :

تجيلُ سلاحَ الموت فيهمْ كأنهم ... لشوكتك الحُدَّى ضَئينٌ نوافرُ[٢]

أما الشنفرى فيستغل أولاد البقر فى رسم صورة غريبة، فهو يشبه سيوف رفاقه الصعاليك مُشرعة فى أيديهم وهى تنهل من دماء أعدائهم وتعل بأولاد البقر الصغار إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرّك أذنابها :

تراها كأذناب الحسيل صوادرًا ... وقد نَهِلتْ من الدماء وعَلَّتِ[٣]

وهى صورة تستمد غرابتها من هذه المفارقة بين طرفى التشبيه : أولاد البقر الصغيرة المسالمة، وسيوف الصعاليك المخضبة بالدماء.

أما المنبع الثانى لأصباغ لون التشبيه عند الشعراء الصعاليك، وهو الحياة الإنسانية، فمن الممكن أن نرده إلى أربعة مظاهر من مظاهر هذه الحياة : الحياة الاجتماعية، والحياة الاقتصادية، والحياة النفسية، والحياة الجسدية.

وقد استخدم الشعراء الصعاليك عناصر هذا المنبع الإنسانى استخداماً طريفاً، ولعل أطرف ما فيه أنه يصور كيف كان تأثر هؤلاء الصعاليك بالحياة التى كانت تدور حولهم أو التى كانوا يدورون فيها.

فحين يرى صخر الغى السحاب الثقيل وهو مقبل فى بطء لا تتراءى أمامه إلا صورة الأسير الذى يُساق فى قيوده فهو بطىء الخطو متثاقله :

وأقبلَ مَرًّا إلى مَجْدَل ... سياقَ المقيد يمشى رَسِيفا[٤]

وهى صورة من الطبيعى أن تتراءى لهذا الصعلوك الهذلى الذى كان

---

(١) ديوانه/٤٢ — العائذ : الحديثة النتاج. وشغور صفة لعائذ، وهى التى ترفع رجليها.

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع /٢٨. وشرح المفضليات /١٩٩. مع اختلاف فى ألفاظ الشطر الأول — الحدى : الحادة، مؤنث أفعل التفضيل.

(٣) المفضليات /٢٠٥.

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/٤٣.

يعيش قريباً من مكة حيث سوق الرقيق يُساق إليها الأسرى الذين لا يفتديهم أهلهم حيث يباعون .

وحين يُفرغ هذا السحاب مطره بعد ما تكاثفت أواخره ، ويهدأ ذلك الدويّ الذى كانت تثيره رعوده ، يرى الشاعر أن أقرب صورة لهذا المنظر صورة جماعة من النصارى مجتمعين فى عيد من أعيادهم يَسقى بعضهم بعضاً ، وهم من مرحهم ولهوهم فى ضجة وصخب ، ولكنهم ينظرون فإذا أمامهم رجل من غير دينهم ، فإذا ضجتهم تهدأ ، وصخبهم ينقطع ، حتى يتبينوا أمر هذا الغريب :

كأن تَوَاليَــهُ بالملا نَصَارَى يُساقَوْنَ لاقوا حنيفا[1]

وهى صورة ترسم فى براعة ممتازة جانباً دقيقاً من الحياة الدينية فى العصر الجاهلى . ومن الطبيعى أن يعرف صخر الغى هذا الجانب معرفة دقيقة ، فقد كانت هذيل تنزل فى تلك المنطقة التى تقع فيها مكة المركز الدينى الأول فى جزيرة العرب ، والتى تقام فيها أشهر الأسواق التى كان القسس والرهبان يردونها فيعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

ومن هنا أيضاً نستطيع أن نكشف الستار عن تشبيه الأعلم الهذلى لجلود جراء الضباع السود بثياب الرهبان :

سُودٍ سحاليلٍ كأن جلودهن ثيابُ راهبْ[2]

ولكنا مع ذلك نحس شيئاً من السخرية الماكرة من هذه التقاليد الكهنوتية فى عقد الصلة بين جراء الضباع وبين الرهبان ، وهى سخرية ليست غريبة على هؤلاء الصعاليك المتمردين على كثير من تقاليد مجتمعهم .

وحين يلمع البرق فإن الصورة التى تتراءى لصخر الغى هى صورة ذلك البشير الذى أقبل بعد غزوة ناجحة وهو يحرك ترْسه فى كفة ليعلم أصحابه أنه قد عاد غانماً :

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٤٥ . وديوان الهذليين القسم الثانى /٧١ — وقد اختلف المفسرون فى معنى هذا البيت اختلافا عريضا ، ولكنى أظن أن هذه الصورة التى رسمتها للبيت هنا هى أقرب الصور إلى معناه .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٥٧ .

أرقتُ له مثلَ لمع البشير يُقلِّب بالكف فَرْضاً خفيفا[1]

وهي صورة — كما نرى — تستمد أصباغها من ذلك اللون المشرق من حياة المغامرة التي يحياها هؤلاء الصعاليك ، ومن هنا جاءت طرافتها .

وحين يرسم أبو الطمحان صورة لشيخوخته ، يستخدم لونين من ألوان الحياة الاجتماعية التي عاشها وتركت رواسبها في تفكيره ، فالدهر قد حناه حتى صار كالصياد الماكر الذي يحني قامته ليخفي شخصه عن صيد يدنو منه ، وهو قد أصبح قريب الخطو متثاقلا كالأسير المقيد :

حَنَتْنِي حانياتُ الدهر حتى كأني خاتلٌ يدنو لصَيْدِ

قريبُ الخطو يحسب من رآني ولستُ مقيدًا أني بقيد[2]

وهذان اللونان اللذان استخدمهما أبو الطمحان عاش في جوهما زمناً طويلا ، فليس من شك في أن حياته صعلوكاً اتصلت بالصيد اتصالا قريباً ، وليس من شك أيضاً في أن حياته مستجيراً في مكة بعد خلعه جعلته قريباً من تلك الأسواق التي تستقبل الأسرى لتنقلهم من قيود الأسر إلى قيود العبودية .

ويستخدم الشعراء الصعاليك ألوان المغامرة كثيراً في رسم صورهم التشبيهية . فالظبي المذعور عند أبي خراش ينطلق مسرعاً كما ينطلق القِدْحُ المعلَّم يرسله الضارب بالقداح :

يَطيحُ إذا الشَّعْراء صاتت بجنبه كما طاح قِدْحُ المستفيض الموشَّمُ[3]

وصاحبه في المرقبة يظل متربصاً فوقها كأنه قدحٌ كثير الفوز قد جعل صاحبه فيه علامة لشدة اعتزازه به وحرصه عليه :

يَظل في رأسها كأنه زُلَمٌ من القداح به ضَرْسٌ وتعقيبُ[4]

والصعلوك العامل الذي يمدحه عروة يظل مصدر تهديد لأعدائه مُطلا

---

(١) ديوان الهذليين القسم الثاني /٦٩ ، وشرح أشعار الهذليين ١/ ٤٣ وقد آثرت معنى البيت كما ورد في المصدر الأول — والفرض هنا الترس .

(٢) الأغاني ١١/ ١٣٠ (بولاق) ، والسجستاني : كتاب المعمرين / ٦٣ .

(٣) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٤٦ .

(٤) المصدر السابق / ١٦١ .

عليهم وهم يزجرونه كما يزجر المقامرون بعض قداحهم الخاسرة إذا ضربوا بها :

مُطلا على أعـــدائه يزجرونه بساحتهم زجر المَنِيح المشهَّر[١]

ومن أطرف الصور التى نراها عند الشعراء الصعاليك تلك الصور التى استخدموا فى رسمها ألواناً من الحياة الاقتصادية . ووجه الطرافة فى هذه الصور هو أنها مرسومة بريشة أولئك الصعاليك الفقراء الذين ارتبطت حياتهم بهذه الحياة ارتباطاً وثيقاً .

ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق ثلاث صور يرسمها صخر الغى ، يشبه فى إحداها أواخر السحب المتراكمة الثقيلة التى يتوالى بعضها فى إثر بعض بسفائن أعجمى رَسَتْ إلى بعض السواحل فأوقرَتْ من صادراته :

كأن تَوَالِيَــــه بالمــَلا سفائنُ أعجمَ ما يَحْنَ ريفا[٢]

ويتصور فى الثانية هذه السحب أيضاً وقد حملت من الماء ما أثقلها كأنها مقبلة من تجارة وقد حملت بضائع كثيرة اشتريت بغير حساب :

فأقبل منه طوالُ الذرى كأن عليهن بيعاً جزيفاً[٣]

ويدعو فى الثالثة أصحابه إلى أن يثبتوا فى القتال ، ويمشوا إلى أعدائهم كما تمشى جمال الحيرة المثقلة بالبضائع التى تحملها من تلك المنطقة التجارية الغنية :

يا قوم ليست فيهمُ غَفِيرَهْ فامشوا كما تمشى جمالُ الحِيرَه[٤]

ويستغل الشعراء الصعاليك أيضاً بعض مظاهر الحياة النفسية فى تشبيهاتهم ، على نحو ما رأينا عند الشنفرى الذى يشبه صوت قوسه بصوت الشجىّ الذى أثقلته همومه وأحزانه :

---

(١) ديوانه / ٧٨ — المنيح هنا هو القدح الذى لا نصيب له .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٣ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٦٩ — ما يحن أى خالطن .

(٣) المصدران السابقان : المواضع نفسها .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٣٣ .

وصفراءُ مِنْ نَبعٍ أَبِيٍّ ظَهيرةٌ تُرِن كإرنان الشجى وتهتفُ[1]

وهى صورة نفسية معبرة برغم إيجازها وتركيز ألوانها .

ولعل أطرف هذه الصور النفسية فى شعر الصعاليك تلك الصورة التى يرسمها عروة لموقف صعاليكه منه بعد أن تعهدهم حتى « أخصبوا وتمولوا » فإذاهم يلتوون عليه و يتنكرون له. وهو يستخدم فى رسم هذه الصورة لوناً من ألوان الحياة النفسية التى تعرفها الحياة الإنسانية فى مختلف عصورها : تلك الأم التى تعهدت وليدها الصغير متحملة فى سبيله كل تعب وجهد ، حتى إذا تم شبابه ، وراحت تنتظر خيره ، وترتجى نفعه ، تزوج فغلبت الزوجة الأم على ابنها ، وأخذته منها تاركاً أمه العجوز مكبة على حد مرفقيها تشكو وتولول مما نزل بها ، وهى حائرة ماذا تفعل ، ولكنها لا تملك فى النهاية إلا أن ترجع صابرة متجملة . يقول عروة مخاطباً صعاليكه :

فإنى وإياكم كذى الأُمِّ أَرْهنتْ له ماءَ عينيهَا تفدِّى وتَحْمِل

فلما ترَجتْ نفعــه وشبابه أَتتْ دونها أخرى جديدٌ تَكَحَّلُ

فباتتْ لحد المرفقين كليهما تُوَحوحُ ممــا نابها وتوَلولُ

تَخَيرُ من أمرين ليسا بغبطة هو الثكلُ ، إلا أنها قد تَجَمَّل[2]

والصورة هنا صورة نفسية متكاملة الخطوط والألوان ، دقيقة التلوين والتظليل إلى حد كبير ، ألح الشاعر فيها على المشبه به فجاءتْ تشبيها تمثيلياً رائعاً — على حد الاصطلاح البلاغى . وقد يكون طبيعياً أن تتراءى هذه الصورة من الحياة الإنسانية لعروة ، وهو الإنسان الذى وهب حياته للعمل من أجل تلك العناصر الضعيفة فى مجتمعه ، وجعل من نفسه أباً للصعاليك .

ويستخدم الشعراء الصعاليك بعض المظاهر الجسدية فى رسم صورهم التشبيهية . فالمأزق الحرج الذى تُسد أمام المرء جميعُ منافذه حتى لا يعرف له مخرجاً منه يشبهه تأبط شراً بسد المنخرين . يقول فى رثاء الشنفرى :

---

(١) ديوانه المطبوع / ٣٨ .

(٢) ديوانه / ١١٧ ، ١١٨ .

وأمر كسدٍّ المنخرين اعتليته   فنفَّستَ منه والمنايا حواضرُ[١]

وهى صورة — على بساطتها — قوية تستمد قوتها من معرفة كل إنسان بها معرفة عملية، وتسليمه بها تسليماً تجريبيّاً لامجال للتفكير النظرى فيه ، وهل يختلف اثنان فى أن أشد ما يقع فيه إنسان أن تكتم أنفاسه حتى يشعر كأن صدره يوشك أن يتمزق ؟

ويشبه أبو خراش اهتزاز ثوبه البالى فى أثناء عدوه بانتفاضة الحمى :

فَعدَّيتُ شيئاً والدريسُ كأنما   يُزَعزعه وِرْدٌ من المُوم مُرْدِمُ[٢]

وهى صورة تستمد قوتها من تلك الدقة فى اختيار المشبه به ، ومن ذلك القرب بينه وبين المشبه ، وهل هناك أقرب إلى اهتزاز الثوب وقد أخذت بصاحبه حمى العدو من انتفاضته وقد أخذت بصاحبه حمى المرض ؟

ولا يجد الشنفرى ما يشبه به رهبة الماء المخوف الذى يفتخر بوروده فى مغامراته الرهيبة مثل داء البطن الذى يخافه كل الخوف ، ويخشاه كل الخشية . يقول مخاطباً صاحبته :

وإنك لو تدرين أَنْ رُبَّ مَشْرَب   مَخُوف كداء البطن أو هو أَخْوَفُ

وردتُ بمأثور يمانٍ وضَالة   تخيَّرتها مما أَرِيشُ وأَرْصُف[٣]

وهى صورة نستطيع أن نشعر بما فيها من قوة وصدق فى الإحساس إذا تذكرنا أن حياة الصعاليك كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على سلامة الجسد وقوته وأنهم كانوا يفخرون بأنهم ضامرو البطون مهازيل قد نشرت أضلاعهم ، والتصقت أمعاؤهم ، لإيثارهم غيرهم على أنفسهم بالزاد ، ومن هنا كان أخوف ما يخافه أحدهم أى يصاب بمرض يضعفه ، ويقعد به عن تحقيق رسالته فى الحياة ، وبخاصة أمراض البطن التى يصاب بها المتخمون النهمون ، والتى تعد بالنسبة لهم اتهاماً صارخاً بالتنكر لهذه الرسالة وخيانتها .

---

(١) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٤٤ .

(٣) ديوانه المطبوع / ٣٨ .

أما المنبع الثالث لأصباغ لون التشبيه عند الشعراء الصعاليك ، وهو البيئة الطبيعية ، فلعله أقل المنابع الثلاثة تدفقاً فى شعر الصعاليك . ولست أرى سبباً لهذا سوى شغل الصعاليك بكفاحهم فى الحياة من أجل العيش عن التأمل فى الطبيعة ، واستغلال مظاهرها فى فنهم . وسنرى أن أصباغ هذا المنبع أقل طرافة من أصباغ المنبعين السابقين ، وأن الصور الطريفة فيه أقل منها فيهما .

فظبات السهام عند عمرو ذى الكلب كشوك شجر السَّيال[1] ، والربئ الذى يبعثه عروة ليرقب لهم الطريق يقوم فوق المربأة كأنه أصل شجرة لا يبرح موضعه :

إذا ما هبطنا مَنهلا فى مَخوفة   بعثنا ربيئاً فى المرابى كالجذل[2]

وعيون رفاق تأبط شرًّا ، أولئك الرفاق الأبطال الشعث ، كأنها نارُ الغضَا التى تتأجج بما يُلقَى عليها من أعشاب الجبال الجافة :

مساعرةٌ شُعثٌ كأَن عيونهم   حريقُ الغضَا تُلقَى عليها الشقائق[3]

ويتحدث تأبط شرًّا عن رجل كثير شعر الرأس متلبده لعدم عنايته به ، فيشبهه بحقف الرمل الذى كثر صعود الناس عليه حتى أصبح صلباً متماسكاً :

فذاكَ هَمى وغَزْوى أستغيثُ به   إذا استغثتُ بضافى الرأس نَغَّاق

كالحقْف حَدَّأَه النامون قلتُ له   ذو ثَلَّتين وذو بَهم وأرباق[4]

وحين يصف عروة الأسد يشبه زئيره بصوت الرعد ، ولكنه يشعر أنه تشبيه عادىّ مألوف ليست فيه براعة ممتازة ، فيحتال بعض الاحتيال ليضفى

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٥ بيت رقم ٢٠ وانظر / ١٩٩ من هذا البحث .

(٢) ديوانه / ١١١ .

(٣) الأغانى ١٨/٢١٤ .

(٤) المفضليات /١٥ — النغاق : الذى يصيح فى إثر الطرائد . والحقف : المجتمع من الرمل. النامون : الذين يرتفعون إليه ويدوسونه . وحدأه النامون أى داسوه وصلبوه بدوسهم إياه وصعودهم عليه . الثلة : القطعة من الغنم . والبهم : أولاد الشاء . والأرباق : جمع ربق وهو حبل يجعل منه مثل الحلق تشد فيه البهم. ويقال فى شرح البيتين أيضاً إنه يصف بهما فرسه . وعلى كلا المعنيين فالفكرة التى نقررها هنا واحدة .

عليه شيئاً من الغرابة والبراعة فيقلبه ، فإذا صوت الرعد كأنه زئير الأسد :

كأنَّ خَواتَ الرعد رزّ زئيره   من اللاءِ يَسكنَّ الغَريفَ بعثّرا[1]

ولعل أطرف الصور التى رسمها الشعراء الصعاليك مستخدمين أصباغ هذا المنبع تلك الصورة التى رسمها الشنفرى لصاحبته فى قصيدته التائية المشهورة ، وهى صورة حشدَ لها الشنفرى مجموعة من الألوان المتناسقة الزاهية ، وأجاد مزجها وعرضها إجادة رائعة ، فصاحبته طيبة الرائحة تملأ البيت عطراً ، كأن البيت أغلق على ريحانة مطلولة ، سرَت إليها نسماتٌ باردة فى وقت العشاء ، فجاءت بأريجها المعطر ، وهذه الريحانة نبتت فى ربوة فهى لهذا قوية الرائحة ، ثم هى ريحانة ناضجة قد خرج نَوْرُها ، وانتشر عطرها فى كل جانب ، ثم هى فوق ذلك كله فى بقعة خصْبة كل ما حولها خصب غير مجدب :

فبتنا كأن البيت حُجِّر فَوقنا   برَيحانة ريحَتْ عشاء وطُلَّتِ

بريحانة من بطن حَلْيةَ نَوَّرتْ   لها أرجٌ ، ماحولها غير مُسْنِتِ[2]

على هذا النحو استغل الشعراء الصعاليك هذه المنابع الثلاثة فى تأليف أصباغهم التى استخدموها فى رسم لوحاتهم التشبيهية .

٩

آثار من الصنعة المتأنية :

إذا كان لون التشبيه هو أقوى الألوان التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك فى صنعتهم الفنية ، وإذا كان هذا اللون يتفق والسرعة الفنية فى شعرهم ، فإننا لا نعدم فى شعر الصعاليك آثاراً من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية .

ولننظر فى هذه القطعة من شعر تأبط شرًّا التى سجل فيها نجاته من لحيان الذين حاصروه وهو فى غار لهم يشتار عسلا ، وهى قطعة يبدو أن الشاعر

---

(١) ديوانه / ٥٦ .

(٢) المفضليات / ٢٠٢ – ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيمها . وطلت : أصابها الطل . والمسنت : المجدب .

قد فرغ فيها لصنعته الفنية متمهلاً متأنياً ، والدليل الفنى على هذا أنه يبدؤها[١] أو يختمها[٢] بأبيات من الحكمة يبدو عليها أثر التفكير العقلى الهادئ الذى وَعى التجربة ثم فلسفتها ، أما الدليل الواقعى فواضح من أن الشاعر قد نظم هذه القطعة بعد أن نجا من أعدائه ، وعاد إلى قومه ، واطمأنت نفسه ، ثم فرغ لفنه يسجل فيه قصته وفلسفته لها .

فحين ننظر فى هذه القطعة نلاحظ أن الشاعر يستخدم فى البيت الأول[٣] لوناً من ألوان المقابلة المعنوية الدقيقة الصنعة بين قوله « وقد جَد جده » وقوله « وهو مدبر » إذ أن التعبير الأول يساوى قوله « وهو مقبل » أو — كما يقول البلاغيون فى تعبيراتهم — إن الجد فى الأمر مُسبَّب عن الإقبال عليه .

ثم انظر إلى هذه الألوان الفنية الكثيرة التى حَشدها الشاعر فى هذه الأبيات الثلاثة المتتالية :

فذاكَ قَريعُ الدهر ما عاشَ حُوّلٌ   إذا سُدَّ منه مَنخرٌ جاشَ مَنخرُ
أَقولُ للحيان وقد صَفرتْ لهم   وطابى ، ويومى ضَيقُ الجحر مُعورُ
هما خُطتا إما إسارٌ ومنةٌ   وإما دمٌ ، والقتلُ بالحر أَجدرُ

انظر كيف جسم الدهر فجعله جباراً لا يزال يقرع المرء بنوائبه حتى يُصَيره مجرباً بصيراً حازماً ، وكيف مَثل براعة المرء فى الاحتيال إذا أخذَ عليه طريقٌ نفذَ إلى آخر بتلك الصورة الحسية ، صورة المرء « إذا سد منه منخر جاش منخر » وكيف مثل إشرافه على الهلاك بفراغ وطابه ، وكيف جعل يومه الحرجَ ضَيقَ الجحر مُعورا ، ثم كيف ختم هذه الألوان الفنية المحتشدة بهذا التذييل الذى يجرى مجرى المثل ، كما يقول البلاغيون فى اصطلاحاتهم فى باب الإطناب . ثم يمضى الشاعر فى أبياته مستخدماً لون المطابقة مرة أخرى بين « مورد ومصدر » ، ولكنها مطابقة لفظية مألوفة فى الأساليب الجاهلية

---

(١) فى رواية الحماسة ١ / ٣٨ .

(٢) فى رواية الأغانى ١٨ / ٢١٥ .

(٣) فضلنا ترتيب الحماسة على ترتيب الأغانى لأنه أقرب إلى طبيعة فكرة القصيدة .

حتى لتوشك أن تكون رَوْسَماً[١] يطبعه الشاعر فى كل مناسبة يحتاج فيها إليه. ولكنه يعود إلى صنعته الفنية الدقيقة فإذا هو يفرش صدره لخطته التى استقر عليها ، وإذا الموت ينظر إليه خزيان من عجزه عنه ، وإذا القبائل التى يفارقها تَصْفِرُ أسفاً على إفلاته منها . وهكذا يَفرُغ الشاعر من رسم لوحته التى استخدم فى تلوينها أكثر ما استخدم ذلك اللون العميق من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية ، وهو الاستعارة .

وهذه الآثار من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية تتردد من حين إلى حين فى نماذج شعر الصعاليك . فالمنية فى ذهن أبى الطمحان ناقة يسوقها إلى الإنسان دليلٌ بارع لا يَضل ، ولكن أبا الطمحان لا يرسم لوحته بهذه الألوان الواضحة ، وإنما يعتمد على «التظليل» فى إخفاء بعض جوانبها إخفاء فنياً رائعاً ، فإذا المشبه به قد أُخفِيَ وراء هذه الظلال الفنية الجميلة ، ولكن الشاعر يشير إليه ببعض خصائصه ، أو — كما يقول البلاغيون — « بشىء من لوازمه » وإذا اللوحة التى يرسمها لفكرته تعتمد على الظل أكثر مما تعتمد على النور — كما يقول أصحاب الرسم — أو تعتمد على الاستعارة المكنية — كما يقول أصحاب البلاغة :

لو كنتُ فى رَيمانَ تَحرُسُ بابه ... أراجيلُ أحبوشٌ وأغضفُ آلفُ
إذنْ لأتتنى حيثُ كنتُ منيتى ... يَخب بها هاد بأَمرىَ قائف[٢]

وصديق تأبط شرًّا إذا هزّ سيفه فى عظام أعدائه ضحك الموت سروراً بما يَحصل عليه من أرواح ، حتى لتبرق أسنانه من شدة ضَحكه :

إذا هَزه فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهللتْ ... نواجذُ أفواه المنايا الضواحِك[٣]

والعملية الفنية هنا عملية مركبة معقدة تقوم على استعارتين : استعارة فى « تهللت » تقوم على تشبيه بريق الأسنان عند الضحك بلمعان البرق ، واستعارة

---

(١) الروسم : الطابع يطبع به (انظر القاموس المحيط : مادة — رسم —) .
(٢) الأغانى ١١/١٣٢ (بولاق) .
(٣) حماسة أبى تمام ١/٤٩ .

فى « المنايا » تقوم على تشبيهها بإنسان يضحك .

وأحكام الإسلام وقيوده عند أبى خراش سلاسلُ تطوق رقابَ الصعاليك الذين أسلموا ، ولكن أبا خراش يريد أن يكون مهذباً فى تعبيره فيخفى لفظة الإسلام وراء ظلاله الفنية ، ويركز الضوء على المشبه به وهى السلاسل على طريقة الاستعارة التصريحية التى يرشح لها ببعض خصائص المشبه به وهى الإحاطة بالرقاب :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكنْ أحاطتْ بالرقاب السلاسل[1]

ولكن هذه الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية — برغم قوة أنغامها ورنين أصدائها — قليلة لا تكفى لتكوين مذهب فنى خاص نبيح لأنفسنا أن نجعله من خصائص شعر الصعاليك .

وإلى جانب هذه الصنعة الفنية العميقة الدقيقة نجد آثاراً ضئيلة لصنعة فنية بسيطة زاهية ، هى بعض الألوان البديعية.

وقد رأينا أمثلة من الطباق فى رائية تأبط شرا التى عرضنا لها منذ قليل ، وحين ننظر فى سائر شعره نجد أمثلة أخرى ، ففى قوله :

قليلُ التشكى للمهمِّ يصيبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالكِ[2]

نجد طباقاً لفظيًّا ساذجاً بين « قليل » و « كثير » .

وفى قوله من القصيدة نفسها :

يَرَى الوحشةَ الأُنسَ الأنيسَ ويهتدى بحيثُ اهتدت أمُّ النجوم الشوابكِ[3]

نجد طباقاً لفظيًّا آخر بين « الوحشة » و « الأنس » .

وفى قول أبى الطمحان :

نَمتْ بكَ من بنى شَمْخٍ زياد لها ما شئتَ من فرع وأصل[4]

---

(١) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٥٠ .

(٢) حماسة أبى تمام ١ / ٤٧ .

(٣) المصدر السابق / ٤٩ .

(٤) الجاحظ : الحيوان ١ / ٣٨٠ .

نجد ذلك الطباق اللفظى الذى تبدو عليه الصبغة العقلية بين « فرع » و « أصل » .

وفى تائية الشنفرى المشهورة نجد أمثلة أخرى من الطباق ، مثل « دقت » و « جلت »[١] ، و « حلو » و « مر »[٢] .

وليس الطباق هو اللون البديعى الوحيد فى شعر الصعاليك ، بل هناك ألوان أخرى كالجناس الذى نرى مثلا منه فى بيت تأبط شرا السابق « قليل التشكى » بين « الهوى » و « النوى » وبين قافية هذا البيت وقافية البيت الذى يليه ، « المسالك » و « المهالك » ، وبين « نحيضا » و « نحيفا » فى قول الأعلم :

وقدْ ح يخوُر خوَار الغزَا ل رَكَّبتُ فيه نَحِيضاً نحيفا[٣]

كما نرى أمثلة أخرى فى قوافى لامية أبى خراش حيث تتتابع أبياتها الأولى هكذا : قليل . جليل ، جميل ، عقيل ، مقيل ، ثقيل[٤] ، مؤلفة أمثلة متتابعة من الجناس اللفظى الناقص ، بين قوافى البيتين الأول والثانى ، ثم الثانى والثالث ، ثم الرابع والخامس والسادس .

كما نرى أمثلة غيرها فى شعر أبى خراش أيضاً بين « العقم » و « الرقم » وبين « جاجة » و « عاجة » فى بيتين متتاليين من ميمية له[٥] .

كما نلاحظ مثلا من جناس الاشتقاق فى قول الأعلم يصف الرعد :

أجشَّ ربَحْلاً له هيدَبٌ يكشِّفُ للخال رَيطاً كَشيفاً[٦]

والشىء الذى لا شك فيه هو أن أكثر هذه الألوان البديعية لم يقصد إليها

---

(١) البيت ١٢ من القصيدة فى المفضليات / ٢٠٢ .

(٢) البيت ٣٣ من القصيدة فى المصدر نفسه / ٢٠٧

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٩ — النحيض هنا : السنان الرقيق ، من نحض السنان إذا رققه .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ ، ١١٧ .

(٥) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٢٩ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٢ — الربحل : الضخم الطويل . والخال هنا : السحاب لا يخلف مطره أو البرق . والريط : جمع ريطة وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، أو كل ثوب لين رقيق .

الشعراء الصعاليك قصداً ، وإنما جاءت عفواً فى أثناء تعبيراتهم ، إذ أن هذه الألوان التى تعتمد على نوع من التلاعب اللفظى لم تكن بالألوان الفنية التى يحرص عليها الشعراء الجاهليون ، أو التى يقصدون إليها قصداً متعمداً ، أو التى يتخذون منها أسساً لمذاهبهم الفنية .

١٠

الخصائص اللغوية :

حين ننظر فى مجموعة شعر الصعاليك لنتبين خصائصها اللغوية فإن أول ما نلاحظه على لغتهم أنها هى اللغة الأدبية التى عرفها العصر الجاهلى بكل ما نعرفه عن هذه اللغة من خصائص ، وهذه ظاهرة طبيعية ليس من الصعب تعليلها ، فإن الشعراء الصعاليك ، مهما يبلغ بهم الأمر فى الخروج على تقاليد مجتمعهم الأدبى من ناحية موضوعات شعرهم ، أو معانيه ، أو خصائصه الفنية ، فما هم بقادرين على الخروج عليه من ناحية لغتهم ، لأن هذا الجانب اللغوى هو العامل المشترك بينهم وبينه ، والوسيلة الأساسية للتفاهم بينهم وبين أفراده ، أو — بعبارة أخرى — هو « العملة » التى اتفق المجتمع الأدبى على أنها أساس التبادل الفكرى بين أفراده جميعاً سواء منهم المتوافقون معه أو الخارجون عليه ، وبدون هذه « العملة » يصبح عمل الشعراء الصعاليك الفنى عملا « مزيفاً » لا يصلح للتداول ، أما تلك الجوانب الأخرى من العمل الفنى : الموضوعات والمعانى والخصائص الفنية فإنها الجوانب الشخصية فيه التى يستطيع كلٌّ أن يتصرف فيها كما يشاء .

ولكن يبدو أننا يجب أن نقيد هذا الكلام قليلا ، فإن للمسألة جانباً آخر يجب ألا نغفله ، فنحن نعرف أن الشعراء الصعاليك قد خرجوا على مجتمعهم القبلى ، وانطلقوا إلى أعماق الصحراء النائية مشردين . ومعنى هذا أن صلة الشعراء الصعاليك بالمجتمع الأدبى من حولهم لم تكن صلة دائمة مستمرة ، أو — بعبارة

أخرى — أن المجتمع الأدبى من حولهم لم يكن على صلة دائمة مستمرة بهم .

ونتيجة هذا من الناحية اللغوية أمران :

الأول أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلا لها ، إذ هى صادرة من منابعها الأولى قبل أن تؤثر فيها تلك التيارات الاجتماعية وغير الاجتماعية التى تؤثر فى اللغات . ولسنا ندعى أن لغة سائر الشعراء الجاهليين لا تمثل فطرة اللغة العربية ، ولكن الذى نقرره هو أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلا لها من سائر الشعراء الجاهليين .

ولعل هذا هو السبب فى كثرة ما يرد من شعر الصعاليك فى المعاجم اللغوية ، واعتماد أصحاب هذه المعاجم عليه فى تكوين مادتهم اللغوية ، وفى لسان العرب وتاج العروس مجموعة كبيرة من أبيات الشعراء الصعاليك ، وقد رأينا أن المجموعة اللغوية تعد من المصادر الأساسية لشعر الصعاليك ، أو — بعبارة أخرى — أن شعر الصعاليك من المصادر الأساسية للمجموعة اللغوية .

والأمر الثانى كثرة الغريب فى شعرهم ، حتى ليشعر الناظر فيه أحياناً أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية ، يضطر أمام كل لفظ منها إلى الرجوع إلى المعاجم المطوّلة ، لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه ، ويكفى أن نقرأ هذه الأبيات لتأبط شرا :

وحَثحثتُ مشعوف النَّجاء كأَننى ... هجَفٌ رأى قصرًا سِمَالاً وداجنا
منَ الحُصِّ هُزْرُوفٌ كأَن عفاءه ... إذا استدْرَجَ الفيفا ومد المغابنا
أَزجٌ زَلُوجٌ هذْرَفىٌ زَفازفٌ ... هِزَفٌ يبذ الناجيات الصوافنا[1]

أو هذين البيتين له أيضاً :

وشِعْبٍ كشَلّ الثوب شَكْس طريقه ... مجامعُ صَوْحَيه نطاقٌ محاصرُ
به من سيول الصيف بيضٌ أقرها ... جُبارٌ لصُم الصخر فيه قَرَاقر[2]

---

(١) الأغانى ٢١٣/١٨ وانظر ص ٢٢١ من هذا البحث .

(٢) الأصمعيات /٣٥ . والبيت الثانى فى لسان العرب مادة (جبر) وفيه « به من نجاء الصيف » وانظر : ص ٢٤٢ من هذا البحث .

أو هذه الأبيات للأعلم :

فشايِعْ وَسطَ ذَوْدك مستقنًّا لتحسب سيدًا ضَبعاً تنولُ
عشنزَرَة جواعرهـــا ثمان فويق زَمَاعها خَدَم حُجول
تراهـــا الضَّبْع أعظمهن رأساً جُرَاهمـــة لها حِرةٌ وثِيل[١]

أو هذه الأبيات لأبي الطمحان :

فأصبحن قد أَقْهَيْنَ عنى كما أبت حياضَ الإِمِدَّان الهجانُ القوامحُ[٢]

أو هذا البيت لحاجز :

خُضَاخِضَةٌ بخَضِيع السيو ل قد بلغ الماءُ حِذْفارهـــا[٣]

أو هذا البيت للأعلم :

والحنْطِئُ الحِنْطِئُ يُمْ نَحُ بالعظيمـــة والرغائبْ[٤]

يكفى أن نقرأ هذه الأبيات ، وأمثالها كثير فى شعر الصعاليك ، لتبدو لنا هذه الغرابة اللفظية التى انبعثت من أعماق الصحراء حيث كان يعيش هؤلاء الصعاليك مشرّدين .

والحق أن هذه الغرابة قد شعر بها رُواة شعر الصعاليك وشراحه ، كما شعر بها اللغويون أيضاً ، فصرحوا بأنهم لا يعرفون طائفة من ألفاظه ، أو بأنها لم ترد إلا فيه ، أو بأنها ألفاظ نادرة . ويصرح الأصمعى بأنه لا يعرف « سحاليل » فى قول الأعلم يصف جراء الضباع :

ســـود سحـــاليل كأَنَّ جلودهن ثيابُ راهبْ[٥]

ويذكر السكرى عند تفسيره لقول صخر الغى :

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٣ ، ٦٤ . ولسان العرب : مادة (قنن) ومادة (جعر) ومادة (عشزر) .
(٢) لسان العرب : مادة (قها) .
(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ١/١٤٠ .
(٤) شرح أشعار الهذليين ١/٥٩ . ولسان العرب مادة (حنطأ) وفيه « يمنح » مكان « يمنح » .
(٥) شرح أشعار الهذليين ١/٥٧ . وديوان الهذليين القسم الثانى /٨٠ .

فلا تقعدَنَّ على زَخَّة ... وتضْمر فى القلب وَجداً وخيفا

أنه لم يسمع « زخة » فى شيء من كلام العرب ولا فى أشعارها إلا فى هذا البيت[١] ، وكذلك يذكر الأصمعى عن هذه الكلمة[٢] .

ويروى صاحب لسان العرب أن « الخيعابة » بمعنى الردىء لم يسمع إلا فى قول تأبط شرا :

ولا خَرِع خَيْعَابَة ذى غوائل ... هَيَام كجَفْر الأَبطح المتهيِّل[٣]

ويذكر الأزهرى أن « المكدل » بمعنى المكدر قد أهمله الليث ، ثم يقول « ووجدت أنا فيه بيتاً لتأبط شرا»[٤] .

ويذكر ابن سيده أنه يقال رجل ترْعيَّة لمن صناعته وصناعة آبائه الرعاية ، أما تِرعىّ بغير هاء فإنه نادر ، وقد ورد فى قول تأبط شرا :

ولستُ بترْعىٍّ طويل عَشَاؤُه ... يؤَنفها مستأنَفَ النبت مُبهل[٥]

ومن الأدلة على هذه الغرابة أيضاً اختلاف اللغويين حول معانى بعض الألفاظ ، فقد اختلفوا مثلا حول معنى «المستّرعل » فى قول تأبط شرا :

متى تبغنى ما دمتُ حيا مسلَّما ... تجدنى مع المسترْعِل المتَعَبْهِل

فقالوا إنه الذى ينهض فى الرعيل الأول ، وقيل هو الخارج فى الرعيل ، وقيل هو قائد الفرسان كأنه يستحثها ، وفسّره ابن الإعرابى بأنه ذو الإبل ، ولكن ابن سيده يذكر أن هذا التفسير ليس بجيد[٦] .

وقد اختلفوا أيضاً فى معنى لفظة « زخة » التى وردت فى بيت صخر الغى السابق ، فالسكرى والأصمعى يذكران أنها الغيظ[٧] ، واللحيانى فيما يرويه

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٤٦ .
(٢) ديوان الهذليين القسم الثانى /٧٤ .
(٣) لسان العرب : مادة (خعب) .
(٤) لسان العرب : مادة (كدل) .
(٥) لسان العرب : مادة (رعى) .
(٦) لسان العرب : مادة (رعل) .
(٧) شرح أشعار الهذليين ١/٤٦ . وديوان الهذليين ٢/٧٤ .

صاحب الأمالى يذكر أنها الدفعة[١] .

ويذكر صاحب اللسان فى قول تأبط شرا :

ولا حَوْقلٍ خَطَّارة حول بيته   إذا العِرْس آوى بيتها كلَّ خَوْتَلِ

« قيل فى تفسيره : الخوتل الظريف ، ويجوز عندى أن يكون من الختل الذى هو الخديعة بنى منه فوْعلا »[٢] ، وعبارة صاحب اللسان الأخيرة تشعر بأن هذه الكلمة قد تكون من اشتقاق تأبط شرا .

ولعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية ؛ ولعل سبب هذا أن عروة كان يقوم فى حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبى ، أو صاحب المذهب الذى يدعو الجماهير إلى اعتناق مذهبه ، فكان طبيعيًّا أن يتبسط فى الحديث إلى جماهيره باللغة التى يألفونها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن عروة بالصعلوك الذى اعتزل مجتمعه ، وعاش بين حيوان الصحراء ووحشها ، كما كان يفعل غيره من الصعاليك ، وإنما كان إنساناً بكل ما فى الإنسانية من معان ، يحرص على الاتصال بمجتمعه الإنسانى والعمل من أجله ، ومن هنا خلصت لغته من تلك الحوشية البدوية التى نلاحظها عند غيره من الشعراء الصعاليك ، وبخاصة تأبط شرًّا والشنفرى .

١١

ظواهر عروضية :

إذا نظرنا بعد ذلك فى مجموعة شعر الصعاليك لنتبين خصائصها العروضية فإننا نلاحظ أن الأوزان التى صاغ فيها الشعراء الصعاليك شعرهم هى الأوزان نفسها التى عرفها سائر الشعراء الجاهليين : الطويل ، والبسيط ، والوافر ، والكامل ، والمتقارب ، وأمثال هذه البحور التى ترددت فيها أنغام الشعر الجاهلى .

---

(١) القالى : الأمالى ١/٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) لسان العرب : مادة (ختل) .

كما نلاحظ فى شعرهم الذى جاء من بحر الطويل ذلك الزحاف الشائع فى الشعر الجاهلى فى هذا البحر ، وهو حذف ياء « مفاعيلن » ونون « فعولن » وتحول التفعيلة إلى « مفاعلن » و « فعول » وهو ما يسميه العروضيون « القبض » ، وذلك مثل قول تأبط شرا :

تقولُ تركتَ صاحباً لكَ ضائعاً وجئتَ إلينا فارقاً متباطنا
إذا ما تركتُ صاحبى لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أُبتُ آمنا[1]

ومثل قول الشنفرى :

فواكبدَا على أميمة بعدما طمعتُ فهبها نعمةَ العيش زَلَّت[2]

ومثل قول الأعلم :

أحُبَشِىٌّ إنا قد يمتعنا الغنى بأموالنا نُريحها ونُسيمها
ونحبسها على العظائم نتقى بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها
إذا النُّفساء لم تخرَّس ببكرها غلاماً ولم يسكت بحتر فطيمها[3]

ومثل قول أبى خراش :

كأن النضىَّ بعدما طاش مارقاً وراء يديه بالخلاء طَميل[4]

والأمثلة على هذه الظاهرة العروضية أكثر من أن تعدّ ، فهى منتشرة فى شعرهم انتشاراً واسعاً ، ويكفى أن ننظر مثلا فى تائية الشنفرى المفضلية لنتبين مدى هذا الانتشار ، ففيما عدا أبياتاً قليلة منها تنتشر هذه الظاهرة فى كل بيت من أبياتها .

كما نلاحظ أيضاً انتشار تلك العلة الجارية مجرى الزحاف التى تنتشر أيضاً فى سائر الشعر الجاهلى . وهى إسقاط أول الوتد المجموع من « فعولن »

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ .
(٢) المفضليات /٢٠٠ .
(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٦٧ . وانظر ص ٢٤٠ من هذا البحث .
(٤) ديوان الهذليين ٢/١٢١ — النضى : السهم بلا نصل ولا ريش . والطميل : السهم لطخه الدم .

فى أول القصيدة أو المقطوعة فتتحول إلى « فعلنْ » ، وهو ما يسميه العروضيون « الخرم » . وذلك مثل قول حاجز :

إنْ تذْكروا يوم القَرِىّ فإنه بوَاءٌ بأَيام كثيرٍ عَديدُها[١]

وقول أبى الطمحان :

لو كنتُ فى رَيْمان تحرُس بابَه أراجيلُ أُحبوشٍ وأغضَفُ آلفُ[٢]

وقول الشنفرى :

لا تقبُرونى إن قبرى محرَّم عليكم ولكنْ أبشرى أم عامر[٣]

وهى ظاهرة منتشرة أيضاً فى شعر الصعاليك انتشارها فى سائر الشعر الجاهلى .

ولكن هناك ظاهرة عروضية تلفت النظر فى شعر الصعاليك وتستحق التسجيل ، وهى انتشار الرجز قبيل مصارعهم ، ولعل السبب فى هذا سهولة هذا الوزن ، واتفاقه مع حركات القتال . وقد لقى كثير من الصعاليك مصارعهم فى أثناء قتالهم مع أعدائهم ، وسقطوا فى أثناء هذا القتال شهداء الفكرة التى عاشوا من أجلها .

وحين ننظر فى شعر الصعاليك الذى قالوه قبيل مصارعهم نجد أن كثيراً منه كان رجزاً . فقيس بن الحدادية يقاتل أعداءه وهو يرتجز حتى يقتل[٤] ، والشنفرى فى ساعته الأخيرة حين يضرب أعداؤه يده يقطعونها يرثيها رجزاً[٥] ، وصخر الغى حين يحيط به أعداؤه فى ساعته الأخيرة يرتجز حاثًّا أصحابه على الثبات معه وعدم الفرار حتى لتبلغ أراجيزه فى هذه الفترة الحرجة من حياته خمساً[٦] .

---

(١) الأغانى ١٢/٥١ (بولاق) — البواء : السواء والكفء ، من باء دمه بدمه إذا عدله .
(٢) الأغانى ١١/١٣٢ (بولاق) .
(٣) الأغانى ٢١/١٣٦ .
(٤) الأغانى ١٣/٨ (بولاق) .
(٥) الأغانى ٢١/١٤٣ . وشرح ابن الأنبارى على المفضليات/١٩٩ .
(٦) شرح أشعار الهذليين ١/٣١ — ٣٣ .

ومع ذلك فلعمرو ذى الكلب[1] أرجوزة طويلة يقص فيها قصة طريفة ، هى غارة ذئب فاتك على غنمه ، ورميه بسهم من سهامه يلقيه صريعاً وقد اختضب بعضُه من بعض بدم ، كما يقول فى نهايتها[2] . ولعلها رمز لذلك الصراع الدامى بين طبقة الصعاليك المظلومة وطبقة الرأسمالية الظالمة ، وانتصار الصعاليك فى النهاية فى هذا الصراع .

(١) وتروى لأبى خراش ، وتروى لرجل من هذيل غير مسمى (شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٩) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٩ ، ٢٤٠ .

الفصل الرابع

شخصيتان متميزتان

١

تشابه وتميز :

رأينا أن صعاليك العرب سلكوا جميعاً أسلوباً واحداً فى الحياة ، آمنوا بأنه الأسلوب الوحيد الذى يستطيعون به أن يرفعوا عن كواهلهم ما وضعته فوقها ظروف مجتمعهم الجغرافية ، وتقاليده الاجتماعية ، وأوضاعه الاقتصادية ، من ضيم وهوان ، وهو ذلك الأسلوب الذى جعلنا شعاره « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

ورأينا أن صعاليك العرب جميعاً ، سواء منهم الخلعاء أو الأغربة أو الفقراء المتمردون ، قد تخلصوا من فكرة « العصبية القبلية » وشقوا طريقهم فى الحياة دون تقيد بقبائلهم ، أو رجوع إليها ، أو حرص على رضاها ، حتى أولئك الذين ظلوا على صلة بقبائلهم ، أو — بتعبير أدق — بمنازل قبائلهم ، لم تكن حركاتهم مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة فى قبائلهم .

ورأينا أن مرد هذا إلى إحساس هؤلاء الصعاليك بأنهم مهضومو الحق ، مستضعفون فى الأرض ، وما نشأ عن هذا الإحساس بالضعة ، وعن هذه الرغبة فى التسامى ، من « مركب نفسى » ، اتجه بهم إلى التمر

وليس من الطبيعى أن تكون كل شخصيات صعاليك العرب قد فنيتْ فى هذه « العصبية المذهبية » التى استعاضوا بها عن « العصبية القبلية » ، وإنما الطبيعى أنه برغم هذا التشابه فى جماعة الصعاليك، يوجد تميز بين شخصياتهم ، فقد رأينا أن أساس حركة الصعلكة قوة النفس ، وأن قوامها مقدرة الفرد على الوقوف فى وجه المجموع .

ومن الطبيعى تبعاً لهذا أن يختلف موقف الصعاليك من هذه الحركة التى وهبوا لها حياتهم . ونستطيع فى سهولة أن نلحظ شخصيتين متميزتين نرد إليهما جماعة الصعاليك : فهناك تلك الشخصية المتمردة التى رأت فى هذه الحركة فرصة سانحة تظهر فيها بطولتها الفردية ، وتستغلها إلى أبعد حد فى إرضاء ما فى نفسها من نزعة شريرة ، تصبغ حياتها كلها بلون من الدم الأحمر القانى محبب إليها ، لا يرضيها إلا أن ترى تلك الرءوس اليانعة ، رءوس الأغنياء المترفين ، تتطاير تحت ضربات سيوفها ، وذلك المال الذى يملكونه ينهب ، بل هى لا تبالى فى سبيل ذلك بأن توجه حركاتها المتمردة الشريرة ضد أية جماعة من الناس لا ترضى عنها . وإلى جانب هذه الشخصية التى رأت أن يكون تمردها الوسيلة والغاية معاً ، نرى شخصية أخرى رأت أن يكون تمردها وسيلة لغاية إنسانية معينة ، هى رفع الظلم عن المظلومين ، وحماية المستضعفين من ضيم السادة الأقوياء ، وتهيئة الفرصة للفقراء المهضومة حقوقهم ليشاركوا سائر أفراد مجتمعهم فى حياة اجتماعية كريمة عن طريق إحداث نوع من العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادى الفطرى بين طبقتى هذا المجتمع الاقتصاديتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك ، بما تنهبه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى .

وحين ننظر فى مجموعة صعاليك العرب نجد أن أشهر من يمثل هذه الشخصية الأخرى عروة بن الورد ، أبو الصعاليك ، الذى أخذ على عاتقه من الناحية الاجتماعية أن يحقق هذه العدالة الاجتماعية وهذا التوازن الاقتصادى ، ومن الناحية الفنية أن يقف موقف الداعية صاحب المذهب الذى يتخذ من شعره وسيلة للدعاية إلى مذهبه .

أما الشخصية الأولى فإن أفرادها أكثر من أن يحصوا ، لأنها تمثل طائفة المتمردين من فتيان المجتمع الجاهلى ، وما أكثرهم ! ولعل الشنفرى من أصلح ممثلى هذه الشخصية للدراسة الاجتماعية ، نظراً لإمعانه فى التمرد والشر ، حتى ليذكر الرواة أنه آلى على نفسه ليقتلن مائة من بنى سلامان بسبب لطمة لطمتها له إحدى فتياتهم ، ولعله أصلح ممثلى هذه الشخصية للدراسة الفنية لأن له بين

أيدينا ديواناً مستقلا نستطيع أن نضعه فى الكفة الأخرى من الميزان أمام ديوان عروة ؟

٢

عروة بن الورد :

ينتهى نسب عروة إلى قبيلة عبس ، فهو عروة بن الورد بن زيد[١] بن عبد الله بن ناشب بن هُرَيْم بن لُدَيْم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس[٢] ، فهو من هذه الناحية فى شرف من قبيلته ، ولكن أباه كانت عبس تتشاءم به ، لأنه هو الذى أوقع الحرب بينها وبين فزارة بمراهنته حذيفة[٣] .

أما أمه فليس فيما بين أيدينا من أخباره ما يشير إليها ، ولكن عروة نفسه قدكفانا مشقة البحث عنها ، فهو يذكر فى شعره أنها من نهد[٤] من قضاعة[٥] ، ولكن الشىء الذى يلفت النظر فى حديث عروة عن أمه أنه دائم السخط على هذه الصلة التى ربطت بين أبيه وأمه[٦] ، بل إنه يهجو أخواله هجاء مرًّا[٧] ، ولعل من أسباب هذا أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من عبس[٨] ، أو ربما كانت هناك أسباب أخرى لم تصل إلينا أخبارها .

---

(١) وقيل ابن عمرو بن زيد (الأغانى ٣/٧٣) .

(٢) المصدر السابق : الصفحة نفسها . وفى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام « عروة ابن الورد بن حابس بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة ابن عبس » (٢/٨) وفى تاريخ اليعقوبى « عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان ابن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة بن عبس » (١/٣٠٩) .

(٣) الأغانى ٣/٨٨ .

(٤) ديوانه /١٥٧ البيت الأول .

(٥) المبرد : رسالة عدنان وقحطان /٢٤ .

(٦) ديوانه /١٥٧ ، ١٥٨ ..

(٧) المصدر السابق /١٥٧ .

(٨) The Ency of Islam; art. Urwa b. al-Ward.

ولعل هذا الإحساس الذى سيطر على نفس عروة بأن أمه أقل شرفاً من أبيه هو الذى جعله ينسب كل ما يحسه من عار إلى تلك الصلة التى تربطه بأخواله النهديين [١] .

ومعنى هذا أن عروة قد وضع منذ نشأته الأولى بين شقى الرحى ، فأبوه تتشاءم منه قبيلته ، وأمه من قبيلة أقل شرفاً .

وليس لدينا عن نشأة عروة الأولى سوى خبر واحد ، ولكنه قوى الدلالة على تلك الظروف الأولى التى جعلته يشعر بالظلم شعوراً قوياً سيطر عليه فى كل مراحل حياته بعد ذلك ، كما أنه قوى الدلالة على قوة نفسه التى بدأت براعمها فى الظهور منذ وقت مبكر . ففى الأخبار أنه كان له أخ أكبر منه وكان أبوه يؤثره عليه فيما يعطيه ويقربه ، « فقيل له : أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه ؟ قال : أترون هذا الأصغر ؟ لئن بقى مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه »[٢] .

ومعنى هذا أن عروة تفتحت عيناه فى الحياة على صورة مختلة التوازن من صورها : صورة الأخ الأكبر الذى يؤثره أبوه مع غناه عنه ، وإلى جانبها صورة الأخ الأصغر الذى يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه . أليست هذه الصورة هى التى شاهدها عروة بعد ذلك فى المجتمع الذى يعيش فيه فى مجال أوسع : الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة بكل شىء مع غناهم ، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شىء مع شدة حاجتهم وضعفهم ؟

وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية فى الظهور فى هذه السن المبكرة .

وما إن تتقدم الأيام بعروة حتى تتفتح هذه البراعم عن فلسفة ناضجة ، يؤمن بها كل الإيمان ، ثم يأخذ فى تنفيذها والدعوة إليها بكل قوة وحماسة .

---

(١) وما بى من عار إخال علمته سوى أن أخوالى إذا نسبوا نهد
(ديوانه / ١٥٧) .

(٢) الأغانى ٣ / ٨٨ .

ومن الطبيعي أن تجد دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً مؤمنة ، وأنصاراً مخلصين بين أولئك الفقراء المستضعفين الذين أجهدهم الفقر وأهزلهم الجوع ، وأذلتهم الأوضاع الاجتماعية ، وسدت الحياة فى وجوههم سبل العيش الحر الكريم ، فالتفت حوله طوائف من الصعاليك ، يخرج بأقويائهم فيغير ، ثم يوزع الغنائم على من أغار بهم ، وعلى من تخلف عنه من المرضى والضعفاء أيضاً ، فربما عاد كل منهم إلى أهله وقد استغنى [١] .

وقد عرف الصعاليك فى عروة هذه النفس الإنسانية القوية فكانوا إذا أصابتهم السنة أتوه « فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا » فيخرج ليغزو بهم [٢] .

وقد عرف عروة لهذه « الأبوة » — على حد تعبير هؤلاء الصعاليك الذين كان يسميهم « عياله » [٣] — أو لهذه « الزعامة » — كما يصح أن نطلق عليها — حقوقها . فلم يكن يؤثر نفسه بشىء على صعاليكه ، وإنما «كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » [٤] ، وفى بعض غاراته ، وهو مع قوم من هلاّك عشيرته فى شتاء شديد ، قيض الله له رجلا « صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه » فقتله وأخذ إبله ثم أقبل بالإبل يقسمها بين صعاليكه ، وأخذ مثل نصيب أحدهم [٥] .

وعرف هذا « الزعيم الشعبي » « نفسية جماهيره » فكان يقبل منهم أحياناً اعتداءهم عليه إذا ما تحسنت حالتهم ، لأنه يعرف أنهم « كما الناس » على حد تعبيره [٦] ، ولأنه يدرك أنهم « صنيعته » ، ولو أنه عاملهم كما يعاملونه لأفسد

---

(١) انظر الأغانى ٣/٧٨ ، ٧٩ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٢) الأغانى ٣/٨١ .
(٣) ديوانه /٩٩ ، وحماسة أبى تمام ٢/٧ البيت الأخير .
(٤) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٥) الأغانى ٣/٧٩ ، وانظر التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ وابن السكيت : شرح ديوان عروة /١١٢ .
(٦) ديوانه /١١٣ البيت الأول ، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ .

ما يصنع ، ولانفضت الجماهير من حوله ، وهو حريص عليهم لأنه حريص على تنفيذ مذهبه فى الحياة . فنى أخباره أنه غنم فى بعض غزواته إبلا وامرأة ، فلما أخذ فى قسمة الإبل بين صعاليكه أخذ مثل نصيب أحدهم واستخلص المرأة لنفسه ، « فقالوا : لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً ، فمن شاء أخذها ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ، ثم يذكر أنهم صنيعته ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طويلا ، ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجلٌ منهم فجعل له راحلة من نصيبه »[1].

وهو إلى جانب هذه « الزعامة » الحكيمة « قائدٌ » موفق يخرج « بجنوده » ويرسم لهم الخطط الدقيقة التى تضمن لهم الفوز . فنى أخباره أنه خرج بصعاليكه إلى أرض بنى القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها ماء ، فرأى عليه آثاراً « فقال : هذه آثار منْ يردُ هذا الماء فاكمنوا ، فأحْرِ أنْ يكون قد جاءكم رزق » ، فأقاموا يوماً « ثم ورد عليهم فصيلٌ » ، فقالوا : دعنا فلنأخذه فلنأكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وإن بعده إبلا ، فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذى جهدهم ، ووردت إبل بعده بخمس فيها ظعينة ورجل معه السيف والرمح ، والإبل مائة متالٍ ، فخرج إليه عروة ، فرماه فى ظهره بسهم أخرجه من صدره فخر ميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه »[2] . أرأيت إلى هذه القيادة الموفقة كيف تتخير المكان والزمان ، وكيف تحكم الخطة ولا تتعجل تنفيذها حتى تحين الفرصة المناسبة ؟

ومن مظاهر هذه القيادة الموفقة الحذَرُ ، فقد كان عروة إذا نزل بصعاليكه

---

(١) الأغانى ٣/٧٩ ، ٨٠ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه /١١٢ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ .

(٢) شرح ابن السكيت على ديوانه /١٠٣ ، ١٠٤ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ .

فى موطن من مواطن الخوف أخذ للأمر عدته فبعث أحد صعاليكه فوق مرقبة عالية يرقب لهم الطريق ، بينما يشتغل الباقون فى تهيئة طعام الجماعة أو فى غير ذلك من الأعمال [١] .

وقد رأينا فى تفسيرنا الجغرافى لظاهرة الصعلكة أن حركات عروة وصعاليكه قد تركزت فى شمالى الجزيرة العربية حول منطقة يثرب ، وأنها كانت تمتد إلى منطقة نجد أحياناً ، ومن هنا نشأت طائفة من الصلات الاقتصادية بينه وبين بنى النضير الذين كانوا ينزلون فى تلك المنطقة فكانوا « يقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم » [٢] .

هكذا سلك عروة سبيله فى الحياة ، يسلب الأغنياء أموالهم ليوزعها على الفقراء ، وفقاً لفلسفة معينة عبر عنها فى شعره أصدق تعبير ، حتى أصبح شعره نبراساً يهتدى به قومه ، أو يأتمون به — على حد تعبير الحطيئة فى حديثه مع عمر بن الخطاب [٣] .

وأساس فلسفة عروة أن « الغزو والإغارة للسلب والنهب » السبيل الوحيد للغنى لمن هو فى مثل حالته :

ومن يكُ مثلى ذا عيال ومُقْترا   من المال يطرَحْ نفسه كلَّ مَطْرح [٤]
وما صاحبُ الحاجات من كل وجهة   من الناس إلا من أجدَّ وشمَّرا [٥]

وليس وراء ذلك سوى إحدى نتائج ثلاث : نجاح الغزوة أو إخفاقها أو الموت فى سبيلها ، أما إن كانت الأولى فقد حقق أهدافه وجاء الغنى معها ، وأما إن كانت الثانية فقد أبلغَ نفسه عذْرها ، « ومبلغُ نفس عذْرَها مثل منجح » ، وأما إن كانت الثالثة فالموت خير من حياة الفقر والجوع والذل والهوان :

(١) انظر أبياته التى يرسم فيها هذه الصورة فى ديوانه / ١١١ ، ١١٢ .
(٢) الأغانى ٣/٧٦ .
(٣) المصدر السابق / ٧٤ .
(٤) ديوانه / ٩٩ . وحماسة أبى تمام ٢/٧ .
(٥) ديوانه / ١٩١ .

ذريني أطوِّفْ في البلاد لعلني أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضر
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن جزُوعاً وهل عن ذاك من متأَخَّرِ
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد لكم خلفَ أدبار البيوت ومنظر[١]
أقيموا بني لبنى صدورَ ركابكم فإن منايا القوم خيرٌ من الهزل[٢]
فقلت له ألا احيَ وأنتَ حرٌّ ستشبع في حياتكَ أو تموت[٣]
فسرْ في بلاد الله والتمس الغنى تعشْ ذا يسار أو تموتَ فتُعذَرا[٤]

وهو يتمنى أن يصادف في أثناء انطلاقه هو وصعاليكه في البلاد غازين مغيرين بعض أولئك الأغنياء أصحاب الإبل الكثيرة الذين يحرصون على مالهم بالبخل والعقوق ، عقوق أفراد مجتمعهم الفقراء ، حتى يستردوا منهم بعض حقوقهم عليهم :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي وشدِّي حيازيمَ المطية بالرَّحْل
سيدفعني يوماً إلى رَب هَجْمة يدَافعُ عنها بالعقوق وبالبخل[٥]

ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله ، فماذا يفعل سوى أن يغامر في سبيل الغنى حتى يهيئ لنفسه شيئاً يقدمه لهم ، فيحقق حسن ظنهم فيه ، ويرضى نفسه الطموح إلى حسن الأحدوثة وطيب الذكر ؟

يريحُ عليَّ الليلُ أضيافَ ماجد كريم ، ومالي سارحاً مالُ مقْتر[٦]

ويتساءل : أيهلك أفراد من المجتمع لفقرهم وجوعهم في حين يعيش إخوان لهم مترفين متخمين ، وهو قاعد لا يفعل شيئاً ، وهو الذي باع روحه للموت في مخاطراته ومغامراته ؟

أيهلكُ معتمٌّ وزيدٌ ولم أقم على نَدَب يوماً ولي نفسُ مخطر[٧]

---

(١) ديوانه /٦٦ ، ٦٧ . وجمهرة أشعار العرب /١١٤ . والأصمعيات /٢٩ .
(٢) ديوانه /١٠٦ .
(٣) ديوانه /١٦٦ .
(٤) ديوانه /١٩١ .
(٥) ديوانه /١٠٨ ، ١٠٩ . وحماسة أبي تمام /٩٢ .
(٦) ديوانه /٨٥ . والأصمعيات /٣٠ .
(٧) ديوانه /٨٣ . والأصمعيات /٣٠ .

والغاية التى يريد أن يصل إليها — بطبيعة الحال — الغنى ، ولكنه لا يريد الغنى من حيث هو غاية يقف عندها ، وإنما يريده ليكون وسيلته للارتفاع بمنزلته الاجتماعية بين أفراد مجتمعه ، من حيث إنه يهيئ له الفرصة التى يشارك فيها السادة الأغنياء فى البذل والكرم واكتساب المحامد والمفاخر :

دعينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى أفيدُ غنى فيه لذى الحق محملُ
أليس عظيماً أن تلِمَّ ملمةٌ وليس علينا فى الحقوق مُعوَّلُ
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تُلِمُّ به الأيام فالموتُ أجملُ[1]

والفقير فى رأيه شر الناس ، وأحقرهم عندهم ، وأهونهم عليهم مهما يكن له من فضل ، يجافيه أهله ، وتزدريه امرأته ، حتى الصغير يستطيع أن يذله ، أما الغنى فمهما يفعل يقبل منه ، ومهما يخطئ يغفر له ، فللغنى رب يغفر الذنوب جميعاً :

ذَرينى للغنى أسعى ، فإنى رأيتُ الناس شرُّهم الفقيرُ
وأذناهم ، وأهونهم عليهم وإنْ أمسَى له حسبٌ وخِيرُ
يباعده القريبُ ، وتزدريه حليلته ، ويقهره الصغيرُ
ويُلقى ذو الغنى ، وله جلال يكادُ فؤاد لاقيه يطيرُ
قليل ذنبهُ ، والذنبُ جمٌّ ولكنْ للغنى ربٌّ غفورُ[2]

هكذا يسجل أبو الصعاليك فلسفته فى هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة ، مشكلة الفقر والغنى ، فى هذا الأسلوب الممتاز الذى يستمد امتيازه من عنصرين أساسيين هما السخرية والبساطة : السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذى يحتقر الفقير لا لشىء إلا لأنه فقير ، ويقدر الغنى لا لشىء إلا لأنه غنى ، والذى لا يهتم بغير المظاهر المادية ، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه ، ثم البساطة التى نلمسها فى عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض

---

(١) ديوانه /٢٠٦ .
(٢) ديوانه /١٩٨ ، ١٩٩ . وابن قتيبة : عيون الأخبار ١/٢٤١ ، ٢٤٢ . وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٢٩ .

السهل الذى لا يقبل معارضة ، أو يثير جدلا ، والذى ينفذ إلى النفس من أقرب السبل ، ذلك العرض الذى يصح أن نطلق عليه « عرضاً شعبيا » ، حتى لنسمع أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يطلب إلى معلم أولاده ألا يروّيهم هذه القصيدة ، ويقول له : « إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم »[1] .

وأسوأ طوائف الصعاليك عند عروة هم أولئك الصعاليك الذين يقضون حياتهم فى خمول وهوان وتخاذل ، وقعود عن طلب الغنى ، وخدمة لنساء الحى المترفات :

لحا الله صُعلوكاً إذا جَنَّ ليله مصَافِى المشاش آلفا كلَّ مجْزَر
يعُدُّ الغنى من دهره كل ليلة أصابَ قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح طاوياً يحُت الحَصى عن جنبه المتعفر
قليلُ التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجوَّر
يعين نساءَ الحى ما يَسْتعنَّه فيمسى طليحاً كالبعير المحسَّر[2]

أما أولئك الصعاليك العاملون الذين يقضون حياتهم فى العمل والكفاح والمغامرة فإن عروة معجب بهم إعجاباً شديداً ، لأنهم الذين آمنوا بمذهبه فى الحياة ، وسالكوا سبيله فيها ، فهو لهذا يكيل لهم مدحه ويضفى عليهم ثناءه :

ولكن صعلوكاً صَحيفــة وجهه كضوء شهَاب القابس المتنوِّر
مطلا على أعدائه يزجــرونه بساحتهم زَجْرَ المَنِيح المشهَّر
فإنْ بعدوا لا يأْمنون اقترابه تشوُّفَ أهل الغائب المتنظَّر
فذلك إنْ يلق المنية يلقها حميدًا وإن يستغن يوماً فأجدِرِ[3]

هكذا كان أبو الصعاليك ينادى بمذهبه فى أرجاء المجتمع الجاهلى . وليس

(١) الأغانى ٣/٧٥ .
(٢) ديوانه /٧٣ – ٧٧ .
(٣) ديوانه /٧٨ – ٨٢ .

من شك فى أن دعوة عروة هذه قد لقيت إعجاباً من هذا المجتمع ظلت أصداؤه مدوية حتى بعد ظهور الإسلام فى البلاط الأموى نفسه، حتى لنسمع معاوية يقول « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببتُ أن أتزوج إليهم »[1]، وحتى ليستأذن بعض الناس عليه ويقول لآذنه : استأذن لى على أمير المؤمنين وقل ابن مانع الضيم ، فيقول معاوية : ويحك لا يكون هذا إلا ابن عروة بن الورد العبسى أو الحُصَين بن الحُمام المرى [2] ، وحتى ليقول عبد الملك : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد[3] .

وأخص ما يتميز به أسلوب عروة فى شعره أنه « أسلوب شعبى » ، فهو سهل اللفظ بالقياس إلى شعر سائر الصعاليك ، واضح المعنى ، قريب التعبير ، لا تكلف فيه ولا تصنع . وقد يكون هذا طبيعيًّا بعد أن قررنا أن عروة كان يقوم فى حركة الصعلكة بالداعية المذهبى أو الزعيم الشعبى الذى يحرص على استمالة الجماهير إليه .

ولعل عروة أكثر الشعراء الصعاليك استخداماً لتلك المقدمات النسائية التى اصطلحنا على تسميتها « مقدمات الفروسية فى شعر الصعاليك » . وهذا أيضاً طبيعى فإن أخبار عروة مع نسائه السبايا تدل على احترام متغلغل فى نفسه للمرأة ، ورواة الأدب العربى يصفونه بأنه كان لا يمس النساء[4] .

٣

الشَّنْفَرى :

إذا كان عروة يمثل الجانب الإنسانى فى حركة صعاليك العرب ، فإن الشنفرى — ولا شك — يمثل الجانب الشيطانى فيها .

واسم الشنفرى ، ونسبه ، ونشأته الأولى ، غامضة كل الغموض ، فكل

---

(١) الأغانى ٣/٧٣ .
(٢) الأغانى ١٢/١٢٣ (بولاق) .
(٣) الأغانى ٣/٧٤ .
(٤) الأغانى ٣/٧٥ .

ما يعرف عن الجانبين الأولين أنه الشنفرى ، وأنه كان من الإواس بن الحجر ابن الهنو بن الأزد[١] ، وأن أباه كان فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة[٢] ، وأن أمه كانت سبية[٣] .

والشنفرى أحد أولئك الأغربة الذين رأينا أنهم كانوا يمدون حركة الصعلكة بجماعات كبيرة من الصعاليك ، ويضعه صاحب لسان العرب نقلا عن ابن سيده عن ابن الأعرابى بين « أغربة العرب »[٤] ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب[٥] ، ويضعه ابن الأعرابى فى نوادره بين أغربة الجاهلية[٦] ، والشنفرى نفسه يصرح فى بعض شعره بأنه « هجين »[٧] .

ولكن يبدو أن الشنفرى يأبى إلا أن يوقعنا فى إشكال غامض ، فإنه بعد بيت واحد من تصريحه هذا يعود فيصرح بأن أمه «ابنة الأحرار »[٨] ، وهنا نقف لنتساءل : كيف يتفق التصريحان وبينهما هذا التناقض الظاهر ؟ ونعود إلى أخبار الشنفرى فى مصادرها المختلفة نسألها الإجابة عن هذا التساؤل ، ولكنا لا نظفر مع الأسف بشىء ، فإن رواة أخباره لم يقفوا عند هذا التناقض ، ولم يقدموا لنا الوسائل التى تعيننا على هذه الإجابة ، لأنهم لم يذكروا شيئاً له قيمة عن أسرة الشنفرى ، لا عن أبيه ولا عن أمه ، حتى ليلاحظ الأستاذ

---

(١) كذا فى الأغانى ٢١/١٣٤ ، والذى فى خزانة الأدب للبغدادى (٢/١٦) الأواس بفتح الهمزة ، والحجر بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم ، والهنء بتثليث الهاء وسكون النون وبعدها همزة ، وهو الذى فى ديوانه المطبوع /٢٧ .

(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٨ .

(٣) المصدر السابق /١٩٥ .

(٤) انظر مادة (غرب) .

(٥) مادة « غرب » . ولكن الغريب أن يذكره هذان المصدران بين الأغربة الإسلاميين وهو خطأ فاحش ، فكل مصادر حياة الشنفرى صريحة فى أنه جاهلى ، والأغرب من هذا أن ينقل ناشرو « الأغانى » بدار الكتب المصرية نص التاج فى أحد هوامشهم (٨/٢٤٠) دون أية إشارة إلى ما فيه من خطأ .

(٦) السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .

(٧) الأغانى جـ ٢١ ص ١٣٤ س ٢٠ .

(٨) المصدر السابق ص ١٣٤ س ٢٢ .

Lyall أن « أصل الشنفرى ونسبه مسألتان شديدتا الغموض »(١) . والواقع أن أخبار الشنفرى كلها قليلة ومضطربة حتى ليعارض رُواتها بعضهم بعضاً ، ومن هنا ترددت كلمة « لا » النافية فى أول كل خبر منها(٢) . ومن الحق ما يذكره Lyall من أن القصص التى تروَى حول الشنفرى لا تتفق دائماً مع قصائده ، وإنما هى أقرب إلى أن تكون صورة من الأساطير الشعبية التى كثرت حول أبطال العصر الجاهلى من أن تكون أخباراً حقيقية(٣) .

ومع ذلك فلابد من محاولة للإجابة عن هذا التساؤل .

يرى Fresnel أنه من المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر وأم أمة ، وبهذا يكون الشنفرى من أولئك الذين يطلقون عليهم فى الولايات الأمريكية اسم Quarteron(٤) . ولكن هذا الرأى لا يعدو أن يكون فرضاً ، وصاحبه يصرّح بأنه شىء من الممكن أن يفترض(٥) ، وهكذا تظل المشكلة قائمة ، ويظل السؤال وارداً .

أما أنا فيبدو لى أن المسألة أيسر من هذا ، وأنها لا تحتاج إلى تكلف مثل هذا الفرض الاحتمالى ، وأن وصف الشنفرى لأمه بأنها « ابنة الأحرار » لا يعدو أن يكون تعبيراً عاطفيًّا يتلاءم مع ذلك الجو العاطفى الشديد الحساسية الذى قيلت فيه الأبيات(٦) ، فهو صرخة من نفس الشنفرى الحساسة فى وجه ابنة سيده المتعجرفة ، يعلن لها فيها أن العبودية وضع اجتماعى خاطئ لا يعترف به ، لأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت

---

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 73 (n. 28), Oxford, 1918.

(٢) الأغانى ٢١/١٣٧ — ١٤٢ .

(٣) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 68.

(٤) Fulgence Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re lettre) ; p, 93,

والكلمة معناها من أبوه أبيض وأمه من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود أى أن فيه الربع من دم زنجى .

(٥) Ibid. ; p. 93.

(٦) الأغانى ٢١/١٣٤ ، ١٤٢ .

من أمه أمةً فإن هذا لا يغير من الوَضْع الإلهى الذى خلقها الله عليه ، فهى ابنة أحرار قبل أن تكون أمةً ، ولو أن هذه الفتاة المتعجرفة عرفت أصلها لعرفت أنها ابنة أحرار مثلها ، ولهذا يعقب على قوله « وأمى ابنةُ الأحرار » بقوله « لو تعرفينها » ، فكأنه يقول لها ذلك القول الذى قاله عمر بن الخطاب لعمرو ابن العاص فيما بعد : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وكأن المسألة عنده مسألة نسبية ، فإذا كانت هذه الفتاة ترى أمه أمةً فإنه يراها ابنة أحرار .

ومع ذلك فما زال فى المشكلة جانب يحتاج إلى تفسير ، وهو قول الشنفرى بعد ذلك :

إذا ما أَرُومُ الودَّ بينى وبينها يؤُم بياضَ الوجه منى يمينُها[1]

والذى يبدو لى أن وصف الشنفرى لوجهه بالبياض إما أن يكون على طريقة العرب فى التعبير عن اللديغ بالسليم ، وإما أن يكون لوناً من السخرية من اهتمام هؤلاء السادة بمسألة اللون . ومع ذلك فهذا البيت لم يرد إلا فى رواية واحدة من روايات الأغانى المتعددة عن هذه القصة ، وهى رواية مجهولة الراوية ، فيها بعض تفصيلات غير معقولة[2] .

ومهما يكن من أمر فإن لفظة « الشنفرى » تحمل فى طياتها دليلا على أصل هذا الشاعر ، فمن معانى هذه اللفظة الرجل الغليظ الشفتين[3] ، وغلظ الشفتين — كما هو معروف ، وكما يقرر علماء الأجناس — من سمات الجنس الأسود . ويجعل Fresnel هذه الظاهرة من أدلته على أنه « من المؤكد أن أم الشنفرى كانت أمةً سوداء أو من دم مختلط »[4] ، كما يجعلها Lyall دليلا

---

(١) الأغانى ٢١/١٤٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه الصفحة نفسها .

(٣) الزمخشرى : أعجب العجب فى شرح لامية العرب/١١ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/١٦ .

(٤) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re. lettre), p. 93.

على أنه « من المرجح أن دماً إفريقياً زنجياً أو حبشياً كان يجرى فى عروقه »[1].

أما عن بدء تصعلكه فإنه غامض كل الغموض ، وتروى عنه ثلاث روايات : إحداها عن محمد بن هشام النمرى بسنده وتذكر أن الشنفرى أسرته بنو شبابة بن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مُفَرِّج[2] من الأزد رجلا من بنى شبابة ، ففدته بنو شبابة بالشنفرى ، فكان الشنفرى فى بنى سلامان لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنتُ الرجل الذى كان فى حجره ، وكان السلامى اتخذه وَلَداً ، فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أخية ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أتى الذى اشتراه من فهم ، فقال له : اصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الإواس بن الحجر ، فقال : أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى[3] .

وأما الثانية فعن راوية مجهول يكذب فيها هذه الرواية ويقول إن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمى ، فأبوا أن يبوءوا بقتله ، فباء بقتله رجل منهم يقال له حَرَام بن جابر ، فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم[4] .

وأما الثالثة فعن راوية مجهول أيضاً يكذب فيها هاتين الروايتين ، ويقول : بل كان من سبب أمر الشنفرى أن بنى سلامان بن مفرج سبتْ الشنفرى وهو غلام ، فجعله الذى سباه فى بَهْمة يرعاها مع ابنة له ، فلما خلا بها ذهب ليقبلها ، فصكت وجهه ، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليه ليقتله ، فوجده ينشد أبياتاً يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه ، فلما سمع الرجل قوله سأله : ممن هو ؟ فقال : أنا الشنفرى أخو بنى الحارث بن ربيعة ، فقال له : : لولا أنى أخاف أن يقتلنى بنو سلامان لأنكحتك ابنتى ، فقال :

---

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II, p. 68.

(٢) ضبطت فى هذا الموضع بتشديد الراء ، ولكن الذى فى شعره « مفرج » بتخفيفها وكسرها (انظر بيته رقم ٢٨ من تائيته فى المفضليات / ٢٠٥ وفى الأغانى ٢١ / ١٤٠) وهو الصواب (انظر القاموس المحيط : مادة فرج) .

(٣) الأغانى ٢١ / ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق / ١٣٧ — وباء بقتله أى أقر واعترف به .

علىّ إن قتلوك أن أقتل منهم مائة رجل بك ، فأنكحه ابنته ، وخلى سبيله ، فسار بها إلى قومه ، فشدت بنو سلامان خلافه على الرجل فقتلوه ، ثم أخذ يوفى بوعده للرجل فيغزو بنى سلامان ويقتلهم[1] .

ويروى ابن الأنبارى عن نشأته الأولى ثلاث روايات : اثنتين عن مؤرّج ، إحداهما تلك التى يرويها صاحب الأغانى عن النمرى ، والأخرى يقول فيها : ويقال إن السبب فى غزو الشنفرى الأزد وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فقتله ، والشنفرى صغير ، وكان أبوه فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة ، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحدٌ ارتحلت به وبأخ له أصغر منه حتى جاورت فى فهم ، فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى ، فجعلت تبدو منه عَرامة ، وجعل يُكره جانبه ، فوقع فى نفس تأبط شرا ، فكان يكرمه ويدنيه ، وكان يغير مع تأبط شرا حتى صار لا يقام لسبيله[2] .

والرواية الثالثة عن راوية مجهول ، يقول فيها إن الأزد قتلتْ رجلا من فهم فى خُفرَة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمى ، فرَهنوُهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ولم يفدوهم ، فنشأ فيهم الشنفرى ، فكان شديد البأس والنفس وكان أشد فهم على الأزد قتلا وسلباً[3] .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات المتناقضة المضطربة فإن المسألة فى أبسط صورها ترجع إلى أن الشنفرى لسبب من الأسباب فقدَ توافقه الاجتماعى مع قبيلته الأزد ، ثم انتقل إلى قبيلة فهم ، تلك القبيلة المتمردة المشهورة بلصوصها[4] ، وهناك اتصل به تأبط شرا ، ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ، فلقنه دروس الصعلكة الأولى حتى صار لا يقام لسبيله ، ورأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته الأزد قد سنحت له فصب عليها كل غزواته .

---

(١) المصدر نفسه /١٤٢ .
(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٦ ، وأيضاً /١٩٨ .
(٣) المصدر السابق /١٩٧ ، ١٩٨ .
(٤) The Ency. of Islam; art. al-Shanfara.

ولعل أقربَ هذه الروايات إلى الحقيقة، وأبعدها عن أوهام الرواة، الروايةُ الثانية التي يرويها ابن الأنبارى عن مؤَرج، والتي تتحدث عن قتل الأزد أباه . والشنفرى نفسه فى بعض شعره يصرح بأن قومه قد أضاعوا أباه[١] ، وفى أخباره أنه « قدمَ مِنىً وبها حرَام بن جابر فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله »[٢] ، وهو يصرح بهذا فى تائيته المفضلية[٣] .

وأيًّا ما كانت الأسباب لهذا الحقد الذى ملأ نفس الشنفرى على بنى سلامان فإنه قد وهب حياته للانتقام منهم ، « فكان يغير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك »[٤] .

وبلغت الرغبة فى الانتقام فى نفس الشنفرى حدًّا جعله يحرص على التفنن فيه ، فكان يصنع النبل ويجعل أفواقها من القرون والعظام ، فإذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها فى قتلاهم[٥] ، وكان إذا رمى رجلا منهم قال له تحدياً : أأطرفك ؟ ثم يرمى عينه[٦] .

ويقتل الشنفرى منهم — فيما تزعم الروايات — تسعة وتسعين ، ثم يتربص به أعداؤه ، ثم يقتلونه بعد أن يتفننوا فى تعذيبه تفنناً قاسياً ، ثم يمر رجل منهم بجمجمته فيضربها فتعقره فيموت ، وتم به المائة الذين كانت حَلْفة الشنفرى عليهم[٧] .

---

(١) أضعتم أبى إذ مـال شق وسـاده على جنف ، قد مال من لم يوسد
(ابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٨ — وديوانه المطبوع /٣٥) .

(٢) الأغانى ٢١/١٣٧ .

(٣) قتلنـا حـراما مهدياً بملبـد ببطن منى وسط الحجيج المصوت
(المصدر السابق : الصفحة نفسها ، وانظر المفضليات /٢٠٥) .

(٤) الأغانى ٢١/١٣٥ .

(٥) المصدر السابق /١٤٢ .

(٦) المصدر نفسه /١٣٦ . وابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٦ .

(٧) انظر المصدرين السابقين : الأغانى /١٣٥ — ١٣٦ ، ١٣٧ — ١٣٨ ، ١٤٢ — ١٤٣ ، وابن الأنبارى /١٩٦ — ١٩٩ . وانظر أيضاً ابن حبيب : المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ — ٩٤ .

ويدور الجزء الأكبر من شعر الشنفرى حول هذا الصراع بينه وبين بنى سلامان : والجزء الباقى منه حول أحاديث تصعلكه وفقره وتشرده وغاراته على غير بنى سلامان .

ويساير هذا الشعر حياة الشنفرى منذ طفولته ، فهم يروون له بيتين يخاطب بهما أمه بعد مقتل أبيه وموت أخيه [١] ، تظهر فيهما قوة نفسه وبراعم تمرده الأولى .

فإذا ما لطمته الفتاة السلامية سجل هذه الحادثة البعيدة الأثر فى حياته ، وسجل أسفه لأن هذه الفتاة المغرورة لا تعرف شيئاً عن نسب أبيه وأمه ، ثم يتحدث إليها عن كرم نسبه [٢] .

ثم إذا ما بدأ الصراع المرير بينه وبين بنى سلامان حرص على أن يسجل كل شىء فى شعره : تهديده لهم ، وتربصه بهم ، وأحاديث غاراته عليهم ، ويصف أسلحته التى يستخدمها ، ويتحدث عن رفاق غاراته ، وعن أعدائه وضحاياه ، حتى إذا ما أمسك به أعداؤه وقطعوا يده رثاها بأرجوزة [٣] ، هى مزيج من الحزن والفخر حتى لا يشمت أعداؤه به ، فإذا ما أخذوا يسخرون منه ويسألونه أين يدفنونه رد عليهم بمقطوعة رائعة [٤] ، تظهر فيها قوة نفسه ، فهو لا يحرص على أن يدفن ، وإنما كل ما يوصى به أن يلقوا بجسده إلى الضبع ، رفيقة تشرده .

وإلى جانب هذا التسجيل لأحاديث الصراع بينه وبين بنى سلامان سجل

---

(١) ديوانه المطبوع /٣٧ . والأغانى ٢١/١٣٧ . وابن الأنبارى /١٩٦ . مع اختلاف فى الروايات .

(٢) ديوانه المطبوع /٤٠ ، ٤١ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٢ . والأغانى ٢١/١٣٤ ، ١٤٢ .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٤ ، ٥ والأغانى ٢١/١٣٨ . وديوانه فى الطرائف الأدبية /٤٠ .

(٤) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، ٩٤ وابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٧ ،وديوانه المصور لوحة رقم ٦ ، ٧ ، والأغانى ٢١/١٣٦ ، وديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٦ ، والشعر والشعراء /١٨ ، ١٩ ، والعقد الفريد ١/١١٨ — ١١٩ .

فى شعره جوانب أخرى من حياته : فقره ، وهزاله ، ونعليه الممزقتين ، وثيابه البالية ، وحمله قربة الماء ، وتشرده فى الصحراء بين الوديان المخيفة حيث الجن والآساد ، وغاراته على غير بنى سلامان .

ويوشك ما وصل إلينا من شعر الشنفرى أن يدور كله داخل دائرة التصعلك ، ونقول يوشك لأن تائيته المفضلية تبدأ بمقدمة طويلة من النسيب التقليدى[1] ، يرسم فيها صورة رائعة ممتازة لصاحبته الحيية الوفية الجميلة .

ومما يؤسف له أن مجموعة شعر الشنفرى التى بين أيدينا — برغم أنها مجموعة فى ديوان — قليلة ، فإذا أخرجنا منها « لامية العرب » التى رجحنا أنها ليست له ، والتائية المفضلية ، فإن ما يتبقى منها طائفة من المقطوعات والقصائد القصيرة .

وأخص ما يميز أسلوب الشنفرى الفنى تلك الخشونة اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل ، ثم تلك القوة التعبيرية التى تجعل أسلوبه أسلوباً محكماً لا رخاوة فيه ، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التصوير ، والصراحة فى النقل عن الحياة :

---

(١) المفضليات / ١٩٤ — ٢٠٢ ، والأغانى ٢١ / ١٣٨ — ١٣٩ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٤٦ ، ٤٧ .

الخاتمة

١

الصعاليك :

رأينا أن مادة « صعلك »تدور فى دائرتين اصطلحنا على تسميتهما بالدائرة اللغوية والدائرة الاجتماعية ، وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هى الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت عند الفقر ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يظل فى نطاقها فقيراً ، لأنه لا يستطيع أن يغير الوضع الاجتماعى الذى فرض عليه لضعف فى نفسه ، أو لضعف فى جسده ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتبعد عن نقطة البدء محاولة ألا تنتهى عندها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على هذا الفقر ولكن بطريقة خاصة هى تلك التى جعلنا شعارها «الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، تدفعه إلى ذلك قوة فى نفسه وقوة فى جسده ، أى أن المادة فى هذه الدائرة الاجتماعية قد اكتسبت صفات اجتماعية جديدة .

ووقفنا بعد ذلك نلتمس السر فى نشأة هذه الظاهرة ، فنظرنا فى المجتمع الجاهلى من ناحية بيئته الجغرافية ، ورأينا أن الظاهرة الجغرافية التى تسيطر على هذا المجتمع هى ما اصطلحنا على تسميتها «بظاهرة التضاد الجغرافى » ، ورأينا أن هذه الظاهرة كانت العامل الأول فى نشأة حركة الصعاليك ، لأنها كانت السبب فى وجود الفقر وفى إحساس الفقراء به . ورأينا أن هذه الظاهرة تدخلت مرة أخرى فى توجيه حركات الصعاليك التى كانت تخرج دائماً من المناطق الجدبة إلى المناطق الخصبة ، ورأينا أن كل مناطق الخصب فى الجزيرة العربية قد تعرضت لغزوات الصعاليك ، ثم رأينا أنه من الممكن أن نحدد مناطق

حركات الصعاليك، فرأينا أن عروة وصعاليكه قد توزع نشاطهم بين منطقتين أساسيتين : منطقة نجد ، ومنطقة يثرب وما يجاورها شمالي جزيرة العرب ، وإن لم يمنع هذا من أن يغير أحياناً على غير مناطق اختصاصه ، ورأينا أن منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف وأول الطريق الصاعد إلى اليمن هي المنطقة التي شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب ، وأن أشهر الصعاليك الذين انتشروا في هذه المنطقة صعاليك فهم وهذيل ومن انضم إليهم من خلعاء القبائل وشذاذها ، ورأينا أن منطقة اليمن عرفت أجزاؤها القريبة من الحجاز صعاليكَ من فهم ومن الأزد ، وأما أجزاؤها البعيدة فقد تخصص في الإغارة عليها السليك ، وإنْ يكن تأبط شرا يتعدى أحياناً على منطقة اختصاص السليك . ولفت نظرنا في صعاليك هاتين المنطقتين أن أكثرهم — إنْ لم يكونوا جميعاً — من العدائين ، وقد رددنا هذا إلى ثلاثة عوامل ؛ طبيعة المنطقة الجبلية ، وبعد الأهداف ، وقلة الخيل . ثم وقفنا عند هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو ، وقلنا إنها ليست بالظاهرة المستحيلة ، وإنما هي صورة من صور التكيف العضويّ بين الإنسان وبيئته .

ثم مضينا إلى المجتمع الجاهلي نلتمس فيه تفسيراً لظاهرة التصعلك ، فرأينا أنه مجتمع قبلي ، آمنت كل قبيلة فيه بوحدتها الاجتماعية وبكرم جنسها ، ورأينا أن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد طائفة الخلعاء والشذاذ في هذا المجتمع ، وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة الهجناء والأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية ، معتمدين على قوتهم في سبيل العيش ، شأنهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه ، غاية ما في الأمر أن عملهم فردي يجري بدون رضا القبيلة ، وعمل القبائل جماعي معترف به .

ثم مضينا إلى الناحية الاقتصادية في هذا المجتمع فرأينا أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور ممرًّا تجاريًّا نشطاً لطرق القوافل ، وأنه على طول هذه الطرق قامت مجموعة من الأسواق . ورأينا أن مراكز نشاط الصعاليك كانت

عادة على طول هذه الطرق ، وبالقرب من هذه الأسواق . ورأينا أن الصعاليك قد استغلوا هذه الأسواق استغلالاً آخر فكانت لهم فرصة ينتقون فيها ضحاياهم. وقد عللنا كثرة الصعاليك فى منطقة السراة حول مكة بوقوع هذه المنطقة على الطريق التجارى ، وبوجود ثلاث أسواق مشهورة فيها . ورأينا أن هذه الأسواق قد شهدت السطور الأولى من قصة طائفتين من طوائف الصعاليك هما طائفة الأغربة وطائفة الخلعاء ، ففى هذه الأسواق —أو فى بعضها على الأقل— كانت تجرى تجارة الرقيق التى كانت سبباً فى نشأة طبقة الأغربة ، وفيها —أو فى الأسواق الأساسية منها— كان الإعلان الرسمى الذى تذيعه القبائل عن خلعها بعض أفرادها الخارجين عليها .

ورأينا أن المدن العربية قد عرفت لوناً من النشاط التجارى الذى ترتب عليه تضخم الثروة وتركزها فى أيدى نفر قليل من أهلها ، الأمر الذى أحدث لوناً من الاختلال الاقتصادى ، نشأت عنه كثرة عدد الصعاليك الذين كانوا فى حالة سيئة حملت أكثرهم على الهرب إلى الصحراء واللحاق بعصابات الصعاليك المنتشرة بها .

فإذا مضينا إلى داخل البادية العربية وجدنا ثمة صراعاً بين طبقة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك ، وقد رددنا هذا إلى التفاعل بين ظاهرتين متناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى ، ورأينا أن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت عادة الإبل ، لأنها الثروة الأساسية فى المجتمع البدوى ، وإنْ لم يمنع هذا من أن تمتد أيدى الصعاليك إلى أية غنيمة تعرض لهم .

٢

شعر الصعاليك :

رأينا أن شعر الصعاليك لم يصل إلينا منه مجموعاً سوى ديوانين هما ديوان عروة وديوان الشنفرى ، ورأينا أن هذا الشعر قد توزع بين مصادر الثقافة

العربية المختلفة ، وأن من يريد أن يجمع « ديوان الصعاليك » عليه أن ينقب بين كل هذه المصادر . وقد لاحظنا على المادة التى جمعناها والتى تكوّن ديوان الصعاليك ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، ثم الشك الذى يحيط ببعض نصوصها . ورأينا أن مجموعة شعر الصعاليك التى دار حولها الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخليًّا » ، والخطب فى هذه المجموعة هين ، ومجموعة كان الشك فيها « خارجيًّا » ، وأشهر شعر هذه المجموعة لاميتان تنسبان لتأبط شرا والشنفرى ويتهم خلف الأحمر بصنعهما ، وقد وقفنا عند هاتين اللاميتين طويلا ، وانتهينا إلى ترجيح نسبتهما إلى خلف .

ثم مضينا إلى مجموعة شعر الصعاليك فدرسنا موضوعاتها ، ورددنا هذه الموضوعات إلى مجموعتين أساسيتين : مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، ومجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة .

ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد تعرضوا فى المجموعة الأولى لكل ما كان يدور فى حياتهم الفردية أو حياتهم الجماعية ، فتحدثوا عن مغامراتهم ، وعن تربصهم فوق المراقب فى انتظار ضحاياهم ، وعن توعدهم أعداءهم وتهديدهم لهم ، وعن أسلحتهم سواء منها أسلحة الهجوم أو أسلحة الدفاع . وتحدثوا عن رفاقهم الذين رافقوهم فى هذه المغامرات ، وتحدثوا عن فرارهم وهربهم ، وعن سرعة عدْوهم ، وعن غزواتهم على الخيل ، وعللوا لمغامراتهم ، وفسروا الدوافع التى دفعتهم إليها ، وذكروا العقد النفسية التى كانت سبباً لها ، كما تحدثوا عن آرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، وعن تشردهم فى أرجاء الصحراء المقفرة ، واتصالهم بحيوان الصحراء ووحشها وأشباحها .

أما المجموعة الأخرى ، مجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة ، فإننا تلمسنا أولا آثار القبلية فيها ، ولاحظنا أن هذه المجموعة من الشعر القبلى التى تقابلنا فى شعر الصعاليك قليلة . كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

ثم مضينا بعد ذلك إلى المخضرمين من الشعراء الصعاليك نتلمس الآثار

الإسلامية فى شعرهم بعد الإسلام . ومن الطبيعى أن موضوعات هذه المجموعة الإسلامية قد خلت من تلك الموضوعات التى عرفناها فى شعرهم داخل دائرة الصعلكة ، ومع ذلك فقد رأينا رواسب ضئيلة من الصعلكة تتسرب من حين إلى حين فى أثناء هذا الشعر .

ثم مضينا ندرس الظواهر الفنية فى شعر الصعاليك ، فلاحظنا أول مالاحظنا أنه شعر مقطوعات ، وقد ملنا فى تعليلنا لهذا إلى طبيعة حياة الصعاليك نفسها ، تلك الحياة القلقة التى لا تكاد تفرُغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده . ثم لاحظنا ظاهرة أخرى وهى ظاهرة الوحدة الموضوعية ، ورأينا أن أكثر مقطوعات شعر الصعاليك وقصائده تقبل العناوين ، بل إن مطولاته — برغم تعدد أغراضها— نستطيع أن نردها إلى أصل موضوعى واحد ، فليس التعدد هنا تعدداً فى الموضوع ، وإنما هو تفرع فى أغراض الموضوع الواحد ،ورأينا مع ذلك أن هناك طائفة قليلة جداً من قصائد شعر الصعاليك لا تخضع لهذه الظاهرة ، وقد رددنا هذا إلى ما سميناه «ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلى فى صورته الشكلية » ، وقلنا إن هذه الظاهرة ليست من الخطر فى شىء على الفكرة التى نقررها . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك قد تخلص من المقدمات الطللية التى عرفها الشعر القبلى ، ما عدا تلك المجموعة التقليدية ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك استعاضوا عنها بمذهب آخر أطلقنا عليه « مقدمات الفروسية فى شعر الصعاليك » . ثم لاحظنا بعد ذلك أن شعر الصعاليك قد تخلص أيضاً من التصريع فى مطالع نماذجه الفنية ، ورأينا أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة فى كل شعر الصعاليك . ثم لاحظنا بعد ذلك أن مجموعة شعر الصعاليك التى اصطلحنا على تسميتها « الشعر داخل دائرة الصعلكة » قد تحلَّل أصحابها من الشخصية القبلية، وحلتْ محلها ظاهرة أخرى أطلقنا عليها «ظاهرة الوضوح الفنى لشخصية الشاعر الصعلوك» ، وأن هذه الظاهرة كانت ظاهرة شاذة فى المجتمع الأدبى الجاهلى فأطلقنا على الشعراء الصعاليك « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » . ثم درسنا

ظاهرة القصصية فى شعر الصعاليك ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد استغلوا فى شعرهم كل ما يدور فى حياتهم الحافلة بالحوادث المثيرة استغلالا قصصيًّا رائعاً ، وانتهينا إلى أن شعر امرئ القيس ليس نقطة البدء فى تاريخ القصة الشعرية ، وإنما تسبق هذا مرحلة أولى هى مرحلة الشعراء الصعاليك الذين نميل إلى أن امرأ القيس قد تأثر بهم فى فنه ، ومن هنا أطلقنا على الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية فى الأدب العربى » . ثم وقفنا طويلا عند الواقعية فى شعر الصعاليك ، وبينا مظاهرها المتعددة . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك يمتاز بالسرعة الفنية ، وأن ميزته الكبرى «خفوت الصنعة الفنية » ، ورأينا أن التشبيه أقوى الألوان الفنية التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك ، ووقفنا طويلا عند هذه الظاهرة ، فدرسنا المنابع المختلفة التى تكوّن « صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » ، وكيف استغلوها ، ورأينا إلى جانب التشبيه ألواناً فنية أخرى من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة ، فدرسنا النماذج الفنية التى رأيناها فيها . ثم وقفنا بعد هذا عند الخصائص اللغوية فى شعر الصعاليك ، ورأينا أولا أن لغتهم هى اللغة الأدبية التى عرفها العصر الجاهلى ، غير أننا لاحظنا أنها أقرب إلى فطرة اللغة العربية وأصدق تمثيلا لها ، ولاحظنا كثرة الغريب فى شعرهم . ثم وقفنا أخيراً عند الظواهر العروضية فى شعرهم ، ورأينا أن أوزان شعرهم وزحافاته هى الأوزان والزحافات التى عرفها سائر الشعر الجاهلى ، غير أننا لاحظنا انتشار الرجز فى شعرهم الذى قالوه قبيل مصارعهم .

ثم وقفنا بعد ذلك عند شخصيتين متميزتين من الشعراء الصعاليك تميزاً اجتماعيًّا وفنيًّا : عروة بن الورد الذى يمثل شخصية الصعلوك صاحب المذهب الإنسانى ، أو شخصية الزعيم الذى يدعو الجماهير إلى الإيمان بمذهبه ، والشنفرى الذى يمثل شخصية الصعلوك المتمرد الذى رأى أن يكون تمرده الوسيلة والغاية معاً .

وبعد ، فهذه هى ظاهرة الصعلكة فى المجتمع الجاهلى كما رأيناها فى شخصيات صعاليكه ، وهذه هى دراستنا الفنية لما بين أيدينا من شعرهم .

والله ولى التوفيق .

المصادر والمراجع

آثرت الاكتفاء بذكر المصادر والمراجع الأساسية ، أما الفرعية فقد رأيت من التزيد تسجيلها فى هذا الثبت بعد أن وردت فى هوامش البحث ، كما آثرت عدم ذكر المعجمات اللغوية — على كثرة ما رجعت إليها — لأنها عامل مشترك فى كل الأبحاث الأدبية ، وإن كنت أحب أن أشير إلى أن « لسان العرب » لم يكن بالنسبة لى معجماً لغوياً فحسب ، وإنما كان أيضاً — لكثرة ما يضمه من أبيات للشعراء الصعاليك — مصدراً أدبياً كبير الأهمية لشعرهم .

* * *

١ — المصادر القديمة

١ — الآمدى : المؤتلف والمختلف (القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ) .
٢ — ابن الأثير : النهاية فى غريب الحديث والأثر (العثمانية بالقاهرة ١٣١١هـ).
٣ — ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة (الوهبية بالقاهرة ١٢٨٠ هـ) .
٤ — أسامة بن منقذ : لباب الآداب (الرحمانية بالقاهرة ١٩٣٥) .
٥ — الأصفهانى (أبو الفرج) : الأغانى :
من الجزء الأول إلى الجزء التاسع (طبعة دار الكتب المصرية) .
ومن الجزء الرابع عشر إلى الجزء العشرين (طبعة بولاق) .
والجزء الحادى والعشرون (طبعة ليدن) .
أما الأجزاء من العاشر إلى الثالث عشر فنظراً لتداخل مواضع التراجم بها بين طبعة دار الكتب وطبعة بولاق رأيت أن أشير إلى الطبعة فى هوامش البحث .
٦ — الأصمعى : فحولة الشعراء (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٥ تيمورية أدب) .

٧ — ابن الأنباري : شرح المفضليات (بيروت ١٩٢٠) .
٨ — ابن الأنباري : نزهة الألبا في طبقات الأدبا (حجر بالقاهرة ١٢٩٤ هـ) .
٩ — البحتري : كتاب الحماسة (القاهرة ١٩٢٩) .
١٠ — البصري (علي بن الفرج) : الحماسة البصرية (نسختان بدار الكتب المصرية : مخطوطة تحت رقم ٥٢٠ — أدب . ومصورة تحت رقم ٦٣٠٠ — أدب) .
١١ — البغدادي : خزانة الأدب (بولاق) .
١٢ — البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥)
١٣ — البيهقي : المحاسن والمساوئ (الطبعة الأوربية ١٩٠٢)
١٤ — التبريزي : شرح حماسة أبي تمام (بولاق ١٢٩٦ هـ) .
١٥ — التبريزي : شرح القصائد العشر (المنيرية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ)
١٦ — أبو تمام : الحماسة الصغرى « الوحشيات » (نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٧ — أدب) .
١٧ — الثعالبي : كتاب الشعراء (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٨١ — تاريخ) .
١٨ — الجاحظ : الحيوان (الحلبي بالقاهرة — الطبعة الأولى) .
١٩ — الجاحظ : البيان والتبيين (الطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٣٢) .
٢٠ — الجاحظ : رسائله (القاهرة ١٩٣٣) .
٢١ — حاتم الطائي : ديوانه (لندن ١٨٧٢)
٢٢ — ابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء (مجلة المقتطف عدد مايو ١٩٤٥)
٢٣ — ابن حبيب : كتاب المغتالين (نسختان بدار الكتب المصرية : خطية تحت رقم ٥٧ ش أدب ، ومصورة تحت رقم ٢٦٥٦ تاريخ) .
٢٤ — ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة (السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ) .
٢٥ — حسان بن ثابت : ديوانه (السعادة بالقاهرة ١٣٣١ هـ) .

٢٦ — الخالديان : الأشباه والنظائر « حماستهما » (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر) .
٢٧ — ابن خلدون : المقدمة (التجارية بالقاهرة بدون تاريخ)
٢٨ — ابن خلدون : تاريخه (القاهرة ١٩٣٦) .
٢٩ — ابن دريد : جمهرة اللغة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ هـ)
٣٠ — ابن دريد : الاشتقاق (جوتنجن ١٨٥٤)
٣١ — الدلجى : الفلاكة والمفلوكون (الشعب بالقاهرة ١٣٢٢ هـ)
٣٢ — الدميرى : حياة الحيوان الكبرى (الشرفية بالقاهرة ١٣١٣هـ)
٣٣ — الزمخشرى : أعجب العجب فى شرح لامية العرب (الطبعة الأولى بالجوائب ١٣٠٠ هـ)
٣٤ — الزمخشرى : الفائق فى غريب الحديث (حيدر آباد الدكن ١٣٢٤ هـ)
٣٥ — الزمخشرى : الكشاف (الطبعة الثانية ببولاق ١٣١٨ هـ)
٣٦ — السجستانى : كتاب المعمرين (ليدن)
٣٧ — السكرى : شرح أشعار الهذليين (لندن ١٨٥٤)
٣٨ — السكرى : ديوان الهذليين (دار الكتب المصرية ١٩٤٨)
٣٩ — ابن السكيت : شرح ديوان عروة بن الورد (الجزائر ١٩٢٦)
٤٠ — السهيلى : الروض الأنُف (الجمالية بالقاهرة ١٩١٤)
٤١ — السيوطى : المزهر (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
٤٢ — ابن الشجرى : كتاب الحماسة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ)
٤٣ — الشنفرى : ديوانه (نسختان : مطبوعة فى مجموعة الطرائف الأدبية بلجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ — ومصوّرة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٦٧٦ — أدب) .
٤٤ — الطبرى : تاريخه (الحسينية بالقاهرة) .
٤٥ — ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر)
٤٦ — أبو عبيدة : شرح نقائض جرير والفرزدق (ليدن ١٩٠٥) .

٤٧ — العينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب للبغدادى — بولاق) .
٤٨ — ابن فارس : مقاييس اللغة (الطبعة الأولى بالقاهرة)
٤٩ — القالى : الأمالى والنوادر (دار الكتب المصرية ١٩٢٦) .
٥٠ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ليدن ١٩٠٢) .
٥١ — ابن قتيبة : المعارف (الإسلامية بالقاهرة ١٩٣٤) .
٥٢ — ابن قتيبة : عيون الأخبار (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .
٥٣ — القرشى (أبو زيد) : جمهرة أشعار العرب (بولاق ١٣٠٨ هـ) .
٥٤ — ابن الكلبى : كتاب الأصنام (دار الكتب المصرية ١٩٢٤) .
٥٥ — ابن المبارك : منتهى الطلب من أشعار العرب (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ ش) .
٥٦ — المبرد : الكامل (ليبزج ١٨٧٤) .
٥٧ — المرزبانى : معجم الشعراء (القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ) .
٥٨ — المسعودى : مروج الذهب (البهية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ) .
٥٩ — المعرى : شرح حماسة أبى تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٠٨ — أدب) .
٦٠ — الميدانى : مجمع الأمثال (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
٦١ — النيسابورى : لطائف المعارف (مصوّرة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٢ — أدب) .
٦٢ — الهمدانى : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) .
٦٣ — الواقدى : كتاب المغازى (كلكته ١٨٥٥) .
٦٤ — ياقوت : معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦)
٦٥ — ياقوت : معجم الأدباء (دار المأمون بالقاهرة) .
٦٦ — اليعقوبى : تاريخه (ليدن ١٨٨٣) .

٢ ــ المراجع الحديثة

(أ) العربية :

٦٧ ــ أحمد أمين : فجر الإسلام (الطبعة الثالثة بلجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥) .

٦٨ ــ أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى (الطبعة الأولى بالقاهرة ١٩٤٥) .

٦٩ ــ بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام (بيت المقدس) .

٧٠ ــ جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام (القاهرة ١٩٠٨)

٧١ ــ جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة) .

٧٢ ــ جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى (القاهرة ١٩٠٥)

٧٣ ــ سليمان حزين : تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦ (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٣٦) .

٧٤ ــ عبد الوهاب حمودة : نظرية الأنساب فى الميزان (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢) .

(ب) المترجمة إلى العربية :

٧٥ ــ لوبون (جوستاف) : حضارة العرب (ترجمة محمد عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٥) .

٧٦ ــ ميرز (ج . ل .) : المناخ والجغرافيا وأثرهما فى التاريخ (فى موسوعة تاريخ العالم لجون هامرتن ، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٤٩) .

٧٧ ــ ولكن (ج . ا .) : الأمومة عند العرب (ترجمة بندلى صليبا الجوزى ــ كازان ١٩٠٢) .

(ﺣ) فى اللغات الأجنبية :

78. Dermenghem (Emile); The Life of Mahomet, (London, 1930)
79. Doughty; Travels in Arabia Deserta, (London, 1930.)
80. Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (Paris, 1836).
81. Groves (Ernest R.); Personality and Social Adjustment, (U.S.A., 1931.)
82. Huzayyin (S.); Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud, (Bulletin of the Faculty of Arts, Vol. III, Part I, May 1935.)
83. Lammens (Henri); Le Berceau de l'Islam, (Romae, 1914).
84. Lammens (Henri); La Mecque à la veille de l'Hégire, (Beyrouth, 1927).
85. Mac Iver; Society, (New York, 1944).
86. Muir (Sir William); The Life of Mohammad, (Edinburg, 1912).
87. Nicholson (Reynold A.); A Literary History of the Arabs, (London, 1923).
88. O'Leary (De Lacy); Arabia before Muhammad, (London, 1927).
89. Sédillot; Histoire Générale des Arabes (Paris, 1877).
90. Semple (Ellen Churchill); Influences of Geographic Environment, (London, 1937).
91. Smith (W. Robertson); Kinship and Marriage in Early Arabia, (London, 1903).
92. Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, (U.S.A., 1912).

هذا إلى جانب انتفاعى بدائرة المعارف الإسلامية :

The Encyclopaedia of Islam

وبكتاب بركلمان :

Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur.

الفهرس

٣٠٢٢
٩٧٧ - ١٧٢ - ٢٠٩ - ٣

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) **القاهرة**
ص . ب (٥٨) الدواوين **تليفون ٣٥٤٢٠٧٩**